

مكتبة المسكندرية



السيد الرئيس

روايه

تأليف: ميغيل أنخل سورياس
الحائز على جائزة نوبل للآداب
ترجمتها عن الإسبانية: سامر البطوطي

المؤسسة
العربية
لدراسات
والنقد

- * ميغيل أنخل أستورياس : السيد الرئيس
- * الطبعة العربية الأولى ١٩٨٥ .
- * جميع الحقوق محفوظة
- المؤسسة العربية للدراسات والنشر
- ص. ب. ٥٤٦٠ - بيروت - لبنان
- هاتف ١/٩٠٠٠ ، تليكس ٤٠٠٦٧ ديركي لبنان
- برقيا موكي
- * الناشران : مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.
- ص. ب. ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران) بيروت - لبنان
- هاتف ٦/٨١٠٠٥٥ تليكس ٢٠٦٣٩ دلتا لبنان

منشورات وتوزيع المكتبة العالمية

العراق - بغداد
هاتف 8889352
ص.ب. 6177

الجزء الأول

٢ و ٢٢ و ٢٣ أبريل

في « رواق الرب »

دنع دانغ دونغ ، دنغ دانغ دونغ !

ترددت رنات أجراس الكتدرائية كالأزيز في الأذن ، تدعو الناس إلى الصلاة ،
كالارتداد القلق من الضياء إلى الظلمة ومن الظلمة إلى الضياء . دنغ دانغ دونغ ،
دنع دانغ دونغ دانونغ ؛ دانونغ دونغ دانغ دنغ . دنغ دانونغ . . . دنغ دونغ
دانغ . . . دانونغ . . .

وجر الشحاذون أرجلهم وسط المطاعم الشعبية الصغيرة في السوق ، ضائعين
في ظلال الكتدرائية المتجملة ، في طريقهم إلى « ميدان السلاح » ، على طول شوارع
رحبة كأنها البحار ، تاركين وراءهم المدينة منعزلة وحيدة .

كان الليل يجمع بينهم كما هي الحال مع نجوم السماء ، فيتلاقون ليناموا معا في
« رواق الرب » القريب من الكتدرائية ، من غير ثمة رابط بينهم سوى الشقاء ؛
يتبادلون الشنائم ، وينهاون بألوان الأسباب بعضهم على بعض ؛ ينشون خصومات
قديمة ، ويتشاجرون باللقاء الأتربة وبالضيق والعرض أحيانا في سورة الغضب . ولم تعرف
الوسائد ولا الثقة طريقها أبداً نحو تلك الأسرة من أقارب الدرك الأسفل . كانوا يرقدون
بعيداً بعضهم عن بعض ، دون أن يبدلوا ملابسهم . وينامون كاللصوص ، رأسهم
فوق كل رأس مائهم : قطع من اللحم ، أحذية بالية ، أعقاب شموع ، حفنات من الأرض
المطبوخ ملفوفة في أوراق صحف قديمة ، حبات برتقال عطنة وأصابع موز معطوبة .
تراهم على السلم المفضي إلى الرواق ، وجوههم نحو الخائط . يحصون نقودهم ،
يعضون بنواجذهم على العملات المعدنية ليرواما إذا كانت مزبنة ؛ يحادثون أنفسهم ،
ويتعرضون خزينهم من الطعام ومن السلاح ، فهم يتسلحون في تجوالاتهم اليومية بقطعة
من الحجارة وصور من التعاويذ ، ويكتهمون في الخفاء قطعاً من الخبز المقدس . ولم يعرف

عن أحدهم أنه أغاث رفيقاً له في عنة واجهها ، يعطيهم البخل فيما لديهم من فتات ، وهم في ذلك مثل غيرهم من الشحاذين . يفضلون إلقاءه إلى الكلاب على أن يقدموه إلى أحد الرفاق ممن يشاظرهم الشقاء .

وبعد أن يشبعوا نهم بطونهم ، ويضعوا نقودهم في منديل يعقدونه سبع مرات ويربطونه على سررهم ، يلقيون بأجسادهم على الأرض ويستفرقون في أحلام مضطربة حزينة ، وكوابيس يرون فيها قطعان الخنازير الجائعة تمر أمام أعينهم ، ونسوة عجاف ، وكلاباً ممزقة ، وعجلات مركبات ، وجنازة تتكون من أطراف قس يدلقون إلى الكتترائية تتقدمهم شظية من القمر مصلوبة على عظمة مساق متجمدة . وأحياناً ما يستيقظون من نومهم فزعين على صرخة مجنون ضل طريقه في « ميدان السلاح » ، أو على نشيج عمياء تحلم بأن الذباب يغطيها بينما هي معلقة من مسمار كبير كاللحم في حوانيت الجزارين ، أو على خطوات دورية شرطة تخرج من مسجوننا سياسياً ونضربه ، ووراء الموكب نسوة يمسحن أنوار اللماة التي يخلفها الجريخ بمناديلهن المغموسة بالعويل ، أو على شخص مريض ينخر فيه الجرب ، أو زفير شحانة صماء يكها حبل تبكي من الخوف لأنها تشعر بطفل يتحرك داخل أحشائها . ولكن صرخة الأبله كانت أكثر الأشياء إثارة للحزن . إنها صرخة تشق عنان السماء . صرخة طويلة تكشف الأسرار وتحلو من أي نبرة إنسانية .

وفي أيام الأحاد ، كان يهبط على هذه الجماعة الغريبة مكبر دأب في منامه على أن ينادي أمه وهو يبكي كالطفل الصغير . وكان الأبله ، عندما يسمع كلمة « أمه » التي تصدر عن شفقي السكير على هيئة نواح وسباب ، يتصب في مكانه ويلتفت متطلعا إلى جميع الانحاء أمامه في الرواق ؛ وبعد أن يكتمل استيقاظه ويوقظ رفاقه بصيحاته ، يبكي من الخوف ويشارك السكير نواحه .

الكلاب تنبح ، وأصوات غريبة تسمع . وينهض المشاكسون من نومهم يزدنوا من الضجيج إذ هم يطالبون بالصمت ، فإذا لم يسد الصمت فسوف تأتي الشرطة . ولكن الشرطة لم تكن لتهم أي اهتمام بالشحاذين ، فلم يكن أي منهم بقادر على دفع قيمة الغرامة . ويهتف « ذو القدم المسطوحة » : « تحيا فرنسا » ، وسط ضياع الأبله وحركاته المضحكة ، الذي أصبح في نهاية الأمر مثار سخرية للشحاذين ، لأن ذلك الأعرج الوغد ذا الألفاظ النابية كان يقلد السكير في

بعض الليالي أسبوعاً وراء أسبوع . وهكذا كان ذو القدم المسطوحة يقلد الكبير بينما كان الأبله ، الذي يحاكي الاموات في نومه ، يتفرض على كل صرخة دون أن يلتفت إلى الأجسام الملقاة على الأرض ملتفة في دثارات ممزقة . فإذا ما رآه رفاقه على تلك الحال من الجنون رشقوه بكلمات السباب والسخرية الحادة . وكان ينقلب نائماً إذا ما هذه النواح ، مشيحاً بعينه عن وجوه رفاقه الفظيعة ، دون أن يرى شيئاً ، ودون أن يسمع شيئاً ، ودون أن يشعر بأي شيء . ولكنها كانت حكاية كل ليلة ، فما يكاد يغلفه النوم حتى يوقظه صياح ذي القدم المسطوحة مرة أخرى : « أمه ! » .

وفتح الأبله عينيه مرة واحدة ، كما يفعل من يحلم بأنه يدور ويلف في الفضاء ، وسط حذقيه أكثر وأكثر وانكمش على نفسه كما لو كان قد أصابه جرح عميت ، وأخذت الدموع تهطل من عينيه . وبعد ذلك ، تسيل إليه النوم رويداً رويداً بعد أن هزمه التعاس وتحول جسده إلى عجيبة من النشاء ، وتترددت في ذهنه المكدود مخاوف غامضة . ولكنه ما كاد يخلد إلى نومه حتى أرتطله صوت آخر مختلف بصيح : « أمه ! » .

كان صوت الشحاذ « قيودا » وهو خلاصي منحنط اخذ يردد بين الضحكة والأخرى في عويل كالمعجوز : « يا أم الرحمة ، يا أملنا ، ليحكمك الله ، إنا نضرع إليك نحن المحرومين الضعفاء . . . » .

واستيقظ الأبله ضاحكاً ، وبدأ كما لو أنه يضحك هو الآخر من بؤسه وجوعه حتى تطفرت الدموع من عينيه ، بينما الشحاذون يقرعون الهواء بضحكاتهم وقهقهاتهم ، ضحكاتهم . . . وقه . . . قها . . . هم . وفقد رجل سمين ، ينضح شارباه بمرق الخضار ، أنفاسه من كثرة الضحك ، بينما لم يستطع واحد منهم ذو عين واحدة أن يحرص بوله وأخذ يضرب رأسه في الحائط كالتيس ، أما العميان فأخذوا يشكون بأنهم لا يستطيعون النوم وسط هذه الجلبة ، وكذلك الشحاذ الذي يكنى « بالذباية » ، الذي قال إن اللواطيين فقط هم الذين يستريحون إلى مثل ذلك الجو .

ولم يلتفت أحد إلى احتجاجات العميان . أما ملاحظة « الذباية » فلم يكند يسمعها أحد . ومن ذا الذي يحمي الترهات التي يرددها . . . « أنا الذي قضيت

طفولتي في معسكر المدفعية ، وقد صنعت أقدام البغال ورفسات الضباط مني رجلا . رجلاً يستطيع أن يعمل كالحصان ، وهذا ما نفعتني حين اضطررت إلى أن أجزّ آلة الموسيقى في الشوارع ؛ أنا الذي فقدت بصري في إحدى الحانات ، ولا أعلم كيف ، وساقى اليمنى في حانة أخرى ، ولا أعلم متى ، وساقى الأخرى في حانة ثالثة ، ضحية سيارة ، ولا أعلم أين .

وذاع بين سكان الحي على لسان الشحاذين أن الأبله يفقد صوابه إذا ذكر أحد أمه أمامه . وكان هذا التعس يطوف الشوارع والميادين والساحات والأسواق محاولاً الهرب من إدهماء الذين يصيحون به هنا وهناك بكلمة « أماه » ، كأنما هي لعنة من لعنات السماء . وكان يدلف إلى المنازل محاولاً الاحتماء فيها ، ولكنه يعود إلى الطريق حين يطرده منها الكلاب تارة والخدم تارة أخرى . كانوا يطردونه من الكنائس ، ومن الحيوانات ، ومن كل الأنحاء ، دون اعتبار للتعبد الذي يأخذ بخناقه ، ولا لبعيته اللتين كانتا تتضرعان دوماً شعور طلباً للمغفرة .

وأخذت المدينة الكبيرة ، التي كانت تزدد كبراً بالنسبة إلى شدة تعبه ، تتضائل وتتضائل أمام ما يشعر به من يأس . كانت ليالٍ من الفزع تتابع بعد أيام من الاضطهاد ، حيث كان يطارده أناس لا يكتفون بالصياح في وجهه : « سوف تتزوج أمك يوم الأحد القادم أيها الأبله الصغير . . . أمك العجوز . . . ها . . . ها . . . ها » ، ولكنهم كانوا يضربونه أيضاً ويمزقون ملابسه . وحين يطارده الأطفال كان يلجئ إلى الأحياء الفقيرة . . . ولكن مصيره فيها لم يكن أفضل سوءاً . كان الناس هناك يعيشون في وهدة من الفقر المدقع ، ولم يكتفوا بقذفه بالإهانات ، ولكنهم كانوا يرمونه أيضاً بالحجارة وبالفئران الميتة ويعلب الصفيح الفارغة ، بينما هو يجري أمامهم في رعب وفزع .

وفي يوم من الأيام ، عاد من تجواله في الضواحي إلى « رواق الرب » حين كان جرس صلاة الظهر يندق ، وكان عاري الرأس جريح الجبهة ، يجر خلفه ذيل قطة ربطوه إلى قدمه للسخرية منه . كان كل شيء يثير فيه الفزع : ظلال الجدران ، الكلاب التي تجري ، الأوراق التي تتساقط من الأشجار ، ضجيج عجلات السيارات . وحين وصل إلى الرواق ، كان الظلام قد انسدل ، وكان الشحاذون يجلسون ووجوههم إلى الحائط يحصون مكاسبهم . كان « ذو القدم المسطوحة » ينشأجر مع « الذبابة » ، بينما الصماء البكماء تتحس بطنها المتكور ،

والعمياء معلقة في أحلامها من الخطاف يغطيها الذباب كأنها قطعة من اللحم في حانوت الجزار . وسقط الأبله على الأرض كأنه قد مات . لم يكن قد أغلق عينيه منذ عدة ليال ، ولا أراح قدميه أياماً . كان الشحاذون يهرشون مكان لدغات القمل في صمت ، ولكن لم يكن في استطاعتهم النوم . كانوا ينصتون إلى خطوات رجال الشرطة يذهبون هنا وهناك في الميدان الذي تشوبه الظلمة ، وأصوات رجال الدوريات وهم يتبادلون السلاح ويقفون وقفة انشياء كأنهم الأشباح في عباءاتهم المخططة أمام نوافذ الشكاات المجاورة ، وهم يقومون بنوبة حراستهم الليلية في خدمة رئيس الجمهورية . لم يكن أحد يعرف أين هو ، فقد كان يشغل عدة منازل خارج المدينة في نفس الوقت ؛ ولم يكن أحد يعرف كيف ينام ، فقد قال البعض إنه ينام إلى جوار الهاتف يحمل سوطا في يده ؛ كما لم يكن أحد يعرف متى ينام ، فقد كان أصدقاؤه يزعمون أنه لا ينام على الإطلاق .

وتقدم شبح شخص إلى « رواق الرب » . وألقى الشحاذون على أنفسهم مثل الدبدان ، وأجاب عن صرير الأحذية العسكرية نقيق طائر مشؤوم في ظلام الليل الساري العميق .

وفتح ذو القدم المسطوحة عينيه . كان ثمة خطر مائل يهدد بنهاية العالم . وقال للبوقة : « ها . . . ها . . . إفعلي ما تشائين . إنني لا أريد بك خيرا ولا شرا . ولكن فلتذهبي إلى الشيطان رغم هذا » .

وتحس « الذبابة » وجهه بيديه . كان الهواء ثقيلًا كأنما ثمة زلزال على رشك أن يقع . ورسم « فيودا » علامة الصليب وهو يجلس وسط العميان . وكان الأبله هو الوحيد الذي يغط في نوم عميق .

وتوقف الشبح ، وارتسمت ابتسامة على وجهه . وسار نحو الأبله على أطراف أصابعه ، ثم صاح فيه برنة مزاح : « أماء » . ولم ينس بيت شفة بعد ذلك ، فقد نهض الأبله من على الأرض بفعل ذلك النداء ووثب فوق الشبح دون أن يعطيه أي فرصة يستخدم فيها سلاحه ، ودفع أصابعه في عينيه وهشم أنفه بعفاته ، ورفسه أسفل بطنه بركبته إلى أن تركه جثة هامدة بلا حراك .

وأغلق الشحاذون أعينهم في رعب . وعبرت البومة المكان مرة أخرى . وهرب الأبله عبر الطرقات التي يلفها الغضب وقد أعماه الخوف والجنون . كانت

قوة عمياء قد انتزعت لتوها الحياة من الكولونيل «خوسيه بيراليس سونريني»
الذي يُكنى «الرجل ذا البغل الصغير» . وكان هو الرجل الذي قتله الأبله في سورة
غضبه وجنونه .

وكان القبح يقترب .

موت « الذبابة »

كانت الشمس تجلجل الأطراف البارزة من مبنى مركز الشرطة بأشعتها الذهبية ، حيث يمر بعض الناس عبر طريق الكنيسة البروتستانتية ، وهنا وهناك باب مفتوح ، وبناء من الطوب الأحمر يقوم البناءون بتشيدته . وفي المركز ، كانت مجموعات من النسوة الخافيات يجلسن في انتظار المسجونين ، قابعات في الفناء حيث يهطل المطر على الدوام ، وكذلك في مصاطب الردهات المظلمة ، يحملن سلال الفطور في حجورهن ، وحولن عديد من الأطفال الصغار يتعلقون بأندائهن ، والكبار منهم يهددون بأنهم أرغفة العيش التي نطل من السلال بأفواههم الفاعرة النهمة . وكانت النسوة يفضين بمناعبهن بعضهن إلى بعض في صوت خفيض ، باكيات على الدوام ، ويمسحن عيونهن بأطراف عباءاتهن . وكانت هناك عجوز ذات عينين غائرتين ، هذتها الملائيا ، تبكي في حرقفة وفي صمت ، كأنما تريد أن تبدي أنها تعاني أكثر منهن بوصفها أما . هنا كانت شرور الحياة تبدو لا علاج لها ، في مكان الانتظار الكئيب ذاك ، حيث لا يوجد ما تستقر عليه العين سوى شجيرتين أو ثلاث ، ونافورة جفت المياه منها ، ورجال الشرطة عجاف الوجوه ينظفون ياقات قمصانهم بريق شفاههم . ولم يكن أمام النسوة إلا أن يسلمن أمرهن إلى الله القادر العليم .

وظهر شرطي خلاصي* يجر وراءه « الذبابة » . كان قد قبض عليه إلى جوار « مدرسة المشاة » . وكان الشرطي يشده من يده ويهزه من جانب لآخر كأنما هو قرد . ولكن النسوة لم يجدن في ذلك شيئا مضحكا ، فقد كن مشغولات بمراقبة

* أي خليط من المهرج من السكان الأصليين والبيض ، وبشكل الخلاصيون حوالى نصف السكان في بعض مدن أمريكا اللاتينية

حركات السجناء وهم يحملون سلال الفطور ثم يعودون اليهن بأخبار السجناء :
« يقول : لا تقلقوا عليه ، فالأمور قد تحسنت فعلاً ! » يقول : « إن عليكم أن تشتروا
له ما قيمته أربعة قروش من مرهم الزئبق حالما يفتح الصيدلي » . يقول : لا
تصدقوا ما قاله لكم ابن عمه » . يقول : « إبحثوا له عن حمام ، أو عن طالب في
كلية الحقوق حتى لا يكلفكم كثيراً ! » . يقول : الأمر لا يستحق كل ذلك ،
فليست هناك نسوة معهم ثيرر الشعور بهذه الفيرة . لقد أحضروا واحدة ذلك
اليوم ، فبحث لنفسه عن صديق على الفور ! » . يقول : « أرسلوا إليه مسهلاً حتى
يستطيع أن يفرغ بطنه ! » . يقول : « إنه غاضب منكم لأنكم قد بعتم الصوان » .
واحتج « الذبابة » على المعاملة التي يلقاها من الشرطي وقال له : « إيه ...
أنت ... ماذا تظن أنك فاعل ؟ ألا تشعر بأية شفقة ؟ ألاي فقير ؟ أنا فقير ولكني
شريف . إسمع : إنني لست ابنك أو لعينك أو حيوانك الأليف ولا أي شيء حتى
تعاملني هكذا ! إنها لعبة ظريفة أن تعاملونا هذه المعاملة ونجرونا بهذه الطريقة كيما
تخطوا برضاء الأمريكان . يا لها من لعبة قليلة ! كما لو كنا ديوكا على مائدة عيد
الميلاد . ولكن ... حتى المعاملة الحسنة لا نلقاها منكم ! وحين جاء السيد
فلان ، حبسوا عنا الطعام ثلاثة أيام ونحن نستطلع عبر النافذة وقد التحفنا
بالبطاطين كالمجانين ... » .

وكانوا يقودون الشحاذين المقبوض عليهم إلى زنزانة ضيقة مظلمة تدعى
« الثلاث ماريات » . وارتفعت جلبة المفاتيح وهي تدور في الأبواب ولعنات
السجناء الذين نفوح منهم نثارة العرق والتبع ، ثم ترددت صيحات « الذبابة »
العالية مرة أخرى في هذه الأنفاق التحتية : « آه ، ياله من شرطي ! أيتها العذراء
المقدسة ، ياله من رغد ! فليحمي من يسوع المسيح ! » .

وكان رفاقه ينشجون كالحیوانات ، تسيل أنوفهم وقد غمزهم العذاب من
فرط الظلمة التي تحيط بهم من كل جانب ، وشعروا بأنهم لن يكون في مقدورهم
الخلاص أبدا من وهدة السجن هذه التي سقطوا فيها ، وغمرهم الخوف ، فقد
انتهى الأمر بكثير من الناس هنا إلى الموت جوعاً وعطشاً . وكان يتأهبهم احساس
بأنهم سيضعونهم في القدور ويغلوهم على النار ويصنعون منهم طلاء للسيارات ،
كالكلاب ، أو يذبحونهم ويقدمونهم طعاماً لرجال الشرطة . ولاحت لهم الوجوه
بأمهم كأنها وجوه آكلي لحوم البشر ، مضيفة كالفرائيس . يتقدم أصحابها عبر

الظلال ، وجنائهم كالأرداف ، وشواربهم كأوراق الشيكولاتة المفضضة

وكان ثمة طالب ومساعد قس في نفس الزنزانة .

- سيدي ، أعتقد لو لم أكن مخطئا أنك قد جئت إلى هنا أولا . أنت وأنا ،
اليس كذلك ؟

تكلم الطالب لكي يقطع حبل الصمت ، لكي يتخلص من بعض ما يشعر
به من حزن في حلقه . ورد مساعد القس وهو يبحث في الظلمة عن وجه عدته :

- أعتقد هذا .

- و . . . حنا . كنت سأسألك عن سبب القبض عليك .

- بسبب السياسة . هكذا يقولون .

وارتجف الطالب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وقال بصعوبة شديدة :

- وأنا أيضا .

وفتش الشحاذون حول وسطهم بحثا عن كيس زوادهم الذي لا يفارقهم ،
غير أن الخزاس كانوا قد جردوهم من كل شيء في مكتب مدير الشرطة ، حتى بما
يحملونه في جيوبهم ، بحيث لم يعد معهم أي شيء حتى أعواد الثقاب . كانت
الأوامر صريحة ! ومضى الطالب في حديثه : وما هي قضيتك ؟

- ليست لي قضية . إنني هنا بأمر من أعلى .

وارتد مساعد القس ، وهو يقول هذا ، إلى الخلف دافعا كتفه في الحائط كيدا
بسحق حشرات البق التي علفت به .

- هل كنت . . .

فرد مساعد القس بطريقة جافة : لا شيء ! لم أكن شيئا البتة !

وفي هذه اللحظة سمع صرير الباب الذي انفتح على مصراعيه بدخول منه

شهاد آخر .

وصاح « ذو القدم المبطوحة » وهو يدخل : « نحيبا فرنسا ! »

وقال مساعد القس : لقد سجنتم . . . نحيبا فرنسا !

... بسبب جريمة ارتكبتها بمحض الخطأ . فبدلاً من أن أزيل إعلاننا عن السيدة العفراء من على باب الكنيسة التي أعمل بها ، ذهبت وأزلت إعلاننا عن الاحتفال بالذكرى السنوية لوالدة السيد الرئيس .

« نعم الطالب بينما كان مساعد القس يمسح دموعه بأصابعه :

- ولكن ، كيف علموا بالأمر ؟

- لا أعرف . لقد اضاعني غيائي . وعلى كل حال فقد قبضوا عليّ وساقوني إلى مدير الشرطة الذي قام بإعطائي ما تيسر من اللكمات ثم أمر بأن أوضع في هذه الزنزانة ، معزولاً ، باعتباري ثورياً ، كما قال .

ويكى الشحافون المتجمعون في الظلمة من فرط الخوف والبرد والجوع . ولم يكن أحد منهم يرى حتى يديه ذاتها . وأحياناً كانوا يلجؤون إلى السبات ، ويسمع آنذاك زفير الصماء البكماء الحبلى يرق من بينهم كأنما يبحث لنفسه عن مخرج .

ولم يدر أحد منهم متى أخرجوهم من هذا القبو ، وربما كان ذلك في منتصف الليل ، فالتحقيق بتناول جريمة سياسية كما قال لهم أحد الرجال ربعة القامة معرورق الوجه زعفراني اللون ، ذو شارب ينسدل على شففيه الغليظتين في إهمال ، أقطس الأنف قليلاً ، وذو عينين مقنعتين . وقد انتهى هذا الرجل بسؤالهم جميعاً فرداً فرداً عن مدى علمهم بالمسؤول أو المسؤولين عن جريمة « رواق الرب » التي ارتكبت في الليلة الفائتة في شخص أحد كبار رجال الجيش .

وكان ثمة مصباح يتصاعد منه الدخان يضيء الحجارة التي نقلوهم إليها ، فبدأ ضوءه الباهت كأنما يمر من خلال عدسات مملوءة بالمياه . ما هذا الذي يجري هنا ؟ ما هذا الجدار ؟ وما هذا الرف المليء بالأسلحة والذي يبدو أشد شراسة من أنياب النمر ! وزنار الشرطي المليء بالدخيرة ؟

وأثارت إجابات الشحاذين أعصاب المحقق ، المدعي العسكري العام ،
فقفز من مقعده وصاح قائلاً وهو يفتح عينيه الحجريتين من وراء نظارته الطبية
السميكة ويضرب المائدة التي يستخدمها كمكتب بقبضة يده : سأستخلص منكم
الحقيقة ! وردد الواحد منهم بعد الآخر أن مقترف الجريمة هو الأبله ، زميلهم
الشحاذ ، ووصفوا بدقة تفاصيل الجريمة التي شاهدوها وقائمها بأعينهم .

وأشار المحقق من طرف خفي ، فهاجم رجال الشرطة ، الذين كانوا يرهفون
سمعهم من وراء الباب ، على الشحاذين يومسحونهم الخربا ويذفونهم نحو إحدى
الردهات العارية من كل شيء ، إلا من حبل غليظ يتدلى من سقفها .

وصرخ أول للمعذبين في محاولة محمومة للهرب من التعذيب بذكر الحقيقة : إنه
الأبله ! إنه الأبله يا سيدي ! إنه الأبله ! إنه الأبله ! إنه الأبله بحق الإله !
الأبله ! الأبله ! الأبله ! ذلك الأبله . الأبله . ذاك ، ذاك ، ذاك !

- لقد نصحوكم أن تقولوا لي ذلك . ولكن هذه الأكاذيب لا تجدي معي !
الحقيقة أو الموت ! هل أنت عارف ، أسمع ، اعرف ، إن لم تكن تعرف .

وانساب صوت المحقق كالدم السيل في سمع الشقي الذي لم ينفطع عن
الصراخ إذ هو معلق من أصابه دون أن يستطيع وضع قدميه على الأرض : « إنه
الأبله ، الأبله هو . إنه الأبله بحق الإله ! إنه الأبله ! إنه الأبله ، إنه الأبله ، إنه
الأبله . »

وأعلن المحقق : « كذب » . ثم قال بعد فترة صمت : « هذا كذب ، وأنت
كاذب . سوف أذكر لك من قتل الكولونيل «خوسيه باراليس سونريني» ولبر إذا
كنت تحب على إنكار ذلك . سوف أذكر لك اسمها ، إنها الجنرال «يوسيبو
كاناليس» والمحامي «قاييل كارفاخال» !

وتلى كلامه صمت جليدي ، وبعده ، وبعده ، أنين ، وأنين آخر بعد ذلك ،
ثم أخيراً كلمة « أجل » . وحين أطلقوا الحبل إرتمى «قيودا» على الأرض دون
حراك . ومدت وجنتا هذا الشحاذ الخلاسي غارقتين في العرق والأنين ، كالبحم
الذي يملكه مياه الأمطار . وتعالى بعده استجواب رفاقه الذين كانوا يرتجفون

كالكلاب الضالة التي تقتلها الشرطة بالسهم في الشوارع ، وكلهم آمنوا على كلام المحقق ، كلهم . عدا « الذبابة » . كان وجهه ينم عن مزيج من الخوف والإحتقار . وعلقوه من أصابه لأنه كان يؤكد وهو على الأرض ، نصف مدفون - مدفون حتى وسطه كحال كل من لا ساقين له - أن زملاءه يكذبون حين يلقون تبعة الجريمة على شخصين غريبين عنهما في حين أن المسؤول الوحيد عنها هو الأبله .

واللفظ المحقق الكلمة : مسؤول ! كيف تجسر على أن تقول إن أبلها مسؤول ؟ أتري كذبتك ؟ مسؤول غير مسؤول ؟
- فليرد هو على هذا الكلام .

فأفترح شرطي له صوت نسائي أن يضربوه ، بينما ساطه شرطي آخر على وجهه .

وصاح المحقق في الوقت الذي انهار السوط على وجه الرجل الكهل : قل الحق ! الحق ولا ستظل معلقا هكذا طوال الليل !

- ألا ترى أنني أعمى ؟

- فلتنكر إذن أن يكون القاتل هو الأبله .

- كلا ، فهذه هي الحقيقة ولدي الشجاعة أن أقولها .

وفجرت ضربتان من السوط الدماء من شفثيه . . .

- إنك أعمى ولكن . . . اسمع ، فلنقل الحقيقة ، اعترف كزملاتك !

- « وهو كذلك » .

وافق « الذبابة » بصوت منطفيء . واعتقد المحقق أنه كسب الجولة .

- وهو كذلك أيها الآخرق .

- إنه الأبله . . . - أيها الآخرق !

بيد أن شتيمة المحقق لم تجد صدنى في آذان هذا النصف مخلوق الذي لن يسمع

شيئا بعد ذلك . وحين أطلقوا الحبال ، سقطت جثة « الذبابة » - أي الجذع ، فقد
كان جسده دوغماً ساقين - على الأرض كالبنديل المكسور .

وصاح المحقق وهو يمر بجانب الجثة : « أيها الكذوب العجوز ، لم يكن
إعترافك بنافع لنا ، فقد كنت أعمى »!

وجرى ليطلع السيد الرئيس على الخطرات الأولى للتحقيق ، واستقل عربة
يفودها جوادان هزيلان ، وتضيء فوانيسها عيون الموت ذاته . والقت الشرطة
بجثة « الذبابة » في عربة للمقامة إبتعدت به ناحية المقابر . وبدأت الديكة في
الصياح . وعاد الشحاذون الذين أطلق سراحهم إلى الشوارع فكانت الصياح
البكاء تبكي من الخوف لأنها تشعر بطفل يتحرك في أحشائها .

فرار الأبله

فر الأبله عبر الطرق الملتوية الضيقة التي تؤدي إلى ضواحي المدينة ، بيد أن صرخاته المجهومة لم تفلح في إشاعة الاضطراب لا في هدوء السماء ولا في سبات السكان ، الذين كانوا يتشابهون فيما بينهم في نومهم الشبه بالموت ، كاختلافهم مع مطلع الشمس حين يستأنفون الكفاح من أجل الحياة . كان البعض منهم يفتقر إلى أشد مطالب الحياة أساسية ، ويضطر إلى اللجوء إلى الأعمال الشاقة كي يكسب عيشه اليومي ، بينما البعض الآخر يحصل على ما يفيض عن حاجته عن طريق موارد الكسل المحفوظ : باعتباره من أصدقاء السيد الرئيس ؛ أو من ملاك العقارات (أربعون أو خمسون منزلاً) ؛ أو المرابين الذين يقرضون الأموال بفائدة ستة وستة ونصف وعشرة في المائة ؛ أو الموظفين الذين يشغلون سبعة أو ثمانية مناصب حكومية مختلفة في آن واحد ؛ أو مستغلي الامتيازات ، والمعاشات ، والشهادات المهنية ، ونوادي القمار ، وحلبات مصارعة الديكة ، وفقراء الهنود ، ومصانع الخمور ، وبيوت الدعارة ، والبارات ، والصحف المعانة من الدولة .

وكانت عصارة الفجر الدموية تجلجل قسم الجبال التي تحيط بالمدينة التي كانت ترفد وسط الوادي كأنها أديم القنصور . كانت الشوارع تبدو أنفاقاً من الظلال ، ينبجس منها العمال الباكرون كأنهم أشباح في فراغ عالم يخلق من جديد كل صباح ، ينبعث بعد ساعات قليلة الموظفون والكتبة والطلاب ؛ وفي الحادية عشرة ، حين تطلع الشمس كبد السماء ، يظهر أكابر القوم بعد أن فرغوا من تناول إفطارهم ، تنفتح شهيتهم لتناول الغداء ، أو يتوجهون لزيارة صديق من ذوي النقود لإقناعه بالاشتراك معهم في شراء متأخرات رواتب المدرسين المدفوعين بنصف قيمتها . كانت الشوارع ما زالت تقعي غارقة في الظلال ، حين قطع صمتها

صليل تنورات بعض النسوة ممن يعملن بلا كلل في رعي الخنازير أو بيع الحليب أو
التجول بالبضائع أو بيع فضلات الذبيحة كيما يقمن أود أسرهن ، أو يبكرن لأداء
أعمالهن اليومية . وبعد ذلك ، حين يذبل الضوء ويتحول إلى نور أبيض وردي
كلون زهرة البيغونيا ، تتردد أصدااء قدمي عاملة صغيرة نحيلة ، تزدهيها السيدات
الفضليات اللاتي لا يغادرن غداعهن قبل توسط الشمس كبد السماء ، فيسطن
حينذاك سيقانهن في أهواء البيت ، ويحكين أحلامهن للخدم ، وينتظن المارة ،
ويداعبن القطة ، ثم يطالمن الصحيفة ، أو يتهن خيلاء أمام المرأة
وبين الواقع والحلم ، تابع الأبله جريه تطارده الكلاب ويلبسه رذاذ المطر
الحاد . كان يجري بلا هدف ، فاغر الفم وقد تدلى لسانه ، يخاف اللعاب ،
لا هنا ، ملوحاً بذراعيه في الهواء . وكانت تسرى وراء أبواب وأبواب وأبواب
ونوافذ وأبواب ونوافذ . وكان يقف فجأة ويغطي وجهه بيديه ليحمي نفسه من
عمود من أعمدة البرق ، ثم يتبين له أن لا ضرر منه على نفسه فينفجر ضاحكاً
ويستمر في جريه ، كأنما هو إنسان يهرب من سجن صنعت جدرانها من الضباب ،
بحيث أنه كلما زاد جرياً ، ابتعدت عنه هذه الجدران .

وحين وصل إلى الضواحي ، حيث تستلم المدينة إلى الريف المحيط بها ،
إرغى على كومة من النفايات كأنه شخص بلغ غدعه آخر الأمر ، واستغرق في
النوم . وكان يعلو كومة النفايات شبكة عنكبوتية من فروع الأشجار الميتة ، تغطيها
كوكبة من النسور . وحين لمحت تلك الطيور الجارحة السوداء الأبله يرقد هناك بلا
حرك ، حذفت إليه بعيونها الزرقاء ، وحطت على الأرض بجانبه وهي تتقافز إلى
جواره - قفزة هنا وقفزة هناك - في رقصة جنائزية . وكانت النسور تتطلع حواليتها
دوماً انقطاع ، وهي متأهبة لأن تطير عند أقل حركة تصدر عن ورقة شجر أو عن
الرياح التي تصطق في القمامة - قفزة هنا وقفزة هناك - ثم أطبقت على الأبله شكل
دائرة إلى أن أصبح في متناول مناقيرها . وأعطى نعيب وحنني إشارة البدء
بالهجوم . ونهض الأبله على قدميه إذ أفاق ، مستعداً للدفاع عن نفسه . وكان
واحد من تلك الطيور قد تشجع والصق منقاره بالشفة العليا للأبله وأخذ ينقرها
وينفذ منها إلى أسنانه كأنما هو سهم حاد ، بينما أخذت الجوارح الأخرى تتنازع أيها
ينقر عينيه وأيها قلبه . وجاهد الطير الذي أنشأ منقاره في شفته كيما ينزع
لحمها ، لا يهمه في شيء أن فريسته إنسان حي ، وكان سيفلح في ذلك لو لم

- « يا أبله يا أبله » .

وشحذ شاحذ السكاكين أمانه قبل أن يتسم ! شاحذو البسة . أمان
شاحذ السكاكين .

- « أماه » .

وأيقظته صيحة السكير التي سمعها في هذيانه .

- « أماه » .

وكان القمر يسطع متآلفاً بين السحب الاسفنجية ، وسقط نوره الأبيض على
الأوراق الرطبة فخلع عليها بريق الخنزف وجوده .

- « إنهم يحملون . . . » .

- « إنهم يحملون . . . » .

- « إنهم يحملون القديسين من الكنيسة كيما يدفنوهم ! آه ، يا لها من متعة !
سوف يدفنونهم ، سوف يدفنونهم ، آه ، يا لها من متعة !

المقابر أكثر نهجة من المدينة وأكثر نظافة منها ! آه ، يا لها من متعة ، سوف
يدفنونهم ! . - « تارارا ، تارارا ، يوم ! » .

ومضى قدماً في هذيانه فرأى نفسه يشق طريقه وسط الصعاب ، متقافراً من
بركان إلى آخر ، ومن نجمة إلى أخرى ، ومن سماء إلى سماء ، نصف مستقيظ
ونصف نائم ، وسط أفواه ضخمة وأفواه صغيرة ، بأسنان وبدون أسنان ، بشفاه
ويلا شفاه ، بشفاه مزدوجة ، بشوارب ، بالسنة مزدوجة ، بالسنة ثلاثية ،
صائحاً : « أماه ، أماه ، أماه ! » .

نوت ، نوت ! واستقل الفطار المحلي كي يتعد عن المدينة إلى الجبال بأسرع
ما يستطيع ، فالجبال ستمنحه دفعة إلى أعلى نحو البراكين ، وفيما وراء الأبراج
اللاسلكية ، فيما وراء الجزر ، فيما وراء حصن المدفعية ، تلك الفطيرة المحشوة
بالجنود .

بيد أن الغطار عاد إلى المكان الذي انطلق منه ، كأنما هو لعبة معلقة بحبل ؛
وحين وصل : « تشوف ، تشوف ، تشوف » ، كانت هناك بائعة خضروات لاهثة
ذات شعر يضاهي أعواد الصفصاف المصنوعة منه سلتها ، تنتظر في المحطة ،
وصاحت به : « بعض الخبز للأبله ، أيها النبيقاء الصغير ؟ ماء للأبله ، ماء
للأبله ؟ » . وجرى ناحية « رواق الرب » وبائعة الخضروات تطارده وتهذده بقرعة
ملينة بالماء : « بيد أنه حين وصل إلى هناك ، دوت صيحة « أماء ! » : قفزة ،
رجل ، ليل ، صراع ، موت ، ذماء ، هروب ، الأبله . . . « ماء للأبله ،
البيغاء الصغير ، ماء للأبله ! » .

وأيقظه ما كان يشعر به من ألم في ساقه ، وأحس أن هناك متاهة في داخل
عظامه . واتسمت عيناه بالحزن في ضوء النهار . وكانت ثمة تعريشات تغطيها
ازهار جميلة دعته كيما ينام تحت ظلالها إلى جوار غدير بارد يحرك ذيله المقطى بالزبد
كأنما هناك سجناب فضي يختبئ وسط طحالبه وأعشابه .

لا أحد . لا أحد .

ومرة أخرى ، التجأ الأبله إلى ليل عينه المغمضتين وجاهد ضد الألم ، محاولاً
وضع ساقه المكسورة وضعا مريحاً وهو يسند يديه شفته المزقة . ولكنه كان كلما
فتح جفنيه الحارقين عبرت فوقه سماوات حمراء كالدم . وبين ومضات البرق ،
كانت أشباح يرقات تمرق هاربة من أمامه كأنها القراشات .

وأدار ظهره لجرس إنذار الهذيان . ثلج للمحتضرين ! بائع الثلج يبيع قربان
الوفاة المقدس ! القيس يبيع الثلج ! ثلج للمحتضرين ! تليلين ، تليلين ! ثلج
للمحتضرين ! قربان الوفاة المقدس يمر ! بائع الثلج يمر ! إخلع قبعتك احتراماً ،
أيها الآخرس ذو اللعاب السائل ! ثلج للمحتضرين !

ذو الوجه الملائكي

ومضى الأبله يحلم ، في مسودع القمامة الذي استقر فيه ، تغطيه أوراق
الأشجار ، وقطع من الجلد ، ومزق ، وهياكل مظللات ، وأطواق قبعات من
القش ، وبقايا الحديد الحردة ، وقطع خزف مكسورة ، وصناديق من الكرتون
وعجائن الكتب ، وحطام زجاج ، وأحذية قديمة لفحتها الشمس ، وساعات ،
وقشر بيض ، وندف من الفطن ، وفضلات الطعام . ورأى نفسه الآن في فناء
كبير ، يحيط به عدد من الأقنعة ، سرعان ما تبين أنها وجوه أناس منهمكين في
متابعة صراع الديكة . واضطربت المعركة بين الديكين كالأوراق التي تضطرم
وسط النيران . وقضى ديك منها دوغما لم تحت أنظار المتفرجين الجامدة ، سعداء
برؤية المهماز المعقوف يخرج مضرجا بالدماء . جو يعبق برائحة الخمر . بصاق بلون
التبغ . أحشاء الديك الصريع . إنهاك وحشي . صبات . خور . ظهيرة مدارية .
وطاف به في سباته شخص ما ، يمشي على أطراف أصابعه كي لا يوقظه . . .

كانت أم الأبله قد أصبحت محظية لأحد الأفاقيين من أصحاب ديكة
المصارعة ، يلعب على الجيتار بأصابع كأنها من الحجارة . وسقطت الأم ضحية
لشعور هذا الرجل بالغيرة عليها ولرذائله العديدة الأخرى . وكان شقاؤها قصة لا
نهاية لها : محظية لهذا النكرة ، وشهيدة للطفل الذي أنجبته تحت التأثير المباشر
للقمر المتحول ، كما تقول القابلات مدعيات العلم بكل شيء ؛ ففي غمرة الأم
غناضها ، امتزج رأس طفلها الهائل الحجم - رأس كبير ذو قرنين كالقمر -
بالأوجه المعروفة لجميع المرضى الآخرين في المستشفى ، وتعبيرات الخوف
والسخط ، والفواق ، والجزع ، وفيء صاحب الديكة المخمور ، ونتج عن ذلك
كله مولودها الأبله .

وأحس الأبله بصوت تنورتها المنشاة - وسط الرياح وأوراق الشجر ، وجرى
خلفها والدموع تملأ مقلتيه ، ووجد راحة على صدر أمه . وامتصت أحضان تلك
التي منحتة الوجود آلام جراحه كأنها أوراق النشاف . يا له من ملجأ عميق لا
يعكر صفوه شيء ! يا له من حب جارف ! يا زهرتي ! يا زهرناه ! يا زهرتي
الحبيبة ! يا زهرتي الحبيبة !

وكان صاحب الدبكة يصل إلى أعماق أذنه وهو يغني برفق :

لم لا ... لم لا ...

لم لا ... يا حبيبي الصغير

أنا الدبك الصغير ...

ولما أرفع قدمي يا صغيري

أجرجر جناحي يا صغيري !

ورفع الأبله رأسه وقال دون أن يتكلم :

- إني آسف يا أمي ، إني آسف !

ورد الطيف الذي مسح بيده على وجهه في حنان على شكواه قائلاً : إني آسف

يا بني ، إني آسف !

وترامى صوت أبيه من بعيد آتياً عبر كأس من الخمر :

لقد شبكتني ...

لقد شبكتني ...

لقد شبكتني امراه بيضاء .

وحين تكون الشبكة طيبة

تتساقط خيوطها وحدها ... وغتم الأبله :

- أماء ، إن آلامي تصل إلى أعماق روحي !

ورد العليف الذي مسح يده على وجهه في حنان على شكواه قائلاً في ود : اي
بني ، إن آلامي تصل إلى أعماق روحي !

إن السعادة لا تعرف طعم الجسد . وإلى جوارهما كان ثمة ظل شجرة صنوبر
ينحني ليقبل الأرض ، غضة كالنهر . وكان طائر يغني على الشجرة ، هو طائر
وجرس من الذهب في نفس الوقت :

- إنني أنا الوردة - التفاحة لعصفور الجنة . إنني أنا الحياة ، نصف جسدي
أكذوبة ، والنصف الآخر حقيقة ؛ إنني وردة وتفاحة . أعطي الجميع عينا من
زجاج وعينا حقيقة ، فأما الذين يرون بعيني الزجاجية فإنهم يرون لأنهم
يحملون ، وأما الذين يرون بعيني الحقيقة فهم يرون لأنهم ينتظرون ! إنني أنا
الوردة - التفاحة لعصفور الجنة ، إنني الأكذوبة في كل شيء حقيقي ، والحقيقة في كل
شيء كاذب !

وفجأة ، ترك الأبله حضن أمه وجرى لمشاهد موكب السيرك . جياذ ذات
أعنة طويلة كأنها أغصان اللبلاب ، نقودها نورة يرتدين ملابس متألقة بالترنر .
عربات مزدانة بالزهور ، ولافتات من الورق الصيني معلقة على أفاريز الشوارع
تأرجع يمناً ويساراً كالسكاري . فرقة من دماء الموسيقيين وعازفي البوق والكمان
وقارعي الطبول . والمهرجون ذوو الوجوه المدهونة بالدقيق يوزعون البرنامج في
ورق ملون ، معلناً عن الحفل الافتتاحي المخصص لرئيس الجمهورية ، حامي
حمى الوطن ورئيس حزب الأحرار المجيد وراعي الشباب المجتهد .

وانتقلت عينا الأبله الآن تطوف في نومه الهادي حول سطح بالغ العلو . كان
أهل السيرك قد خلّفوه وحيداً ضائعاً في بناية تقوم على شفا هرة سحيفة خضراء
داكنة . وكانت المقاعد تتدلى من ستائر جانبية كأنها جسور معلقة ، وقس
الاعتراف يصعدون ويهبطون من الأرض إلى السماء كأنما هم مصاعد للأرواح يقوم
عليها الملاك ذو الكرة الذهبية والشيطان ذو الأحمد عشر ألف قرن . وخرجت
عذراء الكرم من جدتها ، كالضوء الذي يمر من خلال الزجاج ، كيما نسأله عما
يريد . وعمن يبحث . وتوقف يتجاذب أطراف الحديث في انشراح معها ، صاحبة
هذا البيت ، أكثر الملائكة عذوبة ، وجوهر وجود القديسين ، وحلوى الفقراء
البائسين . وكانت هذه السيدة العظيمة لا تكاد تبلغ المتر الواحد طولاً ، بيد أنها

حين تتكلم تعطي انطباعاً بأنها تفهم في كل شيء كالناس الكبار . وحكى لها الأبله بالإشارات كيف أنه يحب أن يمضغ الشمع ، فقالت له بين جد وهزل إنه يستطيع أن يأخذ إحدى الشموع المضاءة في مذبج كنيستها . وبعد ذلك لمست أطراف عباؤها الفضية الفضفاضة وفادته من يده إلى حوض للأسماك الملوثة وأعطته فوس قزح يمتصه كأنما هو حلوى سكر النبات . إنها السعادة الكاملة ! كان يشعر بالسعادة تغمره من طرف لسانه إلى طرف قدمه . لقد كان شيئاً لم ينله طوال حياته : قطعة شمع يمضغها كاللدائن ، وسكر نبات نعناعي ، وحوض سمك ملون ، وأم ندلك منافع الجريحة وتغني له : « إشف سريعاً ، إشف سريعاً يا صغيري » . كان كل ذلك ملك يمينه إذ هو ينام على أكوام القمامة .

بيد أن السعادة لا تدوم إلا كما تدوم زخة المطر مع طلوع الشمس . فمن خلال أرض بلون اللين ، ظهر خطاب يتبعه كلبه بعد أن ضل طريقه إلى مستودع القمامة ذلك . كان يحمل حزمة من الخطاب على ظهره ، ورداؤه ملفوف على الحزمة ، بينما يحمل منجله بين ذراعيه كما يحمل الأب طفله . ولم تكن الوهدة سحيقة ، بيد أن الغروب المنسدل جعلها تبدو عميقة مليئة بالظلال التي احاطت بالقمامة المكومة في قاعها من الفضلات التي تثير الخوف إذا ما حل الليل . والتفت الخطاب وراءه : كان يوسعه أن يقسم أن ثمة شخصاً يتبعه . وبعد هنيهة أخرى ، توقف مرة ثانية . كان يشعر بوجود امرئ ما يختفي هناك . ونبح الكلب وانتصب شعره كأنما يرى الشيطان أمامه . وأطارت دوامة ريح أوراقاً قدرة ملطخة إما بدماء امرأة أو بماء البنجر . وكانت السماء تتبدى على البعد ، زرقاء ناصعة ، كأنها قبة قبر عالٍ ، مرصعة بنسور حوامة غافية . وبعد برهة ، جرى الكلب ناحية المكان الذي كان الأبله يرقد فيه . وارتجف الخطاب من قشعريرة الخوف ، واقترب خطوة خطوة وراء الكلب ليرى من هو الميت . كان يتهدده خطر إصابة قدميه بالجراح من قطع الزجاج أو أكعاب الزجاجات أو علب السردين الصفحية ، وكان عليه أن يقفز فوق الروث الثنن وعبر الوهاد المظلمة . وكانت ثمة فجوات مليئة بالمياه تبتث كاللوان ، وسط أكوام القمامة .

ودون أن يطرح عنه حملة - إذ كان خوفه أشد ثقلاً عليه - أمسك بإحدى قدمي الجثة المزعومة ، وشد ما كانت دهشته أن وجد أنه إنسان لا تزال الحياة تدب فيه ، وامتزجت أنفاسه اللاهثة بصراخه بعواء الكلب ، ليخلق كل ذلك صورة حية

لمحتته ، كالرياح التي تختلط أحياناً بوابل المطر . وزاد من اضطراب الخطاب صوت خطوات شخص يمشي خلال أجرة صغيرة قريبة من شجر الصنوبر وأشجار الجواقة العتيقة . فماذا يحدث لو أنها خطوات رجل شرطة ! آه حقاً ، إن ذلك سيكون القشة التي تقصم ظهر البعير ! وهتف بالكلب : « صمتاً ! » ولما استمر في نباحه ، وجه إليه رفسةً قائلاً : « اسكت أيها البهيم ، اسكت ! » .

وفكر في الهرب . . . بيد أن الهرب هو اعتراف بالجرم . . . وميزيد الطين بلةً لو كان القادم من رجال الشرطة . وتحول إلى الرجل الجريح وهتف به :

- « هيا ، اسرع ، سأساعدك على النهوض ! يا إلهي ، لقد كادوا أن يقتلوك ! هيا لا تخف ، لا تصرخ فإنني لا أريد بك سوءاً . . . لقد كنت ماراً من هنا فرأيتك راقداً . . . » .

وقاطعه صوت من خلفه : « لقد رأيتك تنفض عنه أكوام القمامة ، فعدت إليك لأنني فكرت أنه قد يكون شخصاً أعرفه ، فلنخرجه من هنا » .

وأدار الخطاب رأسه ليرد وقد كساد أن بغمى عليه من الخوف . وانقطعت أنفاسه ، ولم يهرب إلا لأنه كان يمسك بالجريح الذي لا يكاد يقوى على الوقوف . وجمال في خاطره أن من تحدث إليه لا بد أن يكون ملاكاً : بشرة من مرمر ذهبي ، وشعر أشقر ، وفم دقيق ، وطلعة أنثوية تتناقض مع سواد عينيهِ الرجولي . كانت ملابسه رمادية اللون ، وكان يبدو في ضوئه الغسق كالسحاب . وكان يحمل في يديه الرقيقتين عصا نحيلة من الخيزران وقبعة ذات جافة عريضة بدت كالحمامة . ورد الخطاب الذي لم يستطع أن يُبعد عينيهِ عنه : « ملاك ، إنه ملاك . ملاك ! » .

وقال الغريب : « يبدو من ملابسه أنه من الفقراء . لشد ما هو محزن أن يكون المرء فقيراً ! » . . .

- الأمر متوقف على الظروف . كل شيء في هذه الدنيا يتوقف على شيء آخر . انظر لي مثلاً ، إني فقير جداً ، ولكن عندي عملي ، وزوجتي ، وكوختي ، ولا أظن أن وضمي مثير للشفقة . قال الخطاب ذلك متلعثماً كرجل يتحدث في منامه . وكان يأمل في أن يفوز بحظوة لدى هذا الملاك الذي قد يكافئه على قناعاته

المسيحية بأن يحوله من خطاب إلى ملك بمجرد رغبته في ذلك . ورأى نفسه لحظات
مشتتاً بالذهب وعليه عباءة حمراء ، وعلى رأسه تاج وفي يده صولجان مرصع
بالجواهر . وتراءى له مسودع القمامة بعيداً بعيداً . . .

وقال الغريب ملاحظاً وهو يرفع صوته فوق نواح الأبله : « هذا غريب ! » .
« غريب ؟ لماذا ؟ على أية حال ، إننا معشر الفقراء أكثر قناعة من الآخرين .
وما بوسعنا أن نفعل ، على كل حال ؛ الحقيقة أنه مع وجود المدارس فإن من يتعلم
القراءة يقع تحت تأثير أشياء يستحيل عليه تنفيذها . وحتى زوجتي يتناها الحزن
أحياناً . تقول إنها تمني لو كان لها أجنحة أيام الأحاد » .

وأغمي على الجربيع مرتين أو ثلاث مرات حين كانا يهبطان به أشد الجهات
انحداراً . وكانت الأشجار ترتفع وتنخفض أمام عينيه المحتضرتين كأنما هي أصابع
الراقصين في الرقصات الصينية . وتماوج في أذنيه حديث الرجلين اللذين يكادان
يحملانه كلية كأنما هما رجلان سكرانان فوق أرض زلقة . كانت ثمة بقعة سوداء
كبيرة تمسك بخناقه ، وارتعاشات باردة مفاجئة تمر عبر جسده فتشعل من جديد
رماد خيالاته المحترقة .

وقال الغريب : « إذن فزوجتك تريد أجنحة أيام الأحاد ؟ أجنحة ! حتى لو
كان لها أجنحة لمن تكون بذات فائدة لها » .

« هذا صحيح ، إنها تقول إنها تريد الأجنحة حتى تخرج للنزهة بها . وحين
تشاجر معي تطلب دائماً الأجنحة من الرياح .

وتوقف الخطاب كئيباً يمسح العرق الذي تنثر على جبهته بطرف كفه ، وقال
منعجباً : « إنه ليس بالخفيف الوزن ! » .

وقال الواصل الغريب : يكفيها ساقاها إن هي أرادت الذهاب ؛ حتى لو
كانت لديها أجنحة فإنها لن ترحل .

« كلا إنها لن ترحل ، ولكن ليس كرمياً منها ، بل لأن النساء طيور لا
تستطيع العيش دون أفقاصها ، ولأنني لا أحمل معي إلى البيت سوى قطع قليلة من
الخطب لا أستطيع أن أكرها فوق ظهرها » . وتذكر عند ذلك أنه يتحدث إلى
ملاك فاستدرك سريعاً قائلاً : « وذلك لصالحها ، طبعاً » . ومضى الخطاب يقول

مغيراً الحديث لشعوره بالحرج مما قاله نواً : « من يا ترى ضرب هذا الشاب المسكين؟ »

- هناك الكثيرون . . .

- وأجل ، كثير من الناس يوسعهم عمل أي شيء ، ولكن هذا الشاب يبدو كما لو . . . كما لو أنهم لم يشعروا بأي رحمة نحوه . طعنة بالسكين في شفتيه . . . ثم الفاؤه هكذا في مستودع القمامة .

- ربما كانت به جراح أخرى كذلك .

- يبدو لي أن جرح شفتيه من جراء طعنة موسى . ثم إنهم حملوه هنا بعيداً حتى لا يكشف جريمتهم أحد ، هه !

- وباله من مكان بائس ! - هذا ما كنت على وشك أن أقوله .

وكانت الأشجار تنفض بالنسور التي توشك على مغادرة مستودع القمامة . وكان خوف الأبله بطنى على آلامه ، فبقي صامتاً ، وانكمش على نفسه كالقنفذ في سكون عميت .

وسرت الريح في خفة وسط السهل ، تهب من المدينة تجاه الحقول ، خفيفة ، لطيفة ، أنيسة . . .

وتطلع الغريب إلى ساعته ، ثم سار بعيداً بعد أن وضع بعض النقود في جيب الرجل الجريح وودع الخطاب بتحية ودية .

كانت السماء صافية رائعة . وكانت البيوت التي تقع في طرف المدينة تطل على الحقول ، وأنوارها الكهربائية توهج كأعواد الثقاب في سرح مظلم . وبدأت تظهر وسط الظلمة طرقات متعرجة ، تقوم الأشجار على جانبيها ، بالقرب من أول صف من البيوت : أكواخ طينية تفوح منها رائحة الفس ، وأعشاش خشبية تفوح منها رائحة الهنود ، بيوت ضخمة ذات فناء أملس تنته الرائحة كالامطبات ، وخانات فيها المعتاد من العلف الذي يباع للحيوانات والحادمة التي تطارح حبيها الغرام في الشكنات ، وجماعة من البغالين يتحادثون في الظلمة .

ونترك الخطاب الرجل الجريح عند وصولها إلى أول البيوت ، بعد أن شرح له كيف يتوجه إلى المستشفى . وفتح الأبله جفنيه باحثاً عن الراحة ، وعن شيء يخلصه من الفواق ، بيد أن نظره المحتضرة ، الثابتة كالشوكه ، دقت رجاءه على الأبواب الموصدة في الشارع المهجور . وترامى على البعد صوت أبواق تنادي القوم الرحل ، وأجراس تدق ثلاثاً على أرواح الموقن المسيحيين : ال . . . رح . . . مة ، ال . . . رح . . . مة ، ال . . . رح . . . مة .

وشعر بالرعب من سر يجر نفسه وسط الظلال . كان جناحه مكسوراً ، ورن نواحه في أذن الأبله كالوعيد . وتحرك بعيداً في بطاء ، خطوة خطوة ، مستنداً إلى الجدران ، إلى ارتعاشات الجدران الثابتة ، مطلقاً أنه وراء أخرى ، دون أن يدري أياها يذهب ، والرياح تصك وجهه ، الرياح التي بدت كما لو كانت قد امتصت ثلجاً قبل أن تهب في الليل . وكان الفواق يهد كيانه . . .

وألقي الخطاب رزمة الخطب في فناء كوخه كالعامة . وكان كلبه قد وصل قبله إلى البيت واستقبله في حفاوة بالغة . وأزاحه بعيداً عنه ، وقيل أن يخلع عنه قبعته ، فك أزرار سترته فتدلّت على كتفيه كأنها جناحا وطواط ، ثم توجه إلى النيران الموقدة في ركن الحجرة ، حيث كانت زوجته تظهر بغض الكعك ، وقص عليها ما حدث .

ـ ولقد قابلت ملاكاً عند مستودع القمامة .ـ

وخفق ضوء النيران على جدران الخيزران وعلى السقف المصنوع من القش ، كأنه أجنحة ملائكة آخرين .

وصدر عن الكوخ خيط مرتعش من الدخان الأبيض النباتي .

ذلك الحيوان !

كان سكرتير الرئيس يصفني إلى الدكتور « بارينيو » .

- أقول لك يا سيدي السكرتير ، إنني أعمل منذ عشر سنوات جراحاً عسكرياً في ثكنات الجيش ؛ وأقول لك إنني وقعت ضحية مؤامرة كبرى ؛ لقد اعتقلت ، وكان اعتقالي بسبب . . . ولكن يجب أن أخبرك بكل شيء . هذا ما حدث تماماً : لقد انتشر أحد الأمراض فجأة في المستشفى العسكري ، ففي كل يوم يموت عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصاً في الصباح ، ومثلهم في الأصيل ، ومثلهم في الليل . وقام مدير الصحة العسكرية بتكليفني أنا وبعض زملائي من الأطباء الآخرين ببحث الحالة واكتشاف سبب وفاة هؤلاء الأشخاص الذين يدخلون المستشفى قبل وفاتهم يوم في صحة جيدة ، أو ما يقارب ذلك . حسناً ، وبعد إجرائي خمس حالات تشريح ، نجحت في إثبات أن هؤلاء الرجال التعساء قد ماتوا نتيجة حدوث ثقب في المعدة ، ثقب بحجم العملة المعدنية الصغيرة ، ناتج عن عامل خارجي لم أتعرف عليه ، والذي ثبت فيما بعد أنه سلفات الصوديوم التي تناولوها كمظهر للأمعاء ، وهو صوديوم يُشترى من مصنع المياه الغازية ، ولذلك فهو من نوع رديء . حسناً ، إن زملائي لم يشاطروني رأيي هذا ، ولذلك لم يُقبض عليهم فيما يبدو ، فهم يرون أنه مرض جديد يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي . أقول لك إن مائة وأربعين جندياً قد ماتوا ، ولا يزال هناك صندوقان من سلفات الصوديوم تلك . أقول لك إن مدير الصحة العسكرية ، كيم يربح حفنة من الجنيهات ، قد ضحى بمائة وأربعين رجلاً ، بالإضافة إلى من سوف يلقون نفس مصيرهم . أقول لك . . .

وصاح أركان حرب رئيس الجمهورية من باب مكتب السكرتير : « الدكتور

لويس بارينيو ! » .

- سوف أحكي لك ما سيفعله لي أيها السيد السكرتير ،

وسار السكرتير بضع خطوات مع الدكتور بارينيو تجاه الباب . وباستثناء
الاعتبارات الإنسانية ، شعر السكرتير بالاهتمام تجاه أسلوب قصة الدكتور
المتدرجة ، الرتيبة ، الكثيرة ، التي تتمشى مع رأسه الذي وخطه الشيب ومع
الوجه اللحيم الجاف الذي ينسم به رجال العلم .

واستقبله رئيس الجمهورية واقفاً ، مرفوع الرأس ، وإحدى ذراعيه متدلّية
على جنبه في وضع طبيعي ، والأخرى خلف ظهره ، وهتف به دون أن يترك له
فرصة تقديم التحية :

- « أرجو أن تدرك هذا جيداً يا سيد لويس ، إنني لن أقبل أن تعمل شائعات
يطلقها الدجالون من الأطباء على الخط من قدر حكومتي حتى في أقل القليل .
وينبغي لأعدائي أن يضعوا هذا في اعتبارهم دائماً ، وسوف أقطع ربة أول شخص
ينسى ذلك . الآن ، تفضل ، أخرج ، وقل لذلك الحيوان أن يحضر ! » .

وانسحب الدكتور بارينيو خارجاً بمظهره ، وقد تغضت جبهته على نحو
مؤلم ، وشحب وجهه كأنما هو يوم دفنه .

- « لقد انتهيت يا سيدي السكرتير ، لقد انتهيت . لقد كان الشيء الوحيد
الذي سمعته يقول لي هو : تفضل ، أخرج ، وقل لذلك الحيوان أن يحضر » .
- إنني ذلك الحيوان .

قال ذلك واحد من الكتبة كان جالساً إلى مكتب في ركن الغرفة ، وقام ثم
دلف إلى حجرة الرئيس من نفس الباب الذي أغلقه الدكتور بارينيو لتوه .

وعنهم الدكتور بارينيو وهو يمسخ العرق الذي ينصب على وجهه :

- « لقد ظننت أنه سيفضربني ! لو أنك رأيت ، آه لو كنت قد رأيت ! بيد أنني
أضيق وفنك يا سيدي السكرتير ، وأنت مشغول جداً . إنني ذاهب الآن ،
وأشكرك شكراً جزيلاً » .

- « مع السلامة يا عزيزي الدكتور ، عفواً ، وأتمنى لك حظاً سعيداً » .

وانتهى السكرتير من كتابة الرسائل التي سيوقعها السيد الرئيس في بضع دقائق . وكانت المدينة تتشرب الفسق البرتقالي ، والسماء ترتدي حلة موسلين قشبية من السحاب وترصع بنجوم كأنه ملائكة التسبيح . وصدحت نواقيس الكنائس نغمة « مباركة أنت أيتها العذراء » فمслات الطرقات كأنها طوق نجاة للبشر .

وذهب بارينو الى بيته وعمله ينهار من حوله . كيف كان يمكنه أن يتفادى هذه الضربة الخوون ؟ وأغلق الباب وهو يتطلع إلى السقف حيث يمكن أن تهبط أياد قاتلة لتخنقه ، ونوجه إلى خزانة ملابس كبيرة في حجرة نومه واختبأ فيها .

كانت معاطفه معلقة في الخزانة في صف مهيب كأنها جثث رجال مشنوقين محفوظة في النفثالين ، وذكره منظرهم الجنائزي باغتيال والده منذ سنوات عديدة حين كان يسير بمفرده ليلاً . وكان على أسرته أن تقنع بتحقيق قضائي لا جدوى منه . وبعد تلك الجريمة ، حلت به مأساة ، إذ تسلم خطاباً غفلاً من التوقيع كان منطوقه ما يلي على وجه التقريب : « كنت وزوج أختي عاندين يوماً من طريق « فولتا غراندي » إلى حي « لاكانوا » في حوالى الحادية عشرة مساءً ، حين سمعنا طلقاً نارياً عن بُعد ، وطلقاً آخر ، وآخر ، وآخر ، حتى عددنا خمس طلقات ، فاختبأنا وراء أجرة أشجار قريبة . وسمعنا صوت جياد تقترب منا تحب بأقصى سرعه ، حتى كادت الجياد وراكبوها أن يحتكوا بنا في انطلاقتهم السريع . وبعد برهة ، عدنا نسبر في طريقنا مرة أخرى ؛ وساد الصمت ثانية ، بيد أن جوادينا أخذنا يصهلان بشدة . ونزلنا من على ظهرهما وهما يزاران ويصهلان ، كل منا يحمل مسدسه في يده لنرى ما الأمر ، فوجدنا جثة رجل ميت مقلوب على وجهه ، وعلى مقربة منه بغلا جريحاً أراحه زوج أختي من آلامه بطلقة من مسدسه . وأسرعنا بالعودة إلى « فولتا غراندي » للإبلاغ عن الواقعة . وفي مقر الشرطة الرئيسي وجدنا الكولونيل « خوسيه بيراليس مونريني » الملقب بـ « الرجل ذي البغل الصغير » ، وثلة من أصدقائه يجلسون إلى مائدة عامرة بزجاجات النبيذ . وانتحينا به جانباً وحكيما له ما رأينا : أولا الطلقات النارية ، ثم . . . وأصغى إلينا ، ثم هز كتفيه ، وحول بصره إلى ضوء الشمعة التي سالت على جوانبها ورد في بظء : « إذهبا إلى منزلكما مباشرة - إني أعرف عما يحدث - ولا تذكرنا هذا الأمر مرة أخرى ! » .

- لويس ! لويس !

وسقط أحد معاطفه من شماغه كأنه طير كاسر .

- لويس !

وبحركة سريعة ، خرج « لويس بارينيو » من خزانة الملابس وتوجه إلى غرفة المكتبة ونظahr بتقليب صفحات كتاب . لشد ما يكون فرح زوجته لو أنها اكتشفت أنه كان مخبئاً في خزانة الملابس !

- « لقد تعدى الأمر كل حدود ! سوف تقتل نفسك أو تفقد عقلك من جراء كل هذه القراءة . لقد قلت لك ذلك منذ البداية ! الا تدرك أن ما ينقصك هو الكياسة وليست المعرفة إذا أردت أن تتقدم في حياتك ؟ ماذا ستفيدك كل هذه القراءات ؟ ماذا ستفيد منها ؟ لا شيء بالمرءة ! إنها لن تمكنك من شراء زوج من الجوارب ! إن الأمر سيء جداً ، سيء جداً !

وأعاد ضوء النهار وصوت زوجته الهدوء إلى نفس الدكتور بارينيو .

- « لا ينقصنا إلا هذا ! القراءة ، القراءة . . . لماذا ؟ كي يقولوا بعد أن تموت أنك كنت عالماً ؟ إنهم يقولون هذا عن كل شخص بعد أن يموت . . . ها ! فليقرأ الدجالون ، أما أنت فلا حاجة بك إلى ذلك ، فقد حصلت على درجتك العلمية : وانتهينا ولديك المعرفة بلا حاجة إلى الاستذكار . ثم . . . لا تنطلع إلي بحدة هكذا ! إن ما تحتاج إليه هو الزبائن ، وليس الكتب . لو كان لديك مرضى بعدد ما لديك من كتب لكان هذا البيت قد أصبح جنة . أنا أنا ، فانا أود أن أرى عيادتك ملأنة وأسمع الهاتف يرن على الدوام وأراهم يستدعونك للاستشارة ، وأراك تصل إلى شيء ما . . . »

- ماذا تعنين بأن أصل إلى شيء ما . . . »

- حسناً ، أن تكون ناجحاً . ولا تقل لي ان عليك أن تستهلك عينيك في القراءة حتى تكون ناجحاً . إن غيرك من الأطباء ينجحون بنصف ما لديك من دراية ومعرفة . إنهم يسعدون بشق طريقهم بالسواعد إلى المقدمة ، ويصنعون اسمها لأنفسهم . لقد جاء طبيب السيد الرئيس ، لقد ذهب طبيب السيد الرئيس . . . هذا هو ما يعنيه النجاح .

فقال بارينيرو وهو يمحط الكلمات كأنها ليغطي فجوة في ذاكرته :

- حد من نا ، حسنا يا عزيزي . من الأفضل أن تتخلي عن آمالك هذه ، فساظن أنك مستقمن أرضا حين أخبرك أنني قد جئت تَوّاً من مقابلة مع الرئيس ، أجل ، مع الرئيس .

- آه ، يا إلهي ! وماذا قال لك ؟ كيف قابلتك ؟

- بمنتهى السوء . الشيء الوحيد الذي سمعته بقوله هو عن قطع رقبتي . لقد شعرت بالخوف . والأسوأ من ذلك أنني لم أهتم إلى باب الخروج بسهولة .

- هل وبخلك؟ حسناً، لن تكون الأول أو الأخير في هذا الأمر. إنه يضرب الآخرين . وأضافت بعد صمت طويل : « إن ما يضيعك دائماً هو الخوف . . . »

- ولكن يا امرأة ، أي شخص يكون شجاعاً في مواجهة وحش كاسر .

- كلا يا رجل ، ليس هذا ما أعني . إنما أتحدث عن الجراحة ، ما دام في غير طاقتك أن تصبح طبيب الرئيس . إن ما ينقصك هو ألا تخاف . يحتاج المرء كي يصبح جراحاً ماهراً إلى الشجاعة . صدقني . الشجاعة والحسم في ضرب المشروط إن الحائكة التي لا تخسر قطعاً من الثياب للنجاة فيها في البداية لن تتمكن أبداً من حياكة ثوب . والثوب شيء غالي ، أنعرف ذلك ، أما الأطباء فيوسعونهم أن يتمرنوا في المستشفى على الهنود . أما بشأن ما حدث لك من الرئيس ، فلا تهتم بالأمر . هيا لتأكل ! لا بد أن الرئيس كان في حالة سيئة بسبب تلك الجريمة البشعة التي وقعت في « رواق الرب » .

- اسكتي ، وإلا فعلت بك ما لم أفعل أبداً ، وهو أن أصفحك . ليست هناك جريمة ولا بشاعة في الأمر الذي أنهى حياة ذلك السفاح الكريه ، الذي قتل والذي في طريق مهجور ، أبي ذلك الشيخ المسالم الأعزى . . . !
- وفقاً لخطاب غفل من التوقيع فحسب ! يا لك من رجل غريب . من ذا الذي يهتم بالخطابات الغفل من التوقيع . . .

- لو أنني اهتمت بالخطابات التي لا توقيع . . .

- إن ذلك لا يليق بك . . .

- « دعيني أكمل كلامي . لو أنني اهتممت بالخطابات التي بلا توقيع لما كنت معي الآن في هذا البيت » . رفثش بارينيو محموراً في جيبه وعلى وجهه تعبير حاد وأضاف : « لما كنت معي الآن في هذا البيت ، اخذي ، اقترني هذا » .

وتناولت الزوجة الورقة التي دفعها اليها زوجها وقد شحب وجهها ولم يعد يبين فيه من لون سوى صبغة شفيتها الحمراء ، وجرت بعينها سريعاً عبر سطورها المليئة بالأخطاء اللغوية :

« يا دكتور ، عليك أن تواسي زوجتك الآن وقد انتقل » الرجل ذو البغل الصغير « إلى الرفيق الأعلى . نصيحة أصدقاء يحبونك » .

وبضحكة ملتاعة ، ضحكة تناثرت وملات أنابيب الاختبار والقوارير التي يتلىء بها معمل الدكتور بارينيو ، كأنها سم زعاف مطلوب للتحليل ، أعادت الزوجة الورقة إلى زوجها . وعلى الفور، ظهرت خادمة عند الباب وأعلنت :

- الغداء جاهز .

*

وفي القصر، كان الرئيس يوقع أوراقاً بمساعدة الرجل الهرم الضئيل الهزيل الذي دخل الغرفة حين غادرها الدكتور بارينيو، والذي سبق أن أطلق عليه لقب «ذلك الحيوان» .

وكان «ذلك الحيوان» رجلاً رث الهيئة ، ذا بشرة وردية تشبه جلد الجرذان ، وشعر يشبه الذهب الرخيص ، وعينين زرقاوين قلقتين ضائعتين وراء نظارة صفراء فاقعة اللون .

وضع الرئيس اسمه للمرة الأخيرة ، وسارع الرجل الهرم الضئيل الهزيل بمحاول تخفيف التوقيع ، فسكب دواة الحبر فوق الورقة التي انتهى الرئيس ثوراً من توقيعها .

- يا حيوان !

- سيدي !

- يا حيوان !

دقة جرس ، وأخرى ، وأخرى . . . خطوات مسرعة ، ويظهر أحد الضباط عند الباب .

وزار الرئيس : « أيها الجنرال ، يُضرب هذا الرجل مائتي جلدة فوراً ، فوراً » . ثم انتقل من فوره إلى جناحه في القصر حيث كان الغداء جاهزاً .

وامنلات عينا ذلك الحيوان « بالدموع . ولم يقل شيئاً ، لأنه كان عاجزاً عن النطق ، ولأنه كان يعلم أنه لا فائدة من طلب المغفرة : ذلك أن اغتيال الكولونيل « سنوريتي » قد أفقد الرئيس صوابه . ولاحت أمام ضباب عينيه زوجته وأولاده يلتمسون الرأفة به : سيدة مكافحة وستة من الأطفال الناحلين . وبحث في جيب معطفه بيد كالمخلب عن مندبل ، آه لو كان بإمكانه فحسب أن يخفف عن نفسه بالبكاء ! لم يكن يرى ، كما هو مفروض ، أن العقوبة جائرة ، بل إنه كان على العكس ، يعتقد أن من الضروري أن يضربوه كي يتعلم أن يكون أقل رعونة - آه لو كان بإمكانه فحسب أن يخفف عن نفسه بالبكاء ! - وأن يكون أكثر كفاءة وألا يسكب الخبر على الوثائق - آه لو كان بإمكانه فحسب أن يخفف عن نفسه بالبكاء !

وبدت أسنانه بارزة بين شفتيه المضمومتين كأنها اسنان المشط ، وتضافرت مع وجنيته الغائرتين وسيمائه الملتاعة كيما تخلع عليه مظهر رجل محكوم عليه بالاعدام . وكان قميصه ملتصقاً بفعل العرق ، مما زاد في حزنه وضيقه . إنه لم يعرق من قبل بهذه الكثرة . آه لو كان بإمكانه فحسب أن يخفف عن نفسه بالبكاء ! وشعر بغثيان الخوف يدفع بالقشعريرة في أوصاله .

ومسك به أركان حرب الرئيس من ذراعه ، وكان ذاملاً ، فاقداً للحس والحركة ، جاحظ العينين ، مقوس القامة ، يغمره إحساس هائل بالفراغ ، ويشعر بجلده ثقيل ، ثقيل جداً ، ويحس بالخور ، الخور . . .

وبعد ذلك بدقائق ، في حجرة طعام الرئيس :

- عن إذنك ، سيدي الرئيس .

- تفضل يا جنرال .

- سيدي ، لقد جئت أخبركم أن « ذلك الحيوان » لم يستطع أن يتحمل المائتي جلدة .

وكان الرئيس عند ذلك يتناول شيئاً من البطاطس المقلية ، ولم تستطع الخادمة التي تقدم له الطبق أن تمنع نفسها عن الارتجاف ، فصاح بها سيدها : « وانت ، لماذا ترتعدين ؟ » ثم وجه كلامه إلى الجنرال الذي كان يقف وقفة انتباه وقبته العسكرية في يده دون أن تطرف عيناه ، قائلاً : « حسن جداً ، يمكنك أن تنصرف ! » .

وجرت الخادمة وبیدها الطبق ولحقت بالجنرال وسألته لماذا لم يستطع الرجل أن يتحمل المائتي جلدة .

- لماذا ؟ لأنه قد مات !

وعادت الخادمة إلى حجرة الطعام وما زال الطبق بيدها . وقالت ، وهي تكاد تبكي ، للرئيس الذي كان يأكل في هدوء :

- إنه يقول إنه لم يتحمل لأنه قد مات !

- وماذا في هذا ؟ ! أحضري الطبق التالي .

جاء ميغيل ذو الوجه الملائكي ، مستشار الرئيس وصفية الحميم ، لزيارته
بعد ان فرغ من تناول الطعام .

وقال عند دخوله غرفة الطعام (كان جيلًا وشريرًا كالشيطان) :

- ألف معذرة سيدي الرئيس ، ألف معذرة سيدي الرئيس لتأخري . . .
ولكن كان عليّ ان أساعد خطاباً يحمل جريماً وجده وسط القمامة ، ولم أستطع
الحضور قبل الآن . ولكني أحيط سيادة الرئيس علماً بأن ذلك الجريح ليس من
الشخصيات المعروفة ، بل كان من عامة الشعب !

وكان الرئيس مرتدياً كماداته ملابس حداد كاملة : حذاء أسود ، وحلة
سوداء ، وربطة عنق سوداء ، وقبعة سوداء لا يخلعها أبداً . وكان يخفي لثته
الخيالية من الأسنان تحت شارب أشهب كث مشط على جانبي فمه ؛ وكان ذا
وجنتين نحيلتين متهدلتين وجفنين صغيرين .

وسأله باسماً حاجبيه : وهل أخذته إلى المستشفى ؟

- سيدي . .

بعد إذن سيدي الرئيس . . .

هل هم جاهزون يا جنرال ؟

- أجل يا سيدي الرئيس . . .

- إذهب أنت بنفسك معهم ، قدّم تعازيّي إلى أرملة وسلم لها هذه الثلثمائة
بيزو باسم رئيس الجمهورية ، لمساعدتها في نفقات الجنازة .

وقام الجنرال الذي كان يقف بانتباه وقبعت العسكرية في يده ، دون أن تطرف
عيناه ويكاد لا يتنفس ، بالانحناء إلى الامام وتناول النقود من على المائدة ، وأدار
كعبيه ، ثم روي بعد ذلك بدقائق برحل في عربة تحمل النعش الذي يضم جثمان
« ذلك الحيوان » .

وسارع ذو الوجه الملائكي بشرح موقفه :

- لقد فكرت أن اذهب إلى المستشفى مع الرجل الجريح ، ولكني قلت
لنفسي : إنهم سيعتصرون به على نحو أفضل إذا أنا أحضرت أمراً من السيد
الرئيس . ولما كنت متوجهاً لمقابلتكم ، ولكي انقل اليكم أيضاً مرة أخرى هول
ما أحس به من جراء المصراع الغادر لضابطنا « باراليس سونرينتي » .

- سأصدر أوامري

- إن هذا هو ما ينتظره المرء من رجل يقولون إنه ينبغي ألا يحكم هذا البلد .
- من يقول هذا ؟

- أنا يا سيدي الرئيس . فانا أول من يؤمن أن رجلاً مثلكم ينبغي أن يحكم
بلداً مثل فرنسا ، أو سويسرا الحرة ، أو بلجيكا المجيدة ، أو الدانمرك الرائعة ؛
ولمّا فرنسا ، فرنسا فوق كل شيء . إنكم الشخص المثالي لقيادة أقدار مثل هذا
الشعب العريق الذي أنجب « غاميتا » و« فيكتور هيجو » !

ولاحت ابتسامة شبه خفية تحت شارب الرئيس ، بينما كان ينظف نظارته
بمنديل حريري أبيض دون أن يحول عينيه عن وجه صديقه . وبعد فترة صمت
قصيرة ، أخذ يتحدث في موضوع جديد .

- لقد طلبت منك الحضور يا ميغيل من أجل مسألة أريد أن أنهيها الليلة .

لقد أصدرت السلطات المختصة أمراً بإلقاء القبض على ذلك الوغد الجنرال « أبوسيبو كاناليس » ، وسوف يتم ذلك في منزله مع إشرافه شمس الغد .
ولأسباب خاصة ، ورغم أنه واحد من قتلة « باراليس سونرينتي » ، فإن الحكومة ترى من غير اللائق بها أن تضعه في السجن ، ولذلك يلزم أن يقوم بالهرب فوراً .
فأذهب وقابلته ، وقل له ما تعرف من معلومات ، وانصحه بأن يهرب الليلة ، كأنما هي فكرة من بنات أفكارك . وقد يتعين عليك أن تساعد على الهرب ، لأنه ، كأي جندي محترف ، يؤمن بالشرف ويفضل أن يموت على أن يهرب . وإذا قبضوا عليه غداً فإنه سيعدم . ويجب ألا يعرف شيئا عن حديثنا هذا ، فهذا بيني وبينك فحسب . وحاذر أن تعلم الشرطة شيئا عن قيامك بزيارته . رتب الأمر بحيث لا تثير الشبهة وحتى يتمكن ذلك الوغد من الهرب . بإمكانك أن تنصرف الآن .

وانصرف محبوب الرئيس وقد أخفى وجهه خلف لقاعه (لقد كان جميلاً وشريفاً كإبليس) . وحياء الضباط القائمون على حراسة غرفة طعام سيدهم تحية عسكرية بدافع اللياقة ، أو ربما بدافع علمهم أنه يحمل مصير جنرال في يديه .
وكان ثمة سبعون شخصاً جالسين في حجرة الانتظار يتشاءمون ، يتظنون أن يفرغ الرئيس من مهامه حتى يقابلوه . وكانت الطرق المحيطة بالقصر ويمر الرئيس مغطاة بالزهور ، وثلثة عدد من الجنود يقومون بتزيين واجهة الثكنات المجاورة بالمصابيح وبالأعلام الصغيرة وبالشرايط الورقية الزرقاء والبيضاء ، بتعليمات من رؤسائهم .

ولم يكذب ذو الوجه الملائكي ليلحظ أيًا من تلك الزينات ، فقد كان عليه أن يقابل الجنرال ويدبر أمر فراره . وبدأ كل شيء يسيراً ، إلى أن بدأت الكلاب تنبح في الغابة الهائلة التي تفصل الرئيس عن أعدائه ، وهي غابة قوامها أشجار ذات آذان تستجيب لأدق صوت فتعصف أوراقها كأنما تنهب عليها عاصفة مدمرة .
ولم يكن أقل ضجيج على بعد أميال ليهرب من نهم تلك الملايين من الأغشية النباتية . ومضت الكلاب في نباحها . كانت ثمة شبكة ذات خيوط فضية ، أكثر خفاء من أسلاك البرق ، تصل ما بين كل ورقة وبين الرئيس ، مما يمكنه من مراقبة أشد أفكار أهل الشغب سرية وخفاءاً

وفكر ذو الوجه الملائكي : آه لو أمكن عقد اتفاق مع الشيطان ، يبيعه فيه روحه على شرط أن تتخضع الشرطة ويتمكن الجنرال من الهرب ! بيد أن الشيطان

لا بدخل في أي صفقة وراءها خير ، رغم أن كل شيء تقريبا يتهدهد الخطر في هذه العملية الغريبة . رأس الجنرال ، وشيء آخر . ونطق بالعبارة كأنما هو حقيقة يحمل بين يديه رأس الجنرال ، وشيئا آخر .

ووصل إلى بيت الجنرال كاناليس في حي « لامرسيد » . كان بيتا كبيرا يقع على ناصية الطريق ، عمره حوالي المائة عام ، وكانت شرفاته الثماني الواقعة في واجهته ، ومدخل العربات الكبير الواقع خلفه ، يخلعان عليه شيئا من المظهر الفخيم ، كأنه عملة نقدية قديمة . وقرر المحبوب أن يصفي خارج الباب ثم يطرقه للاستئذان في الدخول إذا سمع أي حركة في الداخل . بيد أن وجود رجال الشرطة يمرون على الأفريز المقابل أجبره على أن يتخلى عن هذه الخطة . وبدلا من ذلك ، سار بسرعة عبر واجهة المنزل وهو يتطلع إلى الشرفات ليرى ما إذا كان هناك من شخص يستطيع أن يوصله إليه . ولكنه لم ير أحدا . وكان من المستحيل أن يقف على الأفريز دون أن يثير الشكوك . وكان في ناصية الطريق المواجه للمنزل حانة صغيرة سيئة السمعة ، فرأى أن أسلم طريقة للبقاء في الحي هو الذهاب إليها وتناول مشروب هناك . زجاجة من البيرة . وتبادل بضع كلمات مع المرأة التي قدمت له الشراب ، ثم حوّل رأسه وكوب البيرة في يده ليرى من يجلس على المقعد المواجه للمحاط . وكان عند دخوله الحانة قد لمح رجلا هناك من طرف عينه . كان الرجل قد أسدل قبعته على جبهته حتى كادت تلامس عينيه ، وربط منديلا حول عنقه ، ورفع ياقة معطفه ، وكان يرتدي بنطالا واسعا وحذاء بساق عالية وأشرطة غير معقودة ، مصنوعا من المطاط والجلد الأصفر وقماش بلون القهوة . ورفع المحبوب عينه شارد الذهن وتطلع إلى الزجاجات المصفوفة على الرفوف ، وحرف « س » المكتوب على مصابيح النور الكهربائي ، وإعلان عن الأنبلية الإسبانية (باخوس إله الخمر يجلس فوق برميل وسط رهبان متفخي البطون ونسوة عاريات) ، وصورة للرئيس أميد إليه فيها شبابه على نحو بشع ، وعلى كتفيه شرائط بالقصب كأنها أشرطة السكك الحديدية ، وملائكة صفار تتوج هامته بأكاليل الغار . صورة ذات فوق رائع ! وبين الفينة والفينة ، كان المحبوب يلتفت ويتطلع إلى منزل الجنرال . سيكون الأمر خطيرا إذا كانت ثمة علاقة تربط الرجل الجالس على المقعد وصاحبة الحانة أكثر من علاقة الصداقة إذ سيثيران المشاكل له . وفك أزرار ستروته ووضع في نفس الوقت ساقا فوق أخرى ، مرتكزا بمرفقه

على حافة البار كما لو لم يكن في عجلة من أمره . ولنفرض أنه طلب كروبا أخرى من البيرة ؟ وطلبها وناول صاحبة الحانة ورقة مالية بمائة بيزو حتى يكسب الوقت ، فربما لا يكون لديها فكة . وفتحت المرأة درج الخوان في ضيق ظاهر ، وفتشت بين أوراق النقد التي فيه ثم أغلقته بعنف . لم يكن لديها أي فكة . نفس الشيء دائماً ! عليها أن تخرج وتبحث عن فكة . وألقت بميدعتها فوق ذراعيها العاريين وخرجت إلى الطريق ، بعد أن ألقت نظرة على الرجل الجالس على المقعد ، كأنما تحذره بأن عليه أن يراقب زبونها الآخر : أن يتأكد أنه لن يسرق شيئاً . وكان ذلك ترتيباً لا نفع يرجى منه ، لأنه في نفس تلك اللحظة ، خرجت فتاة من منزل الجنرال كأنها قد سقطت من السماء ، وقفز ذو الوجه الملائكي إلى الخارج في لمح البصر .

قال وهو يسير إلى جوار الفتاة : يا أنسة ، هل لك أن تخبري سيد المنزل الذي خرجت منه ترواً أن لدي شيئاً عاجلاً للغاية أود أن أقوله له ؟

- والدي ؟

- هل أنت ابنة الجنرال ؟

- أجل .

- إذن ، لا تتوقفي ، كلا ، كلا ، استمري في السير ، لا بد أن نواصل السير . هاك بطاقتي . أرجوك أن تخبريه أنني سوف أنتظره في منزلي في أقرب وقت ممكن ؛ وأنني ذاهب إلى هناك مباشرة وسوف أنتظره ، وأن حياته في خطر . أجل ، أجل ، في منزلي في أسرع وقت ممكن .

وأطاح الريح بقبعته فكان عليه أن يجري ليمسك بها . طارت من أمامه مرتين أو ثلاث مرات ، وأخيراً ، أمسك بها بحركة عنيفة كمن يمسك دجاجة في حظيرة للدواجن .

وعاد إلى الحانة بحجة أخذ باقي نقوده ، ولكنه كان يريد في الحقيقة أن يرى الانطباع الذي خلفه خروجه المفاجئ ، على الرجل الجالس على المقعد ، ووجهه يجاهد مع صاحبة الحانة : كان ظهرها إلى الحائط ، بينما شفتاه المشتاقتان تنشدان قبلة من شفتيهما . وصاحت به حين تركها أخيراً ، مذعورة من وقع خطوات ذي الوجه الملائكي المقتربة : « أيها الشرطي البائس ، أنت أيها الحفير ، هذا هو الاسم الجدير بك !

ورأى ذو الوجه الملائكي أن من المناسب لخطته أن يتدخل بلطف في الأمر ،
فتناول الزجاجاة التي كانت صاحبة الحانة تلوح بها متوعدة ، وتطلع إلى الرجل
بإمعان .

« مهلا مهلا يا سيدي ! يا للسما ، يا لها من حكاية ! هيا ، نخفي باقي
التفود لك عوضاً عن ذلك . لن نكسي شيئاً من الشجار ، وربما تحضر الشرطة ،
فضلاً عن أن صديقنا هذا... » .

- لوسيو فاسكيز ، في خدمتك .

وصاحت المرأة : لوسيو فاسكيز ! بالأحرى « سوسيو باسكاس »* !
الشرطة ، دائماً الشرطة . فليجربوا ، فليجربوا ويأتوا هنا . إني لا أخاف أحداً ،
كما إني لست من الهنود ، أسمعني ؟ ، حتى يخيفني بسجن « كاسا نويفا » !

فتنتم فاسكيز وهو يصبق شيئاً ابتلعه عن طريق الخطأ :

- إن بإمكانك أن أضحك في دار للدعارة إن أنا أحببت !

- وهو كذلك يا سيدي ، فلم أكن أقول أي شيء .

وكان صوت فاسكيز كريهاً ، فقد كان يتحدث بطريقة اثوية ، بعبارات
قصيرة متكلفة . وكان واقفاً في غرام صاحبة الحانة لقمة رأسه ، ويجاهد معها ليلاً
ونهاراً حتى تعطيه قبلة واحدة عن طيب خاطر ، فقد كان هذا هو كل ما يطلبه .
بيد أنها كانت ترفض دائماً ، على أساس أنها إذا قبلت أن تمنحه قبلة فإن ذلك يعني
منحه كل شيء . ولم يفلح مع صاحبة الحانة أي شيء : الرجاءات ، التهديدات ،
الهدايا الصغيرة ، الدموع الحقيقية أو الزائفة ، الأغاني الغرامية بالليل ،
الأكاذيب ، فقد كانت عنيدة في رفضها ، ولم تستسلم أبداً ، ولم تسمح لنفسها أن
تتأثر بهذا التزلف . وكانت تقول دائماً : « فليعرف تماماً أي شخص يحاول أن
يطارحني الحب أنه سيخوض في سبيل ذلك أهوالاً » .

ومضى ذو الوجه الملائكي يقول كأنما يجادل نفسه ، وهو يحك بسبابته قرشاً
معدنياً فوق على الحائط : « بما أننا قد سوينا أمرنا ، فسوف أحكي لكما قصتي »
الفتاة التي تسكن في المنزل المواجه » .

* لي الحاتلة الفترة بالإسبانية .

وبدا يحكي لهما أن صديقاً له طلب منه أن يرى ما إذا كانت تلك الفتاة قد تسلمت خطاباً أرسله لها ، حين قاطعته صاحبة الخانة تائلة :

- إن أي شخص يرى صراحة أنك أنت الذي تسعى وراءها أيها الوغد المحظوظ !

وطرأت فكرة مفاجئة في ذهن المحبوب . وهو يسعى وراءها . . . ولكن أسرتهما تقف ضدهما . . . بتظاهر بأنه سيخطفها .

واستمر يحك سببته في القرش المعدني المدفوق على الحائط ، ولكن بقوة أشد هذه المرة .

قال ذو الوجه الملائكي : « هذا صحيح ، ولكن المشكلة هي أن والدها لا يوافق على زواجنا » .

فصاح فاسكيز : « نبا لذلك الرجل العجوز . لشد ما يعبس حين يراني ، كأنما هي غلطتي أن أتبعه في كل مكان يذهب إليه حسب الأوامر ! »

فقالت صاحبة الخانة بخبث : هكذا حال الأغنياء على الدوام !

وشرح ذو الوجه الملائكي قائلاً : ولهذا فاني اخطط للهرب مع الفتاة . وقد وافقت هي . لقد كنا نبحث ذلك الأمر منذ هنيهة وسوف ننفذ خطة الهرب الليلة .
وابتسمت صاحبة الخانة وفاسكيز .

قال فاسكيز : « لتتناول شراباً . هذا أفضل » ثم التفت وقدم سيجارة إلى ذي الوجه الملائكي : « أتدخن ؟ » .

- كلا شكراً . حناً ، سأتناول واحدة حتى ندشن صداقتنا .

وملات المرأة ثلاثة أقداح بينما كانا يشعلان سيجارتهما .

وبعد برهة قال ذو الوجه الملائكي بعد أن سرى المشروب السحري في جسده :

- إذن يمكنني أن أعتمد عليكما ؟ مهما حدث ، سأحتاج إلى معرفتكما . ولكن

يجب أن يكون ذلك اليوم ! » .

قال فاسكيز : لا يمكنني المشاركة بعد الحادية عشرة مساءً ، فعلى يبدأ آنذاك . ولكن هذه المرأة هنا » .

- هذه المرأة أفضل منك ! حسن لسانك !

فعاد يقول وهو ينظر إلى صاحبة الحانة : هي ، « لا مسكواتا » ، سوف تحل محلي . إنها تساوي رجلين . إلا إذا رغبت أن أرسل لك أحداً مكاني ؛ إن أحد أصدقائي سيقابلني الليلة في الحى الصبني .

فقالت المرأة : لماذا بالله عليك تهر دانتها « خينارو روداس » وراءك في كل شيء ، ذلك الأشبه بماء جوز الهند ؟

فتساءل ذو الوجه الملائكي : ما معنى ماء جوز الهند ذلك ؟

- ذلك لأنه يبدو كالقوت ، إنه مخطوف . . . اللون !

- وما صلة هذا بمهمتنا ؟

فقال فاسكيز : لا أدري فيه ما يعيب

قالت المرأة : بل هناك ما يعيبه ، وأسفة لأن أقطع كلامكما يا سيدي . لم أحب أن أخبرك بذلك ، ولكن « فيدينا » زوجة « خينارو روداس » قد حكمت للجميع أن ابنة الجفراي ستكون إشيينة طفلها عند ولادته ، ومن هنا ترى أن صديقك « خينارو » ليس هو الشخص المناسب للعمل الذي يعتزم هذا السيد أن يقوم به .

- كلام فارغ .

- كل شيء عندك كلام فارغ .

وشكر ذو الوجه الملائكي فاسكيز على لطفه ، وأخبره أن من الأفضل ألا يشرك صديقه « ماء جوز الهند » في الموضوع ، لأنه - كما قالت المرأة - لا يمكن اعتباره محايداً . وأضاف :

- « خسارة يا صديقي فاسكيز ألا تتمكن من مساعدتي هذه المرة » .

- إنني آسف أيضاً لعدم مشاركتي في الأمر ، و علمت لكنت قد طلبت إجازة هذه الليلة .

- هل يمكن نسوية الأمر بدفع شيء من النقد . . .

- « كلا ، لست معتاداً على ذلك ، لا فائدة ، و رفع يديه وغطى بهما أذنيه .

- حسناً ، لا مناص من ذلك . سوف أعود إلى هنا قبل الفجر ، حوالي الثانية إلا ربعاً أو الواحدة والنصف صباحاً ، لأنني أمور الغرام ، لا بد من طرق الحديد وهو ساخن .

وودعهما وسار إلى الباب وهو يرفع ساعة يده إلى أذنه ليرى ما إذا كانت تعمل - وكان لا يرتجف دقائقها المتواترة ما ينذر بالشر - نه أسرع خارجاً ولفصاعه الأسود ملفوف على وجهه الشاحب . كان يحمل في يديه رأس الخنزير ، وشيئاً آخر .

غفران كبير الأساقفة

توقف « خينارو روداس » إلى جوار الحائط كيما يشعل سيجارة . وحين حك
عود الثقاب جانب العلبة ، ظهر « لوميسو فاسكيز » . وكان ثمة كلب يتقيا إلى
جوار سور أحد الأضرحة الحديدية .

ومهم « روداس » عند مرأى صديقه : « ظهر الشيطان ! » ، وحياء « فاسكيز »
قائلا : « كيف حالك » . واستمرا يسيران .

- كيف حالك أيها العجوز ؟

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- ما هذا السؤال ؟ أنت تمزح ؟ ألم تنفق على أن نتقابل هنا ؟

- آه ، آه . لقد ظننت أنك نسيت . سوف أقص عليك آخر تطورات
موضوعك ، ولكن هيا بنا تناول شرابا . هيا ، فلنذهب عن طريق « رواق
الرب » لنرى ما إذا كان ثمة شيء هناك .

- لا أظن أن ثمة شيئا هناك ، ولكن فلنذهب إذا شئت . منذ أن منعوا
الشحاذين من النوم هناك ، لم يعد يرى في تلك المنطقة أي قطة بالليل .

- هذا أفضل . فلنعبر عن طريق فناء الكتدراية ، إذا رأيت ذلك . يا لشدة
الرياح !

ومنذ مصرع الكولونيل « باراليس سونرينتي » ، لم يفارق رجال الشرطة
السرية منطقة « رواق الرب » لحظة واحدة . وكان يختار للحراسة في ذلك المكان
أفسى الرجال وأشداهم خشونة .

وعبر « فاسكيز » وصديقه الرواق من أوله إلى آخره ، وصعدا السلم الذي يفضي إلى ناصية قصر رئيس الأساقفة ، وخرجا من جانب منطقة « المئة باب » . وكانت أعمدة الكتدرائية تلقي بظلالها في المكان الذي اعتاد الشحاذون أن يناموا فيه . وكان ثمة سلم خشبي ، وآخر ، وآخر ، مما يشهد بأن النقاشين سوف يقومون بإعادة الشباب لأبواب المبنى ونوافذه . والواقع أن البلدية كانت لديها خطط لإظهار تأييدها المطلق لرئيس الجمهورية ، وعلى رأس هذه الخطط طلاء وإصلاح المبنى الذي كان مسرحا للاغتيال المشين لأحد ضباطه ، على أن يتكفل بالنفقات الأتراك الذين يمتلكون « بازارا » في المنطقة تفوح منه دالها روائح نفايات تحترق ! وكان الفرار الحازم الذي اتخذهُ أعضاء مجلس البلدية حين طُرح عليهم موضوع النقود : « فليدع الأتراك ، فهم مسؤولون على نحو ما عن مصرع الكولونيل « باراليس سونريني » ، لأنهم يقيمون في المكان الذي وقعت فيه الحادثة » . ونتيجة لهذا الإجراء الانتقامي ، كان الأمر سيتهي بالأتراك إلى أن يصبحوا أشد فقرا من الشحاذين الذين اعتادوا أن يناموا على أعتاب أبوابهم ، ولم يجد لهم بعض الأصدقاء من ذوي النفوذ بد المعونة فدفَعوا ثمن الطلاء والتنظيف . وإصلاح إضاءة الكتدرائية ، بأذن دفع مالية من وزارة الخزانة مشتراة بنصف قيمتها .

بيد أن وجود الشرطة السرية كان مدعاة لقلق هؤلاء التجار الأتراك . وكانوا يتساءلون فيما بينهم عن سبب وجود هذه الحراسة المشددة : ألم تتحول أذون الدفع إلى دلاء من الغلاء الأبيض ؟ ألم يشتروا على حسابهم فرشاً للطلاء في طول لحي أنبياء بني إسرائيل ؟ وقد دفعهم حرصهم إلى زيادة عدد القضبان الحديدية والمزاليج والأقفال على أبواب حوانيتهم .

وغادر « فاسكيز » و« روداس » الرواق من الناحية القريبة من « المائة باب » . وابتلع الصمت صوت خطواتها الثقيلة . وبعد أن قطعوا شوطاً من الطريق ، دلفا إلى بار يدعى « صحوة الأسد » . وحيا « فاسكيز » البارمان وطلب زجاجة تبيد وكاسين ، وجلس مع « روداس » إلى مائدة صغيرة وراء ستار .

سأله « روداس » : حسناً ، أي أخبار عندك عني ؟

فرفع فاسكيز كأسه قائلاً : في صحتك .

- في صحتك .

وأضاف البارمان الذي كان قد حضر إلى مائدتها لتقديم الطلبات ، بصورة ألبية : « في صحتكما أيها السيدان » .

وأفرغ كلاهما كأسيهما دفعة واحدة .

- لم يحدث تقدم بالنسبة لذلك الموضوع . . .

بصق « فاسكيز » تلك العبارة مع آخر جرعة من كأسه ممتزجة بالرضاب الذي بعثه فيه ، وأضاف : « لقد وضع مساعد المدير اسم أحد أقربائه بدلا منك ، وحين تدخلت من أجلك ، كانوا قد أعطوا الوظيفة بالفعل لذلك القدر .

- يا للحظ السيء !

- ولكن : حين يأمر الربان بشيء فعلى البحار أن يطيع وهو صامت . لقد جعلته يشعر أنك مشتاق للالتحاق بالشرطة السرية ، وأنت رجل يعتمد عليه . إنك تعرف من هو فاسكيز !

- وماذا قال لك ؟

- ما سبق أن قلته لك : إن هناك شخصا من أقاربه للوظيفة ، وبهذا فقد أفحمني . إن ما أقوله لك الآن ان الالتحاق بالشرطة السرية أصعب الآن مما كان عليه سابقا حين التحقت أنا بها . إن الكل يتسابق عليها باعتبارها ذات مستقبل عظيم .

ورد « روداس » على كلمات صديقه بهزة من كتفيه وتعليق غير مفهوم . لقد حضر وكله أمل في أن يحظى بالوظيفة .

- لا تكن متشائما هكذا . حالما أسمع عن وظيفة أخرى شاغرة ، فهي لك . أحلف بالله ، بأمي ، أنها لك ؛ الآن بصفة خاصة بعد أن تازمت الأمور لا بد أن يحتاجوا إلى المزيد من الرجال . ألم أحبك لك . . . ؟

وحين قال « فاسكيز » ذلك ، تلفت حوله في عصبية ثم أضاف :

- كلا ، لست فرثارا ، من الأفضل لي أن أسكت .

- حسناً ، لا تحك لي شيئاً ، إنني لا أهتم بذلك .

- إنه موضوع خطير . . .

- إسمع أيها العجوز ، لا تحك لي شيئا ، اسكت من فضلك . إنك لا تثق بي ، ها ، إنك لا تثق بي . . .

- بل أثق بك يا صديقي . . يا لك من شخص حساس !

- إسمع ؛ إسكت ، فانا لا أحب هذه الشكوك . إنك كالنساء ! إني لم اطلب منك أن تقول لي أي شيء حتى تتصرف على هذا النحو !

ووقف « فاسكيز » ليرى ما إذا كان نمة أحد على مرمى السمع منهما ، ثم تحدث في تبرة خفيفة وهو يقترب من « روداس » ، الذي اخذ ينصت إليه عابسا ولما يزل مستاء من تكتمه في الأمر .

- لا أدري إذا ما كنت قد قلت لك إن الشحاذين الذين كانوا ينامون في « رواق الرب » ليلة مقتل الكولونيل « سونريتي » قد اعترفوا أخيرا ، ومن ثم فلا يوجد مخلوق لا يعلم من الذي قتل الكولونيل . . وأضاف رافعا صوته : « من هو في ظنك ؟ » ثم قال خافضا صوته إلى حد يتلامم مع رجل من الشرطة السرية : « ليس غير الجنرال « إيوسيو كاناليس » والمحامي « قابيل كرفخال » . . .

- أحقيقي ما تقول لي الآن ؟

- لقد صدر الأمر باعتقالها اليوم . ها أنت تعرف كل شيء الآن .

قال « روداس » وقد هدأت نفسه : « إذن فالأمر كذلك ! ذلك الكولونيل الذي يحكون أن باستطاعته قتل ذبابة بطلقة من مسدسه على بعد مائة خطوة ، وكان مكروها من الجميع ، لم يقض عليه مسدس ولا سيف ، بل انقصفت رقبته كالدجاجة بإمكان المرء فعل أي شيء في هذا العالم إذا هو صمم على ذلك . ذلك الخنزير القاتل !

واقترح فاسكيز دورة أخرى من الشراب ، ونادى :

- كأسان آخران يا سيد « لوتشو » .

وملا « لوتشو » النادل كأسيهما مرة أخرى . وكان يخدم التربائن مرتدياً مبدعة من الحرير الأسود .

وصاح فاسكيز : « عليك بالكأس ! » وأضاف من بين أسنانه بعد أن بصق :

« إنني أكره أن أرى كأساً ملان ، فلنعلم ذلك إن كنت لا تعرف . في صحتك ! »

كان القلق قد بدا على روداس ، بيد أنه أفرغ كأسه في عجلة ، وقال وهو يزيجها عن فمه :

- إن من أرسل الكولونيل إلى العالم الآخر ليس من البلاهة بحيث يعود إلى مكان فعلته مرة أخرى ، في أي وقت .

- ومن قال إنه سيعود ؟

- ماذا ؟

- إسمع . . . يمكن أن يحدث أي شيء بينما هم يبحثون . . . هاهاها . . .

لقد جعلتني أضحك !

- إن ما تقول هو ما يبحث على الضحك ، ولكني أقول إنهم ما داموا يعرفون من قتل الكولونيل ، فلا قيمة لأن يففوا في « رواق الرب » في انتظار عودته كيما بمسكوا به . . . أو لا تقل لي انكم هنا من أجل عيون الأتراك ؟

- لا تقل مثل هذا الهذر !

- وأنت لا تقل لي هذه القصص العجيبة في مثل هذا الوقت من الليل !

- إن ما تفعله الشرطة السرية في « رواق الرب » لا شأن له بمحنة الكولونيل « باراليس » ولا يملك معرفته . . .

- كما لو كنت تعرف كل شيء .

- اني أعرف ما يعني معرفته .

- وأنا يتعين أن أعرف !

- كف عن هذا الهذر . الواقع أن وجود الشرطة السرية في الرواق لا علاقة له بالجريمة . حقيقة ، كلا . لن تتخيل ما تفعل هنا . . . إننا في انتظار رجل مصاب بسعار الكلاب .

- بالله عليك !

- أتذكر ذلك الآخرس الذي يصيحون به « أماء » في الطرقات ؟ ذلك الرجل

الطويل الأعرج ، الملتوي الساقين ، الذي يجري في الطرقات كالمجنون . . .
أتذكره ؟ أجل بالطبع أتذكره . حسناً ، إننا نترقب وصول هذا الشخص إلى رواق
الكنسائية ، حيث اختفى من هناك منذ ثلاثة أيام . سوف نرشق جسده
بالرصاصة . . . هـ

ووضع فاسكيز يده على مسدسه حين نطق بالعبارة الأخيرة .

- والله لقد أخففتي يا شيخ !

- كلا يا رجل . لم أقل ذلك لأخيفك . إنها الحقيقة ، صدقتي ، إنها
الحقيقة . لقد عضّ عددا من الناس وأوصى الأطباء بإعطائه جرعة من
الرضاص . ما رأيك ؟

- إنك تسخر مني ، ولكن لم يولد بعد من يستطيع خداعي . إن رجال
الشرطة ينتظرون في « رواق الرب » من قتل الكولونيل . . .

- يا إلهي ، كلا ! يا لك من عنيد صلب الرأي ! إنهم ينتظرون الآخرس ،
كما قلت لك ، الآخرس ، الآخرس المصاب بالسعار والذي عضّ كثيرا من
الناس ! هل تريد أن أعيد ذلك على مامعك ؟



أخذ الأبله يجر جسده في الطريق ، متأوهاً من جراحه ؛ يسير أحيانا على
أربع ، ملتويا ، دافعا جسده بأطراف قدميه ، يحك بطنه في الصخور ، وأحيانا
يعتمد على ساقه السليمة واحد مرفقيه ، بينما الألم يعتصر جانبه . وأخيرا ، لاح
الميدان أمامه . وكانت الريح تعصف بأشجار الحديقة فتتردد كأنها صرخات
النور . واجتاح الأبله الرعب حتى أنه بقي برهة غائبا عن الوعي ، وتبدى له في
لسانه الذي أصبح جافا متفخا كالسمكة الملقاة في الرماد ، والعرق الذي غطي
فخذه . وصعد إلى « رواق الرب » خطوة خطوة ، ساحبا جسده كأنه قطعة
تموت ، ثم أقعى في جانب ظليل ، فاغر القم ، جاحظ العينين ، وقد تجمدت
على أسنانه بقع الدماء والطين . واختلط الصمت بوقع أقدام العابرين في هذا
الوقت المتأخر ، وطققة بناق الحراس ، وصوت الكلاب الضالة تمشي بخطوات
بطيئة ، وأنفها تجاه الأرض ، تبحث عن عظام وسط مزق الورق وأوراق الشجر
التي أطارها الريح إلى « رواق الرب » .

وأعاد « لوتشو » ملء كأسه النبيذ الكبيرين ، من النوع الذي يعرف بالكأس ذي الدورين . وقال « فاسكيز » في نبذة أحد من المعتاد ، في عبارات قطعها البصاق مرتين : « لماذا لا تصدقني بحق الجحيم ؟ ألم أقل لك انه في حوالي الساعة من هذا المساء - أو ربما الساعة التاسعة والنصف - وقبل أن الاقبيك هنا ، كنت أغازل « لامسكواتا » ، صاحبة حانة « الخطرتان » حين دخل إلى حانيتها شاب طلب كأسا من البيرة . وبعد أن أحضرت له الكأس ، طلب آخر ودفع لها ورقة بمائة بيزو . ولم يكن معها فكة ، وخرجت تبحث عن فكة . بيد أني تيقظت له غاما ، لأنه حالما دخل ، شممت فيه رائحة الخطرين . وكأنما كنت أعرف الأمر مسبقا ! فقد خرجت فتاة من المنزل المقابل ، وما كادت تخطو خارجة حتى ذهب ذلك الشاب ولحق بها . ولكني لم أر غير هذا ، لأن « لامسكواتا » عادت من الخارج في تلك اللحظة ، فكان عليّ - كما تعلم - أن أعاود مغازلتها ثانية . . .

- وماذا عن المائة بيزو . . . ؟

- إنتظر وسأحكى لك كل شيء : كنا نتصارع ، أنا وهي ، حين عاد ذلك الشاب للحصول على باقي نقوده ، ووجدني احتضنها ، وعندها أفضى بصره وأخبرنا أنه متيم بحب ابنة الجنرال « كاناليس » وأنه يفكر في الهرب معها في هذه الليلة ذاتها إذا أمكن ذلك . وكانت الفتاة التي خرجت من المنزل لمقابلته هي ابنة الجنرال « كاناليس » نفسها . ولا يمكن أن تتصور كم ألح عليّ من أجل أن أساعده في خطته ، ولكني لم أكن أستطيع عمل شيء وأنا مكلف تلك المهمة في « رواق الرب » .

- يا لها من حكاية !

- وألحق « روداس » ملاحظته تلك ببصقة من لعابه .

- والشيء الغريب هو أنني شاهدت ذلك الشاب مرارا عند قصر رئيس الجمهورية .

- إذن لا بد أن يكون أحد أفراد عائلته .

- كلا ، لا يمكن أن يكون من نفس الأرومة . إن ما أريد أن أعرفه هو ، لماذا هذه اللهفة لخطف الفتاة هذه الليلة بالذات ؟ لا بد أنه يعلم شيئا عن إلقاء القبض على الجنرال ويعمل على أن يهرب بها حين يكون الجنود مشغولين بالقبض

على العجوز .

- لقد أصبت كبد الحقيقة ، لا شك في ذلك .

- كأس صغير آخر ، ثم تنهض إلى العمل .

وملا « لوتشو » كأسى الصديقين ، فأفرغاهما على الفور . ويصفا تجاه دوائر
البصاق وأعقاب السجائر التي تغطي أرض المكان .

- كم حسابك يا سيد « لوتشو » ؟

- ستة عشر قرشا ونصف . . .

فسأل « روداس » : الواحد . . . ؟

فرد النادل : « كلا ، الاثنان » بينما كان فاسكيز يحصي النقود .

- سلاما يا سيد « لوتشو » .

- نراك على خير يا سيد « لوتشيتو » .

وإمتزج صوتهما بصوت النادل الذي اصطحبهما إلى الباب مودعا .

وصاح « روداس » وهو يمسك يديه في جيبي بنطاله حين خرجا إلى
الطريق : « يا لله ، إن البرد شديد » .

ومشيا في ببطء حتى بلغا الحوانيت القريبة من السجن ، من الناحية التي تطل
على « رواق الرب » ، وتوقفا هناك بناء على إقتراح من فاسكيز . كان يشعر
بالسعادة ، ومد ذراعيه إلى الأمام كأنما ليخلص نفسه من حمل من الحمول . وقال
وهو يتمطى : « هذه هي صحوة الأسد حقا ، بشعره الأمامي المعقوص ! لا بد أن
الأسد يتحمل كثيرا من المشاق في سبيل أن يكون أسدا . إنهج قليلا يا رجل ،
هه ؟ لالان الليلة هي ليلتي . الليلة ليلتي ، أقول لك ، الليلة ليلتي ! » .

وبفضل تردينه لهذه الكلمات برنة ثابتة تزداد حدة في كل مرة ، بدا وكأنه
يجمل الليل دقا أسود مزدانا بأجراس ذهبية ، وكأنه يصافح أصدقاء خفيين في وسط
الرياح ، وكأنه يدعو الأراجوز الذي يسكن بيتا في الرواق كي يمثل أمامه هو
وعرائسه الخشبية ليدغدغوا حلقه حتى يكاد ينفجر من الضحك . وضحك . . .
وضحك . . . وحاول القيام بعدة خطوات راقصة ويداء في جيب صدره ، ثم
ماتت ضحكته فجأة وتحولت إلى أنين ، واستحالت سعادته ألما . وقوس جسده

ليحمي فمه من غشيان أمعائه . وصمت فجأة ، وتصلبت ضحكته في فمه كأنها
الخص الذي يستخدمه أطباء الأسنان لقياس حجم الأسنان . لقد لمح الأبله ،
ودوى وقع أقدامه خلال الرواق الساكن ، وضاعف المبني العتيق منها ، مرتين ،
ثماني مرات ، اثنتي عشرة مرة . كان الأبله يئن ، مرة برفق ، ومرة بصوت عالٍ ،
كالكلب الجريح . ودوت صرخة في سواد الليل ؛ فقد اقترب « فاسكينز » من
الأبله ومسده في يده ، ليجره من ساقه الجريحة إلى رأس السلم الذي يفضي إلى
ناصية قصر كبير الأساقفة . وشهد « روداس » الموقف دون أن يتحرك ، لاهث
النفس غارقا في عرقه . وعند أول طلقة من المسدس ، تدحرج الأبله على درجات
السلم . وقضت الطلقة الثانية عليه . وانكمش الأتراك على أنفسهم فيما بين
الطلقتين . ولم ير أحد أي شيء . بيد أن ثمة قديسا كان يطل من إحدى شرفات
قصر كبير الأساقفة ، يساعد الرجل سيء الحظ ساعة احتضاره . وفي اللحظة التي
تدحرج فيها جسده على درجات السلم ، امتدت إليه يد ترندي خائما من الأحجار
الكريمة ومنحته الغفران ، وفتحت له باب مملكة السماء .

أراجوز الرواق

فور أن دوت طلقتا الرصاص ، وعلت صرخات الأبله ومرب فاسكيز
وصديقه ، بدت الطرقات وكأنها نهمري وراء بعضها بعضاً ، وقد تشرت بخفيف
التياب تحت ضوء القمر ، وذلك دون أن تدري ماذا حدث ؛ بينما نبضت أشجار
الميدان أصابعها في يأس لأنها لا تستطيع البوح بما حدث لا عن طريق الريح
التي تسري خلال أوراقها ولا أعمدة الهاتف التي تنتصب وسطها . وأطلت
الطرقات على المقارق تتساءل فيما بينها عن المكان الذي وقعت فيه الجريمة ، ثم
هرع بعضها إلى وسط المدينة والبعض الآخر إلى الضواحي ، وكأنها قد ضلت
الطريق . كلا ، لم تقع الجريمة في «حارة اليهود» الملتفة المثوية كأنها خطتها يد
رسام مخمور ؛ ولا في «حارة اسكونتيا» التي اشتهرت يوماً ما حين قام بعض أبناء
النبلاء من الشبان بإحياء أيام الفروسية فيها بإعمال سيوفهم في أجساد رجال
الشرطة المرتشين ، ولا في «حارة الملك» التي يغشاها المقامرون ، والتي يقال إنه لا
يمكن لأحد أن يمر بها دون أن يحيي الملك ؛ ولا في «حارة القديسة تيريزا» ، وهي
تل منحدر يمر في حي موحش ؛ ولا في «حارة الأرنب» ؛ ولا بالقرب من نافورة
«هافانا» ، ولا عند «الشوارع الخمسة» ؛ ولا في حي «المارتينيك» .

بل وقعت الجريمة في «الميدان الرئيسي» ، حيث تسيل المياه على الدوام من
المراحيض العمومية كأنها دموع البائسين ، وحيث رجال الحرس لا يكفون عن
استعراض سلاحهم ، والليل يلف ويدور حول الكتدرائية تحت قبة السماء
الثلجية . وكانت الرياح تحفق كأنها اضطرام دماء تنزف من صدغ النخلة طلقات
رصاص بالجراح . ولكنها لم تغلج في انتزاع الأوراق المثبتة في تسلط عمل رؤوس
الأشجار .

وانفتح فجأة باب في أحد مساكن « رواق الرب » ، وأطل منه الأراجوز كالقار . ردفته زوجته ، بحب استطاع فتاة صغيرة في الخمسين من عمرها ، إلى الشارع كي يرى ما يجري فيه ويصف لها ما يراه . ماذا حدث ؟ ما معنى تينك الطلقين ، الواحدة في ذيل الأخرى ؟ ولم يهتم الأراجوز بأن يظهر على الباب في ملابسه الداخلية ليرضي نزوات السيدة بنجاميون ، كما أصبحت زوجته تدعي (ربما لأن اسمه بنيامين) ، ورأى أن زوجته قد جانبها الصواب حين طغت عليها الرغبة في معرفة ما إذا كان أحد الأتراك قد قتل ، إلى درجة أن غرست أظافرها في ضلوعه كأنها عشرة مهمازات كيما تدفعه إلى أن يبرز رأسه إلى الخارج بأقصى ما يستطيع .

- ولكني لا أرى شيئاً يا امرأة ! ماذا تتوقعين مني أن أقول لك ؟ علام كل هذا الإلحاح ؟

- ماذا تقول ؟ هل وقع ذلك في حي الأتراك ؟
- أقول لك أنني لا أرى شيئاً ، وإن كل هذا الإلحاح ...
- أوضح كلامك بحق الله !

كان الأراجوز ، حين يخلع أسنانه الصناعية ليتكلم ، يحرك فمه جيئة وذهاباً كأنه فقاعة هواء .

- آه ، أجل ، إنني أرى الآن ! انتظري لحظة . إنني أرى ما الأمر . فقالت المرأة في شبه همس : ولكن يا بنيامين ، لا أستطيع أن أفهم كلمة واحدة مما تقول . ألا تدرك ذلك . لا أستطيع فهم كلمة مما تقول !

- إنني أرى الآن ، إنني أرى الآن . هناك جمع من الناس يجتشد هناك عند ناصية قصر كبير الأساقفة .

- ابتعد عن الباب إذا كنت لا ترى شيئاً . لا نفع فيك البتة ! لا أفهم شيئاً مما تقول .

وأفسح السيد بنيامين مكاناً لزوجته ، التي تبذت عند الباب في حالة شعناء ، وأحد ندييها يتدلى من قميص نومها القطني الأصفر ، والآخر مشبك في صورة العنقاء المعلقة على الباب .

وكان آخر ما قاله السيد بنيامين الأراجوز إنهم يحضرون نقالة !

- آه ، حسناً ، إن الحادث هناك وليس في حي الأتراك كما كنت أعتقد . لماذا لم تقل هذا من البداية يا بنيامين ؟ حسناً ، لهذا كان صوت الطلقات قريباً بطبيعة الحال .

وقال الأراجوز : انظري ، ألا ترىهم يحضرون نقالة ؟ ، وبدأ صوته إذ هو يتحدث خلف زوجته وكأنه أت من أعماق الأرض .

- إسكت ! لا أعرف عم تحدث . أفضل لك أن تذهب ونضع أسنانك الصناعية ، فيدونها تبدو وكأنك تتحدث لغة أجنبية !
- قلت إنني رأيتهم يحضرون نقالة .
- كلا ، إنهم يحضرونها الآن فقط ؟
- كلا يا فتاتي العزيزة ، لقد كانت هناك من قبل !
- أقول لك إنهم يحضرونها الآن ، إنني لست عمياء .
- لا أدري ، ولكنني رأيتهم . . .
- ماذا رأيت ؟ النقالة ؟

كان السيد بنيامين لا يكاد يبلغ المتر الواحد طويلاً ، نحيلاً ، غزير الشعر كالوطايط ؛ وتعذر عليه أن يرى ماذا يفعل حشد من الناس والشرطة من وراء كتف السيدة بنجاميون زوجته ، وهي امرأة هائلة البنية ، تحتاج إلى مقعدين في الترام : مقعد لكل فخذ ، وما يربو على سبعة أمتار من القماش للرداء الواحد .

وقال السيد بنيامين محاولاً الهرب من هذه الحالة من الخسوف الكامل :
« ولكنك تتفرجين وحدك الآن » .

وكأنما كان قد قال : « افتح يا سمسم ! » فقد استدارت السيدة بنجاميون جانباً كالجبل وأمسكت به في قبضتها . وصاحت : « بحق العذراء ، ها أنا أرفعك لترى ! » وحملته بين ذراعيها كطفل وجذبتة إلى الباب .

ويصق الأراجوز بصاقاً أخضر وأرجوانياً ويرتقالياً ومن كل لون . وبينما كان يرفس صدر زوجته ويطنها ، كان ثمة أربعة رجال مخمورين يعبرون الطرف الأقصى من الميدان حاملين جثة الأبله على نقالة . ورسمت السيدة بنجاميون

علامة الصليب . لهذا كانت المراحيض العمومية تبكي على الميت ، والرياح تعصف كأنها صوت النسور بين أشجار الحديقة ذات اللون الشاحب الترابي .

وهنف الأراجوز حين عادت قدماء تلمسان الأرض : كان على القسيس الذي عقد زواجنا أن يقول لي انه يعطيني ممرضة وليس خادمة ، عليه اللعنة ! .

وتركته نصفه الحلو يتكلم : وليست عبارة « نصفه الحلو » بالمبارة المناسبة هنا ، فهي كالبطيخة إذا كان هو نصف البرنقالة التي تبحث عن نصفها الآخر . وتركته يتكلم ، بدافع صاير من جزء منه عن عدم فهمها كلمة مما يقول حين يخلع أسنانه الاصطناعية ، وفي الجزء الآخر عن احترامها له .

وبعد مضي ربع ساعة ، كانت السيدة بنجاميون تغط في نومها كأنها أجهزتها التنفسية تكافح من أجل الحياة داخل برميل اللحم هذا ، بينما كان زوجها لا يزال يلعن اليوم الذي تزوج فيه منها وعيناه تقدحان شررا .

بيد أن ذلك الحادث غير العادي عاد بالخبر على مسرح العرائس الذي يقيم أوده . ذلك أن العرائس قد اتخذت من تلك المأساة موضوعاً لها ، وكانت تذرف الدموع قطرة قطرة من عيونها الورقية ، بفضل شبكة من أنابيب صغيرة تغذيها محقنة وحوض ماء . ولم تكن العرائس حتى ذلك الوقت قد عرفت سوى الضحكات ، وكانت إن بكت تفعل ذلك بتقطيب باسم خال من البلاغة التي تضفيها الدموع التي تنساب الآن على خدودها وتسيل على خشبة المسرح التي كانت في السابق محل الكثير من الهزليات الضاحكة .

وكان السيد بنيامين يعتقد أن العنصر التراجيدي في تلك الدراما سيجعل الأطفال يبكون ، ولذلك كانت دهشته عظيمة حين رآهم يضحكون من أعماق قلوبهم أكثر من أي وقت مضى ، مقهقهين ترسم علامات السعادة على وجوههم . كان منظر الدموع يثير ضحك الأطفال . وكان منظر الضربات يثير ضحكهم كذلك .

وخرج السيد بنيامين باستنتاج من ذلك :

- هذا غير منطقي . غير منطقي بالمرّة !

وعارضته السيدة بنجاميون : هذا منطقي . منطقي جداً .

- غير منطقي . غير منطقي . غير منطقي !

- منطقي جدا . منطقي جدا . منطقي جدا .
والمح السيد بنامين : لا تدعينا نتشاجر .
ووافقت قائلة : لا تدعنا نتشاجر .
- ولكن هذا غير منطقي .

- إنه منطقي ، أؤكد لك ذلك ، منطقي جدا ، منطقي للغاية ! كانت
السيدة بنجاميون حين تتشاجر مع زوجها تضيف إلى كلماتها صيغة المبالغة ، كأنها
صمامات الأمان التي تقي من الانفجار .

صاح الأراجوز وهو يكاد يشد شعره من غيظه :
- غير منطقي !

- منطقي ، منطقي ، منطقي للغاية . منطقي للغاية .

ومع ذلك ، مضى الأراجوز الصغير الحجم يستخدم لمدة طويلة حيلة دموع
المحفنة ليجعل العرائس تبكي كيما تسلي الأطفال .

عين زجاجية

كانت الخوانيت الصغيرة في المدينة تغلق أبوابها عند الساعات الأولى من الليل ، بعد أن تراجع حساباتها ، وتتسلم الصحف ، وتصرف آخر زبائنها . وكان ثمة مجموعات من الفتيان يتسللون عند نواصي الطرقات بمطاردة الحشرات الطائرة التي تهوم حول المصابيح الكهربائية . وكانت كل حشرة يسكون بها تعرض لسلسلة من التعذيب ، يطيل منه الأشرار فيهم نتيجة لعدم وجود شخص رحيم بينهم يضع قدمه على هذه المخلوقات وينهي حياتها بسرعة . وكان يرى من النوافذ فتيات يتبادلن الشكوى من تياريح الهوى مع أحبائهن الواقفين في الطريق ، بينما تسير دوريات مسلحة بحراب السونكي أو بالعصي في الشوارع الهادئة في صف مفرد ، يمضون على خطى قائدهم . ومع ذلك كانت هناك أمسيات يكون فيها كل شيء مختلفاً : فكان معذبو الحشرات الطائرة المالمون يلعبون ألعاباً ينظمون فيها في معارك يعتمد طوفاً على وجود المؤن من «الصورايخ» ، فقد كان هؤلاء المحاربون يرفضون التوقف عن اللعب ما دام هناك مدد من الحجارة في الطريق . أما المحبون ، فقد تظهر أم الفناء فجأة فتنتهي هذا الاستعراض الغرامي وترسل بالحبيب المفتون جارياً في الشارع يحمل قبعته وكأثماً الشيطان يطارد . وأحياناً تقع دورية الحرس على أحد المارة فتفتشه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وترسل به إلى السجن ، حتى لو لم يكن يحمل سلاحاً ، بوصفه شخصية مشبوهة ، متشرداً ، متآمراً ، أو كما يقول قائد الدورية « لأن منظره لا يعجبني » .

وفي تلك الساعة من الليل ، كانت الأحياء الفقيرة بالمدينة تعطي انطباعاً بالعزلة المطلقة ، والفاقة الجهلاء ، ومظاهر الإهمال ، وتظل كل هذا قدرية دينية تترك كل شيء لإرادة الله . وكانت ميازيب الأمطار تعكس صورة القمر على

الأرض ، والمياه تتقاطر من صنابير مياه الشرب فتفيس الساعات اللامتناهية لشعب يؤمن بأنه قد حُكم عليه بالعبودية والرذيلة .

وكان «لوسيو فاسكيز» يودع صديقه في أحد هذه الأسياء الفقيرة . قال وهو يغمز بعينه علامة كتمان السر : مع السلامة يا خينارو .. سأذهب لأرى ما إذا كان في الوقت تنسع للمساعدة في خطف ابنة الجنرال .

ووقف خينارو برهة جامدا يتبدى على سيمائه ذلك التعبير الحائر لشخص يتردد في قول عبارة أخيرة لصديق يودعه ! ثم توجه إلى أحد السيوت في ذلك الحلي ، حيث كان يقطن في مسكن أعده في أحد الحوانيت ، وطرق الباب .

وقال صوت من الداخل : من هناك ؟ من الطارق ؟

رد خينارو وهو يحني رأسه كأنما يتحدث إلى شخص قصير جدا :
- إنه أنا .

فقالت المرأة التي فتحت الباب : أنا من ؟

ورفعت زوجته ، «فيدينا دي روداس» ، الشمعة إلى مستوى رأسه لترى وجهه . كان شعرها منكوشا ، وترندي ثياب النوم .

وحين دلف خينارو إلى الداخل ، خفضت الشمعة ، وأعادت مزلاج الباب الحديدي إلى مكانه بصوت عالٍ وتوجهت إلى غرفة النوم دون أن تنطق بكلمة . ثم وضعت الشمعة أمام الساعة حتى يرى ذلك الفأجر الساعة المتأخرة التي عاد فيها إلى بيته . وتوقف لكي يداعب القطة النائمة على المصطبة وحاول أن يصفر بضمه أغنية مرحة .

صاحت «فيدينا» وهي تحك قدميها قبل أن تدلف إلى الفراش :

- أي شيء يجعلك تبدو سعيدا هكذا ؟

فرد خينارو بسرعة من جانب الحانوت المظلم ، وهو يخشى أن تكتشف زوجته رنة القلق في صوته : لا شيء .

- إنك تقابل رجل الشرطة ذاك ذا الصوت النسائي أكثر من ذي قبل الآن .

فقاطعها خينارو وهو يتجه إلى الغرفة الخلفية حيث ينامان ، وقبعته الجوخ

متدلية على عينيه : كلا .

- كاذب ! لقد تركته منذ لحظة ! آه ، إنني أعرف عمن أتحدث ؛ إن رجلاً يتحدث بصوت مائع - لا هو ديك ولا دجاجة - مثل صديقك ذاك لا يمكن أن يأتي الخبر على يديه . إنك تصاحبه لأنك تريد أن تلتحق بالشرطة السرية . تلك الجماعة من المتوحشين الكسالى الذين يجب أن ينجلوا من أنفسهم !

وتساءل خينارو ليفير موضوع الحديث وهو يخرج رداءً صغيراً من سبدورق :
ما هذا ؟

وأخذت « ليدينا » الرداء من زوجها كأنها هوراية من رايات السلام ، وبدأت تحكي بحماسة ، وهي جالسة على الفراش ، أنه هدية من ابنة الجنرال كاناليس ، التي طلبت الأم منها أن تكون إشيينة طفلها الأول عند تعميده . وأخفى « خينارو » وجهه في الظلال المحيطة بمهد ابنه الوليد ، وبدون أن يسمع ما كانت تقول له زوجته عن تربيته التعميد ، رفع يده في ضيق ليبعد ضوء الشمعة عن عينيه ، ثم جذبها بسرعة بعيداً ، وهو يهزها لينظفها من آثار لون الدماء الذي علق بأصابعه . وارتفع شبح الموت من المهد الذي يتنام فيه طفله كأنما هو نعش . إن الموت أيضاً في حاجة إلى الهدنة كالأطفال . كان الشبح يحكي بياض البيضة في لونه ، ذو عينين ضبابيتين ، أصلع الرأس ، بلا حواجب ولا أسنان ، يثني نفسه في دورات حلزونية كتقلصات البخور داخل المجامر التي تستخدم في المراسم الجنائزية . وكان خينارو يسمع صوت زوجته يسعى إلى أذنيه كأنما يأتي من مكان سحيق . كانت تتكلم عن ابنها ، وعن التعميد ، وعن ابنة الجنرال ، وعن دعوة جارنها الملاصقة لهم ، والرجل السمين المواجه لهم وجارنها التي على بعد خطوتين ، والجار الذي يقطن في ناصية الشارع ، وصاحب الخان ، والجزار ، والخباز .

- « ألا يكون ذلك رائعاً ؟ » ثم أضافت بحدة :

- ماذا دهاك يا خينارو ؟

وجفل من وقع صوتها الحاد ، وقال : لا شيء .

لقد غمرت صبيحة زوجته شبح الموت في بقع سوداء صغيرة ، بقع سوداء أبرزت الشبح منتصباً أمام ركن الغرفة المظلم . كان هيكلها عظيمياً لامرأة لم يبق

فيه من الصفات الأنثوية سوى الثديين الغائرين ، رخوين مشعرين كالقشران
المتدلية فوق إطار الضلوع .

- ماذا دهاك يا خينارو ؟

- لا شيء .

- هذه هي نتيجة سهرك في الخارج . إنك تعود إلى المنزل كالسائرين في نومهم ،
مطاطىء الرأس خذلان . لماذا لا تبقى في بيتك أيها الرجل البائس ؟

ويدد صوت زوجته وجود الهيكل العظمي .

- كلا . لا شيء هناك .

كانت ثمة عين تسبح فوق أصابع يده اليمنى كأنها دائرة ضوء منبعث من
مصباح كهربائي ، تنتقل من الأصبع الصغير إلى الأوسط ، ومنه إلى إصبع خاتم
العرس ، ومن إصبع الخاتم إلى السبابة ، ومن السبابة إلى الإبهام . عين . . .
عين واحدة . كان يشعر بها تنبض . وحاول أن يسحقها بأن قبض يده بشدة إلى
أن انفجرت أظافره في راحة يده . بيد أن ذلك كان مستحيلا ، فحين فتح يده
ثانية ، كانت لا تزال هناك مرة أخرى على أصابعه ، لا تزيد في حجمها عن قلب
عصفور ، ولكنها غيفة كنار جهنم . وانبعست من جبهته حبات عرق ساخنة ،
كمرق اللحم . من ذلك الذي يتطلع إليه خلال هذه العين التي استكأنت على
أصابعه ثم تقافزت كأنها كرة عجلة الروليت على وقع الأجراس الجنائزية ؟

وانترعته «فيدينا» من المهد الذي كان ينام فيه طفله .

- ماذا دهاك يا خينارو ؟

- لا شيء .

وبعد برهة ، تنهد مرات عديدة ثم قال :

- «لا شيء» . إن هناك عينا تطاردني ، إن هناك عينا تتبعني ، عينا وراثي أينما

ذهبت ! إنني أرى يدي - كلا ! هذا مستحيل ! إنها عينا ، إنها عين

وقالت له زوجته من بين أسنانها دون أن تفهم شيئا عما يقول :

- سلم أمرك إلى الله !

- إنها عين . . أجل ، عين مستديرة سوداء ذات أهداب ، كأنها عين

زجاجية!

- إنك ثمل . هذا هو ما دهاك .
- كيف أكون ثملا وأنا لا أجد ما أشرب ؟
- كيف لا تجد ؟ إن فمك يعيق برائحة الخمر .

ورغم أنه كان يقف في وسط الحجرة التي ينامون فيها ، فقد كان الحانوت يشغل نصفها الآخر ، شعر « خينارو » أنه قد تاه في غياهب قبو مليء بالوطاويط والعناكب والشعابين والسحالي ، بعيدا عن تناول أي عيون أو راحة .

وواصلت « فيدينا » كلامها قائلة وهي تشاءب : « لا بد أنك مقدم على شيء . إنها عين الله تراقبك ! » .

وقفز خينارو مرة واحدة إلى الفراش ودلف تحت الشراشف وهو في كامل ملابسه بما فيها الخداء . كانت العين لا تزال هناك ، تتراقص إلى جانب جسد زوجته ، ذلك الجسد البض الفتي . وأطفأت « فيدينا » النور ، بيد أن ذلك زاد الطين بلة ، ذلك أن العين تماظم حجمها شيئا فشيئا في الظلمة ، إلى أن غطت الجدران والأرض والسقف والسطح والبيوت المجاورة ، غطت حياته كلها ، وطفله . . .

وأجاب ردا على ملاحظة زوجته التي أعادت إشعال الشمعة حين سمعت صيحاته المذعورة وراحت تمسح العرق البارد عن جبهته بإحدى مناشف الطفل : « كلا ! إنها ليست عين الله ، إنها عين الشيطان ! » .

ورسمت « فيدينا » علامة الصليب . وطلب منها خينارو أن تطفىء الشمعة ثانية . وتحولت العين إلى شكل حرف ثمانية إذ هي تنتقل من النور إلى الظلمة ، ثم صدر عنها صوت مدوّ ، كان يبدو أنها ستكسر على شيء ما ، وما لبثت أن تكسرت على الفور على صوت وقع أقدام تتردد في الشارع .

وصاح خينارو : الرواق ! الرواق ! أجل ! أجل ! النور ، أعواد الثقاب !
النور بحق الاله !

ومدت زوجته يدها من فوقه لتمسك بعلمة الثقاب . وكانت تتردد أصوات عجالات قصية . كان خينارو يمسك فمه بأصابعه ويصبح كأنما هو يجتنق . لم يكن

يريد أن يبقى وحيدا ، ونادى على زوجته ، التي كانت قد دست جسدها في
تميص النوم وذهبت تسخن له بعض القهوة .

وحين سمعت صرخات زوجها ، عادت إلى الفراش منزعجة . وقالت
لنفسها وهي ترقب شعلة الشمعة الخافقة بعينيها السوداءين الجميلتين : « هل هو
مريض يا ترى أم ماذا ؟ » . وجمال بخاطرهما الدود الذي أخرجه من معدة
« هنريتا » - الفتاة التي تعمل في الخزان المجاور للمسرح - والفطريات التي
وجدوها مكان الخبز في رأس أحد الهنود في المستشفى ، وذلك المخلوق البشع
المسمى « كاديغو » الذي يحول بين الإنسان والنوم . وكالدجاجة التي تُعرف
بجناحيها وتصيح على فراخها حين ترى الطيور الكاسرة تنهددها ، نهضت وعلقت
ميدالية القديس « بلاس » حول رقبة طفلها الوليد الصغيرة وهي تنلو الصلوات
بصوت عال .

بعد أن انصلوات هزت « خينارو » كأنما أحد يفرم بضربة . ونهض من
الفراش وقد أغلق عينيه بشدة ، فوجد زوجته الى جوار مهد الطفل فتعثر ووقع على
ركبته معانقا ساقيها ومعترفا لها بما شاهده في هذه الليلة :

- « لقد تدحرج على السلم ، أجل ، إلى نهاية السلم ، نازفا الدماء من أول
طلقة ، ولم يغلق عينيه بعد ذلك أبدا ، متفرج الساقين ، وعلى عينيه نظرة جامدة
باردة زجاجية لم أر في حياتي مثيلا لها أبدا ! وبدت إحدى عينييه كأنما تحيط بكل
شيء أمامها مثل لمح البرق ، ولشد ما كانت تحرق إلينا ! عين ذات أهداب
طويلة ، لا تريد أن تفارقني ، لا تريد أن تفارق أصابعي ، ها هي ، آه يا إلهي ،
ها هي ! » .

وأسكنته صرخة من الطفل . وتناولت « فيدينا » الطفل من مهده ، ولفته في
بعض الثياب ، ثم ألصقته ثديها ، دون أن تتمكن من الإفلات من قبضة زوجها ،
رغم أنها شعرت بالاشمئزاز منه وهو يحثو هناك ، ممسكا بساقيها يثن وهذي .

- واسوأ ما في الأمر أنه « لوسيو » . .

- أهو « لوسيو » ذلك الذي يشبه صوته صوت النساء ؟

- أجل ، لوسيو فاسكيز .

- الرجل الذي بدعونه « القطيفة » ؟

- أجل .

- ولماذا قتله بحق السماء ؟

- لقد صدرت اليه الأوامر بذلك ، فقد أصيب بداء السعار . بيد أن ذلك ليس أسوأ ما في الأمر ، فالأدهى من ذلك أن لوسيو قد أخبرني أن أمرا قد صدر بإعتقال الجنرال كانالسيس ، وأن هناك شابا يعرفه ينوي اختطاف ابنة الجنرال الليلة . . .

- الأنسة كميله ، إشيئة طفلي ؟

- أجل .

وحين سمعت « فيدينا » هذه الأنباء التي لا يصدقها عقل ، طفقت تبكي بالسهولة والغزارة اللتين تبكي بهما عامة النساء حزنا على مصائب الآخرين . وسقطت دموعها على رأس طفلها الصغيرة إذ هي تهدده، سخبنة كالمياه التي تحملها الجدات إلى الكنيسة لإضافتها إلى المياه المقدسة الباردة في حوض التعميد . وراح الطفل في النوم . وانقضى الليل وخينارو وزوجته لا يزالان جالسين كأن على رأسيهما الطير ، حين خط الفجر خيطا ذهبيا تحت الباب وكسرت ابنة الخباز صمت الدار وهي تدق على الباب وتصبح :

- الخبز ! الخبز ! الخبز !

أمراء الجيش

غادر الجنرال « إوسيو كاناليس » ، الملقب « تشاماريتا » ، منزل ذي الوجه الملائكي في كل أبته العسكرية ، كأنما هو ذاهب على رأس جيشه ، ولكن عندما أغلق الباب وأصبح وحيدا في الطريق ، استحات مشيته العسكرية إلى خبيب هندي فقير ذاهب إلى السوق لبيع دجاجته . وكان يشعر بالجواسيس الذين يتعقبونه في أعقاب قدميه ، وظل يضغط بأصابعه على فتاق يشعر به في حقويه ، فقد كانت آلامه تصيبه بالخور . وكان يزفر كلمات منقطعة وشكايًا محطومة ، في حين يحس بقلبه يخفق في اضطراب ويتقلص ، وتفور به بعض الدقات ، لدرجة اضطر معها - زائغ العينين مشلول الفكر - أن يضغط بيده على صدره ويفيض عليه رغبا عن الضلوع التي تفصله عنه ، كأنما هو عضو كسير بإمكانه إرغامه على العمل . شكراً لله . لقد عبر الآن تلك الناصية التي بدت له جد بعيدة من قبل ، والآن ، إلى الناصية التالية . ولكن : لشد ما يبدو له بعيدة مع كل هذا التعب الذي يشعر به ! وبصق . وكادت ساقاه تحذلانه . قشرة برتقالة . وعربة تمرق عند نهاية الطريق . إنه هو الذي سيمرق . ولكنه لم يعد يرى سوى العربة والمنازل والأنوار . . وغد السير ، إذ لم يعد أمامه من شيء سوى ذلك . شكراً لله . لقد عبر توا ذلك الركن الذي بدا له بعيدا جدا منذ دقائق . والآن ، إلى الركن التالي ، ولكن : لشد ما يبدو له بعيدا مع كل هذا التعب الذي يشعر به ! وصر على أستانه حتى يتمكن من شد أزر ركبته . إنه لم يعد يكاد يسير . كانت ركبته متيبسين ، وثمة ألم يندب بالسوء يشعر به أسفل عموده الفقري وفي حلقه . ركبته ، عليه أن يجر نفسه نحو منزله زاحفا على أربع ، دافعا جسده بيديه ومرفقيه ويكل غريزة فيه تصارع من أجل الهروب من الموت . وتخفف من مشيته . وتابعت نواصي الطريق التي لا توفر أية حماية له . بل وأكثر من ذلك ، فإنها بدت

وكانها تتكاد في ذلك الليل السقيم مثل الأبواب الزجاجية الشفافة . لقد كان يتصرف على نحو مصححك أمام نفسه وأمام الآخرين ، سواء كانوا يرونه أم لا ، وهو شيء متناقض يعزى إلى كونه شخصية هامة عامة على الدوام ، حتى في هذه الليل ، محط أنظار مواطنيه . وهميم - فليحدث ما يحدث ، إن التواجب يحتم على البقاء في المنزل . ويصبح هذا أكثر تروما إذا ما صبح ما قاله لي نوا ذلك الوغد « ذو الوجه الملائكي » ! . . . تم مصى بعد برهة يقول لنفسه :

« الحرب معناه أنني مذنب ! . . . » وكان الصدى يتردد مع وقع خطاه . . .
« الحرب معناه أنني مذنب . معناه . . . ! ولكن البقاء . . . ! » وكان الصدى يتردد مع وقع خطاه . . .
« الحرب معناه أنني مذنب ! . . . ولكن البقاء ! » وكان الصدى يتردد مع وقع خطاه . . .

ومد يده إلى صدره كأنما لينزع كمادات الخوف التي زرعتها فيه كلمات محبوب الرئيس ، ذي الوجه الملائكي . . . ولكن أوسمته العسكرية لم تكن هناك . « الحرب معناه أنني مذنب ، ولكن البقاء . . . » وكان إصبع ذي الوجه الملائكي يشير له إلى الطريق الوحيد الممكن للخلاص . . . المنفى : « لا بد من الهروب بجذلك يا جنرال ! ما زال في الوقت متسع ! » وكان كل ما يشعر نحسه بالاهتمام والتقدير ، وكل ما يحبه في حنان الأطفال : الوطن ، الأسرة ، الذكريات ، التقاليد ، وابنته « كميلة » . . . كل هذا كان بدور حول ذلك الإصبع المشؤوم ، كأنما الكون كله قد استحال شذرات كما استحال أفكاره

ولكن ، بعد خطوات قليلة أخرى ، لم يبق شيء من هذه الرؤيا الهائلة سوى دموع الخيرة تنالق في مآقيه . . .

« لقد قلت مرة في إحدى خطبي إن الجنرالات هم « أمراء الجيش » . يا لي من أحمق ! لقد دفعت ثمننا باهظا هذه العبارة الصغيرة ! لن يغفر لي الرئيس أبدا قولي هذا عن أمراء الجيش . وما دمت قد سقطت في نظره ، فهو الآن سيحملني وذر موت كولونيل كان دائما يظهر احتراماً وحياً لشيتي » .

ولاح شبه ابتسامة صغيرة ساخرة تحت شارب الرماذي . كانت ثمة صورة مختلفة أخرى للجنرال كاناليس تشكل في أعماقه ، جنرال كاناليس آخر ، يمشي

بخطى السلحفاة ، يجر ساقيه كأنما هو أحد الخطاة السائين في موكب أمبوع
الآلام ، صامتاً ، كتيباً ، حزيناً ، تفوح منه رائحة الصواريخ النارية المحترقة .
أما تشاماريتا ، الحقيقي كاناليس الذي سبق أن خرج من منزل ذي الوجه
الملائكي ، عزيزاً ، في عزوة منصبه العسكري ، ووراء ظهره العريض معارك
عجيدة خاضها الاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون وبوليفار ، فقد أخذ يحل
محل فجأة صورة جنرال كاريكاتورية ، جنرال كاناليس آخر يسير دون أي زخارف
ذهبية ، دون أحذية بساق ولا مهميزات ذهبية ، دون امتيازات أو صولجان . وبدأ
التناقض واصحاح بين النهاية التي ينقأها هذا الجنرال الغريب الكتيب الملبس ،
الرث ، الدليل ، كجنازة فقير مسكين ، وبين نهاية تشاماريتا ، الحقيقي الآخر ،
كجنازة من الدرجة الأولى ، كاملة بالشرائط وأكاليل الغار والرياش والتحابيا
العسكرية . لقد كان جنرال كاناليس مجللاً بالعار ، يتقدم إلى ساحة هزيمة لن
يسجلها له التاريخ ، أمام الجنرال الحقيقي الذي بقي في الخلفية كالدمية غارقاً في
أضواء ذهبية وزرقاء ، وقبعته المثلثة الأطراف تنطوي عينيه ، وسيفه مكسور ،
وذراعه متدليان ، والصلبان والأوسمة على صدره قد علاها الصدا .

وأشاح كاناليس بعينه ، دون أن يخفف من خطاه ، من صورته الأخرى
المبهرجة وهو يشعر أنه قد هزم هزيمة معنوية . وتخيل نفسه ، والكآبة تسيطر
عليه ، في المنفى برندي ينطال الجمالين ، على سترة إما طويلة نجداً أو قصيرة
جداً ، واسعة جداً أو ضيقة جداً ، وإنما ليست على مقاسه إطلاقاً . لقد كان يسير
وسط أطلال حياته المحطومة ، يدوس ريشته الذهبية بأقدامه .

- « ولكنني بريء » .

وردد هذه العبارة بكل اقتناع .

- « ولكنني بريء » ، فلماذا أخاف . . . ؟ »

وأجابه ضميره ، بالكلمات التي سمعها من ذي الوجه الملائكي : « وهذا هو
السبب بالذات ! ذلك أن الأمر سيكون مختلفاً تماماً لو كنت مذنباً . إن الجريمة
مهمة جداً لأنها تضمن للحكومة ولاء المواطن ؟ والوطن ؟ اهرب بجلدك يا
جنرال ، إنني أعرف جيداً ما أقوله لك . لا الوطن ولا الثروة سينقذانك .
والقانون ؟ إبحث عن شيء آخر . لا بد أن تهرب يا جنرال ، إن الموت
بانتظارك ! » .

- ولكني بريء .

- «سواء كنت مذنباً أو بريئاً لا أهمية له يا جنرال . إن ما يهم هو ما إذا كنت محل رضى الرئيس أم لا . من الأفضل أن تكون مذنباً عن أن تكون بريئاً لا ترضى عنك الحكومة ! » .

وسد أذنيه حتى لا يسمع صوت ذي الوجه الملائكي ، وغمغم ببعض عبارات الانتقام ، فقد كانت ضربات قلبه تكاد تكتم أنفاسه . وبعد ذلك ، بدأ يفكر في ابنه . لا بد أنها تنتظره الآن على أحر من الجمر . ودقت ساعة كنبه «لامرسيد» . كانت السماء صافية ترصعها النجوم دوغماً سحابة واحدة . وحين أشرف على ناصية شارعهِ ، رأى النور مضاًءً في السواقد ويلقي أشعه القلقة إلى قلب الطريق .

- «سوف أترك ابنتي كميلة في رعاية أخي «خسوان» إلى أن أتمكن من إحضارها معي . «لقد عرض ذو الوجه الملائكي أن يأخذها الليلة أو صباح غد إلى مسكن أخي» .

ولم يكن في حاجة إلى مفتاح البيت الذي يحمله في يده ، لأن الباب انفتح على الفور .
- حبيبي بابا .

- «هس ! تعالي ، سوف أشرح لك كل شيء» . ليس هناك من وقت نصيحه . سوف أشرح لك . قولي لمساعدتي أن يجهز لي جواداً . . . وبعض النقود . . . ومسدساً . . . وبعد ذلك سأرسل في طلب ملاسي . . . لن أحتاج إلا للضروري فقط في حقبة . لا أدري ماذا أقول وأنت لا تفهميني . أصدرني الأوامر بأن يجهزوا لي البغل الكستنائي اللون ، وجهزي أنت حاجاتي بينما أذهب أنا لتغيير ملاسي وكتابة خطاب لأخوتي . وسوف نبقى مع خوان بعض الوقت » .

ولو كانت الابنة قد شاهدت أمامها مجنوناً هائجاً لما كانت قد شعرت بالفرع الذي شعرت به حين رأت أباه ، وهو الهادي الرصين ، يدخل في تلك الحالة من الهياج . كان مخنوق العبارات مخطوف اللون . لم تكن قد رآته هكذا أبداً من قبل . ودفعها الإلحاح والعجلة - يعذبها القلق ولا تستطيع أن تسمع ما يقول أبوها

ولا أن تقول سوى : آه يا إلهي ، آه يا إلهي - إلى التوجه إلى مساعد أبيها لتخبره أن
يجهز البغل ، وهو بغل عظيم ذرعين تتوهجان بالنيران ، ثم عادت لتجهز حافية
الملايس : مناشف ، جوارب ، خبز ، شحم بالزبد ، بيد أنها نيت أن تضيف
الملح - ثم توجهت إلى المطبخ لتوقظ مربيتها ، التي كانت تجلس فوق السلة
الحشوية غافية كعادتها أمام النيران الذابلة إلى جوار القطة التي كانت تحرك أذنيها
لدى سماع أي ضوضاء غير مألوقة .

وكان الجنرال يسطر خطابا في عجلة شديدة عندما مرت الخادمة بالغرفة لتغلق
النوافذ بالمزلاج .

واستولى الصمت على البيت ، بيد أنه لم يكن ذلك الصمت الحريري الليالي
العذبة الهادئة ، التي تطيع ظلمتها الليلية نسخا متطابقة من الأحلام الجميلة ،
أخف من عبير الزهور وأقل لعة من المياه . إن ذلك الصمت الذي استولى على
البيت ، والذي لم يقطعه سوى سعال الجنرال وحركات ابنته المسرعة هنا وهناك ،
ونشيج الخادمة ، وأصوات فتح وإغلاق الصرانات والخزائن والأدراج في فزع ،
كان صمتا مشدودا ثقيلًا مؤلما كالملايس الغربية .



وفي تلك الاثناء ، كان ثمة شخص ضئيل ، مكر الوجه ، ذو جسد أشبه
براقصي الباليه ، يكتب خطابا دون أن يرفع القلم من فوق الورق ودون أن يصدر
عنه أي صوت ، كأنما هو يخطط نسيجا عكسوتيا :

« إلى صاحب السعادة رئيس الجمهورية الدستوري ، الحاضر دائما :

سيادة الرئيس .

« وفقا لما تلقينته من تعليمات ، فُرضت حراسة مشددة على الجنرال « ايوسبيو
كاناليس » . وأتشرف الآن أن أبلغ سيادة الرئيس أنه قد شوهد في منزل أحد
أصدقاء فخامتكم ، منزل السيد ميغيل ذي الوجه الملائكي . وقد أبلغني الطباخة
التي تعمل في منزل ذي الوجه الملائكي (وهي تتجسس على سيدها وعلى الخادمة)
والخادمة (التي تتجسس على سيدها وعلى الطباخة) أن ذا الوجه الملائكي قد انفرد
بالجنرال كاناليس في حجرته ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة . وقد قالت ان

الجنرال كاناليس قد خرج بعدها في حالة من الاضطراب الشديد . وبناء على التعليمات ، ضوعفت الحراسة على منزل كاناليس ، وصدرت الأوامر مرة أخرى بأن أي محاولة للهروب من جانبه لا بد وأن تنتهي بقتله .

« وقد قدمت الخادمة - دون علم الطباخة - تفاصيل أخرى ؛ فقد أخبرني على الهاتف أن سيدها قد أفهمها أن كاناليس قد حضر إليه يعرض عليه ابنته مقابل تدخله النعال في صالحه لدى الرئيس .

« أما الطباخة فكانت - دون علم الخادمة - أكثر وضوحاً في ذلك الموضع ؛ فقد قالت إنه بعد مغادرة الجنرال للمنزل كان سيدها في حالة سرور عظيم ، وأمرها بأن تخرج حالاً تفتح الحوانيت لشراء بعض المربى والشراب والفطائر والحلوى لأن فتاة من أسرة عريقة ستحضر لتعيش معه .

« هذه هي فحوى المعلومات التي أشرف بإبلاغها إلى السيد رئيس الجمهورية . . . »

وكتب التاريخ ومهر الخطاب بتوقيعه المثلق الذي يشبه رمية السهم ، وقبل أن يرفع القلم من على الورق ليحك به أنفه ، أضاف خاطرة أخرى :

« إضافة للمذكرة المقدمة هذا الصباح :

- الدكتور لويس بارينيو : قام ثلاثة أشخاص بزيارة عيادته هذا الأصيل ، اثنان منهم من الفقراء المدقعين ؛ وفي المساء خرج للنزهة مع زوجته في الحديقة .

- قابيل كرفخال المحامي : ذهب هذا الأصيل إلى البنك الأمريكي ، وإلى الصيدلية المواجهة لدير الكابوتشين وإلى النادي الألماني ؛ وهناك تحدث فترة طويلة مع السيد « رومز » الموضوع تحت مراقبة الشرطة ، ثم عاد إلى منزله في السابعة والنصف . ولم يُشاهد مرة أخرى خارجاً ، وقد ضوعفت الحراسة حول منزله ، وفقاً للتعليمات الواردة » . ختام

الموقع أعلاه . التاريخ أعلاه .

الاختطاف

توجه لومسيو فاسكيز ، بعد افتراقه عن روداس ، إلى الحانة التي توجد فيها « لامسكواتا » بأسرع ما تستطيع قلعاه أن تحمله ، كيما يرى ما إذا كان الوقت قد حان للمساعدة في اختطاف الفتاة . وأسرع في مروره بنبع « لامرسيد » وهو مكان يمتلئ بالأشباح والجريمة طبقا للإشاعات والأكاذيب التي تطلقها النسوة اللاتي يخلطن إبر ثرثرتهن مع المياه القذرة التي يملآن بها صفتانجهن من النبع .

وقال جلاد الأبله في نفسه دون أن يخفف من خطاه :

- « إن الاشتراك في عملية اختطاف شيء عظيم . ونظرا لأن مهمتي في « رواق الرب » قد أنجزت بسرعة فائقة ، حمدًا لله ، فلن في وسعي أن أستمع بتنفيذ تلك العملية . يا إلهي ، إذا كان الفرح لا يعني حين أعثر على شيء ، أو حين أسرق دجاجة ، فكيف ستكون منعتي إذ تناح لي الفرصة كي أخطف فتاة ! »

وبدت الحانة التي تمتلكها « لامسكواتا » على مشارف البصر ، بيد أنه أخذ يتصيب عرقا حين لمح ساعة كنيسة « لامرسيد » . كان الوقت قد أزف ، ما لم تكن عيناه تخدعانه . وألقى النحية على رجل شرطة أو إثنين ممن كانوا يحرسان منزل الجنرال كاناليس ، ثم دلف إلى باب الحانة كأنه أرنب يدلف إلى جحره .

وكانت « لامسكواتا » قد أوت إلى الفراش في انتظار الساعة المحددة ، وهي الثانية صباحا ، وأعصابها على أحر من الجمر ، وضغطت إحدى ساقيها بالآخرى ، وسحقت ذراعيها تحت جسدها في أوضاع غير مريحة ، وطوت رأسها على مدار الوسادة ، والعرق ينصب منها مع كل حركة ، ولكن دون أن تفلح في إغلاق عينيها .

وحين طرق فاسكيز الباب قفزت من الفراش وأسهرت إلى الباب وهي تشهق من فرط الاضطراب .

- « من هناك ؟ »
- أنا ، فاسكيز ، إفتحي .
- لم أكن أنتظرك !
- وقال وهو يدخل : كم الساعة الآن ؟
- الواحدة والرربع صباحاً .

قالت ذلك على الفور دون أن تنظر إلى الساعة ، ولكن بقناعة من كان يحصي كل دقيقة تمر ، وكل خمس دقائق ، وعشر دقائق ، ورابع ساعة ، وعشرين دقيقة ، إذ هي في إنتظار أن تحمل الساعة الثانية .

- إذن كيف تشير ساعة الكنيسة إلى الساعة الثانية إلا ربعا ؟

- غير معقول . لا بد أنها غير مضبوطة .
- ثم . . . أخبريني ، هل عاد ذلك الشاب ؟
- كلا .

وأخذ فاسكيز صاحبة الحانة بين ذراعيه وهو يتوقع غاما أن يكون جزاؤه صفقة منها . ولكن لم يحدث شيء من هذا ، فقد أصبحت « لامسكواتا » وديعة كالحمامة ، فتركه محتضنها ويقبلها في شفيتها ، ماهرة بذلك إمضاءها على اتفاق بالآ ترفض له شيئا أبداً كان الليلة . وكان الضوء الوحيد في الغرفة يتوهج أمام صورة للعذراء ، إلى جوار باقة من الورد المصنوع من الورق . وأطلقاً فاسكيز الشمعة ثم أوقع صاحبة الحانة أرضاً . واختفت صورة العذراء في الظلمة إذ تدحرج جسدهما على أرض الحجرة وقد التصقا ببعض كحزمة من النوم .

*

وظهر ذو الوجه الملائكي من ناحية المسرح ، يمشي مسرعاً بصحبة مجموعة من الأفاقين الأجلاف . وقال لهم :

- « حالما تصبح الفتاة في يدي ، بوسعكم أن تنهبوا المنزل لن تذهبوا أبداً فارغي اليد ، أعدكم بذلك . ولكن ، الزموا الحيطه ، الآن وفيها بعد على حد

سواء ، ولا تفشوا السر ، وإلا فإني أفضل أن أعمل بدونكم » .

وحين داروا إلى المنعطف أوقفهم دورية للشرطة . وتحدث المحبوب مع ضابط الدورية في حين وقف الجنود حولها .

- « إننا ذاهبون للعتاء أمام نافذة إحدى السيدات* أيها الملازم » .

فقال الضابط وهو يدق على الأرض بسيفه : « هل تفضل فتخبرني أين ذلك ؟

- هنا ، في حارة « المسيح » .

- رأين هي فيشارانكم وطبولكم ؟ يا لها من سيرينادا غريبة بدون أية موسيقى !

فدس ذو الوجه الملائكي في خفة ورقة مالية من فئة المائة بيزو في يد الضابط ، وعندها سحب ذلك جميع اعتراضاته .

وكانت نهاية الشارع مدودة ببنية كنيسة « لامرسيد » ، وهي كنيسة بيت على شكل سلحفاة ذات عيين ، هما نافذتان ، في قبتها . وأمر المحبوب رفاهه بالآلة بذهبوا إلى حانة « الخطوتان » كلهم مرة واحدة . وقال لهم بصوت عالٍ وهم يفترون : « تذكروا ، سنتقابل جميعا في حانة « الخطوتان » ، « الخطوتان » ، حذار ان نخطئوا المكان ، « الخطوتان » ، الى جوار حانوت الأثاث » .

وغاضت أصوات أقدامهم إذ تفرقوا كل إلى جهة . كانت خطة الهروب كما يلي : حين تدق ساعة الكنيسة الثانية صباحا ، يرتقى رجل أو اثنان من رجال ذي الوجه الملائكي سطح منزل الجنرال كاناليس ، وعندها تقوم ابنة الجنرال ، طبعا للاتفاق ، بفتح نافذة في واجهة المنزل وتصبح بأعلى صوتها طلبا للنجدة من اللصوص الذين اقتحموا المنزل ، وذلك لجذب انتباه رجال الشرطة الذين يراقبون المكان . وعند ذاك ينتهز الجنرال كاناليس فرصة المرح والمرج للهرب من الباب الخلفي .

وما كان يضع مثل هذه الخطة السخيفة أحق أو مجنون أو طفل ، فهي خطة

• عادة كانت منتشرة في بلاد أمريكا اللاتينية وإسبانيا .

دون بداية ولا نهاية ، وإذا كان الجنرال وذو الوجه الملائكي قد وافقا عليها رغم سخفها فذلك لأن كلا منهما كان يرى فيها - على حدة - هدفا آخر مختلفا تماما .
فبالنسبة للجنرال كاناليس ، كانت الحماية التي خلعها عليه ذو الوجه الملائكي تعطيه فرصة أفضل للهروب ، وبالنسبة للذي الوجه الملائكي ، كان نجاح الخطة لا يعتمد على اتفاهه مع كاناليس بل مع السيد الرئيس ، الذي كان قد ابلغه هاتفيا بزمان الخطة وتفاصيلها حالما غادر الجنرال منزله .

✽

تبدو ليالي إسرائيل في المناطق الاستوائية كأنها أيام مارس الحارة ، مظلمة ، باردة ، شعناء ، حزينة . ووقف ذو الوجه الملائكي في المنعطف الذي يقيم بين الحانة وبين منزل كاناليس ، وأخذ يحصي أشباح رجال الشرطة ذات اللون الأخضر الداكن ، المتناثرين هنا وهناك ، ثم سار ببطء خلف ذلك الصف من المنازل ، وفي عودته ، دلف إلى باب حانة « الخطوتان » الصغير . كان ثمة رجل شرطة في زيه الرسمي على باب كل منزل من المنازل المجاورة ، عدا عدد لا يحصى من رجال الشرطة السرية ، يسرون في عصبية جيئة وذهابا على الطوار . وشعر بنذر شوم . قال في نفسه : « إنني أشرك في اقتراف جريمة . إنهم سوف يقتلون هذا الرجل حين يغادر منزله » . وكلما أمعن فكره في تلك الخطة ، كلما بدت له أشد هولاً . وبدت له فكرة اختطاف ابنة رجل محكوم عليه بالموت بشعة وكريمة ، على نحو ما كان يمكن أن يكون الأمر سارا ومناسبا لو أنه ساعد الجنرال على الهروب حقا . ولم تكن طيبة القلب هي التي دفعت هذا الرجل ، وهو عديم الإحساس بطبعه ، إلى الشعور بالكراهة لفكرة نصب كمين في قلب المدينة لمواطن أعزل سلم له ثقته إلى حد أنه يهرب من منزله معتقدا أن صديق السيد الرئيس يبسط حمايته عليه . لا ، ولاكون أن تلك الحماية لا بد أن تنكشف في نهاية الأمر وتكشف عن خدعة بالغة الفسوة تملأ اللحظات الأخيرة للصحية بالمرارة إذ تجعله يتحقق أنهم قد خدعوه وخانوه وداسوه بالأقدام ، وأنهم قد أعدوا طريقة بارعة للخلع مظهر قانوني على الجريمة بالقول إنها كانت الملجأ الأخير للسلطات تحول بها بين المجرم المزعوم وبين القزاز في اليوم السابق لاعتقاله . كلا . لقد كانت الدوافع التي حملت الوجه الملائكي على عرض شفثيه إنكارا لتلك الخطة الجهنمية اليائسة مختلفة تماما . لقد كان يعتقد بكل حسن نية أنه قد اكتسب - بوصفه حاميا للجنرال -

حقوقا على ابنته ، بيد أنه يرى الآن أن تلك الحقوق قد راحت ضحية قيامه بدوره المعتاد في كل مرة ، كأداة عمياء ، كتابع وفيّ يقوم بدور جلاد السيد الرئيس .

كانت ثمة رياح غربية تهب عبر وادي الصمت الذي يلفه ، حيث أخذت تنمو نباتات برية عطشى عطش الأهداف التي لا تعرف الدموع ، عطش الصبار المليء بالأشواك ، عطش الأشجار التي لا تسقيها الأمطار . ما معنى هذه الرغبة الحارقة ؟ ولماذا تتعين على الأشجار أن تكون عطشى حين تنهمر الأمطار ؟ !

وأومضت فكرة في ذهنه كالبرق ، أن يعود أدراجه ويدق جرس الباب في منزل كانالس ويخبره من المصير الذي ينتظره . (وتخيّل ابنته تبسم له في امتنان) . بيد أنه كان قد اجتاز بالفعل مدخل الحانة الصغيرة ، وشعر بشجاعته تعود إليه مع كلمات فاسكيز الجريئة ووجود الرجال الآخرين .

- « جربني ، هذا كل شيء . إنني من تبحث عنه . أجل ، انني مستعد أن أساعدك في أي شيء ، أسمع ذلك ؟ إنني لست بالمرء الذي يتراجع . إنني كالقط ، بسبعة أرواح ، سليل عربي شجاع ! » .

وكسان فاسكيز يحاول خفض نبرة صوته الأنشوي ليعطي كلماته صفة الرجولية . وأضاف في صوت خفيض :

- « لو أنك لم تجلب لي الحظ السعيد ، لما كنت أتحدث هنا الآن بمثل هذه الشجاعة . كلا . صدقني . إنك قد أصلحت وضعي مع « ماسكواتا » ، وهي تعاملني الآن كما يجب أن يكون » .

ورد ذو الوجه الملائكي وهو يصافح يد الجلاد الذي قتل الأبله : « إنني سعيد جدا أن أجدك هنا مليئا بتلك الروح الجسورة . إنك رجل قريب إلى قلبي . لقد أعدت لي معنوياتي التي سرقها رجال الشرطة مني يا عزيزي فاسكيز ، إن ثمة رجلا منهم أمام كل باب » .

- تعال واشرب شيئا من الخمر الهولندية تدفع عنك الخوف » .

- أوه ! إنني لا أشعر بالخوف على نفسي ، فلإن هذه ليست أول مرة أجد نفسي في مأزق عصيب ؛ إنني خائف على الفتاة . لا أحب أن يقبضوا علينا خارجين من منزلها ، اتفهم ذلك ؟

- «ولكن، ما هذا؟ من الذي سيقبض عليك؟ حالما سيجد رجال الشرطة شيئاً يهبونه في المنزل لن ترى واحداً منهم في الطريق، ولا واحداً منهم، أراهن بحياتي على ذلك. إنني أعدك أنهم حين يرون ما يمكنهم أن يضعوا مخالفهم عليه، سينشفلون جميعاً في حمل ما خف وزنه وغلا ثمنه؛ لا تكن لديك ذرة من شك في هذا...»

- «أليس من الأفضل أن نذهب إليهم ونكلمهم، ما دمت قد تفضلت وجئت، ما داموا يعرفون أنك غير قادر...؟»

- «كلام فارغ. لا حاجة إلى قول أي شيء لهم. حين يرون الباب مفتوحاً على مصراعيه، سيقولون لأنفسهم: هيا، لا ضرر من ذلك. بل سيرون أنهم يحسنون صنعا. أما إذا رأوني، أنا الذي أصبحت شهيراً منذ انتحمت مع «انطونيو لبيلولو» بيت ذلك القس الضئيل الحجم، الذي بلغ به الخوف مداه حين رأنا نهبط إلى حجراته من الطابق الأعلى ونضيء النور لدرجة ألقي إلينا بمفاتيح الخزائن التي يحتفظ فيها بمدخراته الملفوفة في منديل كبير حتى لا تصدر أصواتاً، ثم تظاهر بأنه نائم! أجل، في تلك المرة خرجت منتصراً. والآن، فإن الأولاد عاقدون العزم».

وانهى فاسكيز كلامه مشيراً إلى مجموعة الرجال الصامتين القذرين المتكودي الحظ، الذين كانوا يعنون كأساً وراء أخرى من البراندي، قاذفين بالخمير إلى سقف حلقهم دفعة واحدة ثم ييصقون بأشمزاز حالما يترك الكأس شفاههم:

- «أجل، أؤكد لك أنهم جاهزون للعمل».

ورفع ذو الوجه الملائكي كأسه ودعا فاسكيز أن يشرب نخب الحب. وصيت «لامسكواتا» لنفسها كأساً من «الأنيس»، وشرب ثلاثتهم.

وعلى بصيص النور الخائب، إذ أنهم خشوا أن يوقدوا النور الكهربائي فلم يبق من نور في الحجرة سوى الشمعة المضاءة أمام صورة العذراء، ألقت أجساد هؤلاء الرجال البائسين ظلالاً غريبة، متطاولة كأنها الغزلان على الجدران المائلة إلى الاصفرار، كما بدت الزجاجات كأنها شعلات مختلفة الألوان على رفوفها. وكان الجميع يرقبون مسير الساعة. وكانت بصفتهم على الأرض تدوي كمطلقات الرصاص. وكان ذو الوجه الملائكي ينتظر على مبعدة من الآخرين وظهره إلى

الحائط بجوار صورة العذراء وعيناه السوداران الواسعتان تجولان في الغرفة ، تطارد
الفكرة التي ما فتئت تنهجه في تلك اللحظات الخامسة : إنه بحاجة إلى زوجة
وأولاد . وابتسم في نفسه إذ تذكر حكاية السجين السياسي المحكوم عليه
بالإعدام ، الذي زاره المدعي العسكري العام قبل إعدامه بأثني عشرة ساعة ،
عارضاً عليه باسم السلطات أن يهبه أي شيء يطلبه ، حتى لو كان حياته ، مقابل
أن يغير شهادته . فرد عليه السجين بحزم : حنا ، إنني أطلب أن أترك وراثة
إبناً . فقال المدعي العسكري العام : موافق . وأرسل يطلب له عاهرة وهو يظن
نفسه قد أحسن صنعا . بيد أن السجين أطلق المرأة دون أن يمسه ، وحين عاد
المدعي العسكري قال له : « يكفي ما هو موجود فعلاً من أبناء العاهرات ! » .

ولاحث ابتسامة أخرى على شفته إذ قال لنفسه : « لقد عملت مديراً لمدرسة ،
ورئيس تحرير صحيفة ، ودبلوماسياً ، وعضو برلمان ، وعمدة مدينة ، وما أنا الآن
رئيس لمجموعة من الأفاقين ! هذه هي الحياة في المناطق المدارية ! » .
ودقت ساعة الكنيسة مرتين .

فصاح ذو الوجه الملائكي : « إلى الخارج جميعاً » . وقال « لنسألكوا » وهو
يخرج ومسدسه في يده : « سوف أعود مع غنيمي » . وصاح فاسكيز آمراً وهو
يصعد كالعنقاء إلى إحدى نوافذ منزل الجنرال يتبعه اثنان من عصابته : هيا إلى
العمل ، ومنوع الهذر ، أستمعون ؟ » .

وكذلك سمع من في المنزل دقتي الساعة .

- هل أنت جاهزة يا كميلا ؟

- أجل يا والدي العزيز .

كان كاناليس يرتدي بنطال ركوب الخيل وسترة عسكرية زرقاء خالية من
الأرصفة الذهبية ، بدا شعره أعلاها أبيض لامعاً لا شبة فيه . وألقت كميلا
بنفسها بين ذراعيه يكاد يغشى عليها ، دون أن تنبس بكلمة أو تذرف دمعاً . إن
معنى السعادة أو الشقاء لا يمكن أن يدركه إلا أولئك الذين جربوه في أذهانهم من
قبل ، الذين عضواً بنواجذهم على منديل مبلل بالدموع ومزقوه إرباً إرباً بأستانهم
من فرط الحزن . أما بالنسبة لكميلا فقد كان كل ذلك يبدو إما لعبة أو كابوساً ،
كلاً . لا يمكن ، لا يمكن أن يكون حقيقة . إن ما يحدث ، ما يحدث لها ، وما

يحدث لوالدها ، لا يمكن أن يكون حفيقة . وأخذها الجنرال كاناليس بين ذراعيه وقال لها وداعا .

- « هكذا احتضنت والدتك حين ذهبت للقتال من أجل وطني في الحرب الأخيرة . وقد وضعت العزيزة المسكينة في فكرها أي لن أرجع ثانية ، ولكنها هي التي لم تنتظري » .

وإذ سمع ذلك المحارب القديم خطوات على السطح ، نحى كميلة جانبا ، وذهب عبر الغناء المليء بالأصص والأزاهير إلى الباب الخلفي . وقال له عطر كل زهرة وكل جيسرانيوم وكل وردة وداعا . وقالت له المياه التي تفسر إلى الجرار وداعا ، وكذلك الضوء الذي يسري من التوافد . وفجأة ساد المنزل الظلام ، كأنما قد انفصل عن جيرانه بفعل ضربة قاضية . الحرب لا يليق بالجندي . ومن ناحية أخرى ، فإن فكرة العودة لتحرير وطنه على رأس ثورة . . .

ووفقاً للخطة التي اتفقوا عليها ، توجهت كميلة إلى النافذة لطلب النجدة :

- « اللصوص قد اقتحموا المنزل ! النجدة ! اللصوص ! » .

وقبل أن يتلاشي صوتها في وهدة الليل ، وصل أول جنود الشرطة - أولئك الذين كانوا يراقبون واجهة المنزل - ينفخون في صفاراتهم الطويلة الجوفاء . وعلت أصوات متنافرة من حديد وخشب : وانهار الباب الخارجي من فوره . وظهر رجال شرطة آخرون في ملابس مدنية عند منعطف الطريق ، جاهلين ما كان يحدث ، ومن أجل ذلك خاصة كانوا يحملون خناجرهم الحادة جاهزة ، وقبعاتهم تحفي وجوههم بينما رفعوا ياقات معاطفهم إلى أعلى . وابتلعهم الباب المقسح جميعا - كالبحر الهائج . وكان فاسكيز قد قطع الأسلاك الكهربائية بعد أن صعد إلى السطح ، حتى استحالت الممرات والحجرات ظلا واحدا هائلا . وأشعل بعض رفاقه أعواد الثقاب حتى يروا طريقهم إلى الخزائن والصناديق والأدراج ، ودون مزيد من الضوضاء ، عمدوا إلى نهبها من أعلاها إلى أسفلها بعد أن كسروا أقفالها ، وحطموا الأبواب الزجاجية وأحالوا الخشب الثمين مزقا ونثارا . وكان أحرون يعيشون فسادا في حجرة الجلوس ، يقبلون المقاعد والمناضد وخزانات الأركان المغطاة بالصور الفوتوغرافية التي بدت كأوراق اللعب الأسبانية في وسط الظلال ، أو يضربون على مفاتيح بيانو صغير ثمين كان قد ترك مفتوحا ، يئن

كالحيوان الذي يتألم كلما دقوا عليه بأصابعهم .

وبعيدا كانت تُسمع أصوات الشُوك والملاعق والسكاكين وهي تقع على الأرض ، ثم صرخة قطعنها ضربة حادة . وكانت المربية المعجوز ، « نشابيلونا » ، قد خبأت كميلة في حجرة الطعام بين حائط وخزانة في الحجرة . وألقى المحبوب المربية أرضا واشتبك شعرها بمقبض خزانة القضبات فانتثرت على الأرض بصوت رنان . وأسكنها فأسكيز بضربة قضيب حديدي حيثما انفق ، حتى أنه لم يكذ يرى يديها في الظلام .

الجزء الثاني
٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ أبريل

- ١٢ -

كميلة

كانت « كميلة » في سالف الأيام تقضي ساعات وساعات أمام المرأة في حجرتها . وكانت مربيتها العجوز تصرخ فيها : « إذا أنت نظرت في المرأة طويلا ، سيأتي الشيطان ويظل من وراء كتفك ! » ، وترد كميلة : إنه لن يكون أكثر شيطنة مني ! . كان شعرها ثورة من الشعلات السوداء ، ووجهها الأسمر يلمع بمعجون البشرة المصنوع من زبلة جوز الهند ، وعيناها الخضراوان المائلتان تفرقان في عجزيهما العميقين . وكانت زميلاتها في المدرسة يدعونها « كاناليس الصينية » حين تخرج متشحة بمعطفها المدرسي المفلق حتى الرقبة ، ولكنها الآن فضجت وازدادت جمالا وأصبحت فتاة بمعنى الكلمة .

وكانت تقول لنفسها أمام المرأة : خمسة عشر عاما ! ولكني ما زلت كالقطة الأليفة ، لا أذهب إلى مكان إلا وبحمطني الأعمام والعَمَّات وأبناء وبنات العم كأنهم الحشرات .

وكانت نعد أحيانا إلى جذب شعرها ، وإلى الصراخ ، وإلى السخرية من نفسها . كانت تكره أن تكون دائما وسط هذا الرهط من الأقارب ، وأن تكون الفتاة الصغيرة ، وأن تذهب معهم إلى كل مكان : إلى الاستعراض العسكري ، إلى قداس الثانية عشرة ، إلى ربوة « الكرمة » لركوب الخيل والنزهة عند مسرح « كولون » ، وصعود تلال « ساوني » والهبوط منها .

وكان أعمامها يشبهون فزاعات الطيور ، فوي شوارب يقف عليها الصقر ، تصلصل خواتمهم في أصابعهم ، وأبناء عمها منكوشني الشعر ، سمان ، ثقلاء

الظل . وغماتها - ومن أصلاً زوجات الأعمام - يشرق النور . أو هكذا كانوا
يبدون جميعاً في عينيها . وكانت تشعر بالضيق حين يقدمون لها - خاصة أبناء
العم - قراطيس مليئة بالخلوى ، كأنما هي طفلة صغيرة ، أو حين يقوم الأعمام
بالترتيب عليها بأيديهم التي تعبق برائحة الشيخ ، والامساك بوجهها بين أصبعي
السبابة والابهام كيما يحركوه من جانب إلى آخر - وكانت كميلة تصلب رقبتها
آنذاك عمداً ، أو حين يقبلها العمات دون أن يرفعن نقابهن ، فيخلفن لديها
شعوراً بأن ثمة نسيج عنكبوت قد التصق بوجنتيها .

وفي أيام الأحاد ، كانت تنام ، أو تجلس في غرفة الاستقبال ينتابها السأم
تتطلع الى صور قديمة ملصقة في «البوم» العائلة، أو إلى الصور المعلقة على الجدران
المغطاة بالقماش الأحمر ، أو الموضوعة على رفوف الصوانات في الأركان وعلى
المناضد المفضضة والكونصولات المرمرية ، بينما والدها يتطلع من النافذة الى
الطرق الخالية وهو يخرخر كالقطة ويرد على تحيات الأصدقاء والجيران . كانوا
يرفعون القبعة تحية واحتراماً له ، فهو الجنرال كاناليس . وكان الجنرال يرد عليهم
في صوت جهوري : « مساء الخير ، إلى اللقاء ، إني مسرور لرؤيتك ، مع
السلامة ! »

وكانت هناك صورة لأمها يمد الزواج بفترة قصيرة ، لا يظهر منها سوى
أصابعها ووجهها ، مشتملة على رداء على أحدث طراز آنذاك يصل إلى قدميها ،
وقفاً الى مرفقيها، وفراء حول عنقها ، وقبعة يتدلى منها شلال من الشرائط
والرياش على ظلة من الدانتلا . وكانت هناك صور لعماتها ، ضخومات
الصدور ، محشوات كطنافس الصالون ، وشعرهن متحجر ، وعلى جباههن تاج
مرصع بجواهر دقيقة الحجم ، وصور أخرى لصديقات الأيام الخوالي ، امرأة
ترتدي شالا من الدنتلا المطرزة وأمشاطاً ومراوح ، وأخرى ترتدي ملابس هندية
وصندلا ورداء مطرزا وتحمل ابريقاً على كتفها ، وأخريات هن شامات حسن
ومجوهرات . وكانت كل هذه الصور تبعث في كميلة إحساساً بخدرا الشفق ،
مقرونا بإحساس خرافي بما تحمل من إهداءات : « ستكون صورتي هذه معك
كظلي » « بكل سرور ، وحظاً سعيداً لك » « وداعاً ، واعتني بنفسك » « إذا عا

النبيان هذه السطور فسنتمحي ذكراي « في خدمتكم ، ونحياتي إلى السيدة
الوالدة » .

وأحيانا ، كان ثمة صديق يقفز من اليوم الصور ويحضر لينجاذب أطراف
الحديث مع الجنرال في الشرفة . وكانت كميلة تتلصص عليه من وراء الستار . إنه
ذلك الشخص الذي كانت عليه سيما «الدون جوان» في الصورة ، شاب في مقتبل
العمر ، رشيق ، فاحم الحاجبين ، يرتدي بنطالا مربعات ملونا ، وسنتره مقللة
بازرار حتى أعلاها ، وعلى رأسه قبعة متوسطة الحجم . . . وهي ملابس آخر طراز
في نهاية القرن الماضي . وتبتسم كميلة وتقول لنفسها : « كان من الأفضل أن تظل
كما كنت في الصورة . كنت ستبدو عتيق الطراز وسيضحك الناس على ملابسك
اللائقة بالمتاحف ، ولكنك على الأقل لن تكون منبعج البطن هكذا اصلع الرأس
غائر الوجنتين كما أنت الآن » .

وعبر ظلال الستارة المخملية التي تعبق بالغبار ، كانت كميلة تسرح عينيها
الحضراوين عبر النافذة أصيل يوم الأحد ؛ ولم تخف حدة البرودة في عينيها
الزجاجيتين المتجمدتين حين كانت غلدهما خارج المنزل لتريا ما يحدث في الطريق .
كان والدها ، مرتدياً قميصاً وضياءً من الكتان بلا سترة ، يعتمد بمرفقيه على وسادة
من الساتان ، يقتل الوقت بالثرثرة مع شخص بدا وكأنه صديق حميم ، عبر
قضبان الشرفة . كان رجلا صفراوي المظهر ، معقوف الأنف ، ذا شارب صغير
وعصا ذهبية المقبض . يا لها من مصادفة سعيدة ! لقد كان يتمشى أمام المنزل حين
استوقفه الجنرال قائلاً : يا لها من سعادة أن نراك هنا في حي «لامرسيد» ! هذا
عظيم ! وقد وجدته كميلة في اليوم الصور . لم يكن من السهل التعرف عليه ،
وكان عليها أن تطيل التحديق إلى الصور . كان لهذا الرجل المسكين أنف مستقيم
ووجه مستدير جميل يوما ما . كم صحيح هو القول بأن الزمن يسيء معاملة
الناس . لقد أصبح وجهه الآن نحिला بارز عظام الوجنتين ، نحيل الحاجبين ،
نائب الفكين . وحين كان يتحدث إلى والدها بصوته البطيء الخفيض ، ظل يرفع
مقبض عصاه إلى أنفه كأنما هو يشم الذهب . إنها الرحابة في حركة دائمة . هي
نفسها في حركة دائمة . كل شيء فيها ، حتى الساكن بطبيعته ، كان في حركة
دائمة . وحين رأت البحر لأول مرة ، فارت الكلمات التي تعبر عن دهشتها على
شفثها ، ولكن حين سألها أعمامها عن رأيها في مرأى البحر قالت بمظهر الأهمية

الكاذبة : « لقد عرفت البحر قبل ذلك من الصور ! » . وكان الهواء يعيث بقبعنها
الوردية العريضة الأطراف التي أمسكتها في يديها . كانت تشبه الطوق ، أو طائراً
مستديراً ضحياً .

وتطلع إليها أبناء عمها وقد اتسعت عيونهم من فرط الدهشة ، فاغري
الافواه . وغطت أصوات الموجات الهادرة على ملاحظات العمات : « يا لجمال
البحر ! شيء لا يصدقه عقل ! يا للدمياء الغزيرة ! يبدو هائجاً ! انظروا هناك ، إن
الشمس تغرب ! ألم نشئ شيئاً في القطار عند تعجلنا النزول منه ؟ ألم تروا ما إذا
كان كل شيء على ما يرام ؟ يجب أن نحصى الحفائب ! » . . .

وكان أعمامها قد حملوا حقائب مليئة بالثياب الخفيفة للشاطئ ، (تلك
الملابس المفضية كالزبيب التي يرتديها المصيفون) وعناقيد من جوز الهند اشترتها
السيدات في المحطات التي توقف القطار فيها على الطريق ، لمجرد أنها رخيصة
التمن ، ومجموعة من الرزم والسلال حملها عدد من الهنود إلى الفندق .

وقال أخيراً انضج أبناء العم : « أجل ، إنني أعرف ما تفصدين » ،
(واصطبغت وجتا كميلة الداكتين باحمرار خفيف من جراء دفعة دفعة دماء حين
سمعتة يكلمها) « ولكنني لا أشاركك رأيك . إنني أرى أن ما أردت أن تقولي هو
أن البحر يشبه الصور المتحركة ، ولكنه أكبر حجماً » .
وكانت كميلة قد سمعت عن الصور المتحركة التي تعرض في حي « المائة
باب » ، إلى جوار « رواق الرب » ، ولكن لم تكن لديها أي فكرة عنها . ولكن
كان بإمكانها بعد ما قاله ابن عمها عنها أن تتصور ماهيتها وهي تتطلع إلى البحر .
كل شيء في حركة دائمة . لا شيء ثابت . صور غمزج بصور أخرى ، متبدلة ،
تتكسر حطاماً لتشكل صورة جديدة في كل ثانية ، في حالة لا هي بجامدة ولا سائلة
ولا غازية ، بل هي حالة حياة في البحر . حالة وضاءة . في البحر وفي الصور
المتحركة على حد سواء .

ومضت كميلة تتأمل المشهد في بهجة نهمة وهي تعقص أصابع قدميها داخل
حذاءها ، وعيناها تومضان في كل اتجاه وشعرت في البداية أن عينيها تتخليان
عن مكانهما كي تحيظا بهذه الرحابة ، وأحست بعد ذلك أن تلك الرحابة تملأها
كلية . لقد بلغ المد الزاخر عينيها .

وسارت ببطء إلى الشاطئ ، يتبعها ابن عمها ، وكان المسير على الرمال صعباً بعض الشيء . كانت تريد أن تزداد قريباً من الموجات ، ولكن المحيط الهادئ ، بدلاً من أن يمد لها يداً حنوناً ، صوّب نحوها صفة سائلة من المياه الشفافة بللت قدميها . وقد فوجئت بذلك ، وبجهد تراجعت في الوقت المناسب ، تاركة وراءها رهينة ، قبعتها الوردية اللون ، التي لم تصبح بعد برهة إلا مجرد نقطة على صفحة الموجات ، وأطلقت كميلة وعيداً صبيانياً بأن تذهب لتشكو البحر إلى أبيها :

آه أيها البحر *

ولم تلاحظ هي ولا ابن عمها أنها نطقت كلمة « يجب » لأول مرة وهي تتوعد البحر وتنذره . وخلع لون السماء فوق الشمس الغاربة مزيداً من البرودة على المياه الخضراء الداكنة .

لماذا عمدت إلى ثقيل ذراعيها على الشاطئ ، مستشفة عبر جسدها الملحي الذي لوخته الشمس بأشعتها ؟ لماذا فعلت نفس الشيء بثمر الفاكهة التي حُرّم عليها أكلها ، إذ هي تلمسها بشفتيها ؟ كانت عماها قد قلن : « الحمضيات ضارة بالفتيات الصغيرات ، وكذلك الأقدام المبللة ، والسير اللعوب » . ولم تكن كميلة تشم والدها ولا مربيتهما حين تقبلها . ولقد كتمت أنفاسها حين قبلت قدمي المسيح في الكتدراثة الذي كان يشبه جذع الشجرة المحطوم . وإذا لم يشم المرء ما يقبل ، لما أصبحت القيلة ذات طعم . وكان جسدها الملحي البني اللون كالرمال ، ولباب الأناناس والسفرجل ، يغرونها جميعاً بتقيلهم راجفة الأنف مشتاقة غيمة . ولكن جاءت الحقيقة ناصعة بعد الشك : فإنها لم تعد تعرف ما إذا كانت تشم أم تعض حين عمد ابن عمها نفسه الذي تحدث عن الصور المتحركة إلى تقبلها في فمها في نهاية ذلك الصيف ، وإلى عزف نغمة نانجر أرجنتيني بفسه .

وحين عادوا إلى العاصمة ، ألحت كميلة على مربيتهما كي تصحبها إلى الصور المتحركة . كانت تعرض في دار صغيرة في جانب من ميدان « رواق الرب » في حي « المائة باب » . وذهبا دون علم والدها ، تفرضان أظافرهما في قلق وعصبية وتتلوان الصلوات . وبعد أن كادتا تعودان أدراجهما لدى رؤية الصالة غاصة

• هذه الصفحة تماثل بالإسبانية فعل Anias : يجب .

بالناس ، تشجعتا واتخذنا مقعدين أمام سارية بيضاء ، يظهر عليها بين الفينة والفينة ضوء كأنه آتٍ من الشمس . كانوا يجربون آلة العرض وعدساتها ، التي كان يصدر عنها قرقرة مماثل لقرقرة فوانيس الشارع الكهربائية . ثم أظلمت القاعة فجأة . وشعرت كميلة كأنما هي تلعب « عسكر وحرامية » . وأصبح كل شيء على الشاشة غير واضح . وكانت الشخصوس تتحرك عليها هنا وهناك كالجراد . أناس مبهمون بدوا كأنهم يعضفون شيئاً حين يتكلمون ، يمشون على شكل قفزات ويحركون أذرعتهم كأنما هي مخلوعة عن أجسادهم . وتذكرت كميلة بوضوح حادثة ، حين اختبأت هي وصبياً من أقرانها في غرفة ذات سقف زجاجي مفتوح على السماء ، جعلتها ننسى للحظة الصور المتحركة . وكان ثمة شمعة دائية أمام صورة شفافة للمسيح في الركن المظلم من الغرفة . واختبأ تحت السرير وكان عليها أن يرقدا بالطول على الأرض . وأخذ السرير يقرقع بصوت عالٍ مستمر . كان قطعة أثاث عتيقة من عهد الجدود ولا يتحمل تلك المعاملة القاسية . وسمعت صيحة : « أنا قادم » من الفناء البعيد ، « أنا قادم » . وحين سمعت كميلة صوت أقدام من هو « قادم » ، فاجأتها رغبة في الضحك . ونظر إليها رقيقها في المخبأ بحدة منذرا إياها أن تصمت ؛ واطاعت في البداية واتخذت مظهراً جاداً ولكنها لم تستطع السيطرة على نفسها حين وصلت إلى أنفها رائحة مغشية من خزانة نصف مفتوحة ، وكانت مستفجرة ضاحكة على الفور لو لم تبدأ عيناها تدمعان من جراء التراب الدقيق تحت السرير ، في حين نلقت ضربة مفاجئة في نفس الوقت على جبهتها .

وتما كما غادرت مكنها تحت السرير منذ فترة بعيدة ، غادرت دار الصور المتحركة وعيناها مفعمتان بالدموع ، وسط جمهرة من الناس كانت تغادر مقاعدها وتهرع إلى باب الخروج وسط الظلام . ولم تتوقف هي والمربية حتى بلغتا « رواق التجار » وهناك علمت كميلة أن النظارة قد غادرت الدار كي تنجنب الحرمان الديني من الكنيسة : فقد ظهرت على الشاشة صورة امرأة في ثوب يلتنق بجسدها ترقص التانجو الأرجنتيني مع رجل طويل الشعر ذي شارب كث يرتدي ربطة عنق فنان .

وخرج « فاسكيز » إلى الطريق وهو لا يزال يحمل القضيب الحديدي الذي

أخرس به المربية . وأعطى إشارة بيده فظهر ذو الوجه الملائكي وراءه يحمل ابنة الجنرال بين ذراعيه . واختفيا داخل حانة « الخطونان » في نفس الوقت الذي بدأ رجال الشرطة يهربون بما يحملون من أسلاب . وكان أولئك الذين لم تقع أيديهم على سروج جياذ يحملون على ظهورهم ساعة حائط ، أو مرآة كبيرة ، أو تمثالاً ، منضدة ، تمثال للمسيح ، سلحفاة ، دجاجاً ، بطاً ، حماماً ، أو أياً من مخلوقات الله الأخرى : ملابس رجال ، أحذية حريم ، أدوات من الصيني ، زهوراً ، صور قديسين ، أحواضاً ، جرادل ، مصابيح ، نجف ، زجاجات دواء ، صوراً زينية ، كتباً ، مظلات لمياه السماء ومبولات لمياه الإنسان .

ركانت صاحبة الحانة تنتظر في الداخل وفي يدها قضيب حديدي ، جهازة لتغلق به الباب خلفهم .

ولم تكن كميلة لتصور وجود مثل هذه « الزرية » التي تفرح منها رائحة الفراش العفن ، لا تبعد سوى أمتار قليلة من البيت الذي عاشت فيه في سعادة غامرة ، يدللها ذلك الجندي العجوز (وكان من المستحيل تصور أنه كان سعيداً بالأمس فقط) ، وترعاها مربيتها (وكان من المستحيل تصور أنها ترقد الآن مصابة بجراح مميتة) . والزهور التي كانت بالأمس ناضرة أصبحت الآن على الأرض مداسة بالأقدام ، وقطعتها هربت ، وعصفورها الكناري مات بعد أن ديس بالأقدام مع قفصه . وحين أزاح المحبوب الوشاح الأسود من على عيني كميلة ، خامرها شعور بأنها بعيدة جداً عن منزلها . ومرت بيدها على وجهها مرتين أو ثلاثاً وهي تتطلع فيما حولها لترى أين هي ، وتوقفت أصابعها عن الحركة كي تخلق صيحة استياء كادت تصدر عنها حين تحققت أن محتها حفيقة واقعة وليست حلماً أو خيالاً .

وجاءها صوت الرجل الذي نقل إليها الأنباء المشؤومة ذلك المساء ، طاقياً نحو جسدها الثقيل الخدر : « أنسي ، على الأقل ليس من خطرت يهددك هنا . ماذا نستطيع أن نفعل كي نهدى من مخاوفك ؟ »

فصاحت صاحبة الحانة : « ماء ونيران ! » وأسرعت تحرك بضع جمرات في أعلى وعاء فخاري تستخدمه قُرناً ، في حين انتهز « فاسكيز » الفرصة لمهاجمة قنينة من البراندي القوي ، وابتلع ما فيها دون أن يذوقه ، كأنما هو يشرب سم فئران .

وانعشت صاحبة الحانة النيران عن طريق النفخ فيها ، وهي تتمتع طوال الوقت : « اشتعلي سريعاً ! اشتعلي سريعاً ! » . وتراهي خلفها ، على جدار الغرفة الخلفية التي كانت تتوهج الآن بالنور الأحمر المنبعث من جمرات النار ، ظل فاسكيز وهو ينسل في طريقه إلى الفناء .

واسقطت « لامسكواتا » جمرة مشتعلة في صحن مليء بالماء ، فقعمقت وهسهست كالشخص المرتعب ، ثم طفت الفحم المنطفئة على سطحها كنواة ثمرة جهنمية سوداء ، فالتقطتها المرأة بالملقاط . وبعد أن احتست كميلة شيئاً من هذه المياه ، عاد إليها صوتها ثانياً .

وكان أول ما قالته : ماذا حدث لوالدي ؟
فرد ذو الوجه الملائكي : « اهدئي ، لا تقلقي ، إشرابي مزيداً من مياه الفحم ، إن الجنرال بخير » .

- هل أنت متأكد ؟

- أعتقد ذلك .

- إن المصيبة . . .

- هس ! لا تجلسي الحظ السيء !

واستدارت كميلة ونظرت إلى ذي الوجه الملائكي . إن تعبير الوجه كثيراً ما يكون أشد إجماء من الكلمات . بيد أن عينيها تاهتا في عيني المحبوب السوداوين الجامدتين .

وقالت لامسكواتا : « يجب أن تجلسي يا عزيزتي » .

وسحبت لها المقعد الذي كان يجلس عليه « فاسكيز » حين دخل الغريب الذي دفع ثمن شرابه بورقة نقد كبيرة في الحانة لأول مرة .

أكان ذلك المساء منذ سنوات عدة ، أم منذ بضع ساعات ليس إلا ؟ وحقق المحبوب إلى ابنة الجنرال أولاً ، ثم إلى نار الشمعة الموقدة أمام صورة العذراء . وتوهجت حدقتاه حين جال بخاطرهم أن يطفئ الشمعة ويقضي وطره من الفتاة . نفخة واحدة . . . وتصبح ملكة إما برغبتها أو رغماً عنها . ولكن عينيها تحولتا عن

صورة العنقاء لتطلعا الى كميلة ، كانت تهاوت على المقعد رغاصت فيه ، وحين رأى وجهها مرصعا بالدموع ، وشعرها الأشعث وجسدها الشبيه بجسد الملاك الفتى ، تغيرت سيماؤه وتناول القدر من يدها بمظهر أسوي ، قائلاً : يا فتاتي الصغيرة المسكينة ! .

وجاءه سعال صاحبة الحانة على نحو حفيف لتبهما إلى أنها ستتركهما وحدهما ، ثم שתائمها اللاذعة حين وجدت فاسكيز يرقد غموراً تماماً في الفناء الصغير الذي يعبق برائحة الورود في أصصها المصفوفة وراء الغرفة الخلفية ، وتسبب كل هذا في انفجار كميلة في موجة جديدة من الدموع .

قالت « لامسكواتنا » تؤنب فاسكيز : لقد ملأت نفسك حتى التخمة أيها البائس . الشيء الوحيد الذي تجسده هو أن تجعلني أفقد أعصابي ! إن ما يقال صحيح تماماً ، لا يمكنني أن أغلق عيني إلا ونحطف شيئاً . ورغم ذلك تدعي أنك تحبني . آه ، أجل ، لا شك في هذا . ما أكاد أدير رأسي حتى تنفض على الزجاجة . إنها لا تكلفك ملياً واحداً ، أليس كذلك ؟ كل ذلك لأنني وثقت بك اخرج من هنا ، أيها اللص ، قبل أن ألقى بك إلى الخارج ! »

ورن صوت الرجل المغمور في نعمة شاكية ، بينما اصططك رأسه بالأرض حين بدأت المرأة تجذبه من قدميه . وأغلق الهواء باب الفناء الصغير ، وساد الصمت بعد ذلك . وكان ذو الوجه الملائكي يردد في سمع كميلة وهي تبكي : « لقد انتهى كل شيء الآن . إن والدك لم يعد في خطر ، وإنك في أمان تام في هذا المخبأ ، إنني هنا لكي أحميك . لقد انتهى كل شيء ، لا تبكي ، فإن بكاءك سيزيد ما تشعرين به من قلق . توقفي عن البكاء وانظري لي وسأشرح لك كل شيء » .

ونجت شهقات كميلة وويداً وويداً . كان ذو الوجه الملائكي يرتب على شعرها ، وتناول منديلها من يدها وأخذ يجفف به عينيها . وبدأ ضوء الفجر يلون الأفق ويشع بين الأشياء في الحجرة وتحت الأبواب ، كأنه ماء الخير الأبيض ممزوجاً بطلاء وردي . إن البشر يحسون بوجود بعضهم بعضاً قبل أن يتمكنوا من رؤية بعضهم بعضاً . وهاجت الأشجار بفعل أول غناء للعصافير ولم تعد تستطيع أن تحك أوراقها . وتشاءبت النوافير من وراء أخرى . واطرحت السماء جانباً خصللات الليل السوداء ، خصللات الموت ، وارتدت حلة مذهبته .

- ولكن يجب عليك أن تلزمي الهدوء ، وإلا ضعننا . سوف تضيعين نفسك ، وتضيعين والدك ، وتضيعيني . سوف أعود هذا المساء وأصطحبك إلى منزل عمك . أهم شيء هو كسب الوقت . لا بد أن نتذرع بالصبر . لا يمكن للمرء أن يرتب كل شيء في وقت واحد ، فبعض الأشياء أشد صعوبة من أشياء أخرى .

- « أنا لا أشعر بالقلق على نفسي ، فأنا أشعر بالأمان بعد ما قلته لي ، وإني ممتنة لذلك . أفي أدرك أن علي أن أبقى هنا . إنني قلقة على والدي . إنني نواقة لأن أتأكد أنه لن يحدث مكروه لوالدي » .
- أعدك أن أحضر لك أنباء عنه .

- اليوم ؟

- اليوم .

وقبل أن ينصرف ذو الوجه الملائكي ، التفت إلى كميلة ورئت على خدها في ود .

- أنت أحسن حالا الآن ؟

ونظرت إليه ابنة الجنرال كاناليس بعينين قد امتلأتا ثانياً بالدموع وقالت :

- إثنني بالأنباء . . .

- ١٣ -

اعتقالات

لم تنتظر زوجة « خينارو روداس » وصول الخبز قبل أن تهرع خارجة من بيتها . ولا يعلم إلا الله ما إذا كانت أرغفة الخبز ستوزع اليوم عليهم . تركت زوجها محمداً على السرير بملابسه الكاملة ، منهكاً كالخرقة البالية ، كما خلفت وليدها في السلة التي تقوم له مقام المهد . وكانت الساعة السادسة صباحاً .

ودقت ساعة كنيسة « لامرسيد » في نفس الوقت الذي كانت هي تدق فيه على باب منزل الجنرال كاناليس . وقالت لنفسها وهي تمسك مطرقة الباب ، على وشك أن تدق بها ثانية : أرجو أن يغفروا لي إيقاظهم هكذا في هذه الساعة المبكرة . ولكن أما من أحد يفتح لي الباب ؟ لا بد أن يعلم الجنرال بأسرع ما يمكن ما قاله « لوسيو فاسكيز » لزوجي الأحمق في ذلك البار المسى « صحرة الأسد » .

وتوقفت عن الدق وانتظرت أن يفتح الباب . وجال في خاطرها : « لقد ألقى الشحاذون مسؤولية جريمة « رواق الرب » على الجنرال . سوف يحضرون ويقبضون عليه هذا الصباح . وأسوأ ما في الأمر أنهم ينوون اختطاف ابنته » . ورددت في نفسها وهي لا تكف عن دق الباب : « يا له من عُذر ! يا له من عُذر ! » . وتزايدت ضربات قلبها « إنهم إذا قبضوا على الجنرال ، حسناً ، إنه رجل على كل حال ويمكنه احتمال مصاعب السجن . ولكنهم إذا خطفوا السيدة الصغيرة ، فليساعداً الله ! لن يكون هناك علاج لهذه المصيبة . إنني أراهن بكل شيء أن هناك واحداً من أولئك الأوغاد قليلي الحياء هو السبب في كل هذا الذي يحدث ، واحد ممن ينتقلون من الجبال إلى المدينة لممارسة مكائدهم البشعة المشينة » .

ودقت الباب مرة أخرى . وردد المنزل والطريق والهواء الطرقات كأنها دقات
طبول . وامتلات بأسا حين لم يفتح لها أحد . وعمدت لقتل الوقت الى قراءة
عنوان الحانة الواقعة عند الناصية : « الخطوتان » . كانت كلمة واحدة مكونة من
حروف قليلة . ولكنها لاحظت عند ذاك صورتين لشخصين كل واحد منهما على
أحد جانبي باب الحانة : صورة رجل على اليمين ، وصورة امرأة على اليسار .
ومن فم المرأة تخرج عبارة مكتوبة هي : « تعال ارقص في حانة « الخطوتان » ، ثم
يأتي الرد عليها من الرجل الذي كان يمسك زجاجة في يده : « كلا شكرا ، إني
أفضل رقصة الزجاجة ! » .

وحين كَلَّت يدها من دق الباب ، فهم إما ليسوا في الداخل أو أنهم لن يفتحوا
لها الباب ، دفعت بيدها الباب فانفتح . كيف أنه لم يكن مغلقاً بالترتاج؟
وللمت شأها المطرز حول كتفيها ودخلت الردهة يغمزها إحساس عميق بشر
متوقع ومضت نحو البهو وهي لا تكاد تعرف ما هي فاعلة . واخترق المنظر الذي
رأته أمامها عينيها كما تخترق طلقة رصاص جسد الطائر ، ونجم الدم في عروقها ،
وتركها لاهثة الأنفاس ، غائرة العينين ، مشلولة الأطراف : كانت ثمة مزهريات
محطومة وريش طيور متناثر على الأرض ، وسنائر ممزقة ونوافذ ومرايا مكسورة ،
وخزائن مبقورة ، وأقفال محطمة ، والأوراق والملابس والأثاث والسجاد كله قد
عاث فيه الخراب ، كل شيء قد شاخ في ليلة واحدة ، كل شيء قد استحال خليطاً
لا قيمة له من نفاية قدرة لا حياة فيها ولا روح .

وكانت المربية العجوز ، « لاتشابيلونا » ، تدور في أنحاء المنزل كالشبح بحثاً
عن سيدتها الصغيرة ، ورأسها مفتوح بالجراح . كانت تقول وهي تضحك :
ها ، ها ، ها ، هي ، هي ، هي ! أين تختبئين يا فتاتي كميلة ؟ انني قادمة ،
لا تردين ؟ قادمة ! قادمة ! قادمة ! »

كانت تتخيل أنها تلعب « عسكر وحرامية » مع كميلة ، فظلت تبحث عنها
مرات عديدة في نفس أركان الغرفة ، بين أصص الزهور ، تحت الأسرة ، وراء
الأبواب ، وهي تقلب كل شيء عاليه سافله كأنها الزوبعة .

- ها ها ها ، هي هي هي ! أوه أوه أوه ، قادمة ، قادمة . أخرجني يا
كميلة ، لقد سلّمت . أخرجني يا كميلتي ، لقد تعبت من البحث عنك . ها ها

ها ! أخرجي . إنني قادمة . هي هي هي ، أوه أوه أوه ! ،

وفي أثناء بحثها عن كميلة صادف أن توجهت إلى النافورة ، وحين رأت
خيالها المنعكس على صفحة المياه الساكنة ، صرخت كالقرد الجريح ، وأخذت
ضحكتها ، تتحول إلى لغو خفيف ، وشعرها يغطي وجهها ويداهما تمسكان
بشعرها ، وطفقت تنهار رويداً رويداً إلى الأرض كيما تهرب من هذه الرؤيا
المخيفة . وغمغمت بعض أعذارٍ مشققة كأنما هي تطلب السماح من نفسها على
كونها يمثل هذا القبح وهذه الشيخوخة وهذه الضالة وهذه الهيئة المشوشة .
وفجأة ، بدأت تصرخ مرة أخرى . فمن خلال شلال شعرها المنقوش ، ومن بين
أصابعها المتفرقة ، لمحت الشمس تقفز فوقها من أعلى ، وتلقي بظلها على أرض
الفناء . وأعمائها الغضب فنهضت وهاجمت ظلها وصورتها المنعكسة ، وأخذت
تضرب صفحة المياه بيديها والأرض بقدميها . كانت تريد أن تدمرها . وطفق
ظلها يتلوى ويتثني كأنه حيوان يجلد بالسياط . ولكنه ظل باقياً برغم ضربات قدمها
المحمومة وركلاتها ، وتحطمت صورتها نثارة في خضم المياه التي ضربتها بيديها ،
ولكنها عادت مرة أخرى حالما سكن الماء . وأخذت تصرخ كالحيوان المتوحش
غاضبة لعدم قدرتها على تدمير هذا الرأس السخامي . انتثر على الأحجار والذي
يهرب من ركلات قدميها كأنما يفر حقيقة من الضربات ، وعلى تحطيم ذرات
الغبار المضيء التي تطفو على سطح المياه وبها سمكة لها نفس صورتها .

وبدأت قدمها تدميان ، وفراعاها ترتجيان إلى جنبها من فرط التعب ، ولكن
ظلها وصورتها المنعكسة بقيا عصيين على التدمير . وتشنجت من سورة
الغضب ، فبذلت جهداً يائساً أخيراً وألقت بنفسها على جدار النافورة . . .
وسقطت وردتان في المياه . . .

وانتزعت عينيها غصن شجرة ورد مليء بالأشواك . . .

وبعد أن ارتمت تتلوى على الأرض كظلها ، رقدت أخيراً ساكنة تحت إحدى
أشجار البرتقال لا يبدو فيها نفس حياة .

وكانت ثمة فرقة موسيقية عسكرية تعبر الطريق . يا لها من موسيقى عسكرية
قوية ، يا لها من رؤية مشوقة لأقواس النصر تلك التي تبعثها في النفوس ! ولكن
برغم جهود نافخي . . . في النسخ بقوة وفي تناغم ، فإن سكان الحيرة لا يسمعون .

يفتحوا عيونهم ذلك الصباح في نفاذ صبر لأنهم كأبطال تعبوا من مشاهدة السيف
يصدأ في ظل أمان حقول الذرة الذهبية ، استيقظوا تملؤهم آمال يوم الاجازة
السارة ، عازمين في نواضع على الصلاة إلى العليّ القدير كي يخلصهم من الأفكار
والأقوال والأفعال الشريرة الموجهة ضد رئيس الجمهورية .

وبعد فترة قصيرة من الاغناء ، بدأت « لاتشابلونا » تحس بأصوات الفرقة
الموسيقية . كانت في عالم من ظلام . لا بد أن سيدتها الصغيرة قد تسللت على
أنطراف أصابعها وغطت عينيها من الخلف . وتمتمت في صوت متعثر وهي ترفع
يديها إلى وجهها لتزيح عنها يدي الفتاة اللتين كانتا تسيان لها المأ فظيلاً : « يا
عزيزتي كميلة ، أعرف أنه أنت . دعيني أنظر إليك » .

وتلاشت موسيقى الفرقة في الهواء مع ابتعادها عن الحلي . وتضافرت
الموسيقى مع الظلمة التي طوّق بها العمى عينيها كأنها هي حقا تلعب « عسكر
وحرامية » ، فبعثت فيها ذكرى المدرسة التي تعلمت فيها الهجاء ، هناك في « المدينة
القديمة » . ثم قفزت عبر السنين فرأت نفسها وقد نمت ، تجلس في ظلال شجري
مانجو ، وبعد ذلك ، قفزة أخرى في الزمن ، وها هي جالسة في عربة تجرها
الثيران تدب على طريق منبسط يعبق برائحة التبن . وبدأ صرير العجلات كتاج
مزدوج من الأشواك يسحب الدماء من صمت سائق العربة الأمد الذي جعل منها
زوجته ، وكان الثوران الصبوران يمضغان طعامها وهما يغدان السير ويجران خلفها
عربة العرس .

ويشخر السماء التي تظلل الحقول في الربيع . . . بيد أن ذكرياتها نشئت
فجأة ، ورات حشداً من الرجال يندفعون إلى منزل الجنرال كالسيل ، يلهثون
كالحيوانات السوداء ، وسمعت صرخاتهم الشيطانية ، وضرباتهم ، ونجديفهم ،
وضحكاتهم الخشنة ، والبيانو بصرخ كأنها ينتزعون أسنانه بالقوة . واختفت
سيدتها الصغيرة كأنها عبر العطر ، وشعرت هي بضربة غنيمة في وسط جمجمتها
مقرونة بصرخة غريبة وظلمة سادت كل شيء .

ووجدت « نينيا قدينا » ، زوجة « خينارو روداس » ، الخادمة المعجوز عمدة في
الفناء ووجتها غارقتان في الدماء ، وشعرها منفوش ، وملابسها ممزقة شر ممزق ،
وهي تناضل كي تطرد عنها الذباب الذي كانت ثمة يد خفية تقوده إلى وجهها ،

فقرت في دعر الى داخل المنزل كأنها هي قد رأت عفرينا .

وظلت تردد في سرها : « يا للمسكينة ! يا للمسكينة ! »

وتحت إحدى النوافذ ، عثرت « فيدينا » على الخطاب الذي كان الجنرال قد كتبه الى أخيه خوان يطلب منه أن يعتني بكميلة . بيد أن فيدينا لم تقرأ الخطاب كله ، فمن ناحية كانت ملهية بصرخات « لاتشابيلونا » التي كانت تتردد خلال المرايا المحطمة وشظايا أفاريز النوافذ ، والكراسي الممزقة ، والخزائن المنهوبة والصور الساقطة - وهي من ناحية أخرى ملتهية بحاجتها المسيسة الى الحرب من هذا المكان . ومسحت العرق عن وجهها بمسديل مطوي أربعة ، انسحق بين أصابعها المشنجة المزدانة بالخواتم الرخيصة ، ودست الخطاب في صدرها وأسرعت خارجة إلى الطريق .

بيد أن ذلك جاء متأخرا . ذلك أن ضابطا خشن المظهر ، استوقفها لدى الباب . كان المنزل محاطا بالجنود . ومن الفناء انبعثت صيحات المربية المعذبة .

ووقف لوسيو فاسكيز وراء باب حانة « الخطوتان » ، وكانت « لامسكواتا » و « كميلة » قد دفعته الى مراقبة ما يحدث في الخارج من عند الباب ، حابسا أنفاسه وهو يرى الجنود يقبضون على زوجة صديقه « خينارو روداس » الذي كان قد كشف له ، في الليلة الماضية تحت تأثير الخمر في بار « صحرة الأسد » ، خطط القبض على الجنرال .

وتوجه جندي إلى حانة « الخطوتان » وجال في خاطر صاحبة الحانة وقد سقط قلبها إلى قدميها من الخوف : « لا بد أنهم يبحثون عن ابنة الجنرال » . وجعلت نفس هذه الفكرة شعر فاسكيز يقف ذعرا . بيد أن الجندي كان قد حضر ليقول لهم إن عليهم أن يغلقوا الحانة . فأغلقوا الباب ووقفوا برفبان ما يحدث في الطريق من خلال الشقوق .

وفي الظلمة ، أخذ فاسكيز يستجمع قواه وبدأ يربت على « لامسكواتا » بحجة أنه خائف ، ولكنها أوقفته بدافع العادة ، وكانت على وشك أن تصفعه فقال لها فاسكيز :

- يا لك من عبيلة مغرورة ؟

أوه ، احقاً؟ أنك مخطئ . أود أن أعرف لماذا يجب علي أن أسكت على استهزائك بي .
ألم أقل لك الليلة الماضية أن تلك البلهاء قالت لي إن ابنة الجنرال . . . فقسطعها
فأسكيز قائلاً : إحدري وإلا سمعوك !

كانا يتحادثان وهما منحنيان ينظران إلى الطريق من خلال شقوق الباب .
- «لا تكن أبله ، إنني أنكلم بصوت منخفض ! لو لم أقل لك أن تلك المرأة
ستخذ من ابنة الجنرال إشيينة لطفلها، لكنت قد أقحمت » خينارو » في هذه المسألة
ولكان الفتى قد ضاع الآن »

فرد عليها وهو يحاول أن يتزع بعض خيوط العنكبوت التي التصقت بين رقبته
وأنفه : «حقاً حقاً . . . »

- «أتعزأ مني أيها المتوحش؟ حقاً إنك لجاهل» .

- آه ، يا لك من عالمة مرهقة الحس . . . !

- هس !!

كان المدعي العسكري العام يهبط في هذه اللحظة من إحدى العربات .

قال فاسكيز : إنه المدعي العام . . .

وتساءلت «لامسكواتا» : ولماذا جاء إلى هنا ؟

كيبا يقبض على الجنرال .

- لهذا قد ارتدى كل أوسمته وأصبح كالطاروس ؟ لماذا لا تقطف لك ريشة
تلك الرياش التي تتوج رأسه ؟

- كلا ، شكراً . يا لك من فضولية ثرثارة . إنه يرتدي حلته الرسمية لأنه في
يفه لمقابلة السيد الرئيس .

- يا لحسن حظه ، أكون عاهرة لو لم يكونوا قد قبضوا على الجنرال في الليلة
ناضية .

- لماذا لا تصمتين ؟

حين هبط المدعي العسكري العام من عربته ، صدرت الأوامر في صوت
خافت ، ودخل أحد الضباط الى المنزل على رأس فرقة من الجنود ، شاهرًا سيفه
يد وحاملًا مسدسًا في يده الأخرى ، قبالًا أشبه بالضباط في التصاوير الملونة
عن الحرب الروسية - اليابانية .

وبعد عدة دقائق ، حسبها فاسكيز قرونًا إذ هو يراقب كل ما يحدث وقلبه
عفق بين ضلوعه - عاد الضابط شاحب اللون شديد الاضطراب ، ليخبر المدعي
بعام بما حدث .

وصاح المدعي العام : « ماذا ؟ ماذا ؟ » وخرجت كلمات الضابط مندفعة
نبرة من ثنايا طبقات أنفاسه المتهدجة .

وزار المدعي العام : ماذا . . . ، ماذا ، أنقول انه قد هرب . . . ؟
ياحتقن عرقان في جبهته كأنهما علامتا استفهام سوداوان هوانهم . . . أنهم . . .
هم نهبوا المنزل ؟ . . .

وبدون إضاعة مزيد من الوقت اختفى داخل المنزل يتبعه الضابط ، وألقى
مظرة خاطفة ، ثم عاد بخفة الى الشارع ويده السميكة تقبض في غضب على مقبض
سيفه ، ووجهه من الشحوب لدرجة يصعب معها التفريق بين شفاه وشارب
الغض .

وقال متسائلًا حين خرج من المنزل : « كيف هرب . . . هذا ما أود .
عرفه ؟ لقد اخترع الهاتف من أجل هذا ، لتنفيذ الأوامر . . . للقبض على أعد
حكومة . أه أيها الثعلب العجوز ! سوف أشقه إذا وضعت يدي عليه . انه في
مرتب لا يحسد عليه أبدًا » .

وفجأة وقعت عينها المدعي العسكري العام على « نينيا فيدينا » كالصاعقة .
وكان ضابط « ورقيب » قد أحضرها بالقوة حيث كان المدعي العام يزفر ويزأر .

قال لها وهو لا يرفع عينيه عنها : أيتها الكلبة . . . سنعرف كيف نجعلك
محبوبين ! أيها الضابط ، خذ عشرة جنود واحملوها الى حيث يجب أن تكون
تدائن ، هه . . . ؟

وبعد عدة ثغرات ، صرخت حاملة ، حادة ، شديدة . . .

وأن فاسكيز قائلاً : « آه يا إلهي ، ماذا يفعلون بهذا المسيح المصلوب
نسكين ؟ » ذلك أن صرخات « لانتسابيلونا » المتزايدة القاطعة جعلت السدء
سحمد في عروقه .

وصححت له صاحبة الحانة قوله في سخرية : المسيح ؟ ألا تسمع ؟ أنها
صرخات امرأة ؟ هل تظن أن الرجال لهم لهجة العصافير الأثوية ؟
- لا تكلميني هكذا . . .

وأمر المدعي العام العسكري بتفتيش المنازل المجاورة لمنزل الجنرال .
وانتشرت فرق من الجنود في جميع الأنحاء بقيادة عريف أو رقيب . وقلبوا في كل
الأنحاء ، الأفنية ، غرف النوم ، المكاتب الخاصة ، الحجرات العلوية ، النوافير .
وتوجهوا إلى الأسطح ونقبوا في خزائن الشراشف ، والأسرة ، والسجاجيد ،
والصوانات ، والبراميل ، والخزانات ، والصناديق . وكان إذا تأخر أحد في فتح
الباب ، كسروه بكعسوب بنادقهم . وكانت الكلاب تنبح في غضب إلى جوار
أصحابها شاحبي اللون . وكان النباح يصدر من البيوت كأنما هو مياه تصدر عن
رشاشة ماء .

قال فاسكيز الذي كاد ينعقد لسانه من الرعب :

- إفرضي أنهم فتشوا هنا ؟ لقد أوردنا أنفسنا موارد الهلاك ! ولو كان ذلك
مقابل شيء ، هان الأمر ، ولكنه يكاد يكون مقابل لا شيء ، بالمرّة . . .

وأسرعت « لامسكواتا » لتحذر « كميلة » . وأعقبها فاسكيز يقول : « إني
أعتقد أن الأفضل أن تغطي وجهها وتغادر هذا المكان حالاً . ثم أسرع إلى الباب
دون أن ينتظر جواباً لكلامه .

وقال وعيناه على ثقب الباب : « إنتظرا ، إنتظرا ! لقد أعطى المدعي العام
أمراً آخر ، لقد توقفوا عن التفتيش . لقد نجونا ! » .

وخطت صاحبة الحانة خطوتين إلى الباب لترى بعينها ما أعله فاسكيز بهذا
الخبور .

وهبت المرأة : انظر إلى مسيحك المصلوب !

من سي ؟

«إنها المربية - ألا ترى؟» وأزاحت جسدها لتبتعد عن نطاق يدي فاسكيز
سبعين ، وأضافت « اتركني أيها الرجل ، اتركني ، اتركني عليك اللعنة!»

- يا للمسكينة . أنظري كيف يجرونها معهم !

- لماذا تصبح أعين الناس حولاء وهم يحتضرون ؟

- « هس ، لا أريد أن أرى » .

كانت فرقة من الجنود يفودها ضابط شهر سيفه قد جرت « لاتشابلونا »
المربية الثعسة الحظ من منزل الجنرال . كان مستحيلا على المدعي العام أن
يستجوبها . ومنذ أربع وعشرين ساعة ، كان هذا الحطام الانساني ، الذي يلفظ
الآن آخر أنفاسه ، هو الدعامة الاساسية لبيت كان النشاط السياسي الوحيد فيه هو
خطط طائر الكناري التي يخيكلها للحصول على مزيد من حبوب القرطم لغذائه ،
والدوائر المتراكزة التي تنتشر تحت دفقة النافورة ، وانهمك الجنرال المتواصل في
ألعاب « الكوتشينة » ، ونزوات كميلة .

وقفز المدعي العسكري العام إلى عربته ، يتبعه أحد الضباط . وتوقفوا عند
أول ناصية ، فقد وصل أربعة رجال قذرين ، رثي الثياب ، ومعهم نقالة لحمل
جثة « لاتشابلونا » إلى المشرحة . واصطف الجنود عائدين إلى ثكناتهم ، وفتحت
« لامسكواتا » حانتها . وجلس فاسكيز في مقعده المجهود ، ولم يبذل جهداً يذكر
لاخفاء اضطرابه من جراء القبض على زوجة « خينارو روداس » . كان رأسه
كالفرن الذي يغلي فيه الأجر الأحمر ، وعقله مسطحاً من تأثير الخمر ، تتنابه
نوبات السكر من حين إلى آخر ، مقرونة بمخاوف من فرار الجنرال .

وأثناء ذلك ، كان الجنود المكلفون « بينيا فيدينا » يصطحبونها إلى السجن ،
ويدفعونها من حين إلى آخر من على الطوار إلى عرض الشارع . واستسلمت المرأة
لثلك المعاملة السيئة في صبر ، غير أنها فقدت أعصابها فجأة وهم في الطريق
وضربت واحدا منهم على وجهه . وجاءها الرد على صورة ضربة قاسية من كعب
البندقية ، وفي نفس الوقت سددها إليها جندي آخر ضربة من الخلف جعلتها تنزع
وأسنانها تصطك في رأسها ، والنجوم تتماثل أمام عينيها .

وتدخلت امرأة من المارة كانت عائدة من السوق حاملة سلة مليئة بالخضروات والفاكهة ، صاحت بهم : « ايها القذرون ، اهلذا تحملون أسلحتكم ؟ يجب أن تنجلوا من أنفسكم » .

وصاح بها جندي : « اصمتي ! » .

- يا لك من وفح .

وصاح بها رقيب : هيا يا سيدتي ، تابعي سيرك . اذهبي الى حيث كنت ذاهبة ، أو ليس لك ما تفعلين ؟

وهل أنا مثلكم ، أيها الخنزير السمين !

فتدخل الضابط قائلاً : « اصمتي وإلا سنحطم رأسك » .

- « لمحطمون رأسي » ، حقاً . هذا ما كان يتقصدنا فعلاً ، هؤلاء الجنود الذين يسرون هنا وهناك مثل البصنيين ، وملابسهم مهترئة عند المرفقين وعند حجر البنطلون ! أفضل لكم أن تنظروا إلى أنفسكم وأن تكفوا أيديكم عن الناس ، أينها الجماعة التي يرتع القمل فيكم ، وأنتم تلهون بشتم الناس ! »

و قليلاً قليلاً ، ابتعد الركاب عن المدافعة المجهولة عن زوجة « خينارو روداس » وسط دهشة المارة ، في حين ذهبت المقبوض عليها في طريقها الى السجن ، حزينة ، مضطربة ، تنفصده عرقاً ، وطرف شالها المطرز بمسح الأرض خلفها .

■

وصلت عربة المدعي العام العسكري إلى منزل « قابيل كرفخال » المحامي في الوقت الذي كان يتأهب لمغادرة بيته الى القصر الجمهوري مرتدياً قميصه العالية وسترته الصباحية . وقفز المدعي العام من العربة الى الطوار مما جعل العربة تهتز من بعده . وأغلق « كرفخال » الباب وراءه وكان يضع فرجة قفازه بعناية حين اعتقله زميله . واصططحبته مفرزة من الجنود ، وهو في ملابسه الكاملة ، في وسط الطريق الى مركز الشرطة الثاني ، الذي زينته واجهته بالأعلام والشرائط الورقية وأخذوه ، أساً الى الزنزانة التي كان الطالب ومساعد القس سجينين فيها .

فليغن العالم جميعه !

كانت الشوارع تبدى تدريجياً للبصر في ضوء الفجر الهارب ؛ ومن حولها ترقد الأسطح والحقول العبة بنضارة الريح . وكانت البغال التي تحمل اللبن ترى وهي تسير خبياً وغطية جرار اللبن تصلصل من فوقها ، يستحثها البغالون على السير قدما بالضربات وباللعنات . وسطع نور الصباح على الأبقار الواقفة للاستحلاب أمام أزقة منازل من هم أيسر حالا ، أو في نواحي الطرقات في الأحياء الفقيرة ، بينما الزبائن ، وبعضهم في طريق النقاة والآخر في طريق الهلاك ، وأعينهم لا يزال السبات يغطيها ، ينتظرون بقرعهم المفضلة ويذهبون اليها لاستحلابها ، وهم يملون الجرة في براعة كيما يحصلوا على قدر من الحليب أكثر من الرغاوي . وكانت النسوة اللاتي يوزعن الخبز على البيوت بمشين ورؤوسهن منحنية على صدورهن ، مخنيات الظهور ، يجاهدن في جر سيفانين ، خافيات الأقدام ، يسلكن طريقهن بخطوات قصيرة متعشرة تحت وطأة سلاهن الضخمة . كانت السلال مكمومة الواحدة فوق الأخرى على هيئة الأهرامات ، مخلفة في الهواء تعبير الفطائر المغطاة بالسهم المحمص والسكر . وأعلنت الساعات الدقاقة بداية يوم عطلة رسمية ، وأثارت بذلك أطيافاً من المعدن والهواء ، سيمفونية من الروائح وانفجاراً من الألوان ، في حين صدرت عن الكنائس ، فيما بين الظلمة والفجر ، دقات النافوس معلنا القداس الأول ، في وجل وجسارة في نفس الوقت ، ذلك أنه إذا كانت دقاته توحى في أيام الأعياد بفطائر الشيكولاتة والبسكوت الكنسي ، فإنه في أيام العطلة الرسمية يفوح برائحة الفاكهة المحرمة .

عطلة رسمية . . .

وفي الشوارع ، مع غير الأرض الطيبة ، ارتفع حبور السكان وهم يفرغون

أحواضاً من المياه من نوافذهم كما يترسب الغبار الذي تخلف عن قوات الجنود التي
مرت تحمل الراية نحو قصر السيد الرئيس ، الراية التي لها رائحة المنديل الجديد ؛
أو عن عربات عجلة القوم المرتدين أفخر ثيابهم : أطباء في معاطف «الفراك» ،
جنرالات في حللهم الرسمية المتألقة التي تعبق برائحة «الفتالين» ، والمدنيون في
قبعات عالية لامعة ، والعسكريون في قبعات مثلثة الأطراف يعلوها الريش ، أو
عن خيب جياد الموظفين الأقل شأنًا ، الذين تقاس الخدمات التي يؤدونها بالمبلغ
الذي ستدفعه الدولة يوماً ما لتغطية نفقات جنازتهم .

سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأعجادك !

، وسمح الرئيس بأن يراه الشعب ، مسروراً من استجابته التي لقيتها جهوده
التي يبذلها في سبيل رفاهيته ، فظهر في الشقة طويلاً وسط كوكبة من أصدقائه
المحبين .

• سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأعجادك !

وشمرت النسوة بقوة معبودهم الحبيب الإلهية . وقدم له أكابر الفس فروض
الطاعة والولاء . وتحيل المحامون أنهم في معية ألفونسو العالم* . أما
الدبلوماسيون ، وهم أصحاب فخامة أتى بعضهم ربما من مدينة «نقليس» ، فقد
ارتسمت على عجايمهم علامات الأهمية كأنما هم في بلاط «الملك الشمس»** في
«فرساي» . وهنا الصحفيون أنفسهم على أنهم موجودون في صحبة «بركلينز»***
آخر . سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأعجادك ! وأحس
الشعراء أنهم في «أثينا» ، هكذا أعلنوا للعالم أجمع . وتحيل نحات للتماثيل

* الملك ألفونسو العاشر (١٨٨٤ - ١٩٣١) ملك تشاثة الذي اشتهر بحبه للمعلم والضافة والذي أسس

مدرسة لنقل علوم العرب إلى اللغة الإسبانية .

** هو لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥) ملك فرنسا ، وبعد عصره العصر الذهبي للثقافة الفرنسية

وكان هو نفسه نصيراً لرجال الفن والأدب .

*** زعيم الفني قديم (١٩٥ - ١٩٢٩ ق. م) عُرف باتساع أفقه وشدة ذكائه .

الدينية أنه « فيديباس »* وابتسم ، وحل بده ، ورفع عينيه إلى السماء حين سمع الهتاف في الشوارع تكريماً لحاكمهم العظيم . سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأجسادك ! وعمد مؤلف معزوفات جنائزية ، مغرم بـ « باخوس »** وبالدين كذلك ، إلى مد وجهه ذي اللون الطماطي من النافذة ليرى ما يحدث في الطرفين .

ولكن ، إذا كان الفنانون قد اعتقدوا أنهم في أثينا ، فقد تخيل أصحاب البنوك اليهود أنهم في « قرطاجنة » ، وهم يتجولون خلال صالونات رجال الدولة الذين وهبهم ثقته وأوكل مدخرات الأمة إلى صناديقهم التي لا قرار لها بفائدة صفر أو لا شيء في المائة ، مما نتج عنه أنهم أثروا ثراء فاحشاً ، واستعاضوا عن عمليات الختان بالعملات الذهبية والفضية !

سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأجسادك !
وشق ذو الوجه الملائكي طريقاً لنفسه وسط المدعوين (كان جيلاً وماكراً كالشيطان) :

- الشعب يطلب ظهورك في الشرفة يا سيدي الرئيس !

- ... الشعب ؟

ووضع القائد نبرة استفهام في هذه الكلمة . وساد الصمت من حوله . ونهض من مقعده وتوجه إلى الشرفة ، تحت ضغط حزن عميق كتّمه في نفسه بغضب حالماً شعر به لثلاً يظهر في عينيه .

وظهر أمام الجماهير محاطاً بكوكبة من محبيه . وكانت بعض النسوة قد جئن ليهنئنه بالذكرى السعيدة لنجاته من محاولة للاغتيال ، وبدأت واحدة منهن ، أوكل إليها مهمة إلقاء خطبة ، تقول حالماً رأت الرئيس :

« يا ابن الشعب البار ... »

وازدرد القائد لعابه المرير ، ربما وهو يذكر أيام كان طالباً ، حين كان يمشي في

• من أشهر النحاتين في اليونان القديمة ونسب إليه تمثال زيوس .

• هو الإسم اليوناني لديونيزيوس ، إله الخمر عند الرومان .

فقر مدقع مع أمه في مدينة لم يجد فيها أي متنفس هها ، ولكن المحبوب تدخل قائلاً
في رنة خفيفة :

- مثل يسوع ، ابن الشعب . . .

وردت صاحبة الخطبة : « يا ابن الشعب البار ، أقول ابن الشعب . في هذا
اليوم الساطع البهاء ، تتلأل الشمس في كبد السماء ، وتلقي بضوئها على عينيك
وفي روحك . وإذا أمثل بالتعاقب المبارك للنهار والليل في قلب السماء ، فإن سراد
تلك الليلة لا ينسى ، حين عمدت الأيدي المجرمة - بدلاً من الاقتداء بك سيدي
الرئيس في زرع البذور الصالحة في الحقول - إلى وضع قنبلة في طريقك ، ولكنك
خرجت منها سالماً معافى ، رغم كل الدقة العلمية الأوروبية التي صنعت تلك
القنبلة » .

وغرق صوت « لسان البقرة » - كما كانت السنة السوء تسمى السيدة التي
الخطبة - في غمار تصفيق حاد من الجمهور ، الهواء لدى الرئيس
رحاً به .

عاش السيد الرئيس !

- عاش السيد رئيس الجمهورية !

- عاش السيد رئيس الجمهورية الدستوري !

- « فلتردد أصداء هتافنا وتصفيقتنا في العالم كله إلى الأبد ، عاش السيد
رئيس الجمهورية الدستوري ، حامي حق الوطن ، رئيس الحزب الليبرالي
العظيم ، المدافع عن الشباب المجتهد ! » .

واستطردت لسان البقرة تقول :

- « إنه لو كانت خطط أولئك الأشرار قد نجحت ، أولئك الذين كان يعاونهم
أعداء السيد الرئيس في محاولتهم الاجرامية ، لكانت راية بلادنا قد تلطخت بمئات
الشوائب الشائنة . إنهم لم يتوقفوا لحظة ليتدبروا أن يد الله كانت معكم تحمي
حياتكم الغالية ، مقرونا بتأييد كل أولئك الذين يسلمون بأنكم جديرون بأن
كونوا المواطنين الأول للأمة ، والذين أحاطوا بكم في تلك اللحظة العصية ،
الذين يحيطون بكم الآن وسوف يحيطون بكم طالما دعت الحاجة إلى ذلك . أجل

أيها السادة ، أيها السيدات والسادة ، إننا ندرك اليوم أكثر من أي وقت مضى أنه لو كانت تلك الخطط الدنيئة قد نجحت في ذلك اليوم ذي الذكرى المفجعة في تاريخ أمتنا - التي تقود اليوم الشعوب المتحضرة - لحرم وطننا من أبيه وحامي حماه ، ولسقطت تحت رحمة أولئك الذين يشحذون خناجرهم في الظلام ليظعنوا بها صدر الديمقراطية في الصميم ، كما قال يوماً ذلك السياسي العظيم «خوان مونتالفو» .

« وبفضل نجاتكم ، لا تزال راييتنا تحقق عمالية دوغما شوايب . وهذا هو السبب الذي نجتمع هنا من أجله أيها السادة ، لتكريم حامي حمى الطبقات الفقيرة المجيد ، الذي يهر علينا بعطف الأب ، والذي جعل أمتنا - كما سبق أن قلت - في طليعة ذلك التفسد الذي أطلق «فالتون» شرارته الأولى باكتشافه البخار ، والذي دافع «خوان سانتا ماريا» عنه ضد القرصنة عن طريق إشعال النار في الديناميت المشؤوم في «لبيرا» . عاش وطننا ! عاش رئيس الجمهورية الدستوري ، رئيس الحزب الليبرالي ، حامي حمى الأمة ، معزز النساء والأطفال العزّل ، والتعليم ! » .

وضاعت هتافات «لسان البقرة» وسط سعيهم من الهتاف أطفاء بحر من التصفيق .

ورد السيد الرئيس بوضع كلمات ، ويده اليسرى تقبض على سور الشرفة المرمري ، والتفت جانباً حتى لا يعرض صدره للخطر ، وحرك رأسه من اليسار إلى اليمين ليحيط بالجمهور ، وقد قطب جبينه ، وعيناه ترقبان كل شيء . ومسح الرجال والنساء على خد سواء دمعات تساقطت من عيونهم .

وقال ذو الوجه الملائكي حين رأى الرئيس وقد انسد أنفه بعض الشيء : هلا تفضلت بالدخول سيدي الرئيس ؟ ... إن الجمهور يؤثر عليكم تأثيراً شديداً ... »

واندفع المدعي العسكري العام نحو الرئيس الذي عاد من الشرفة تبعه ثلة من أصدقائه ، كيما يقدم إليه تقريراً عن هروب الجنرال «كاناليس» ويهتبه على خطبته قبل أي شخص آخر ، ولكنه - مثله في ذلك مثل جميع الذين تقدموا إلى السيد الرئيس لنفس الغرض - توقف فجأة وقد شلّه شعور غريب بالوجل ، ناتج عن قوة خفية خارقة للطبيعة ، وحتى لا يبقى ممدود اليد في الهواء ، تقدم ليصافح ذا الوجه

الملائكي .

بيد أن المحبوب أدار له ظهره . وسمع المدعي العسكري العام ، ویده محدودة في الهواء ، أول انفجار في سلسلة من الانفجارات التي توالى في ثوانٍ قليلة كأنما هي طلقات مدفعية . وعلى الفور، انطلقت الصرخات ، وتقافز الناس يهرون هنا وهناك ويركلون المقاعد في طريقهم، بينما أغمى على كثير من النساء، وسرعان ما كانت فرق الجنود تهرع لتنتشر وسط الجمهور كحبات الأرز ، وأيديهم على زناد بنادقهم المحشوة ، وسط المدافع الرشاشة ، والمرايا المحطومة والضباط والمدافع . . .

واختفى كولونيل فوق الدرجات ومسدسه في يده ، بينما هبط آخر من الدرجات ومسدسه في يده . لم يكن هناك شيء . لم يكن هناك شيء . بيد أن الهواء كان بارداً . وانتشرت الأنباء بين الجمهور المضطرب . لم يحدث شيء . وتجمع الضيوف تدريجياً في مجمرعات ، وبعضهم قد يال على نفسه من الخوف ، والبعض الآخر اضاع قفازاته . وكان أولئك الذين عاد اللون الى وجوههم ، لم يستعيدوا بعد القدرة على الكلام ، بينما كان أولئك الذين استعادوا القدرة على الكلام قد غاض اللون من وجوههم . وكان السوال الوحيد الذي لم يستطع أحد الاجابة عنه هو أين ومتى اختفى السيد الرئيس .

وعلى الأرض ، تحت سلم صغير ، كان يرقد قارع الطبول الأول في الفرقة الموسيقية العسكرية . كان قد سقط من على السلم هو وطبلته ، مما سبب بكل ذلك الفزع والهلع ا

الأعمام والعمّات

خرج المحبوب من القصر الجمهوري بين قاضي القضاة ، وهو شيخ ضئيل الحجم يبدو في قبعته العالية ومعطفه «الفراك» أشبه بالجرذان التي تظهر في رسوم الأطفال ، وبين نائب من نواب الشعب ، وهو رجل بالغ الهزال والشحوب كأنه أحد تمثيلات القديسين العتيقة . وكانا يتناقشان في جدية بالغة فيما إذا كان «الفران هوتيل» أم تخان قريب هو الأفضل لغسل الخوف الذي أصيب به من جراء حادثة ذلك الطبال الآخرق ، الذي نقلوه على التو إلى الخدمة العاملة ، إلى الجحيم ، أو إلى عقاب أسوأ من ذلك ، دون أي وازع من ضمير . وحين دافع عضو البرلمان عن فكرة الذهاب إلى «الفران هوتيل» ، بدا كما لو يضع قواعد الزامية بشأن أفضل مكان «رستقراطي» يمكن اللعب فيه من بنت الخان ، وهو نشاط يجده قبيحاً واسعاً وانتشاراً متزايداً بين موظفي الدولة . أما القاضي فقد تكلم كأنما هو يصدر حكماً : «إن الامتياز الحقيقي يوجد دائماً حيث لا يكون هناك ما يدل على ذلك الامتياز في الظاهر ، وهذا هو السبب ، يا صديقي العزيز ، في أنني أفضل الخان المتواضع حيث المرء على سجيته وسط أصدقائه ، على الفندق الفخم حيث لا يكون كل ما يلعب ذهاباً .

وتركها ذو الوجه الملائكي وهما لا يزالان يتجادلان عند ناصية القصر . فمن الأفضل نفض اليد من مناقشة بين مثل هاتين الحجتين . وانجه إلى حي «إنسبيو» بحثاً عن منزل خوان «كاناليس» ، شقيق الجنرال كاناليس . كانت الحاجة ماسة إلى أن يبعث هذا العم لاحتضار ابنه شقيقه من حانة «الخطوتان» . قال في نفسه : «ماذا يهمني سواء ذهب بنفسه أو بعث أحداً لاحتضارها إليه ، ما دامت لن تصبح تحت مسؤوليتي ؟ ما دامت لن توجد بعد في خاطري كما كان الحال أمس

حين لم تكن شيئاً بالمرّة بالنسبة لي ، وتنحى له اثنان او ثلاثة من المارة عن الطريق في احترام تاركين له الطوار الى الطريق ، وشكرهم دون أن يتبين من كانوا .

كان السيد « خوان » ، شقيق الجنرال كاناليس ، يقطن حي « إنسيو » في منزل قريب من « العملة » ، كما كانت تسمى دار سك النقود ، وهي بالمناسبة مبنى ذو كآبة مشنقة . كانت ثمة دعائم خشبية تدعم الجدران المائلة ، ومن خلال القضبان الحديدية على النوافذ ، يمكن للمرء أن يلمح حجرات كأقفاص الحيوانات المتوحشة . هنا كانت ترقد ملايين الشياطين في الحفظ والصون .

و حين طرق المحبوب باب المنزل أجيب بنباح كلب . وكان واضحاً من الطريقة المحمومة التي كان الكلب ينبح بها أنه كان مفيداً .

ودخل ذو الوجه الاملائكي من الباب وقبعته العالية في يده (كان جميلاً وماكراً كالشيطان) . كان يشعر بالسرور من وجوده في المنزل الذي ستهب إليه ابنة الجنرال ، ولكن صرف انتباهه عن ذلك نباح الكلب ، والدعوة المتكررة الى « الدخول » ، من رجل متورد الوجه ، باسم ، بطين ، لم يكن سوى السيد « خوان كاناليس » نفسه .

« ادخل من فضلك ، ادخل . من هنا ، لو سمحت . وما هو يا ترى سبب تشریفنا بزيارتكم الكريمة ؟ »

نطق السيد خوان كل هذه العبارات على نحو آلي ، في رنة صوت بعيدة تماماً عن الإهراب عن الإضطراب الذي شعر به في حضرة هذا التابع الجليل للسيد الرئيس .

وتطلع ذو الوجه الملائكي حوله في الحجرة . يا للنباح الذي يستقبل به الزوار هذا الكلب الشرير ! ولاحظ وجود مجموعة من الصور لآل كاناليس معلقة على الحائط ، وأن صورة الجنرال قد أزيلت . وعكست مرآة في الطرف الآخر للحجرة المكان الذي كانت الصورة معلقة فيه ، وجزءاً آخر من الحجرة غطي بورق حائط أصفر ، لون البرقيات .

وبينما السيد « خوان » يستهلك كل ما لديه من عبارات الترحيب المؤدبة ، جال في خاطر ذي الوجه الملائكي أن الكلب لا يزال هو حامي المنزل كما في

الازمان البدائية . حامي حمى القبيلة . حتى السيد الرئيس عنده مجموعة من الكلاب المستوردة .

كان رب المنزل يرى في المرأة يتكلم بحركات إيمائية بائسة . وشعر السيد « خوان » بعد أن استنفد كل ما لديه من عبارات التكريم أنه كالسباح الذي قفز الى المياه العميقة .

كان يقول : « هنا ، في بيتي ، شعرنا - زوجتي وخادمكم المطيع - بالسخط العميق لسلوك أخي « ليوسيو » . أي عمل هذا ؟ الجريمة دائماً مقيته ، وهي تزداد مقنا في أحوال كهذه ، حين تكون الضحية جديرة بكل احترام وإجلال ، رجل هو فخر جيشنا ، وقوق كل شيء ، كما أقول ، صديق للسيد الرئيس ! » .

ولزم ذو الوجه الملائكي الصمت الرهيب لأمريء يرقب شخصا يفرق وهو يملك وسائل إنقاذه ، صمت لا مثيل له غير صمت الزوار الذين لا يملكون القدرة على تأكيد ما يقال أو تفنيده .

ولما وجد السيد خوان أن عباراته لا تجد صدى في أذن محدثه ، فقد أعصابه كلية وبدأ بضرب الهواء بيديه ويبحث عن أرض صلبة لقدميه . وكان رأسه يغلي . كان يعتقد أنه متورط في جريمة القتل التي وقعت في « رواق الرب » وفي كل ما تفرع منها من تفرعات سياسية بعيدة المدى . أما كونه بريئاً منها بالفعل فلم يكن له أية أهمية . إن كل شيء بالغ التعقيد ، بالغ التعقيد والتشابك « إن الأمر كاليانصيب يا صديقي ، كاليانصيب » . كانت تلك العبارة التي تصف حالة الأمور في البلد ، فقد تعود أن يصبح بها العم « فولخنسيو » ، وهو شيخ طيب يبيع أوراق اليانصيب في الشوارع ، وكاثوليكي أصيل يعتني أشد العناية بتجارته . وبدأ « لخوان كاناليس » أنه لا يرى أمامه ذا الوجه الملائكي وإنما هيكल العم « فولخنسيو » الجائني ، الذي كانت عظامه وفكاه وأصابه تبدو كأنها قد وصلت فيها بينها بأسلاك عصبية . كان العم « فولخنسيو » يحمل حافظة أوراق اليانصيب الجلدية السوداء تحت إبطه ، ثم يسوي جماعيد وجهه ، وينفض حجر بنطاله المتدلي ، ويمد عنقه ، ويقول بصوت يخرج في آن واحد من أنفه ومن فمه الخالي من الأسنان : « اليانصيب هو القانون الوحيد على هذه الأرض يا صديقي أ اليانصيب بإمكانه أن يرسل بك الى السجن ، أو يجعلهم يعدمونك ربما

بالرصاص ، أو يجعلك نائبا في البرلمان ، أو دبلوماسيا ، أو رئيساً للجمهورية ، أو جنرالاً ، أو وزيراً ! ما فائدة العمل ، إذا كان يمكن الحصول على كل هذا عن طريق اليانصيب؟ إن الحياة يانصيب يا صديقي ، ولذلك تعال واشتر ورقة يانصيب ! . وعند ذلك ، كان كل ذلك الهيكل المعقود ، ذلك الجذع المتشوي المفضل ، يهتز بالضحك الذي ينبجس من فمه كأنه قائمة بأرقام اليانصيب الرابعة .

وجلس ذو الوجه الملائكي في « كاناليس » بصمت ، يسائل نفسه سؤالا مختلفا تماما : « كيف يكون لئله هذا الرجل الجبان الكريه أية صلة بكميلة » ؟

واستطرد « خوان كاناليس » قائلاً وهو يخرج مندبلا من جيبه بصعوبة بالغة ويحفظ به قطرات العرق الكثيفة التي تدحرجت على جبهته :

- « لقد أشيع ، لقد قالوا ذلك لزوجتي على أية حال ، إنهم يريدون توريطي في جريمة مقتل الكولونيل « باراليس سونريتي » ! .
فقال الرجل الآخر باقتضاب : « لا علم لي بذلك » .

- إن ذلك ظلم . وكما سبق أن قلت منذ لحظة ، لقد عارضت أنا وزوجتي سلوك أخي « إيوسيو » منذ البداية . وإلى جانب هذا ، لا أدري ما إذا كنت تعلم ذلك أم لا ، فأنني لم أكن أقابل أخي مؤخرا إلا نادرا . يكاد يكون ولا مرة . ولا مرة في الواقع . كنا نتقابل كأننا غريبان . « صباح الخير ، صباح الخير ، مساء الخير ، مساء الخير ، هذا هو كل شيء » ، مع السلامة ، مع السلامة ، هذا هو كل شيء » .

كان صوت السيد « خوان » مهتزا . رأت زوجته ، التي كانت تتابع الزيارة من وراء ستار ، أن الوقت قد حان لأن تنهض لمساعدة زوجها .

وهتفت وهي تدخل وتومئ برأسها مع ابتسامة مزودة لذي الوجه الملائكي :
« هلا قدمتي للسيد « ياخوان ؟ » فقال زوجها الذاهل : أجل ، بالطبع . إسمح لي بأن أقدم زوجتي إليك » .

- « جوديث دي كاناليس » .

وسمع ذو الوجه الملائكي اسم زوجة السيد « خوان » ، بيد أنه لا يذكر أنه

قد نطق اسمه هو .

وخلال تلك الزيارة التي كانت تنطاول دون داعٍ ، كانت أي عبارات لا تتعلق بكميلة لا تجد أذناً صاغية لدى ذي الوجه الملائكي ، وذلك من جراء تلك القوة الغامضة التي بدأت تؤثر في فؤاده وتضيع الاضطراب في وجوده ذاته .

وتعجب في سريره : « ولكن ، لماذا لا يتحدث هؤلاء القوم عن ابنة أخيهام ؟ لو أنهم تحدثوا عنها لأصغيت اليهم بكل جوارحي ، لو أنهم تحدثوا عنها لقلت لهم إنه لا داعي لأن يشعروا بأي قلق ، وأن السيد « خموان » لا يمكن أن يورط في أي جريمة . أه لو أنهم يتحدثون عنها ! أي أحق أنا . . . عن كميلة ؟ التي أود أن تكون على ما هي عليه وأن تبقى مع هؤلاء القوم وألا أفكر فيها بعد ذلك ؟ ولكن ، أي أحق أنا ، انها هي وقومها ، وأنا بعيد عنهم ، بعيد عنهم ! أميالا كثيرة ، هي وأنا لا . . .

وجلست السيدة جوديث على الأريكة ورفعت الى أنفها منديلًا من الدنتلا كيبا تخفي ارتباكها .

- كنتما تقولان . . . أخشى أن أكون قد قطعت حديثكما . . . أسفة . . .

- إن . . .

- . . .

- لو . . .

كان الثلاثة قد بدأوا يتحدثون في نفس الوقت ، وبعد كثير من عبارات « تفضل » ، نسلم السيد خوان دقة الحديث ، لا يعرف لماذا . وكانت عينا زوجته تقول له « أيها الأحق » ، لأنه لم يترك لضيفها الكلمة .

- إنني كنت أقول لصديقنا إننا - أنت وأن - قد غضبنا حين أخبرونا ، على نحو سري ، أن أخي « إيوسبيو » هو أحد المتهمين بقتل الكسولونيل « باراليس سونرينتي » .

فوافضته السيدة « جوديث » قائلة وهي تدفع صدرها العظيم إلى الأمام :
« آه ، أجل ، أجل ، حقا ! لقد قلنا - « خوان » وأنا - أنه لم يكن خليفاً بأخ

زوجي أن يدنس حلتة العسكرية بمثل هذا العمل المهجى ؛ والأسوأ من ذلك ،
ان الناس يريدون أن يورطوا زوجي ! »

- «كنت أيضاً أشرح للسيد «ميغيل» أنني قد ابتعدت أنا وأخي بعضنا عن
بعض منذ فترة طويلة ؛ لم يكن يتحمل منظري ، ولم أكن أتحمّل رؤيته ! »
فأضافت السيدة « جوديث » وهي تطلق زفرة في الهواء :

- « ليس الى هذه الدرجة من سوء ، ولكن الأمور العائلية تفضي دائماً الى
الغضب والشجار » .

فقال ذو الوجه الملائكي : أعرف ذلك . بيد أن على السيد « خوان » ألا
ينسى أن هناك دائماً وشائج لا انفصام لها بين الأخوة . . .
- ماذا تعني يا سيد « ميغيل » ؟ أنني كنت شريكه ؟
- أرجو أن تعذراقي . . .

فقالت السيدة « جوديث » في عجلة وقد خفضت عينيها إلى الأرض :
- يجب ألا تصدق ذلك . حين تتدخل أمور المال تنقطع كل الوشائج . إنه
لأمر محزن أن يكون الحال كذلك ، ولكن المرء يراه يحدث أمامه كل يوم . المال لا
يحترم وشائج القربى .
- « أرجو أن تعذراني ! لقد قلت الآن ان هناك وشائج لا تنفصم بين الأخوة ،
لأنه على الرغم من الخلافات في الرأي بين السيد « خوان » والجنرال ، فحين رأى
الجنرال أن الخراب قد حل به وتعين عليه أن يرحل عن البلاد قال لي . . . »
- إذا كان قد حاول أن يورطني في الجريمة فهو نذل آه ، يا لها من مكيدة .
- ولكنه لم يقل شيئاً من هذا القيل .

- خوان ، خوان ، دع ضيفنا يتحدث !

- لقد قال لي إنه يعتمد عليكما معاً كيما نرعيا ابنته من بعده ، وطلب مني أن
أذهب وأحدث اليكما كي تأخذاها لتعيش معكما في هذا المنزل . . . »

وجاء دور ذي الوجه الملائكي كي يشعر الآن ان عباراته لا تجد أذناً

صاغية . كان يبدو عليه وكأنه يتحدث الى قوم لا يفهمون اللغة الاسبانية التي يتحدثون بها : كانت عباراته ترند إليه كما لو كانت تصطدم بمرآة ، لا بصفي لها لا السيد « خوان » الحليق النظيف ولا السيدة « جوديث » القابعة في داخل صدرها الهائل كأنما هي في داخل عربة يد .

« والأمر متروك لكم لتتدبرا أفضل ما يمكن عمله من أجل الفتاة » .

وحالما تحقق السيد « خوان » أن ذا الوجه الملائكي لم يحضر كيما يعتقله ، استعاد قدرته الذهنية العادية وقال :

- أجل ، بالطبع . . . لا أهرى حقاً ما أقول . الواقع أنك قد فاجأتني ! ليس هناك محل بالطبع لاحتضارها هنا ، لا يمكن للمرأة أن يلعب بالنار ! انني واثق أن الفتاة الصغيرة ستكون سعيدة هنا ، ولكني وزوجتي لا يمكننا أن نخاطر بفقدان أصدقائنا ، ذلك أنهم سوف يحاسبونا على أننا فتحنا أبواب بيتنا المحترم لابنة أحد أعداء السيد الرئيس . وإلى جانب هذا ، فمن المعروف أن أخي الشهير قد عرض - كيف أعبر عن ذلك ؟ حسناً ، قد عرض ابنته على أحد الأصدقاء الحميمين لرئيس الأمة ، مقابل . . .

فتدخلت السيدة « جوديث » قائلة وهي تسقط صدرها المتنفخ في زفرة أخرى : كيما يتفادى الدخول الى السجن ! ولكن . . . كما كان « خوان » يقول ، فهو قد عرض ابنته على صديق للسيد الرئيس ، الذي كان مفروضاً أن يقدمها بدوره الى السيد الرئيس نفسه ، الذي كان من الطبيعي والمنطقي أن يرفض هذا العرض الشائن . وعند ذلك ، رأى أمير الجيش ، كما أصبحوا يلقبون الجنرال بعد خطبته الشهيرة ، أن لا منجاة له ، وفرر الهرب وترك ابنته لنا . هذه هي الحكاية ! ماذا يمكن للمرأة أن يتوقع من رجل لوث علاقاته بالشكوك كالمطاعون ، وجلب العار على اسم العائلة ! لا تتصور أننا لم نعانِ نتيجة لهذه المسألة . لقد شئيتنا ، كما بشهنا على ذلك الله والعذراء !

وتبدت لمحة من غضب في أعماق عيني ذي الوجه الملائكي السوداءوين .

- اذن ، لا مجال هناك لمزيد من القول . . .

- اننا أسفان لتجشمتك عناء الحضور إلينا . لو أنك بعثت برسالة . . .

وأضافت السيدة جوديث : «ولم تكن المسألة مستحيلة تماماً علينا، لكننا قد قبلنا بسرور من أجلك» .

وخرج ذو الوجه الملائكي دون كلمة أخرى ودون أن ينظر ناحيتها .
ونبح الكلب في سعار وهو يجر سلسلته عبر الأرض من ناحية إلى أخرى إلى أقصى امتداد لها .

وكانت آخر كلمات ذي الوجه الملائكي على الباب الخارجي : سوف أذهب لمقابلة الأخوة الآخرين ؟ .

فسارع السيد خوان يقول : « إن في هذا إضاعة لوقتك . لقد عرف عني طوال فترة إقامتي هنا أنني من المحافظين ، ومع ذلك فإنه لا يمكنني قبولها في بيبي . أما هم فليبراليون ، أوه ، حسناً ، سيعتقدون أنك قد جنت ، أو أنك تمزح . . . »

كان السيد « خوان » يقف على عتبة الباب وهو يقول تلك العبارات ، ثم أغلق الباب في ببطء ، وفرك يديه السمينتين ، معاً ، وتردد برهة ، ثم عاد أدراجه إلى البيت . وأحس برغبة لا تقاوم في أن يلاطف أحداً ، ولكن ليس زوجته ، وذهب لإحضار الكلب الذي كان لا يزال ينبح .

وصاحت به زوجته من الفناء ، حيث كانت تقلم شجرة الورد بعد أن انحسرت الشمس عنها : « دع الكلب إذا كنت خارجاً » .

- « أجل ، سرف أخرج الآن » .

-- « حسناً ، اسرع ، لأنني ذاهبة إلى الكنيسة لأداء صلاتي اليومية ، وأفضل عدم الخروج إلى الطريق بعد السادسة مساءً » .

في سجن « كاسا نويثا »

في حوالى الساعة الثامنة صباحاً (ما أسعد ما كان الناس عليه في عهد الساعات المائية، حين لم يكن هناك ساعات دقاقة تحب الوقت بالقفزات والارتداد!) سجن « نيتيا فيدينا » في زنزانة كالقبر على شكل الجدار، بعد اتخاذ الاجراءات المعهودة والقيام بتفتيش شامل لكل شيء معها. لقد فتشوها من الرأس إلى القدم، أظافرها، ما تحت إبطيها، كل شيء، وهي عملية مزعجة للغاية، بل وزادوا التفتيش حدة حين عثروا في ثيابا قميصها على خطاب كتب الجنرال كانالس بخط يده، وهو الخطاب الذي كانت قد التفتطته من على الأرض في البيت.

أحست بالتعب من الوقوف في الزنزانة، ولم يكن هناك مكان للمشي ولو خطوتين فقط، فجلست، فالجلوس أفضل على كل حال. ولكنها نهضت واقفة بعد برهة. لقد نفذت برودة الأرض إلى كفليها وعظام ساقها وإلى يديها وأذنيها، فالجسم البشري حساس تجاه البرودة. وظلت واقفة بعض الوقت، ثم جلست مرة ثانية، ووقفت، وجلست، ووقفت... وهكذا...

وكانت تسمع السجينات الأخريات حين أخرجوهن من زنزينهن لشم الهواء، ينعنن بأغانٍ غضة كالحضروات النيئة، برغم الغليان الذي يشعرون به في الصدور. وكنّ أحياناً ينهممن بعض هذه الأغاني وهن ناعسات، أغاني ذات رنابة قاسية، توحى بإحساس بالظلم المحتوم، تقطعه فجأة صرخات يأس، وكفر، وسباب، وشتم...

ومنذ اللحظة الأولى لدخول « نيتيا فيدينا » السجن، أحست بالخوف من

صوت متناثر النغمات يعيد هذه الأغنية مرارا ونكرارا كأنه يتلو مزمورا :

من سجن « كاسا نويثا »

الى بيوت السمعة السيئة

يا حبيبي الصغير

خطوة واحدة

وما دمنا هنا وحدنا

يا حبيبي الصغير

فلتعطني قبلة .

آه ، أعطني قبلة

يا حبيبي الصغير

لأن ما بين هذا السجن

والبيوت سيئة السمعة

يا حبيبي الصغير

خطوة واحدة

لم يكن البيان الأولان من الأغنية يتمشيان مع بقيتها ، ومع ذلك فإن هذا الأمر بدا كأنما يؤكد العلاقة الوثيقة بين البيوت سيئة السمعة وبين سجن « كاسا نويثا » . كان وزن كلمات الأغنية مكسورا كيما تعبر عن واقع الحال المؤلم ، وهو ما جعل « نينيا فيدينا » ترتعد خوفا من أن يغمرها الخوف ، الآن وهي ترتعد ولم يغمر الخوف كيائها كله بعد ، ذلك الخوف الغامض المرعب الذي شعرت به بعد ذلك ، حين تسرب الى عظامها ذلك الصوت الذي يشبه الاسطوانات المشروخة والذي يخفي أكثر الأسرار جرما . كان ظلماً ألا نحمد ما تظفر به سوى تلك الأغنية المريرة . أنهم لو سلخواها حية لما شعرت بعذاب أكثر مما كانت تشعر به الآن من سجنها ، إذ تصغير الى كلام ربما تعتبره السجينات الأخريات - دون أن يدركن أن فراش العاهرة أشد برودة من السجن - املهن الأسمى في الحرية والدفء .

ووجدت راحة في التفكير بأنها . كانت تفكر فيه كما لو كانت لا تزال تحمله بين أحشائها ، ذلك أن الأمهات لا يشعرن أبدا أن أبناءهن قد تركن بطونهن بالفعل . إن أول شيء ستفعله حين تخرج من السجن هو تعميم إبنها . لقد اتخذت كل الترتيبات . والرداء والمقاع اللذان أهدتهما له الآنسة كميلة رائعان .

وكانت تعتزم الاحتفال بهذه المناسبة بتقديم أطباق « البطاطا »* والشيكولاتة في الإفطار ، وأطباق الأرز على الطريقة «البينسية» واليخنة في الغداء ، ثم ماء القرفة وشراب اللوز والمثلجات وحلوى الرقاق في العشاء . وقد طلبت بالفعل بطاقات الدعوة الصغيرة التي سترسلها لأصدقائها ، من صاحب المطبعة ذي العين الزجاجية . كما أنها تريد استئجار عربتين من محل « شومان » ، تحمهما تلك الجياد الضخمة الفخمة التي تبدو كالقاطرة ، ذات اللجام المتأليء المغطى بالفضة ، والسائقين الذين يرتدون قبعات طويلة ومعاطف الفراك . وعند ذاك حاولت طرد هذه الأفكار من رأسها حتى تتجنب مصيرا كمصير ذلك الرجل الذي قال لنفسه عشية ليلة عرسه . في مثل هذه الساعة غدا ، ستكونين مفك يميني يا حبيبي الصغيرة ! ، ثم نكس بأن سقط قالب طوب على رأسه وهو في طريقه إلى الكنيسة في اليوم التالي ومات .

وأخذت تفكر ثانية في طفلها ، في استغراق سعيد جعلها لا تلاحظ أنها تحرق دون أن تشعر إلى شبكة من الرسوم الإباحية المحفورة على حائط الزنزانة ، مما جعلها تضطرب من جديد ، رسوم صلبان ، عبارات ، أسماء رجال ، تواريخ ، أرقام العلوم السرية ، مختلطة وسط رسوم جنسية من كل حجم ونوع . كانت ثمة كلمة دينية إلى جوار رسم لعضو جنسي ، ورقم ١٢ على رسم خصيتين هائلتين ، شياطين ذوو أجسام معقوفة كالشمعدانات ، زهور صغيرة لها أصابع بشرية بدلا من الأوراق ، كاريكاتور لقضاة ومحامين ، قوارب صغيرة ، مراس ، شمس ، أسرة أطفال ، شمس ذات شوارب لرجال الشرطة ، أقمار لها وجوه عوانس ، نجوم ثلاثية وخماسية ، ساعات ، صفارات ، فبشارت ذات أجنحة ، سهام . . .

وغلبها الفزع فحاولت الهروب من عالم الجنون والضلال هذا ، كيما تسقط في الإباحية فحسب التي تغطي الجدران الأخرى في الزنزانة . وأغلقت عينيها وقد أخرسها الفزع ، كانت كأمراة بدأت تهوي من على منحدر شاهق ، تنفتح حولها مهاو بدلا من النوافذ ، والسماء تستعرض نجومها كما يستعرض الدب أنيابه .

وعلى أرض الزنزانة ، كانت ثمة . . . من النمل تحمل صرصارا مبتا .

* البطاطا غذاء مكون من اللحم المفروم المبرمج يجمع بين اللحم الأحمر والدرة ، يشيع تقديمه في الإفطار في أمريكا الوسطى .

رجال في خاطر « نينيا فيدينا » ، إذ كانت لا تزال تحت تأثير الرسوم الإباحية ، انها
تخلق إلى عضو جنسي أنثوي يمرّ شعره إلى فرائش الخطيئة .

من سجن كاسا نويقا
إلى بيوت السمعة السيئة
يا حبيبي الصغير . . .

واخذت الأغنية مرة أخرى تحك لحمها الحبي برفق بشظايا زجاج صغيرة ،
كانما هي تزيل تدريجياً تواضعها الأنثوي .

وفي المدينة ، كانت الاحتفالات على شرف السيد الرئيس لا تزال تجري على
قدم وساق . وفي الأميات ، كانوا ينصبون شاشة سينما كأنها المشقة في « الميدان
الرئيسي » ، يعرضون عليها أجزاء غير واضحة من الأفلام على الجمهور ، الذي
كان يشاهدها كأنه يشاهد حكم إعدام لمحاكم التفتيش . وكانت المباني الحكومية
الغارقة في الضوء تضيئ تجاه السماء الداكنة ، وثمة سيل من العابرين يلفون
أنفسهم كالعمامة حول السور المذهب الأطراف الذي يحيط بالحديقة العمومية
المستديرة . كانت صفوف المجتمع تتجمع هناك للتنزه حول الحديقة في الأميات ،
في حين ترقب العامة السينما في صمت ديني تحت النجوم . وكان الشيوخ ، عزاباً
وأزواجاً ، مكلسين جنباً إلى جنب كالسردبن ، قد أخذوا يتساءلون في ملل ظاهر ،
ويرقبون المارة من مقاعدتهم ومنصاتهم المنصوبة في الميدان ، يرسلون بالاطراء لكل
فتاة تمر ، وبالتحايا إلى أصدقائهم ومعارفهم . . . ومن أن لأخر ، كان الأغنياء
والفقراء على السواء يرفعون أبصارهم إلى السماء : يرقبون صاروخاً ملوناً ينفجر
وتساقط نحيوطه على شكل قوس قزح حريري .

إن الليلة الأولى في السجن شيء رهيب حقاً . يشعر السجين أنه مقطوع عن
الحياة في عالم من الكوابيس ، هناك في الظلمات . الجسدان تختفي ، والسقف
يتلاشى ، والأرضية تحتجب عن البصر ، بيد أن ذلك لا يجلب معه إحساساً
بالحرية ، وإنما بالموت .

وبدأت « نينيا فيدينا » تلو صلاة سريعة : « أيتها العذراء مريم الرحيمة ،
معروف عنك أنك لا تخذلين أي مخلوق ينشد عونك ويتضرع طلباً لمساعدتك
وبرجو حمايتك ! ولهذا فاني أتجول إليك عن ثقة ، يا عذراء العذارى ، والقي

بنفسي على قدميك ، أبكي خطابي . لا ترفض صلواتي ، أيتها العذراء مريم ،
بل انصتي لي بأذن صاغية محبة . آمين . كانت الظلمة تخنقها ، لم تعد تستطيع
الصلاة بعد . وانزلت الى الأرض ، بأسطة ذراعيها اللتين بدتا لها طويلتين جدا ،
طويلتين جدا ، كىما تختضن الأرضية الباردة ، كل الأرضيات الباردة لجميع
السجناء الذين يضطهدون باسم العدالة ، المحتضرين ، المشردين . . .

ورددت الابتهالات باللاتينية :

أورا برو نوبيس *

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

واعتدلت جالسة ببطء . كانت تشعر بالجوع . من سيرضع ابنها ؟
وانجھت الى الباب على يديها وقدميها وظللت تقرعه عثا .

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

وعلى البعد ، سمعت ساعة تدق الثانية عشرة .

أورا برو نوبيس .

أورا برو نوبيس

في العالم الخارجي ، حيث كان ابنها . . .

• مثل من أجلك .

أورا برو نوبيس .

وأحصت الدقات الاثني عشرة . واستجمعت قواها للتخيل أنها مظلقة السراح ، ونجت في ذلك . وتصورت نفسها في بيتها وسط حاجاتها وأصدقائها ، وهي تقول « لخوانيتا » : « مع السلامة ، لقد سعدنا برؤيتك » ، وهي تخرج لتصفق منادية « غابرييلينا » ، وهي نعي بالموقف ، وهي تنحي للسيد « تيموتيو » . كانت تبدو كأنها ترى حائوتها كما لو كان عضواً حياً ، جزءاً منها ومن الآخرين

وفي الخارج ، مضت الاحتفالات قدماً ، وشاشة السينما تقوم كالمشقة والناس تسير حول الحديقة كالعيد حول عجلة رفع المياه .

وفتح باب الزنزانه بعد أن يشت من ذلك . وجعلتها جلبة فتح القفل على الباب تجفل كأنها هي تقف على شفا حفرة من النار . ودخل رجلان يبحثان عنها في الظلام ، ودفعها بها عبر ممر ضيق مكشوف عصفت به رياح المساء ، وعبر حجرتين مظلمتين الى حجرة أخرى مضاءة بالأنوار . وحين دخلت ، كان المدعي العسكري العام يتحدث مع كاتبه بصوت خفيض . وقالت « نينياً فيدينا » في سريرتها : « هذا هو السيد الذي يعزف على الأرغن في عيد عذراء الكرمه ! لقد بدا لي أنني أعرفه حين قبضوا عليّ ، لقد رأيت مراراً في الكنيسة ، لا يمكن أن يكون رجلاً شريراً ! »

وثبت المدعي العام عينيه عليها فترة طويلة ، ثم سألها بعض الأسئلة العامة : اسمها ، عمرها ، حالتها الاجتماعية ، عملها ، عنوانها . وأجابت زوجة « روداس » في صوت ثابت ، ثم أضافت سؤالاً من عندياتها حين فرغ الكاتب من كتابة آخر إجاباتها . وهو سؤال لم يرد عليه أحد لأنه في نفس اللحظة دق جرس الهاتف وسمع صوت أجش لامرأة تقول في صمت الحجرة المجاورة : « أجل ، كيف حالك ؟ انني مرور لذلك ! لقد أرسلت الى « كاندوتشا » أسألها هذا الصباح الفستان ؟ الفستان جميل ، أجل ، ان قصته حلوة ماذا كلا ، كلا ، انه لم يثلوث أقول انه لم يثلوث ! أجل ، ولكن دون تأخير أجل ، أجل ، أجل تعالوا دون تأخير مع السلامة تصبحون على خير مع السلامة »

وفي هذه الأثناء كان المدعي العام يرد على سؤال «نينا فيدينا» في رنة عادية من السخري القاسية : « لا تقلقي ، إننا هنا لذلك الغرض ، كيما نقول للناس من أمثالك ، ممن لا يعرفون ، أسباب القبض عليهم » .

ثم أردف قائلاً بصوت مختلف ، وعينه الضفدعتان تبرزان من محجريهما : «ولكنك لا بد أن تخبريني أولاً ماذا كنت تفعلين في منزل «ابوسيو كاناليس» هذا الصباح » .

- لقد ذهبت - لقد ذهبت لأقابل الجنرال في مهمة ما .

- هل لي أن أسألك ما هي تلك المهمة ؟

- مسألة بسيطة ليس إلا يا سيدي ! مهمة اضطلعت بها ... كي ... اسمع يا سيدي ، سوف أقول لك كل شيء : لقد ذهبت كي أخبرهم أنهم سيقبضون عليه بتهمة قتل ذلك الكولونيل (لقد نيت اسمه) الذي لقي مصرعه في رواق الرب .

- تم تسمحين لنفسك بعد هذا أن تسأليني عن سبب وجودك في السجن ؟ هل يبدو لك ذلك شيئاً هيناً ، شيئاً هيناً أينها العاهرة ؟ هل يبدو لك ذلك شيئاً هيناً ، شيئاً هيناً ؟ »

وكان غضب المدعي العام يزداد مع كل مرة يقول فيها « هينا » .

- على مهلك يا سيدي ، دعني أشرح لك ، على مهلك يا سيدي ، إن الأمر ليس كما تعتقد . إنتظر ، اسمع ، بحق السماء ! حين وصلت الى منزل الجنرال ، لم يكن الجنرال هناك ، إنني لم أره ، إنني لم أر أحداً هناك ، كانوا قد رحلوا جميعاً ، وكان المنزل خالياً ، ما عدا الخادمة التي كانت تجري هنا وهناك .

- وهل يبدو لك ذلك شيئاً هيناً ؟ شيئاً هيناً ، وأي ساعة كنت هناك ؟

- كانت ساعة كنيسة « لأمسيد » تدق السادسة صباحاً يا سيدي .

- إن ذاكرتك قوية ! وكيف عرفت أنه سيقبض على الجنرال ؟

- أنا ؟

- أجل انت .

- سمعت ذلك من زوجي

- وما إسم زوجك ؟

- خيناروروداس .

- ومن سمع هو بذلك الأمر ؟ كيف عرف ؟ من أخبره ؟

- أحد أصدقائه يا سيدي ، يدعى لوسيو فاسكيز ، أحد أعضاء الشرطة السرية . هو أخبر زوجي ، وزوجي . . . »

وقاطعها المدعي العام صائحاً : وأنت أخبرت الجنرال ؟

وهزت « نينيا فيدينا » رأسها كيما تقول « ليس صحيحاً ، لا .

- وإلى أين ذهب الجنرال ؟

- ولكن ، بحق السماء ، كيف لي أن أعرف وأنا لم أر الجنرال مطلقاً ؟ ألا تفهم ، إنني لم أره مطلقاً ، لم أره مطلقاً ! ولماذا أكذب ؟ خاصة وأن هذا السيد يكتب كل كلمة أقولها » .

وأشارت إلى الكاتب ، الذي حملَ فيها بوجهه الشاحب المليء بالنمش ، الذي بدا كورقة نشاف بيضاء عليها بقع حبر كثيرة .

- ليس لك شأن بما يكتب . أجيبني عن سؤالي ! أين ذهب الجنرال ؟

وساد صمت طويل . ثم انفجر صوت المدعي العام بنبرة أحد : أين ذهب الجنرال ؟

- لا أعرف . كيف لي أن أجيب عن هذا ؟ لا أعرف ، إنني لم أره على الإطلاق - لم أتحدث إليه » .

- إنك تخطئين إذ تنكرين ذلك ، لأن السلطات تعرف كل شيء . بما في ذلك أنك قد تكلمت مع الجنرال » .

- إنك تجعلني أضحك !

- اسمعي ، ليس في الأمر ما يضحك . إن السلطات تعرف كل شيء ، كل شيء ، كل شيء » . وكان يجعل المنضدة تهتز عند كل « كل شيء » . « إذا كنت لم تري الجنرال ، كيف إذن حصلت على هذا الخطاب ؟ أظن أنه فُسر إلى قميصك

من نفسه ؟ »

- إن هذا هو الخطاب الذي عثرت عليه في المنزل . لقد « التقطتها » من على الأرض قبل أن أخرج . ولكن لا فائدة من قول أي شيء ، ما دمت لا تصدقني وتعتبرني كاذبة .

ودمدم الكاتب قائلاً : « التقطتها » ! إنها لا تعرف حتى كيف تتحدث بلغة سليمة . يجب أن نقول « التقطته » .

- اسمعي ، لا تكذبي يا سيدي واعترفي بالحقيقة ، لأن الكذب سوف يجير عليك عقاباً سنذكريني به طوال حياتك .

- ولكنني قلت الحقيقة ، وإذا كنت لا تصدقني فلماذا لا أستطيع أن أجعلك تنهمني بضربك بالعصا كالأطفال !

- سوف يكلفك هذا غالياً ، سوف ترين ! شيء آخر : ما شأنك أنت بالجنرال على أية حال ؟ ما علاقتك به ؟ هل أنت أخته أم ماذا ؟ ماذا أخذت منه ؟

- أنا ... من الجنرال ... لا شيء . إنني حتى لم أره سوى مرتين في حياتي . ولكن ما حدث هو أن ابنته قد وعدتني أن تكون إشيئة طفلي يوم تعميده .

- ليس هذا سبباً .

- إنها إشيئة إبني يا سيدي !

فقال الكاتب من الخلف : كلها أكاذيب !

- وإذا كنت قد اضطريت وفقدت أعصابي وهرعت إلى منزل الجنرال فذلك لأن لوسيو أخبر زوجي أن ثمة رجلاً يعتزم اختطاف ابنة الجنرال .

- كفائك أكاذيب ، أفضل لك أن تفرغي كل ما في صدرك وتقولي لي أين يختفي الجنرال ، لأنني أعلم أنك تعرفين ، وأنتك الشخص الوحيد الذي يعرف ، وأنتك سوف تقولين لنا هنا والآن ، تقولين لنا . كفائك بكاء وتكلمي ، إنني مصغ إليك .

وأضاف في نبرة رقيقة ، كأنما هو نرس الاعتراف :

- « إذا أنت قلت لي الآن أين الجنرال - انظري ، اسمعيني : إنني أعلم أنك تعرفين وستقولين لي - إذا أنت قلت لي أين يختبئ الجنرال سوف أفرج عنك ، سوف أطلق سراحك وبممكنك الذهاب الى بيتك مباشرة في سلام . فكيري في ذلك . فكيري في ذلك فحسب ! »

- آه يا سيدي العزيز ، لو كنت أعرف لأخبرتكم . ولكني لا أعرف ، لا أعرف لسوء الحظ . أيتها العذراء المقدسة ، ماذا أفعل ؟

- لماذا تنكرين؟ ألا ترين أنك تضرين نفسك بنفسك ؟

وفي الفترات التي قطعت بين كلام المدعي العام ، كان الكاتب يسلك أسنانه .

- حسناً ، إذا كانت لا تجدي معك المعاملة الطيبة ، « إذا كنت مأكرة إلى هذا الحد ، ونطق المدعي العام بهذه العبارة الأخيرة بسرعة وبضيق متزايد كالبركان الذي يوشك على الانفجار » فسنبجلك تعرفين بوسائل أخرى . إنك تدركين أنك قد اقترفت جريمة بالغة ضد أمن الدولة ، وأنت في يد العدالة لمسؤوليتك عن فرار أحد الحونة المتمردين الثائرين القتل أعداء الميذ الرئيس . . . وفي هذا الكفاية ، الكفاية تماماً ، الكفاية تماماً ! »

ولم تعرف السيدة روداس ماذا تفعل . كانت عبارات هذا الرجل الشيطاني تخفي وعيداً ملتحاً مريعاً ، قد يكون الموت ذاته . وإرتعد فكأها ، وأصابها ، وساقاها وحين ترتعد اليدان تبدوان كما لو كانتا بدون عظام وترتعدان كالقفاز الفارغ . وحين يرتعد الفكأن ويعجز المرء عن الكلام ، يبدو كما لو كان يبرق بالآلام وأشجائه . وحين ترتعد الساقان ، يبدو المرء جالساً في عربة يجرها جوادان مارقان ، كروح ذاهبة الى الشيطان .

وتضرعت قائلة : سيدي !

- إني لا أمزح ! هيا ، اسرعي الآن . أين الجنرال ؟

وانفتح باب على مبعدة وانبعث منه صراخ طفل . صراخ دافئ ، يائس . . .

وحق قبل أن يقول المدعي العام ذلك ، كانت « نينا فيدينا » قد مدت عنقها تبحث في كل الأنحاء من أين ينبعث ذلك الصراخ .

- « إنه يبكي من حوالي ساعتين ، وعبثاً نحاولين البحث عنه . . . إنه يبكي من الجوع ، وسوف يموت جوعاً إذا لم تقولي لي عن مكان الجنرال » .

واندفعت نحو الباب ، غير أن ثلاثة رجال أوقفوها ، ثلاثة متوحشين تبدو عليهم الشراسة ، لم يجدوا صعوبة في التغلب على مقاومتها الأنثوية . وتهدل شعرها أثناء نضالها الذي لم يكن ثمة طائل من ورائه ، وخرجت بلوزتها من تحت تنورتها وتهدل قميصها الداخلي . ولكن ماذا يهمها من سقوط ملابسها . وعادت تزحف على ركبتيها شبه عارية تتضرع إلى المدعي العام أن يتركها ترضع وليدها .

تضرعت قائلة وهي تقبل حذاء المدعي : « بحق عذراء الكرم يا سيدي ، أجل ، عذراء الكرم ، دعني أرضع وليدي ، انك ترى أنه لم يعد يقوى على الصراخ ، إنك ترى أنه يموت . يمكنك بعد ذلك أن تقتلني إن شئت » .

- لن تنفعك أي عذراء كرم هنا ! إذا أنت لم تقولي لي أين يختبئ الجنرال ، ستبقين هكذا ، وابنتك ، إلى أن يموت من الصراخ » .

وركعت كالمجنونة أمام الرجال الذين يحرسون الباب ثم تعاركت معهم . ثم عادت تركع أمام المدعي العام ، وتحاول تقبيل حذائه .
- سيدي ، من أجل ابني !

- حسناً ، من أجل ابنتك : أين الجنرال ؟ لا فائدة من أن تركعي وتمثلي عليّ هكذا ، لأنك إن لم تجيبي عن سؤالني لن يكون هناك أي أمل لك أبداً في أن ترضعي طفلك .

وبعد أن قال المدعي العام ذلك ، وقف على قدميه بعد أن تعب من الجلوس . وكان الكاتب لا يزال يسلك أسنانه ، حاملاً القلم في حالة تأهب لكتابة الاعتراف الذي لن يخرج من بين شفتي الأم النعسة .

- أين الجنرال ؟

واستمر الطفل يبكي ، شاكياً باكياً ، كما تبكي المياه في الميازيب في لبالي الشتاء .

- أين الجنرال ؟

بقيت «نينا فيدينا» صامتة كالحيوان الجريح ، نعص شفيتها ولا تدري ماذا تفعل .

- أين الجنرال ؟

ومرت خمس ، عشر ، خمس عشرة دقيقة على هذا الحال .

وأخيراً ، مسح المدعي العام فمه بمندريل أسود الحافات وأضاف وعيداً جديداً إلى قائمة أسئله :

- حسنا ، إذا لم تردني سنجعلك تاكدين بعص الجير الحي ونرى ما اذا كان ذلك سيدترك أين ذهب الجنرال .

- سأفعل كل ما تريد ، ولكن دعني أولاً دعني أرضع طفلي الصغير . لا تكن ظالماً هكذا يا سيدي ، إن الرضيع الصغير لم يرتكب ذنباً . بإمكانك أن تعاقبني أنا كما تشاء .

وجذبها أحد الرجال الذين يحرسون الباب الى الأرض بخشونة ، ووجه إليها آخر « ركلة » طرحتها أرضاً . ومحت الدموع والسخط الذي شعرت به مناظر الجدران والأشياء من ناظرها . ولم تعد تشعر بشيء خلاف صراخ طفلها .

وكانت الساعة الواحدة صباحاً حينها بدأت تبذل الجير حتى لا يستمروا في ضربها . وكان طفلها يبكي . . .

وكان المدعي العام يردد بين آونة وأخرى :

- أين الجنرال ؟ أين الجنرال ؟

الواحدة صباحاً . . .

الثانية . . .

وأخيراً ، الثالثة . . . ورضيعها يبكي . . .

الثالثة ، حين كان يجب أن تكون الخامسة على الأقل . . . ومتى تأتي الرابعة ؟

ورضيعها يبكي . . .

- أين الجنرال ؟ أين الجنرال ؟

وتأوهت « نينا فيدينا » من الألم وهي ترفع الحجر وتدحرجه على الجير الحي
كيما تذروه مسحوقا ، ويداهما مغطيتان بالشفوق العميقة ، تنفتح أكثر مع كل حركة
تقوم بها ، وأطراف أصابعها متسلخة ، كلها قروح ، دامية الأظافر . وحين كانت
تتوقف ضارعة بالرحمة لطفلها وليس لآلامها هي ، كانوا يضربونها .

أين الجنرال ، أين الجنرال ؟

لم تكن مصغية لصوت المدعي العام ، فقد كان نواح طفلها ، الذي يخفت
مع مر اللحظات ، يملأ كل أسماعها .

وفي الخامسة إلا ثلثا تركوها ممددة على الأرض وقد أغمي عليها ، كان ثمة
لعاب مخاضي بسيل من شفثيها ، بينما لبث أشد بياضا من الجبر نفسه بسيل من
ثدييها اللذين كانا يساطان بسياط شبه خفية . ومن أن لآخر كانت ثمة دمعات
مستترقة تظفر من عينيها المنتفختين .

وبعد ذلك ، حين كان يضل أول خيط من الفجر ، أعادوها الى زنازتها .
وهناك ، استيقظت فوجدت طفلها بين يديها ، محتضر ، باردا ، دونما حياة ، كأنه
دمية من قش . وانتعش الرضيع شيئا ما حين أحسن بنفسه في حجر أمه ، ولم يضع
وقفا للهجوم على ندي أمه في نهم ، بيد أنه حين وضع فمه عليه وأحسن بطعم الجير
الحريف ، ترك ثديها وأخذ في الصراخ ، ولم يفلح كل ما فعلته بعد ذلك في إغرائه
بالعودة الى الثدي .

وصرخت وأخذت تفرع الباب والطفل بين ذراعيها ، كان جسده آخذاً في
البرودة ، لا يمكن أن يتركوا طفلا بريئا يموت هكذا . وبدأت ثانية تفرع الباب
وتصرخ .

« آه ، إن ابني يموت ! آه ، إن ابني يموت ! آه ، حياتي ، صغيري ،
حياتي ! نعالوا بحق الله ! افتحوا بحق الله ، افتحوا الباب ! ان ابني يموت ! يا
للعدراء المقدسة ، يا للقديس انطونيو المبارك ، يا يسوع القديسة كاترين ! » .

وفي الخارج ، كانت الاحتفالات تمضي قدما . كان اليوم الثاني كالיום
الأول ، بشاشة السينما كالمنشفة ، والناس يتجولون حول الحديقة كالعيد حول
عميلة رفع المياه .

أحاييل الغرام

- هل سيأتي أم لا ؟

- سوف يظهر في أي لحظة ، سوف نرين .

- إنه قد تأخر ، ولكن لو أتى آخر الأمر ، فلا يهم تأخيرته ، اليس كذلك ؟

- إنه سوف يأتي بالتأكيد ، إن ذلك مضمون ضمان أن الآن ليل . وسوف أقطع أخري إن لم يحضر . لا تعذب نفسك هكذا . . .

- وهل تعتقدين أنه سيحضر لي أخباراً عن والدي ؟ لو وعدني بذلك . . .

- بالطبع ، وهذا يزيدك تأكيداً . . .

- أوه ، إنني أدعو الله ألا تكون أخباراً سيئة ! إنني لا أدري ما أنا فاعلة ، أحس أنني سأجن . . . أريد أن يأتي سريعاً حتى أخرج من هذه الشكوك ، وأرجو في نفس الوقت ألا يأتي إذا كان سيحضر لي أخباراً سيئة .

كانت « لامسكواتا » ، صاحبة الحانة ، تصغي من المطبخ الصغير الذي ابتدئته في ركن من الغرفة ، إلى عبارات كميلة التي كانت ترقد على الفراش وتتكلم بصوت مرتعش . وكانت هناك شمعة موقدة مثبتة على الأرض أمام صورة العذراء .

- بما أنك تمرين بهذه المرحلة الدقيقة فلا بد أن يأتي ، وبأخبار لا بد أن تملأك سروراً ، وسترين . ستقولين ومن أين لي أن أعلم ؟ لأن هذا هو اختصاصي ، ولا يوجد شيء يتعلق بالقلب والحب لا أعرفه . صحيح أن المرء يجب ألا يحكم بالمظاهر ، ولكن الرجال كلهم سواء . . . كالنحل حول الرحيق . . .

وقطع صوت المنفاخ كلمات صاحبة الحانة . وراقبها كميلة شاردة البال وهي تنفخ في النار بالمنفاخ .

- إن الحب كالمشروب الثلج يا عزيزي ، إذا شربته ساعة تحضيره شعرت به حلو المذاق وخير الشراب ، يأتي من كل ناحية ، ولا بد من شربه بسرعة وإلا تساقطت قطراته على كل جانب . ولكن ، بعد ذلك ، لا يبقى منه سوى قطعة ثلج لا لون لها ولا طعم .

وسمع صوت خطوات في الطريق . ودق قلب كميلة بعنف لدرجة اضطرت معها أن تضغط بيديها الاثنتين على صدرها . وغبر صوت الخطوات الباب وابتعد بسرعة .

- ظننت أنه هو . . .

- لن يتغيب أكثر من ذلك . . .

- لا بد أنه تأخر لأنه ذهب إلى منزل عمي قبل حضوره . ومن المحتمل أن يحضر معه عمي « خوان » .

- بس ! القطة ! القطة تشرب كوب لبنك ، اطردوها !

والتفت كميلة نحو القطة ، كانت قد خافت من صيحة صاحبة الحانة ، وكانت تلعق شواربها المنمسة باللبن إلى جوار الكوب الذي نسيته كميلة فوق المقعد .

- ما اسم القطة ؟

- بنجي .

- كان لدي قطة اسمها قطر الندى كانت انثى .

وسمع وقع أقدام مرة أخرى . ربما . . .

أجل ، كان ذا الوجه الملائكي .

وبينما كانت « لامسكوانا » ترفع القضيب الحديدي الذي يغلق الباب ، حاولت كميلة أن تسوي شعرها إلى الخلف قليلا بيديها . كان قلبها يدق بعنف في صدرها ، فعند نهاية هذا اليوم الأبدي ، الذي بدا لها أحيانا بلا نهاية ، كانت

تشعر بالخدر ، والضعف ، والخور ، والانهاك ، كالشخص المريض الذي يسمع
مهمات من حوله استعداداً لأجراء عملية جراحية له .

قال ذو الوجه الملائكي من عند الباب وهو يزيع جانباً التعبير المنعب الذي
كان على وجهه : أخبار طيبة يا أنستي ، كل شيء على ما يرام !

كانت تنتظره الى جوار الفراش ، وهي تقف وإحدى يديها على رأس
السري ، وعيناها مليتان بالدموع وعليها تعبير بارد . وتناول المحبوب يدها .

- أولاً ، أخبار والدك ، هذا أهم شيء بالنسبة إليك .

وبعد أن قال ذلك ، نظر إلى « لامسكوانا » ، ثم غيّر رأيه دون أن يغيّر نبرة
صوته : « ولكن والدك لا يعلم أنك مختبئة هنا . . . »
- وأين هو ؟

- لا بد أن تلزمي الهدوء ! .

- حسبي أن أطمئن أنه لم يحدث له شيء لاحتمل أي شيء .

فقاطعت صاحبة الحانة حديثها بقولها لذي الوجه الملائكي وهي تشير الى
مقعد : اجلس .

- شكراً .

- وبما أن لديك الكثير مما تقوله للآنسة ، فربما نسمع لي بالخروج بعض الوقت
إذا لم تكن تريد شيئاً . أريد أن أذهب لأرى ماذا حدث للوسيو . لقد خرج هذا
الصباح ولم يعد من ساعتها .

وكان المحبوب على وشك أن يطلب من المرأة ألا تتركه وحده مع كمييلة ،
ولكنها كانت قد خرجت بالفعل الى الفناء الصغير المظلم لتغير رداءها ، وكانت
كمييلة تقول :

- « سيكافئك الله على ما فعلته لأجلي يا سيدتي . يا للمكيبة ، انها طيبة
جدا . وكل ما تقوله ملل . انها تقول إنك طيب جداً ، وغني جداً ، وساحر ،
وانها تعرفك منذ وقت طويل . »

- أجل انها طيبة . ومع ذلك فلم يكن بإمكاننا التحدث صراحة أمامها ومن الأفضل أنها قد خرجت . الشيء الوحيد المعروف عن والدك هو أنه في طريق الفرار ، وإلى أن يعبر الحدود ، لن نستطيع الحصول على أخبار مؤكدة عنه . ولكن أخبريني ، هل قلت أي شيء عن والدك هذه المرأة ؟

- كلا ، لأنني اعتقدت أنها تعرف كل شيء .

- حسنا ، من الأفضل ألا تقولي كلمة واحدة لها .

- وماذا قال عمي وعمتي ؟

- لم أتمكن بعد من الذهاب لمقابلتهما لأنني كنت مشغولا باستقصاء الأنباء عن والدك ، ولكنني أرسلت لها بأنني سأزورها غدا .

- اب آسفة لكل هذه المضايقات ، ولكنني على ثقة بأنك ستفهم أنني سأكون أسعد حالا معها ، خاصة مع عمي « خوان » إنه الشبيبي في العماد وكان دائما أباً ثانياً بالنسبة لي .

- هل كنتم تتزاورون كثيراً ؟

- كل يوم تقريباً . تقريباً - أجل ، أجل . لأنه إذا لم نذهب نحن الى بيته ، كان هو يأتي لزيارتنا ، إما مع زوجته ، وإما وحده . وهو الأخ الذي كان والذي يحبه أكثر من غيره من أخوته . وكان دائماً يقول لي : « حين أذهب سوف أتركك مع « خوان » يجب أن تذهبي الى بيته وتطيعيه كما لو كان والدك » . وقد تعشنا معاً يوم الأحد الماضي .

- على كل حال ، يجب أن تدركي أنني قد خبأتك هنا حتى أتحاشي أن يضايقك رجال الشرطة ، ولأن هذا المكان كان قريباً من بيتكم .

وخفقت الشعلة المرهقة للشمعة التي لم ينظفها أحد ، كنظرة شخص بشكو من قصر النظر . وشعر ذو الوجه الملائكي بنفسه ضعيفاً وضيقاً في صوتها . وبدت كميلة أكثر شحوباً ، أكثر وحدة ، وأشد جاذبية أكثر من أي وقت مضى في رداثها الصغير الأصفر الليموني .

- فيم تفكرين ؟

ورنّ صوته ودرداً مطمئناً .

- في الآلام التي لا بد وأن والذي يكابدها ، هارباً عبر أماكن مظلمة مجهولة -
إنني لا أعبر جيداً عن أفكاري - جائعاً متعباً ، عطشاً ، وحيداً لدى أحد يعاونه .
فلتواكب العذراء المقدسة خطاه ! لقد أبقيت شمعتها مضيئة طوال اليوم .
- لا تفكري في هذه الأشياء ، لا تتوقعي الشر قبل حدوثه . ان ما هو مكتوب
سيحدث . إنك لم تتوقعي أن تعرفيني ، ولا أنا أن أكون بذّي نفع لوالدك .
وتناول إحدى يديها في يده وسمحت له بأن يربت عليها بينما هما واقفان معا
يحذفان إلى صورة العذراء .

وكانت تجول في ذهن المحبوب هذه الأبيات من الشعر :

بوسحك أن تمري بسهولة

من ثقب مفتاح باب السماوات

لأن صانع المفاتيح ،

حينها جئت إلى الوجود ،

جبل صورتك من الثلج

وطبعها على الشهاب البارق .

كانت تلك الفقرة الغنائية تمر عبر ذهنه في تلك اللحظة ، كأنها هي تجسد
الابقاع الذي يربط الآن بين قلبيهما .

- لقد قلت لي إن والذي سيذهب بعيداً ، فمتى ستعرف المزيد من الأخبار
عنه ؟

- في الحقيقة ليست لدى أي فكرة ، ولكن لا بد أن نعرف شيئاً بعد أيام .

- بعد أيام كثيرة ؟

- كلا .

- ربما كان لدى عمي « خوان » أخبار عنه ؟

- محتمل جداً .

- انك تبدو محرجا حين أتكلم عن عمي وعمتي .

- ماذا تعنين بذلك بحق السماء ؟ كلا ، على الاطلاق . على العكس تماما .
إنني مدرك لولاهما لكأنت مسؤوليني أعظم بكثير . إلى أين آخذك إن لم يكن
إليهما ؟

كانت نبرة صوت ذي الوجه الملائكي تنفير حين يترك لخياله العنان في
الحديث عن هرب الجنرال وعن العم والعمة ، الجنرال الذي يخشى أن يعود مكبلا
بالأغلال مخفورا ، أو ياردا كالمرمر على محفة ملطخة بالدماء .

وفتح الباب فجأة . كانت « لامكواتا » ، في حالة من الاضطراب الشديد .
ورنت قضبان الباب على الأرض . وهبت دفقة هواء كادت أن تطفئ الشمعة .

- اعتذراي لمقاطعتكما ودخولي فجأة هكذا . لقد قبضوا على « لوسيو » سمعت
لتوي الأنباء من صديقة حين وصلتني هذه الورقة الصغيرة . إنه في السجن . إن
ذلك من فعل « خينارو روداس » . يا له من رجل ! لقد كنت أشعر بالقلق طوال
المساء . كل دقيقة كان قلبي يدق : يوم يوم يوم يوم . لقد ذهب ذلك
الشخص وقال لهم إنك أنت ولوسيو خطفتها السيدة الصغيرة من منزلها .

ولم يستطع المحبوب أن يفعل أي شيء لتدارك الكارثة . لم يحتاج الأمر إلا إلى
كلمات قليلة حتى يقع الانفجار . لقد أطيح به وبكميلة وب قصة حبهما ذات الحظ
العائر في ثانية واحدة ، بل في أقل من الثانية بسبب حديث صاحبة الحانة
الصريح عن اختطافهم لكميلة . وحين بدأ ذو الوجه الملائكي يحيط إدراكاً
بالموقف ، كانت كميلة ترقد وهي تدفن وجهها في الفراش تبكي بلا توقف ،
وكانت صاحبة الحانة لا تزال نصف عملية الاختطاف بالتفصيل ، دون أن
تدرك أي إدراك بأنها تقذف بعالم صغير كامل إلى هوة سحيقة ، أما هو ، فقد
شعر كأنما يدفنونه حياً مفتوح العينين .

وبعد أن بكّت كميلة وقتاً ، نهضت كمن يمشي في نومه وطلبت من صاحبة
الحانة غطاء تخرج به .

وقالت وهي تلتفت إلى ذي الوجه الملائكي بعد أن ناولتها المرأة شالا : وإذا
كنت سيذا مهذبا حقا ، خذني من فضلك إلى منزل عمي « خوان » .

ورغب المحبوب أن يقول ما لا يمكن قوله ، عبارات لا يمكن أن تعبر عنها
الشفاه ، ولكنها تتراصف في عيون أولئك الذين أحبط القدر أعز آمالهم .

ونساءل بصوت أجش وبفعل ابتلاعه لعاب القلق :

- أين قبعتي ؟

وعاد وفبعت في يده الى داخل الغرفة ليرى مرة أخرى قبل الرحيل المكان الذي
غرقت فيه أماله لتوه .

واعترض قائلاً وهو على وشك الخروج : « ولكنني أخشى أن يكون الوقت قد
فات ... »

- هذا يمكن أن يكون صحيحاً لو أننا كنا ذاهبين الى منزل أحد الغرباء ،
ولكننا ذاهبون الى منزلي ، ذلك أن منزل أي واحد من أعمامي هو منزلي .

وأوقفها ذو الوجه الملائكي من ذراعها برفق ، وقال لها الخفيفة المؤلمة كأنما
تخرج روحه من صدره :

- يجب عليك ألا تفكري في منزل عمك « خوان » بعد الآن ، إنه لا يريد أن
يسمع أي شيء عنك ، أو عن الجنرال ، فهو متبريء منه كأنه . لقد قال لي ذلك
اليوم .

- ولكنك قلت الآن لتوك إنك لم ترهما ، وإنك قد حددت موعداً للذهاب
اليهما فحسب ! ماذا أصدق ؟ هل نسيت ما قلت لي منذ لحظة وها أنت تقول
أشياء مريبة عن عمي ، وذلك حتى تبقيني أسيرة هنا في هذا الخان وتمنع فرادي !
هل تقول إن عمي وعمتي لا يريدان أن يسمعا أي شيء عنا ، وأنهما لا يريدان
استقبالي في منزلهما ؟ حسناً ، لا بد أنك قد جنت . تعال معي هناك وسأثبت لك
العكس !

- إنني لم أجن . لا بد أن تصدقني . إنني أضحي بحياتي حتى أحول دونك
والتعرض للهوان ، وإذا كنت قد كذبت عليك أولاً فذلك لأنني - لا أعرف ، أضل أنني
كذبت رحمة بك ، حتى أوفر عليك الآلام التي تشعرين بها الآن لأطول مدة
ممكنة . وكنت أنوي الذهاب غداً مرة أخرى لأجدد محاولاتي ، عارضاً أسباباً

أخرى ، واسترحبها ألا يتركها في الطريق ، ولكن ذلك مستحيل الآن وأنت ستخرجين . إن هذا مستحيل الآن .

وكانت الطرقات المضاءة بالنور الساطع تبدو أكثر عزلة من أي وقت مضى . وتبعنها صاحبة الحانة إلى الخارج وهي تحمل الشمعة التي كانت مضاءة أمام صورة العذراء ، لتضيء لها أول الطريق . وهبت الريح فأطفأتها ، وبدت الشعلة الصغيرة وكأنها ترسم علامة الصليب قبل أن تموت .

طرقات على الباب

تام - ترام - رام ! تام - ترام - رام !

سرى صوت الطرق على الباب الى المنزل كأنفجار المفرقات ، فابقظ الكلب الذي بدأ على الفور في الباح باتجاه الطريق . كانت الضوضاء قد أحرقت منامه . واستدارت كميلاً لتنظر الى ذي الوجه الملائكي - كانت تشعر هنا على عتبة منزل غمها « حوان » بالأمان - وقالت له في زهو :

« إنه ينبغي لأنه لم يتعرف عليّ ! » وصاحت بالكلاب :

« روبي ، روبي ! » ولكنه استمر في نباحه « روبي ، روبي ! إنه أنا ، ألا تعرفني يا روبي ؟ اذهب واحضرهم ليفتحوا لي الباب » . ثم قالت وهي تلتفت مرة أخرى الى ذي الوجه الملائكي :

« علينا فحسب أن نتنظر لحظة » .

« أجل ، أجل . لا تقلقي لذلك ، سوف نتنظر » .

كان يتحدث بكلمات متقطعة ، كشخص فقد كل شيء وأصبح لا يبالي بأي شيء .

« ربما لم يسمعوا ، يجب أن نطرق الباب بصوت أعلى » .

ورفعت مطرقة الباب إلى آخر مداها ثم تركتها تسقط عدة مرات . كانت مطرقة من النحاس على شكل راحة اليد .

« لا بد أن الخدم نائمون ، ورغم ذلك فقد كان لديهم متسع من الوقت لفتح

الباب ! كان والذي بنام بصعوبة ، وهو على حق عندما كان يقول ، بعد ليلة سيئة ، آه لو كان بإمكانى فحسب أن أنام كما بنام الخدم ! .

كان نباح الكلب هو العلامة الوحيدة على الحياة في المنزل . كان نباحه يأتي أحياناً من الردهة ، وأحياناً من الفناء . كان يصرع دون كلل هنا وهناك بينما ضربات المطرقة تنهال كالصخور على السكون المطبق الذي أخذ بخناق كميلة .

قالت دون أن تترك الباب : هذا غريب ! لا شك أنهم نائمون ، سوف أضرب بقوة أشد لأرى ما إذا كان ذلك يوقظهم .

تام - ترام - رام ! تام - ترام - رام !

- الآن سيحضرون . إنهم لم يسمعوا قبل ذلك بالتأكيد .

قال ذو الوجه الملائكي : يبدو أن الجيران هم الذين سيحضرون أولاً !

ذلك أنها رغم عدم تمكنها من الرؤية وسط غبشة الظلام ، قد سمعا صوت ابواب تفتح . - أرجو ألا يكون قد حدث شيء .
- أوه كلا ، اطرقى ، اطرقى ، لا تقلقى .

- فلنتظر برهة لنرى إذا ما كانوا قادمين الآن .

وأخذت كميلة نعدّ في ذهنها لتقتل الوقت : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، إحدى عشر ، اثنا عشر ، ثلاثة عشر ، أربعة عشر ، خمسة عشر ، ستة عشر ، سبعة عشر ، ثمانية عشر ، تسعة عشر ، عشرون ، واحد وعشرون ، اثنان وعشرون ، ثلاثة وعشرون ، أربعة وعشرون ، خمسة وعشرون

- انهم لن يأتوا ! .

- . . . ستة وعشرون ، سبعة وعشرون ، ثمانية وعشرون ، تسعة وعشرون ، ثلاثون ، واحد وثلاثون ، اثنان وثلاثون ، ثلاثة وثلاثون ، أربعة وثلاثون ، خمسة وثلاثون . . . ، كانت تشعر بالرجب من أن تصل الى خمسين دون

محبب ه . . . سنة وثلاثون ، سبعة وثلاثون . . . سبعة وثلاثون . . . ثمانية وثلاثون ه .

وضجاة ، ودون أن تشعر بالسبب ، أدركت أن ما قاله ذو الوجه الملائكي عن عمها « خوان » صحيح ، وغلب عليها الحزن والرعب فانطلقت تطرق الباب مرة وأخرى : تام - ترام - رام ! . إن هذا مستحيل . تام - ترام - رام ! تامترا مرا متامترا مرام - تامترا مرام .

وكان الرد كسابقه : نباح الكلب المتواصل . أي ذنب جنته ولا تعرفه حتى لا يفتحوا هذا الباب ؟ وطرقت مرة أخرى . ووضعت أملا جديدا مع كل طريقة للمطرفة . ماذا سيكون مصيرها لو أنهم تركوها في الشارع ؟ ان مجرد هذه الفكرة تجعل قواها تخور . وطرقت وطرقت . طرقت بعنف ، كما لو كانت تطرق فوق رأس أعدى أعدائها . كانت تشعر بساقيها ثقيلتين ، وطعم المرارة في فمها ، وجفاف في لسانها ، بينما اصطكت أسنانها من الخوف .

وشمع صرير نافذة تمنع فضلت أنها سمعت أصواتا . وعادت الحياة إلى جسمها كله . انهم قادمون أخيرا ، حمد الله . إنها ستكون سعيدة أن تترك هذا الرجل الذي تنهج عيناه بئيران شيطانية كعيني القط . هذا الشخص الذي تشعر بالفور منه رغم جماله الملائكي . وخلال هذه البرهة القصيرة ، احثك عالم المنزل بعالم الطريق . الذي يفصل بينهما باب البيت ، كأنها نجمان يحترقان .

إن وجود بيت يسمح للمرء بتناول طعامه في خلوة ، والطعام الذي يؤكل في خلوة لذيذ الطعم ، ويعلم الانسان الحكمة ، بيت يتمتع بأمان لاستمرار القبول الاجتماعي . انه مثل صورة العائلة ، وفيها يرندي الأب أفضل أربطة عنقه ، وتعرض الأم أعلى جواهرها ، شعر الأطفال ممشط جيدا بماء الكولونيا الحقيقي . أما الطريق فمن الناحية الأخرى ، فهو عالم غير مستقر ، خطر ، مليء بالمغامرات ، زائف كالمرآة ، وهو المفصلة العامة لجميع ملابس الحي القدرة .

كم من مرات عديدة لعبت على هذه العتبة وهي طفلة ! كم من مرة أيضا ، بينما كان والدها وعمها « خوان » يتحادثان في شؤونها قبل الانصراف ، تلهت هي بالنظر من مكانها إلى أفاريز أسطح البيوت المجاورة ، مستغرصة على السماء الزرقاء كأنها أعمدة فخرية مغطاة بالبشور .

- ألم تسمعهم وقد ظهروا من تلك النافذة ؟ أليس ذلك صحيحا ؟ ولستم لا يفتحون الباب . . . أو أننا قد أخطأنا المنزل . . . سيكون هذا غريباً !

وتركت المطرقة ونزلت من على الافريز لترى واجهة المنزل . كلا ، لم يخطئنا المنزل . إنه منزل عمها « خوان » . كانت ثمة لوحة نحاسية على الباب مكتوب عليها : « خوان كاناليس ، مهندس معماري » . وتغضن وجهها كالطفلة الصغيرة ثم انفجرت باكياً . وجرت دموعها على خديها كالجياذ العاديات . وفجرت معها من بين ثايا الذهن البداخلية تلك الفكرة السوداء بأن ذا الوجه الملائكي قد صدق القول حين خرجا من حانة « الخطونان » . ولم تكن راعية في تصديق ذلك حتى ولو كان صحيحا .

وكانت الشوارع مغلقة بالضباب ، ضباب يعبق بالخضرة الناضرة ويزخرف المنازل بلون أخضر شاحب .

- تعال معي من فضلك لرؤية اعمامي الآخرين . سذهب أولاً لعمي « لويس » ، إذا سمحت .

- كل ما تأمرين به . - إذن هيا بنا . . . إنهم لا يريدونني هنا . وكانت الدموع تهطل من عينيها كالطرر .

وانطلقا . ومع كل خطوة كانت تلتفت وراءها - فلم يكن بمستطاعها أن تقطع الأمل في أن يفتحوا لها الباب في آخر لحظة . وسار ذو الوجه الملائكي في صمت كئيب . إنه سيذهب لمقابلة السيد « خوان كاناليس » مرة أخرى ، فمن غير الممكن التفاوضي عن مثل هذا السلوك . كان نباح الكلب لا يزال يسمع ، ويحسر عن الأذان مع كل خطوة . وسرعان ما غاب هذا العزاء الأخير ، ذلك أن الكلب هو الآخر لم يعد يسمع له صوت . وأمام دار ملك النقود ، صادفا ماعبي يريد مخمورا ، يلقي بالخطابات في الطريق وهو يسير كالمشي في نومه . كان لا يكاد يقوى على الوقوف . وكان بين آونة وأخرى يرفع ذراعيه في الهواء وينفجر في الفوقاة كالدجاجة ، إذ يناضل كيما يخلص أزرار سترته الرسمية من سيل اللعب الذي كان يطفو من فمه . وأخذت كميلة وذو الوجه الملائكي ، مدفوعين بنفس

الفكرة ، في التفاظ الخطابات ودسها في حفية الرجل المخمور ، محذرينه من عدم
القائها مرة أخرى .

وتتم الرجل في عناية وهو يستند الى جدار دار السك :

- شك . . . را لكها ، شك . . . راجز . . . يلا !

وحين عادت جميع الخطابات الى حقيقته ، وابتعدت كميلة وفو الوجه
الملائكي عنه ، سار مرة أخرى ، يعني :

للمصعود الى السماء

يحتاج الأمر

سلما طويلا

وآخر قصير !

ثم بدأ ينشد أغنية أخرى ، بين الغناء والكلام :

إصعدي إصعدي

الى السماء أينها العذراء

إصعدي إصعدي

ستصعدين الى مملكته !

- حين يعطى النديس « خوان » الاشارة ، لن أكون أنا ، غو . . .

غو . . . غورسيندو سولاريس ، ساعي يريد بعد ذلك ، لن أكون ساعي يريد
بعد ذلك ، لن أكون ساعي يريد بعد ذلك ! » ثم ينشد :

حين أموت من بواربني الشرى

غير الأخوات

راهبات الدير !

- « أره ، اللعنة ، إنك لا نفع فيك ، لا نفع فيك ، لا نفع فيك ! »

وابتعد مترنحا وسط الضباب . كان رجلا ضئيل الحجم ، ذا رأس كبير .

وكانت سترته الرسمية كبيرة عليه ، بينما غطاء رأسه صغير عليها .



وفي تلك الاثناء ، كان السيد «خوان كاناليس» يبدل قصاري جهده للاتصال بأخيه «خوسيه أنطونيو» . كان يستترال الهاتف لا يرد ، وبدأ يشعر بالدوار من جلبة السماعه . وأخيرا اجاب عليه صوت كأنه آت من وراء القبر . وطلب ان يتحدث الى منزل السيد «خوسيه أنطونيو كاناليس» ، وبمعكس توقعاته ، سمع على الفور صوت أخيه الأكبر آتيا عبر الخط الهاتفي .

- «أجل ، أجل . أنا خوان . . . حسبت أنك لم تعرف صوتي . . . حسنا ، اسمع . . . البنت وذلك الشخص ، أجل ، طبعا طبعا ، بالتأكيد . . . أجل ، أجل . . . ماذا تقول ؟ كلا ! لم نسمح لها بالدخول . تصور ! ولا شك أنها ذهبا مباشرة من هنا الى منزلك . . . ماذا ؟ ما هذا ؟ كما توقعت تماما . إننا كنا نرتجف رعبا الى أن رحلا . نفس الشيء معك ؟ ان صحة زوجتك لا تحمل أي ازعاج ، وقد أرادت زوجتي ان تفتح الباب ، ولكني لم أدعها تفعل ذلك . طبعا طبعا ! هذا واضح . أجل ، وأيقظا الحي كله ! أجل ، فعلا . وكان الأمر أسوأ هنا . لا بد -أنهما كانا غاضبين . وأظن انهما ذهبا بعدك إلى «لويس» كلا ؟ أوه ، حسنا ، سوف يذهبان . . .

وفاجأهما الفجر ، منبجسا في البداية في شحوب طفيف ، متوهجا بسرعة بعد ذلك الى لون لييموني داكن ، ثم يرتقالي ، ثم الى احمرار النار المضرمة لنوها ممزوجة باصفار الشمعات الأولى الجلهاء . بعد أن كانا عائدين من الدق بلا فائدة على باب منزل السيد «خوسيه أنطونيو» .

وكانت كميلة تردد عند كل خطوة : - «سوف أتصرف على نحو ما !»

كانت اسنانها تصطك من البرد . وتطلعت عيناها الكيبرتاني الدامعتان الى الفجر في مراة لا واعية . كانت تسير على غير هدى كشخص يتبعه القدر ، لا تشعر بما تفعل .

وكانت الاطيار ترحب بالفجر في الحدائق العامة وفي حدائق الأبنية الصغيرة

وتصاعد « كونسرتو » سماوي من الأنغام الموسيقية في سماء الصباح الزرقاء
بينما تفتحت الورود ، وترددت الأجراس الصادحة تقول للرب صباح
الخير ، مع الضربات الخفيفة لسواطير الجوزارين وهم يقطعون اللحم في
حوانيتهم ، وامتزجت ألحان الديكة وهي تحسب الوقت برفرفة أجنحتها ، مع
أصوات أرغفة الخبز وهي تسقط بخفة في السلال في المخازن ، وأصوات ساهري
الليل ووقع أقدامهم مع ضوضاء باب تفتحه عجوز ضئيلة الحجم متوجهة لحضور
القداس ، أو خادمة نهرع لشراء الخبز لسيدها الذي يجب أن يلحق بالقطار في
الصباح الباكر .

كان الفجر يطلع . . .

وكانت النسور تتشاجر فيما بينها على الأشجار ، وتتازع بمناقيرها على جيفة
قطعة . وكانت الكلاب تجري لاهثة وراء الكلبات ، وقد توهجت عيونها وتدلّت
ألستها . ومر كلب يعرج ، ذيله بين قدميه الخلفيتين ، والنفت ليلقي نظرة حزينة
خائفة وراءه ، وقد أبان عن أسنانه . وغلقت الكلاب وراءها شلالات من المياه
على الجدران والأبواب .

وكان الفجر يطلع . . .

وكانت جماعات الهنود الذين يكتسبون الطرقات الرئيسية خلال الليل عائدتين
إلى بيوتهم واحدا بعد الآخر ، كأنهم أشباح ترتدي الثياب الصوفية الخشن ،
بضحكون ويتحدثون بلغة بدت كأغنية زيز الحصاد* في صمت الصباح . وكانوا
يحملون مقشاتهم تحت أذرعهم كأنها الشماسي . أسنان بيضاء كمسحوق اللوز في
زجوة نحاسية . أقدام عارية . أسمال . وأحيانا كان أحدهم يتوقف عند حافة
الطوار ويتمخط بأن ينحني إلى الأمام ويعصر أنفه ما بين الإبهام والسبابة وخلصوا
جميعا قبعاتهم عندما مروا على باب الكنيسة .

كان الفجر يطلع . . .

أشجار الصنوبر التي لا يصل إليها أحد ، كأستار العنكبوت الخضراء

* نوع من الحشرات الصادحة في حقول أمريكا اللاتينية .

المنصورة كيما تصطاد النجوم المذنبه . جمهرة متوجهة الى القداس المبكر . صفارة
قاصرات قصبة .

»

وابتهجت « لامسكواتا » لرؤيتها عائدتين مرة أخرى . لم تكن قد استطاعت
أن نغمض جفنها طوال الليل من شدة القلق ، وكانت على وشك الخروج متوجهة
الى السجن تحمل الافطار « للرسيو فاسكيز » .

وودع ذو الوجه الملائكي « كميلة » التي كانت تبكي مصيبتها التي لا يصدقها
عقل . .

ـ سوف أعود قريباً .

قال لها ذلك دون أن يعرف السبب ، فلم يكن هناك من شيء ، يفعل به بعد
ذلك .

ـ وعند خروجه . أحس لأول مرة منذ موت أمه بعيبه مليئين بالدموع .

الحسابات والشيكولاتة

فرغ المدعي العسكري العام من التهام قذح الشيكولاتة بالأرز ، بعد أن أمال القذح مرتين كيما يفرغه حتى الثمالة ، ثم مسح شاربه الأشهب بردن قميصه ، واقترب من المصباح ينظر في القذح على ضوئه ليرى ما إذا كان قد فرغ حقا . لم يكن سهلا تبين ما إذا كان هذا الحفوتي ، بعد أن خلع عنه بنيفة قميصه المنشأة ، رجلا أم امرأة ، إذ هو يجلس وسط أوراقه الرسمية وكتب الفنان المتسخة ، صامتا قبيحا ، قصر النظر ، شرها ، منله مثل شجرة قوامها الأوراق الرسمية المختومة - شجرة تسند غذاءها من جميع الطبقات الاجتماعية انتهاء بأدناها وأشدّها فقرا . وحين انتزع عينيه من قذح الشيكولاتة ، الذي فحصه باصبعه ليرى ما إذا كان قد ترك فيه شيئا ، رأى الخادمة تدخل من باب حجرة مكتبه الوحيد ، وهي عجوز ذات مظهر طيفي تجر قدميها في بطء الواحدة بعد الأخرى ، كأنها حذاؤها أكبر من قدمها .

- لا تقل لي أنك قد احتسبت قذح الشيكولاتة بالفعل ؟ -

- أجل ، وليباركك الله عليه ، كم كان لذيذا ! اني احب دائما ان أحسن بآخر قطرات فيه تنساب في حلقي .

فقالت الخادمة وهي تفتش وسط الكتب التي تلقي طلائها على المائدة : وأين وضعت القذح ؟

- هناك ، ألا ترى ؟ -

- على فكرة ، أرجو أن تلقي نظرة على تلك الأدراج المليئة بالأوراق الرسمية المختومة . غدا إن شئت سأذهب الى السوق وأرى إذا ما كان بإمكانى بيعها .

- حسنا ، ولكن حاذري ان يعرف أحد ذلك . ان الناس أشرار .

- اني لست بلهاء . هناك ما لا يقل عن اربعمائة ورقة ، مضروبة في ٢٥ مليا ، ومائتين آخرين في ٥٠ مليا . لقد قمت باحصائها هذا الاصيل بينما كانت المكواة تسخن على النار .

وقطع كلامها دق شديد على الباب الخارجي . وهمهم المدعي العام : يا لها من طريقة لدق الباب . هؤلاء الحمقى !

- اجل . انهم يقرعون الباب دائما هكذا . من يكون هذه المرة ؟ انني دائما أسمعهم حين أكون في المطبخ .

ونظقت هذه العبارة الأخيرة اذ كانت تنجده بالفعل لترى من بالباب . كانت هذه المخلوقة المسكينة تبدو كالمظلة برأسها الصغير وتنورتها الطويلة الماحلة .

وصاح بها المدعي العام : انني لست بالبيت . إن نظري لحظة ، من الأفضل أن تنظري من النافذة

وبعد عدة لحظات عادت المرأة ، وهي لا تزال تجر قدميها ، وناولته خطابا .

- انهم بانتظار الرد .

وفتح المدعي العام المظروف في حدة ، وتطلع الى البطاقة الصغيرة التي كانت بداخله ، ثم قال في لهجة أرق :
- قولي انني قد تلقيت المذكرة .

وذهبت تجر جر قدميها لتقول ذلك للصبي الذي أحضر الخطاب ، وبعد ذلك أغلقت النافذة بإحكام .

ولم تعد إلا بعد وقت ، فقد كانت تتأكد من إغلاق جميع الأبواب . ولم تكن قد أزاحت بعد قذح الشيكولاتة .

وفي تلك الأثناء ، كان سيدها يسترخي في المقعد الوثير ، يعيد بعناية قراءة البطاقة الصغيرة التي تلفها التره ، حتى آخر نقطة فيها . كانت البطاقة مرسلة من أحد زملائه يقدم له فيها عرضاً .

كتب المحامي « فيدالتاس » في بطاقته : « إن كونسيون ذات السن الذهبية ، وهي صديقة للسيد الرئيس وصاحبة محل دعارة مشهور ، قد زارتني هذا الصباح في مكنتي لتخبرني انها قد شاهدت سيدة فتية جميلة في سجن « كاسانويقا » ، وهي تعتقد انها مناسبة للعمل في محلها . وهي تعرض عشرة آلاف بيزو ثمنها لها . ولما كنت أعلم أن السجينة محتجزة بناء على أوامر منكم ، فإني أكتب اليكم أسألكم ما اذا كان مناسباً لكم أن تقبلوا هذا المبلغ الصغير وتسلموا المرأة الى عميلتي . - اذا لم تكن في حاجة الى شيء آخر ، فسأري الى فراشي . - كلا ، لا شيء ، طبت مساء .

- طبت مساء . فلنسترح الأرواح في المطير في سلام .

وفي حين ذهبت الخادمة نجر قدميها ، كان المدعي العسكري العام بحسب المبلغ الذي سيحصل عليه من العملية المقترحة ، رقماً رقماً ، واحد ، والى يمينه صفر ، وصفر آخر ، وصفر آخر ، وصفر رابع ، عشرة آلاف بيزو !

وعادت الخادمة العجوز :

- نسيت أن أخبرك أن الأب قد أرسل بخطر أن القداس سيقام غداً مبكراً عن الموعد المعتاد .

- آه صحيح ، غداً السبت ! أوقفني حالماً تبدأ الأجراس في القرع . ذلك أنني لم أنم في الليلة الماضية وربما لا أنشيطظ في الميعاد .

- حسناً جداً ، سوف أوقفك .

وبعد أن قالت ذلك ، خرجت ببطء وهي نجر قدميها . غير أنها سرعان ما عادت . كانت قد بدأت في خلع ملابسها بالفعل حين تذكرت . قالت لنفسها : الحسن الحظ أنني تذكرت . وجاهدت في لبس حذائها مرة أخرى . « آه لو كنت قد نسيت . . . » وانتهت الى قولها « حمداً لله أنني قد تذكرت » ، مصحوبة بتنهيذة عميقة . وكان كل ذلك الذي جعلها تنهض مرة أخرى من فراشها هو عدم استطاعتها ترك وعاء قدر بحجارة المكب دون أخذه وغسله .

ولم يشعر المدعي العسكري العام بدخول وخروج العجوز مرة أخرى ، إذ كان غارقاً في قراءة آخر أعماله الجلييلة : قضية هروب الجنرال « إيوسيو كاتاليس » . كان هناك أربعة متهمين رئيسيين : « فيدينا دي روداس » و« غينارو روداس » ، و« لموسيو فاسكيز » و« . . . » ، وبطل لسانه بشفتيه ، إذ كان لديه حساب يريد تصفيته مع الشخص الآخر : ميغيل ذو الوجه الملائكي . وجمال في خاطره أن اختطاف ابنة الجنرال هو كالسحابة السوداء التي يطلقها « الجبار » حين تهاجم الحيوانات الأخرى - مجرد حيلة للخداع السلطات الساهرة على الأمور . لقد أثبتت رواية « فيدينا روداس » ذلك إثباتاً جازماً . كان المنزل خالياً حين وصلت إلى هناك تبحث عن الجنرال في السادسة صباحاً . وكانت روايتها قد وقعت موقعا صادقا لديه منذ البداية . بيد أنه قد حمل عليها كيباً بظمن قلبه : ذلك أن ما قالته يدين ذا الوجه الملائكي أدانة قاطعة . كان المنزل خالياً بالفعل في الساعة السادسة ، وبما أنه يظهر من المعلومات التي أعطتها الشرطة أن الجنرال وصل إلى منزله في منتصف الليل تماماً ، وبناء عليه يكون قد هرب في الساعة الثانية صباحاً ليس كان ذو الوجه الملائكي يتظاهر بأنه يختطف ابنته .

كم ستكون صدمة السيد الرئيس حين يكتشف أن صفته الخميم قد رتب أمر هروب أعدى أعدائه وأشرف على ذلك أخرب ! ماذا يا ترى سيفعل حين يعرف أن صديق الكولونيل « باراليس سونريتي » انصدوق مشترك في هروب أحد قتلته ؟

وعمد إلى قراءة مواد القانون العسكري ، وإعادة قراءتها ، رغم أنه يحفظها عن ظهر قلب ، فيما يختص بالشركاء في الجريمة . وفتت عيناه الخربائيتين بالسرور إذ وجدت في كل سطر من هذا المجلد القانوني العبارة المنتضة التالية : « عقوبة الإعدام » أو مرادفها « عقوبة الموت » .

« آه يا سيد ميغيلين ميغيليتو . ها أنت الآن في قبضتي ، وطوال الوقت الذي أريد ! حين أهتني ليلة أمس في القصر الجمهوري لم أكن أتصور أننا سوف نلتقي مرة أخرى سريعا هكذا ! وأني أعدك بأن دائرة انتقامي سيكون لها آلاف الدورات ! »

وبنلت الأفكار المضطربة بالرغبة في الانتقام ، وبغلبه وقد قد من الصليب

* حيوان بحري هلامي يكثر في سواحل أمريكا اللاتينية .

البارد ، صعد درجات القصر الجمهوري في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي . وكان يحمل معه عريضة الاتهام وإذنا بالقبض على ذي الوجه الملائكي .
وقال الرئيس له بعد أن عرض الوقائع عليه :

- « اسمع أيها السيد المدعي العام ، دع هنا عريضة الاتهام هذه ، وانصت الى ما سأقوله لك : لا السيدة « دي روداس » و « ميغيل » مدنيان ، اصدر أوامرك بالافراج عن تلك السيدة والتر بأمر القبض على ميغيل في سلة المهملات . ان المدنين هم أتم ، أيها الحمقى ، لمن ولأولكم وخدمتكم . . . ؟ أي نفع فيكم . . . ؟ لا شيء ، ! كان على الشرطة أن تنهي حياة الجنرال « كاناليس » عند أقل بادرة منه للتهرب . كانت الأوامر هكذا ! ولكن الذي حدث هو أنه لم يكن في إمكان الشرطة رؤية باب مفتوح دون أن تأكلها يدها للسرقة والنهب ! انك تقول ان ذا الوجه الملائكي قد لعب دورا في هروب الجنرال « كاناليس » . إنه لم يكن يدبر فربه ، وإنما لموته . بيد أن رجال الشرطة ما هم إلا حمقى رسميون . . . لك أن تنصرف . أما بالنسبة الى الرجلين المتهمين الآخرين فاسكيز وروداس ، فأوقع بهما ما يستحقان من عقاب ، فهما أفاقان . خاصة فاسكيز ، الذي يعلم عن الأمر أكثر مما هو مسموح له . لك أن تنصرف . »

ذئاب من نفس النوع

لم تكف جميع الدموع التي سحبتها « خينارو روداس » لمحو التعبير الذي بدا في عيني الأبله وهو يحتضر ، من ذاكرته ، وما هو يفت الآن أمام المدعي العسكري العام مضطرب الرأس ، وقد انطفاأت فيه آخر دالة من الشجاعة من جراء ما حل بأسرته من مصائب ، ومن جراء حالة القنوط التي تبسط ظلها على من يفقد حريته حتى لو كان تشجيع الشجعان . وأصدر المدعي العام أوامره بترك قيوده ، وقال له أن يقترب ، بلبحة من يخاطب خادما .

وقال له بعد صمت طويل كاد يكون اتهاماً : يا ولدي ، إن أعرف كل شيء ، وما أسألك إلا لكي أسمع من شفيع كيف مات ذلك الشحاذ في « رواق الرب » .

فسارع « خينارو » يقول : ما حدث . . . ثم توقف كأنما هو خائف مما سيفعله .

- أحل ، ماذا حدث يا ولدي ؟

- أد يا سيدي ، بحق الإله لا تمسني بسوء ، بحق الرحمة يا سيدي !

- لا تخف يا ولدي ، إن الثانوك قد يعامل المجرمين الأشرار بقسوة ، ولكن ليس ولدا ضيحا مثلك لا تغلق وقل لي الحق

- أوه ، إن الخاف أن تنزلوا بي سوءاً .

وكان ينلوي بطريفة مسترحمة وهو يتكلم ، كأنما يدافع عن نفسه من خطر يتصوف في الهواء من حوله

كلا ، كلا ، هيا الآن .

- ما حدث ؟ كانت تلك الليلة - أنت تعرفها - الليلة التي رثبت فيها مقابله
« لوسيو فاسكيز » عند الكندراية وتوجهت الى هناك عن طريق الحى الصينى .
كنت يا سيدى أبحث عن عمل وكان لوسيو قد أخبرنى أن يوسعه الحصول على
وظيفة فى الشرطة السرية . نقابلنا كما قلت ، وكانت التحية والسلام والسؤال عن
الأحوال ، ثم طلب منى ذلك الرجل أن تناول كأسا فى بار يقع على مبعدة خطوات
وراء « ميدان السلاح » اسمه « صحوة الأسد » . ولكن الكأس أصبح اثنين
وثلاثة وأربعة وخمسة ، وباختصار . . . »

فوافق المدعى العام قائلا وهو يلتفت ناحية الكاتب ذى الوجه الملىء بالتمش
الذى كان يكتب أقوال المتهم : أجل ، أجل ، باختصار .

- حسنا إذن ، كما ترى ، ظهر أنه لم يتمكن من الحصول على تلك الوظيفة فى
الشرطة . فقلت له إن هذا لا يهم . ثم ، آه ، أجل أنى أذكر ، لقد دفع هو ثمن
المشروبات . وبعد ذلك ، خرجنا نحن الاثنين مرة أخرى إلى « رواق الرب » حيث
كان على لوسيو نوبة الحراسة هناك ، كما أخبرنى ، إذ كان عليه أن يبحث عن رجل
أخرس مصاب بالسعار ويجب قتله . فعلى هذا قلت له : « سأعود إلى
منزلى » . وحين وصلت إلى الرواق ، كنت وراءه بخطوات . وغير الطريق ببطء ،
بيد أنه حين وصل إلى مدخل الرواق ، رأيتة يخرج ثانية جاريا . وخرجت خلفه ،
معتقدا أن ثمة شخصا يطاردا . وأمسك فاسكيز بشيء إلى جوار الخائط - كان هو
ذلك الآخرس ، الذى أخذ فى الصراخ كأنما الخائط قد سقط على أم رأسه حين
شعر بوقوعه فى الأسر . ثم جذب فاسكيز مسدسه ولم ينطق بكلمة بل أطلق عليه
النار ، ومرة أخرى . آه ، كلا يا سيدى . لم أكن أنا الذى قتلته ، لا تمسوين بسوء ،
إنى لم أقتله . كنت أبحث فحسب عن وظيفة يا سيدى ، فهل ترى ما حدث من
جراة ذلك ؟ كان من الأفضل لى أن أبنى نجارا . ماذا حدث لى كيمأود أن أصبح
رجل شرطة .

ومرة أخرى ، وقعت نظرات المدعى العام الباردة على عيني روداس . ثم
ضغط على جرس أمامه ، صامتا ودون أن يغير التعبير المرتسم على وجهه . وسمع
صوت وقع أقدام ، وظهر عند الباب عدة حراس يتقدمهم رئيسهم .

- أمها الرئيس ، يجلد هذا الرجل مائتي جلدة .

وإن يتغير صوت المدعي العام أدنى تغيير حين كان يصدر أمره بذلك ، كما لو كان مدير أحد البنوك يصدر تعليماته بصرف مائتي بيزو إلى أحد العملاء .

ولم يفهم « روداس » شيئاً . ورفع رأسه وتطلع إلى الزبانية الخفاة الذين كانوا في انتظاره . وزادت حيرته حين رأى وجوههم الهائلة الجامدة الخالية من أي تعبير عن الدهشة . وحول الكاتب وجهه الخلف ، بالنمش وعينيه الجامدتين نحوه . وقال رئيس الحراس شيئاً للمدعي العام . وقال المدعي العام شيئاً لرئيس الحراس . لم يسمع كلامهما ، ولم يفهم ما كان يجري حوله . ولكنه شعر وكأنه على وشك أن ينفذ في ملابسه حين صرخ رئيس الحراس فيه بأن يذهب إلى الحجرة المحاورة ، وهي صالة طويلة ذات سقف مغيب ، وأعطاء لكزة وحشية في صدره حين وصل إلى متناول يده .

وحين دخل السجن الآخر ، « لوسيو فاسكيز » ، الحجرة ، كان المدعي العام لا يزال يتفجر سخطاً على روداس :

- لا فائدة من معاملة هذا النوع معاملة حسنة ! إن ما يحتاجون إليه هو العصا ، ثم العصا .

ورغم أن فاسكيز قد شعر أنه في وسط أهله ، إلا أنه لم يكن يثق فيهم بأي حال ، خاصة حين سمع ملاحظة المدعي العام . إن وجود أية علاقة له بهروب الجنرال كانابيس ، حتى ولو ضد رغبته ، تهمة خطيرة للغاية ، وبلا شك ما كان حقه !

- اسمك ؟

- لوسيو فاسكيز .

- هل ولدت هنا ؟

- هنا .

- في السجن ؟ - كلا ، طبعاً لا . في العاصمة .

- متزوج أو أعزب .

- أعزب طول عمري .

أجب على الأسئلة بلباقة ! المهمة أو الوظيفة ؟

- موظف حكومي .

- هل اعتقلت ؟

- أجل .

- بأي تهمة .

- القتل أثناء الخدمة . - سنك ؟

- ليس بي سن .

- ماذا تعني بألا سن لك ؟

- لا أعرف كم سني ، ولكن أكتب خمسا وثلاثين إذا كان لا بد وأن تكون لي سن ! - ماذا تعرف عن مقتل الأبله ؟

وجه المدعي العسكري العام ذلك السؤال الى الجين في الصميم وهو يتطلع الى عينيه مباشرة ؛ بيد أن كلماته ، على عكس ما كان يتوقع ، لم تخلق أي تأثير على معنويات فاسكيز ، الذي رد بصورة طبيعية وهو يكاد يحبس بالرضا الكامل :

- « إن ما أعرف عن مقتل الأبله هو أنني قتلته بنفسني » . ثم كرر ما قاله مشيرا بيده الى صدره حتى لا يبقى هناك أي شك في الأمر : « أنا قتلته » .

وزار المدعي العام قائلا : وهل تأخذ هذا الأمر هكذا على محمل المزاح ، أو أنك من الجهل بحيث لا تدرك أن هذا قد يكلفك حياتك ؟

- ربما . . .

- ماذا تعني بربما ؟

ومرت برهة على المدعي العام لم يعرف خلالها ماذا يفعل ، فقد أحس بالارتباك من الهدوء الذي يملك فاسكيز ، ومن صوته المشابه لصوت الجيتار ، وعينيه الحادتين . وانجه الى الكاتب كيما يكسب وقتا .

- اكتب . . . وأضاف في صوت مرتعد :

- اكتب أن لوسيو فاسكيز يقرر أنه قتل الأبله ، بالاشتراك مع خينارو روداس .

فتمتم الكاتب من بين أسنانه : لقد كتبت ذلك بالفعل .

فقال فاسكيز بهدوء ، برنه صوت فيها شيء من المزاح جعل المدعي العام بعض شفتيه : « إنني أرى أن الأستاذ لا يعرف الكثير عن هذا الأمر . ماذا يعني ذلك القرار ؟ إن أي شخص بإمكانه أن يرى أنني لم ألوث يدي من أجل أبله سائل اللعاب . . .

- - - - -احترم المحكمة ، وإلا سأكسر دماغك ! «

« - إن ما أقول في صميم الموضوع . أقول لك إنني لست من الحماسة بحيث أقتل ذلك الأبله لمجرد القتل . ذلك أنني فعلت ما فعلت بناء على أوامر صريحة من السيد الرئيس . . .

- انخرس أيها الكاذب . . . ها . . . ستكون مهمتنا سهلة إذا . . .

ولم يكمل عبارته ، لأن حراس السجن دخلوا في تلك اللحظة يجرّون « روداس » وقد تدلت ذراعاه ، وقدماه تكتسان الأرض ، كالحرقفة ، أو كوشاح مصارع الثيران .

وسأل المدعي العام الرئيس الذي كان يتهم للكاتب وسوطه معلق حول عنقه كذيل القرد : كم أعطيتهم ؟

- مائتين .

- حسنا . . .

وأسرع الكاتب الى نجدة المدعي العام ، فتمتم وهو يدمج الكلمات في بعضها حتى لا يسمعه الآخرون : يجب إعطاؤه مائتين آخرين .

وعمل المدعي العام بنصيحته : « أجل أيها الرئيس ، أعطه مائتين آخرين إلى أن أفزع من هذا الولد »

وجال في خاطر فاسكيز : « يا لأعصابه . . . أجل إن هذا ما هو منتظر من شيخ مثله ، وجهه كمقعد الدراجة ! »

وعاد الحراس أدراجهم يجرون حملهم البائس يتبعهم رئيسهم . وألقوا به على خشبة في ركن الحجرة حيث ينفذون العقوبة . وأمسك أربعة منهم بيديه وقدميه ، بينما أخذ الآخرون بضربونه ، ورئيسهم بحسب العدد . وتقلص جسد روداس مع الضربات الأولى ، بيد أنه كان قد فقد قواه الآن ولم يعد يستطيع الجهاد ولا الصراخ من الألم كما فعل حين ضربه في المرة الأولى منذ دقائق . وغلفت قطرات جامدة من دماء الجروح التي خلفتها دورة الضرب الأولى ، بعضا الخيزران الرطبة المرنة ذات اللون الأصفر المخضوض . وكانت آخر شكواه صرخات مخنوقة كالخبوان الذي يختصر دون أن يحس بالآلام . ودفن وجهه في الخشبة وقد تقلصت قسماؤه ونهوش شعره . واختلطت صرخاته الثاقبة مع لهثات الحراس الذين كان رئيسهم يعاقبهم بسوطه كلما تهاونوا في الضرب .

« إن مهمتنا تكون سهلة يا لوسيو فاسكيز إذا اطلقنا سراح أي مواطن يرتكب جريمة حين يؤكد بأنها بأوامر من السيد الرئيس ! ما هو البرهان ؟ إن السيد الرئيس ليس مجنوناً كيما يصدر أمراً كهذا . أين هي الورقة التي يذكر فيها أنه أمرك بفعل ما فعلت ضد هذا البائس بمثل هذه الطريقة المجرمة الجبانة ؟ »

وشحب وجه فاسكيز ، وبينما كان يبحث عن رد ، وضع يديه المرتعشتين في جيبه بنطاله .

« انك تعلم أنه أمام المحاكم يجب أن تدعم أقوالك بالوثائق ، وإلا فماذا يكون الوضع ؟ أين هو ذلك الأمر ؟ »

« حسنا ، انظر ، انه ليس معي الآن . لقد أعدته لا بد أن يكون السيد الرئيس على علم بذلك .

ما هذا ؟ ولماذا أعدته ؟

- لأن الأمر كان مذيلاً بعبارة تنص على أنه يجب إعادته بعد التنفيذ ! لم يكن مسموحاً لي بالاحتفاظ به . . . أظن أنك تفهم .

- ولا كلمة . . . ولا كلمة زيادة ! إنك تحاول خداعي بكلامك عن الرئيس . أيها اللص ، إني لست طفلاً لا أزال في المدرسة حتى أصدق كلاماً فارغاً كهذا أيها الوغد ! إن إقرار المرء شيء ، والدليل عليه شيء آخر ، إلا في الحالات التي يحددها قانون العقوبات ، ومنها شهادة رجال الشرطة التي تقوم مقام الدليل القاطع . ولكنني لست بصدد لقاء محاضرة عليك عن قانون العقوبات . هذا يكفي ، يكفي ؛ لقد قلت ما فيه الكفاية . . .

- حسناً ، إذا لم تكن تريد أن تصدقني ، اذهب واسأله ، ربما منصدق ما يقوله لك . ربما لم أكن معك حين اتهم الشحاذون الأبله . . .

- انخرس ، وإلا أمرت بضربك إيا للمهزلة إذ أنصوّر نفسي ذاهباً لسؤال السيد الرئيس ! . . . إن ما أقوله لك يا « فاسكيز » إنك تعلم عن الموضوع أكثر مما يحق لك ، وإن رأسك في خطر !

وأخيراً « لوسيو » رأسه كأنما قد قطعتها كلمات المدير العام . وكانت الرياح تزار في غضب على نوافذ الحجر .

حلقة مفرغة

جذب ذو الوجه الملائكي ينيقته وربطة عنقه عنه في عنف . وجال في خاطره أنه لا يوجد أسخف من التفسيرات الهينة التي يخترعها الناس لتبرير أفعال الناس الآخرين . أفعال الآخرين . . . الآخرين . أحياناً لا يرقى انتفادهم إلى أكثر من المهمة اللادعة . يخفون ما هو في صالح المرء ويغالون في وصف الباقي . يا لهم من حثالة ! بيد أن الأمر مؤلم كمروء الفرشاة الحثنة على مرطن الجرح . كما أن النائب المنفع ، الذي يتكرر في صورة تعليق ودي عادي أو حتى تعليق يقتصد به الاحسان ، يمكن أن يكون جرحه أشد إيلافاً ، تماماً كالفرشاة ذات الشعر الخاد المرهف . وحتى الخدم ! فليذهب كل هؤلاء إلى الجحيم !

وفي جرة واحدة ، انقطعت أزرار القميص كلها دفعة واحدة . لقد شقَّ يعنف من الأمام . كان الأمر كما لو كان قد شق صدره . كان خدمه يحكون له بتفصيل شديد ما يقول الناس عن قصة غرامه . إن الرجال الذين يترددون في الزواج خوفاً من مشاركة امرأة فهم في بيتهم تقص عليهم - كالتلميذة المجتهدة يوم الامتحان - ما يقوله الناس عنهم ، وكلها أشياء قبيحة ، ينتهي بهم الأمر إلى سماع هذه الأشياء من فم خدمهم ، كما حدث لذي الوجه الملائكي . واسدل ستائر غرفته أخيراً دون أن يخلع عنه قميصه . كان في حاجة ماسة إلى النوم ، أو على الأقل أن تبدو غرفته حاجزاً بينه وبين النهار الطالع . وهو نهار لم يكن أقل سوءاً من سابقه ، كما قال في نفسه بمرارة .

« النوم » ، ردّد ذو الوجه الملائكي هذه الكلمة إذ جلس على حافة سريره ، بفك أزرار بنطاله ، دون حذاء ولا جورب ، وقميصه مفتوح . « أوه ، يا لي من أحق ! إن لم أخلع ستري بعد ! »

وسار على عقبه وقد قوس أصابع قدميه حتى يبعد راحة قدميه عن لمس أرض

الحجرة الباردة ، ونجح في تعليق سترته على ظهر المقعد ، ثم عاد الى فراشه قافزاً بخفة على قدم واحدة كأنه طائر الكروان . ولكن . . . « طاخ » ! . . . ويقع على الأرض وقد هزمت هذه الأرضية الباردة . ودارت ساقا بنطاله في أضواء كعفري ساعة هائلة الحجم . وبدت الأرض مصنوعة من الثلج وليس من الإسمنت . يا نليون ! ثلج ممزوج بثلج . ثلج ممزوج بالدموع . وقفز الى السرير كأنه يقفز من جبل ثلجي إلى طوق نجاة . كان يرى القرار من كل ما حدث ، وحين سقط على السرير تحيل أنه جزيرة ، جزيرة بيضاء تحيط بها شبه ظلمة ، وأحداث ساكنة مسحوقة . سوف ينسى ، وينام ، ويتوقف عن أن يكون موجوداً . سوف يستريح من جميع الأسباب وطرحها كأنها هي قطع في عاكبة من الماكينات . فلنذهب قواعد الصواب المتداولة الى الجحيم بكل النواتج ! من الأفضل بمراحل النوم المجاني للصواب ، ذلك الخدر اللذيذ ، ذو اللون الأزرق في البداية ، والذي يكون أخضر ثم يتحول بعد ذلك إلى السواد ، والذي يتقطر من العين إلى الكيان كله ، نخالعا الانبساط الكامل على المرء . آه ، الرغبة ! إن المرغوب فيه يكون محرزاً وغير محرز في نفس الوقت . إنه مثل بذبل من ذهب تكون يداها بأصابعها العشرة مضسومة قفصاً له . النوم الكامل المريح ، الخالي من المضايقات ، يدخل من مرابا العميون ويخرج من نوافذ الأنف ، كان هذا هو ما يتوق إليه ، نوم هنيء كنوم الأيام الخوالي .

وسرعان ما أحس أن النوم يهزم عالياً فوقه ، فوق سطح بيته ، في نور النهار الساطع ، ذلك النهار الذي لا ينسى . وأدار وجهه . لا فائدة ، واستدار على جانبه الأيسر حتى يهدئ من ضربات قلبه . ثم على جانبه الأيمن . لا فائدة . كانت ثمة مائة ساعة تفصل بينه وبين النوم الهنيء في تلك الأيام حين كان يأوي الى فراشه خالياً من المشاغل العاطفية . وانهتمت غريزته بأنه إنما يعاني من هذه العذابات لأنه لم يقتصب كميلة بالقوة . إن المرء يشعر أحياناً بالجانب المعتم للحياة بحوم قريباً منه إلى درجة يبدو الانتحار معها هو الوسيلة الوحيدة للهروب منه . وجمال في خاطره : « سأتوقف عن أن أكون موجوداً » . وارتعش في داخله . وليس إحدى قدميه بالقدم الأخرى . كان يزعمه عدم وجود مسامير في الصليب الذي علّق عليه . وجمال في خاطره : ثمة شيء في مشية السكارى بذكر المرء بالمشنوقين . والمشنوقون يذكرون المرء بالسكارى ، حين يرفضون بأقدامهم

بتطوحون في الهواء . . . وأشار غريزته إليه باصبع الاتهام . عضو الكبير . عضو
المشقوق . وأنت ، يا ذا الوجه الملائكي ، لست أفضل منهما ! . . .
وجال في خاطره : الحيوان لا يخطئ في دفتر حساباته الجنسية . فتحن كأنما
نبون أطفالا يأخذون طريقهم إلى المقبرة . وتغير يوم القيامة . . . حسا ، لن
يكون تغبرا . سيقوم مفص من الذهب بقطع هذا الخيط الأبدي من الأطفال .
إننا نحن معشر الرجال نشبه أمعاء الخنزير التي يمشوها الخنزير الشيطاني باللحم
المفروم كئيبا يصنع منها مقاتق . ونحن سيطرت على طبيعتي حتى أنفذ كمية من
رغبتني فيها ، تركت ورائي جزءا مني خاليا ، ولذلك فاني أشعر بنفسي خاويا ،
قلقا ، غاضبا ، مريضا ، وحبيسا في الفخ . إن المرأة هي اللحم المفروم التي يملأ
بها الرجل نفسه كأمعاء الخنزير حتى يكون راضيا . يأنه من الشذال ! »
والتصقت به الشراشف كأنها تنورات . تنورات مبللة بفرق لا يطاق

لا يد أن « شجرة الليلة الحزينة » تشعر بالألم في أوراقها . « آه يا دماغ
المسكين ! » ، صوت صلصلة الأجراس السائلة ، « بروغيز » ، مدينة الموز .
شرائط لولبية من الخربز حول عنقه . « أبدا . . . » ، ولكن ثمة فوتوغراف في
مكان ما في الجوار . لم أسمع أبدا . لم أعرف أنه يوجد . أول أبناء عنه . لديهم
كلب في القناء الخلفي للمنزل . لا يد أن هناك اثنين . ولكن هنا لديهم
فوتوغراف . واحد فقط . ما بين تغير الفوتوغراف هنا ، وكلاب القناء الخلفي
تصغي لصوت سيدها ، يقع منزلي ، رأسي ، نفسي . الجيرة هي أن تكون قريبا
وتكون بعيدا في نفس الوقت . هذا أسوأ ما في الجوار . ولكن بالنسبة إلى هذين
الجارين ، فلديهما عمل عليهما أن بنجراه . إنهما يديران الفوتوغراف ، ويتكلمان في
حق الجميع . بوسعي أن أتصور ما يقولان عني . يا ضما من زوج من الخثالة
العفة . بوسعهما أن يقول ما يشاءان عني ، فانا لا بهمني شيء . ولكن . . . عنها
هي ! . لو تأكدت أنها قد قالا كلمة واحدة في حقها فسوف أجعلهما عضوين في
« منظمة الشبيبة الحرة » . لقد هددتهما مرارا بذلك ولكنني أشعر اليوم أنني سأنتقد
وعيدي حقا . سوف يملأ ذلك حياتهما بالمرارة . ولكن ربما لا أفعل ذلك ، فهما لا
يتحفظان أصلا . إن بوسعي أن أسمعهما يقولان في كل الأتحاء ! لقد خطف
الفتاة المسكينة بعد منتصف الليل ، وحملها إلى خان تملكه قرادة حيث اغتصبها
هناك ، بينما كانت الشرطة السرية تحرس الباب حتى لا يدخل عليهما أحد .

وسوف يتخيلان المشهد وأنا أخلع عنها ملابسها وأمزقها ، وكميلة كالطائر الذي وقع في الفخ ، يرتجف جسدا وربشا . وسوف يقولان : « ثم اغتصبتها بالقوة دون أن يلاطفها ، مغلق العينين كأنما هو يرتكب جرما أو يجرع دواء مرأ » . لو أنها علمتا بأن ما حدث كان مختلفا تماما عن ذلك التصور ، وأنني هنا شبه نادم على نصري كجنتلمان ! لو أنها أدركا أن كل ما يقولان خاطيء . أنها في الحقيقة يرغبان في تخيل الفتاة ليس إلا . تخيلها معي ، معي ومعها . هما يجردانها من ثيابها ، هما يقومان بما يتصوران أنني فمت به ! . إنه الشيء الحرة لا تليق بمثل هذين المخلوقين . علي أن أدبرهما شيئا أسوأ من ذلك . إن العقاب الأمثل . بما أنها عازبان ، أجل إنها حقا أعزبان عريقتان . هو تكييلهما بزواج من أولئك النسوة ، أولئك النسوة . إن أعرف امرأتين ممن يحسن حول السيد الرئيس . فلتكونا هما إذن . هما . ولكن إحداها حامل . لا يهم . بل أفضل إذا أمر الرئيس بعقد زواج فلا طائل من وراء الاحتجاج بأن العروس حامل . لذا فليتزوجا منها بدافع الخوف ، فليتزوجا . . . »

وقوس نفسه في الفراش واضعاً ذراعيه بين ساقيه ، ودفن رأسه في الوسائد . باحثا عن استراحة من لمحات أفكاره المؤلمة . وكانت في انتظاره صدمات جسمانية في صورة الأركان الباردة من الفراش . مما أعطاه راحة مؤقتة من جنوح تفكيره الطائش . وفي النهاية ، سعى إلى تلك الاحساسات التي يرحب بها رغم إيلاهما بأن مد ساقيه خارج الشرشف إلى أن لمس العمود المعدني في نهاية السرير . ثم فتح عينيه بالتدريج . وبدأ حين فعل ذلك أنه يقطع خطوط جفنيه الدقيقة غاية الدقة . وأحس بنفسه عديم الوزن كالظلال ، وبمظامه هشّة رخوة ، وضلوعه ترقق حتى تصبح غضاريف ورأسه يتحول الى عجينة طرية . . . وكانت ثمة يد من المصطن والصوف تتخذ هيئة المقرعة في الهيئة الائدة . . . يد صوفية قطنية لأحد السائرين في نومهم . . . إن المتزل مصنوع من المقارع . . . والمدن غابات من أشجار المقارع . . . وراحت أوراق الصوت تسقط بينما هي تفرع الباب . . . وبقي جذع شجرة الباب سليلا بعد أن سقطت عنه أوراق الصوت . . . ولم يكن أمامها ما تفعله سوى أن تفرع الباب . . . ولم يكن أمامهم مفر من أن يفتحوا . . . ولكنهم لم يفتحوا . كان يمكن أن تكسر الباب بقرعها عليه . . . قرعه وراء قرعة ، كان يمكن أن تكسر الباب ؛ قرعة وراء قرعة . . . ثم لا

شيء ، كان يمكن أن تكسر الباب . . . من الباب ؟ ماذا ؟

- إنه إعلان وفاة أحضروه لتوهم .

- أجل ، ولكن لا تذهب به إليه لأنه لا بد نائم ضعه هنا على المكتب .

ه توفي الليلة الماضية السيد خواكين سيرون ، بعد أن تناول السر المقدس الأخير . ومن دواعي حزن حرمه وأولاده وأقاربه الآخرين أن يبلغوكم بهذا النبأ ، راجين منكم الترحم عليه والتنفضل بحضور الجنازة في المقبرة العامة اليوم الساعة الرابعة مساءً وسيجتمع المعزون أمام باب المقبرة ؛ وعنوان منزل الفقيد : شارع كاروسيرو .

كان ذو الوجه الملائكي قد استمع رغماً عنه لصوت أحد خدمه يقرأ إعلان وفاة السيد خواكين سيرون بصوت عالٍ .

وخلص إحدى ذراعيه من الشراشف وثناها تحت رأسه . كان السيد « خوان كاناليس » يسير عبر دماغه مرتدياً ريشاً . كان قد انتزع أربعة قلوب مصنوعة من الخشب وأربعة قلوب مقدسة وصنع منها صاجات يدق عليها . وكان بوسعه أن يشمر في قذاله بالسيدة «جوديث» ، بثدييها الهائلين سجينة الكورسيه المصنوع من خيوط المعدن والرمال ، وشعرها المصفف على الطريقة «البومبية» ومشط فخم في وسطه جعلها تبدو كالتنين . وأحس بتقلص عنيف في ذراعه الذي استخدمه وسادة تحت رأسه ، ومدّه في حذر ، كأنه ثوب فيه عقرب يسعى . . . في حذر . . .

كان ثمة أسانسير مليء بالنمل يصعد نجاء كتفه ، وأسانسير مليء بنمل مغناطيسي يهبط تجاه مرفقه . ومضى التقلص عبر أنبوب مقدم ذراعه وانحنى وسط الظلال . وكانت يده نافورة مياه - نافورة ذات أصابع مزدوجة . وشعر بعشرة آلاف ظفر حتى أخمص قدميه .

- « يا للفتاة الصغيرة المسكينة ، تفرع وتفرع ثم لا شيء . . . إنهم منوحشون ، بغال عنيدة . سوف أبصق في وجوههم لو فتحوا الباب . بالتأكيد ، كما أن ثلاثة وإثنين خمسة . . . وخمسة عشرة . . . وتسعة تسع عشرة ، سوف أبصق في وجوههم . كانت تفرع الباب في انشراح أول الأمر ، ولكن في النهاية

بدت وكأنها تحفر في الصخر . لم تكن نقرع الباب ، بل تحفر قبرها بنفسها . يا لها من صبحوة مريضة ! سوف أذهب لرؤيتها غدا إن استطعت . بحجة أنني أحمل لها أخبارا عن والدها . آه ، لو كان بإمكانني فحسب أن أحصل على أخبار عنه اليوم . بوسمي . . رغم أنها قد لا تصدق بما أقول . . . »

✱

« إنني أصدق ما تقول ! إنني مفتنة ، مقتنعة تماما أن أعصامي قد تنكروا لوالدي وقالوا لك إنهم لا يريدون رؤيتي في منزلهم مرة أخرى . »

كان هذا يحول في خاطر كمييلة إذ هي ترقد في سرير « لامسكواتا » والألم يعنصر ظهرها ، بينما الناس في الحانة ، التي يفصلها عن حجرة النوم حاجز من الألواح القديمة والمشمع والخرق البالية ، يعلقون على أحداث اليوم : هروب الجنرال ، واختطاف ابنته ، وأنشطة المحبوب . ونظاھرت صاحبة الحانة بعدم سماع أي شيء يقولونه ، بيد أنها حرصت على ألا تفوتها كلمة منه .

وحملت موجة جديدة مفاجئة من الغثيان بكمييلة بعيدا عن هذه المصيبة الأثمة . إحساس بالسقوط عموديا وفي صمت . . وبعد تردد ، أتصرخ مع ما في ذلك من ثبور ، أو لاتصرخ وربما يغمر عليها تماما ، قررت أن تصرخ طلبا للنعون . وبعد ذلك ، أحاط بها شعور بالبرد ، كأنما من ريش طيور مئة . وهرعت « لامسكواتا » لتجدتها على الفور . ماذا حدث ؟ وحالما رأتها هناك شاحبة اللون كالثلج ، وذراعيها متصلبين كيد الكنيسة ، وفكيها مطبقين ، وعينيها مغلقتين ، أسرعت بأخذ جرعة من البراندي من أقرب زجاجة ، ورشّت بها وجهها . وأفعمها القلق لدرجة لم تسمع معها زبانتها وهم يغادرون الحانة . ونضرعت للمعذرة ، ولجميع القديسين ألا تموت الفتاة هنا في منزلها .

✱

« حين الترقينا هذا الصباح ، بكيت بما قلته لها . ماذا كان بوسعها أن تفعل ؟ حين يقع شيء كان يبدو مستحيلا ، يبكي المرء إما من السرور أو الأسى . . . »

هكذا كان يحول بخاطر ذي الوجه الملائكي وهو يرقد في الفراش ، نصف

نائم ، نصف مستيقظ ، مستيقظ على هيب أزرق سماوي . وشيئا قشياً ، نام
بالفعل ، طافيا تحت أفكاره المضطربة ، دوغما جسد ، دوغما شكل ، كنسمة هواء
دافئة تهتز من جراء أنفاسه . . .

وبعد هذا السقوط في العدم ، لم يبق له إلا كميلة ، طوبلة عذبة ، فاسية ،
كالصليب المنتصب فوق المقابر . . .

وإستقبله ملك النوم ، الذي يخطط بحار الحقيقة المظلمة ، في واحدة من سفنه
العديدة . وجرت أيد خفية بعيدا عن فكّي الأحداث الفاعرين ، بينما الموجات
النهمة تتشاجر بوحشية على مرق ضحاياها .

ونساء ملك النوم : من هو ؟

وأجاب رجال خفيون : مبغيل ذو الوجه الملائكي .

وامتدت أيديهم كالظلال البيضاء ، وسط الظلال السوداء ، هلامية غير
لموسة .

وتردد ملك النوم قائلا : خذوه الى سفينة . . . سفينة المحيين الذين يشعرون
الشعور بالحب وقنعوا بأن يحبهم الآخرون .

وكان رجال ملك النوم يتقدمون الأمر ويحملونه الى تلك السفينة ، وهو يتحرك
فيها فوق ذلك الغشاء من الوهم الذي يغطي أحداث الحياة اليومية بغبار دقيق ،
حين انتزعته ضوضاء مفاجئة من قبضتهم كالمخلب . . .

الفراش . . . الخدم . . .

كلا ؛ الإعلان ، كلا . . . صبي !

وفرك ذو الوجه الملائكي عينيه ورفع رأسه في رعب . وعلى بعد خطوتين من
سريره كان ثمة صبي لاهث الأنفاس لا يستطيع الكلام . وقال أخيرا :

« لقد أرسلتني . . السيدة صاحبة الحانة . . . لأقول لك . . . ان عليك
الذهاب حالا الى هناك . . . لأن الآنسة . . . في حالة خطرة . . . »

ولو كان ذو الوجه الملائكي قد تلقى تلك الأنباء من السيد الرئيس نفسه ، لما
ارتدى ملابس بمثل السرعة التي ارتداها بها . واندفع خارجا الى الطريق واضعا
على رأسه أول قبعة رآها على المشجب ، وحذاؤه مفكوك ، وربطة عنقه مهدلة .

وتساءل ملك النوم : « من هي ؟ »

وكان رجاله قد اصطادوا لتوهم وردة ذابلة من مياه الحياة القذرة . فأجابوا :
« كميله كاناليس » .

ـ حبسنا جدا . ضعوها في سبينة المحيين النعساء ، إذ كان لا يزال فيها مريض
لقدم . . .

ورق صوت ذو الوجه الملائكي واتخذ رنة أبوية وهو يقول : ماذا تظن يا
دكتور ؟ « كانت كميله مريضة للغاية .

ـ أعتقد أن الحمى ستزداد . . . انها مصابة بالتهاب رئوي . . .

القبر الحي

لم يعد لابنها وجود . . . ورفعت «نينيا فيدينا» الجسد إلى وجهها المرتعش بالحمى ، بحركة ألية تمائل حركة من يفقدون عقلهم في خضم فوضى حياتهم المنهارة . لم يكن الجسد يزن أكثر من وزن بذرة جافة . وقبلته . ولاطفته . وركعت فجأة على ركبتيها - وكان ثمة شعاع أصفر شاحب ينساب من تحت الباب - وانحنى بالقرب من الفرجة التي يدخل منها شعاع الفجر الساطع هذا على مستوى الأرض ، حتى ترى ما تبقى من صغيرها على نحر أوضاع .

وبدا الرليد كجنين في قماطه وليس طفلا له عدة شهور ، إذ كان وجهه الصغير مغضيا كسطح الندبة ، ودائرتان سوداوان تحيطان بعينيهِ ، وشفته في لون الجير . وحلته بسرعة بعيدا عن الضوء وضغطت به على ثدييها المنتفخين . واشتكت إلى الله في عبارات غير مفهومة مختلطة بالنواح . وكان قلبها يكف عن الدق لحظات ، وتطلق حزنها في نواح على نواح متمتعة في لعشة تنبه فواق المحتضر : إني . . . إني . . . إني !

وتدحرجت الدموع فوق وجهها الخالي من التعبير . وبكت إلى أن كادت تفقد الشعور ، ناسية زوجها الذي توعدوه بالموت جوعا في السجن إذا لم تعترف زوجته ، وناسية آلامها هي الجسمانية ، وبدنها وثدييها المضروحة ، وعينيها المحترقتين ، وظهرها المهشم ، وازاحت جانبها قلفها على عملها الذي لا يوجد من يعنى به ، وسيطرت عليها الدهشة والذهول . وحين جفت دموعها ولم يعد بإمكانها أن تبكي بعد ، شعرت أنها قد أصبحت قبرا لابنها ، وأنه قد عاد مرة أخرى داخل بطنها ، وأن مبعاه الأخير الذي لا نهاية له هو سباتها هي . وللحظة ، قطع سرور حاد أبدية آلامها : فقد كانت فكرة كونها قبرا لابنها يلسا ملطفاً لقلبها . وشعرت بسعادة النسوة الشرفيات اللاتي يدفن مع أحبائهن . بل وكانت

سمادتها أعظم - فإنها لم تكن لتدفن مع إبنها ، بل إنها هي قبره الحي ، مهده الأخير ، الحجر الأمومي ، وسوف ينتظران معاً ، متحدان ، إلى أن يستدعيهما الله إليه . ودون أن تجفف دموعها ، سوت شعرها كأنما هي ذاهبة إلى حقل ، وقبت في ركن من الرزازة الحب ، وجثة ابنها لاصقة بشديها وبين ذراعيها وساقها .

والقبور لا تختزن الموت ، لذلك كان عليها أن تمتنع عن تقبيل إبنها ، ولكنها تضغط عليهم بشدة ، بشدة ، كما تفعل هي الآن . إنها دروع للقوة والركة ، نجير الموت على تحمل مضايقة الديدان وحرارة التحلل في صمت ودون حراك . أما الشعاع المتماوج الذي يدخل من فرجة عقب الباب فإنه لا يزيد سطوعاً إلا كل ألف سنة . والظلال ، يطاردها الضوء الطالع ، تزحف ببطء على الجدران كالعقارب . جدران من عظام . . . عظام موشومة برسوم خليعة . وأغلقت «نيا فيدينا» عينيها ، فالقبور مظلمة من الداخل ، ولم تنطق كلمة أو أنينا ، فالقبور صامته أبداً .

كان الوقت منتصف الظهيرة . رائحة أشجار الصنوبر مغسولة بمياه الأمطار . طيور السنونو . الهلال . كانت الطرق لا تزال تستحم في ضوء الشمس ويملاها الأطفال المزعجون . وكانت المدارس تفرغ نهراً من الحيوانات الجديدة إلى المدينة . كان بعض الأولاد يلعبون « المسافة » ، عارجين هنا وهناك كالذباب . وتحلق آخرون حول اثنين من رفاقهم كانوا يتعاركان كديكي المصارعة . أنوف دامية ، بكاء ، دموع . وراح البعض يثق على الأبواب ثم يجري مرعاً . وأغار آخرون على محال الحلويات لشراء طوفي العسل ، وفطائر جوز الهند ، والكعك باللوز ، وحلوى المارنغي ، أو هجموا كالعقراصنة على سلال الفاكهة ، تاركينها كالفوارب الفارغة المفككة . وجاء وراءهم أولئك الذين كانوا مشغولين ببيع الأشياء القديمة أو تبادل طوابع البريد أو بأول محارلاتهم في التدخين .

وتوقفت عربة آجرة أمام سجن « كاسانويثا » وأفرغت ثلاث سيدات في زهرة الشباب وسيدة بمدينة عجوز . ولم تكن تخطى العين معرفة من جثن من مظهرهن . كانت الشابات منهن يرتدين ملابس قطنية زاهية اللون ، وجوارب حمراء ، وأحذية صفراء ذات كعوب عالية جداً بصورة مغالى فيها ، وتنورات فوق الركبة تظهر أردية داخلية ذات شراريب من الدانتلا الطويلة القذرة ، وبلوزات

مفتوحة عند السُرة . وكان شعرهن مصففاً على الطراز المسمى بطراز لسويس
الخامس عشر ، ويتكون من كمية كبيرة من اللفات الغارقة في زيت الشعر المربوطة
في الجانبين بشريط أخضر أو أصفر ، وكانت حمرة حدودهن تعيد إلى الأذهان
المصابيح الكهربائية الحمراء التي تعلق على أبواب بيوت الدعارة . أما المرأة
العجوز التي كانت ترتدي ثوباً أسود عليه شال أرجواني فقد هبطت من العربة
متعثرة الخطى ، وهي تمسك الباب بيد سميكة مغطاة بالكثير من الجواهر .

وسألت صغرى الفتيات وهي ترفع صوتها لكي تسمعه حتى أحجار الطريق :
« سوف تنتظرننا العربة ، أليس كذلك يا سيدة » تشون ؟

فردت العجوز : أجل بالطبع ، يمكن أن تنتظرن هنا .

وتوجهن أربعتهن إلى « كاسا نويثا » حيث استقبلتهن البوابة بمظاهر الترحيب
والإيهاج .

وكان ثمة أشخاص آخرون ينتظرون في تلك القاعة ذات المظهر القاسي .

وسألت العجوز البوابة : قولي لي يا « شيتا » ، هل السكرتير موجود ؟

- أجل يا سيدة « تشون » ، لقد حضر لتوه .

- إذن قولي له وحياتك اني أريد مقابلته لأنني أحضرت معي امرأ كتابياً له ،
في غاية الأهمية بالنسبة لي .

وظلت العجوز صامتة طوال غياب البوابة . كان المكان لا يزال ، بالنسبة
لكبار السن ممن عاصروه ، يحتفظ بجو الأديرة ، ذلك أن المبنى كان ، قبل تحويله
إلى سجن للمحرفين ، سجناً للعشاق . للنساء فقط . وكانت أصوات راهبات
« سانت تريزا » العذبة تنساب من جدرانها الضخمة كأنها تحلق حمام . ولم تكن
هناك من زنايق ترى ، ولكن الضوء كان أبيض مهدداً بهيجاً ، واستعبر عن
الصيام والخيش بأشواك جميع ألوان التعذيب التي ازدهرت تحت علامة الصليب
وشباك العنكبوت .

وحين عادت البوابة ، ذهبت السيدة « تشون » لتشرح للسكرتير موضوعها .
كانت قد رتبّت أمورها مع مديرة السجن من قبل ؛ وقد أصدر المدعي العسكري
العام أوامره بتسليمها - مقابل عشرة آلاف بيزو ، وهو ما لم يذكره - السجينة

« فيدينا دي روداس » ، التي ستصبح من وقتها نزيل « النشوة اللذيذة » كما كان
ماخور السيدة تشون ذات السن الذهبية يدعى .

وتردد صدى قرعتين كالرعد في الزنزانة التي كانت السجينة التعة لا تزال
مُقعبة فيها مع إنها ، بلا حراك ، مغلفة العينين تكاد لا تنفس . ويجد جهيد ،
تظاهرت بأنها لا نسمع . ثم تصاعد الصرير من المزاليج . وترددت أصداء أزيز
متطاوول من مفضلات قليلة الاستعمال ، من خلال الصمت ، كأنها العويل .
وفتحوا الباب وأمسكوا بها في غلظة . وأغلقت عينيها بقوة حتى لا ترى الضوء ،
فالقبور مظلمة في الداخل . وهكذا جروها كالعمياء ، وجسد طفلها الصغير
العزير مضغوط إلى صدرها . لقد بيعت كالحبوان إلى أحط الأعمال .

- إنها تتظاهر بالخرس .

- إنها تغلق عينيها حتى لا نراها .

- انها خجلانة ، هذه هي الحقيقة .

- ربما لا تريد أن يروظوا طفلها .

هكذا كانت تعليقات « تشون » ذات السن الذهبية وفتياتها الثلاث أثناء
الرحلة . وقعتت العربدة وهي تنطلق على طول الطريق غير المهد ، وصدرت
عنها ضوضاء جهنمية . وكال السائق ، وهو إسباني ذو مظهر « كيشوتي » ،
السياب لجواديته ، وكانا مخصصين لحلبة المصارعة ، وكانما هو فارس المصارعة .
وجلس « نيا فيدينا » إلى جواره خلال الرحلة من سجن « كاسا نويقا » إلى بيوت
الدعارة (كما في الأغنية) جاهلة تماماً ما يدور حولها ، دون أن تحرك جفنيها أو شفتيها ،
بل تقبض على طفلها بكل قوتها .

وبينما كانت السيدة « تشون » تدفع للسانق أجره ، ساعدت الأخريات
« فيدينا » على النزول ودفعنها بلطف إلى داخل دار « النشوة اللذيذة » .

وكان هناك بضعة زبائن ، معظمهم من الجنود ، يقضون الليلة في صالون

المماخور . وصاحت السيدة تشون بالبارمان عند دخولها : كم الساعة يا أنت ؟

وردد أحد الجنود : السادسة والثلاث يا سيدني نشون »

« آه ، أنت هنا أيها المشاغب المعجوز ؟ إني لم أخط وجودك ! »

وأظهر الجميع اهتماما بالفتاة الجديدة ، وأرادوا أن يمضوا الليلة معها .
وواصلت « فيدينا » بعناد صمتها الشبيه بصمت الفؤاد ، وجسد طفلها معلق في ذراعيها ، وأبقت عينيها مغلقتين ، وأحست ببرودة الأحجار وثقلها .

وقالت ذات السن الذهبية لفتياتها الثلاث : هيا ، خذوها الى المطبخ وقولوا
« لمانويلا » أن تعطيها شيئاً تأكله ، واجعلوها تنزبن بعض الشيء وتعتني بنفسها .

وتوجه ضابط مدفعية ذو عيني زرقاوين شاحبتين الى الفتاة الجديدة يتحسس
ساقها . بيد أن إحدى الفتيات الثلاث حمتها منه : وعندها لفت جندي آخر
ذراعه حول وسطها كأنما هي جذع نخلة ، واحولت عينيها وأبان عن أسنانه الهندية
الباهرة ، كأنه الكلب الى أوار أنثاه وقت النزو . وبعد ذلك قبلها وهو يحك خديها
الثلجيين ، المملوحين من الدموع ، بشفتيه اللتين تنضحان بالبراندي . وكان
ذلك يمثل خير اتحاد بين ثكنات الجنود وبين دور الدعارة ، فإن حرارة العاهرات
هي خير تعويض عن برودة ساحة التدريب في الثكنات .

وقالت السيدة « نشون » منبهة بذلك هذا المشهد البذيء : « والآن ، أنت أيها
المشاغب ، أيها الفاسق ، كف عن هذا ! آه ، حسنا ، سنضطر إلى تقييدك » .

ولم تدافع « فيدينا » عن نفسها ضد هذه الأشياء الشقية ، بل اكتفت بأن
تضغط على جفنيها وشفتيها حتى تحفظ ظلامها وسكونها الشبهين بالفير من
الهجوم ، في حين ضمت طفلها الميت اليها بشدة وهددهته بين ذراعيها كأنما هو
نائم . وفادوها الى فناء صغير ، حيث كان الأصل يغرق تدريجياً في النافورة .
وترامى صوت نأوهات ، أصوات خفيضة ، همسات مريضات ، تلميذات ،
سجينات أو راهبات ، ضحكات مفعلة ، صرخات قصيرة فظة ، وخطوات
أقدام لا ترتدي سوى الجورب . وألقى أحدهم أوراق اللعب من باب إحدى
الحجرات ، وسقطت على الأرض على شكل المروحة . ولم يعرف أحد أنهم فعل
ذلك . وأخرجت امرأة ذات شعر منكوش رأسها من فتحة صغيرة ، وحدقت إلى

أوراق اللعب كأنما هي مثل الفدر نفسه ، ثم مسحت دمة تساقطت على خدها
الشاحب .

« كان ثمة قنديل أحمر معلقاً على الباب الخارجي لدار « النشوة اللذيذة » . كان
يبدو كعين حيوان منتفخة ، ويلقي صبغة نراجيدية على الرجال والحجارة .
استخفاء الكاميرات الفوتوغرافية وغرف تخميض الصور . كان الرجال يأتون
ليستحموا في ذلك الضوء الأحمر كضحايا الجدرى الذين يأملون في علاج
تقرحاتهم . وكانوا يعرضون وجوههم للضوء في خجل أن يراهم أحد ، كأنما هم
يشربون دماً ، ثم يعودون بعد ذلك لضوء الشارع ، إلى ضوء البلدية الأبيض ،
إلى أضواء بيوتهم الصافية ، يحملون معهم إحساساً قللاً بأنهم قد أفسدوا تخميض
الصورة .

كانت « فيدينا » لا تزال غير واعية لما يحدث حولها ، بيد أنه كانت تسيطر
عليها فكرة أنه لا وجود لها إلا من أجل طفلها . وأبقت عينيها وشفتيها مزمومة
أكثر من ذي قبل ، وكان الجسد الصغير لا يزال عالقاً بشذبيها الطافحين . وبذلت
رفيقاتها كل ما في وسعهن للخروج بها من هذه الحالة ، حين كن يأخذنها إلى
المطبخ .

وكانت « مانويلا كالفاريو » ، الطباخة ، قد توجت منذ سنوات عديدة ملكة
على شؤون المطبخ ومشتقاته في دار « النشوة اللذيذة » ، وكانت بمثابة الأب الرحيم
دونما حية وفي تنورة منسأة . وكان فكاً هذه الطباخة المحترمة الهائلة الحجم
المرهلان مملوءين بمادة هوائية وجدت متنفساً لها في عبارات حادة وجهتها إلى
« فيدينا » حالماً وقع بصرها عليها :

- « ها ، عاهرة فاجرة أخرى ، حسناً ، من أين أنت هذه ؟ وما هذا الذي
تضممه بشدة إلى صدرها ؟ »

ولم تجرؤ الفتيات الثلاث على الكلام ، رغم أنهن لم يعرفن لذلك سبباً ،
وأفهمن الطباخة بالإشارات - مثل وضع يدها فوق أخرى ، علامة القضيان - أنها قد
أنت من السجن .

وكانت ملاحظة المرأة بعد ذلك : « كلبة فذرة ! » ثم أضافت حين خرجت
الأخريات : « ينبغي أن أعطيك سباً بدلاً من أن أعطيك طعاماً ! هاك ، خذي

هذا ، وذلك ! » ووجهت اليها عدة صربات بسيف اللحم على ظهرها .

وجلست «فيدينا» على الأرض تحمل جثمانها الصغير، دون أن ترد أو تفتح عينيها . كانت قد حملته مدة طويلة في نفس الوضع حتى انها لم تعد تشعر بثقله . وأخذت «مانويلا» تروح هنا وهناك ، مشوِّحة بيديها وهي ترسم علامة الصليب . ولاحظت في مراحها وعجبها وجود رائحة كريهة في المطبخ . وعادت من ناحية الخوض تحمل طبقا ، وبدأت - بلا انتظار - تركل «فيدينا» وهي تصيح بها : « إن معك شيئا نثنا يفوح بالرائحة الكريهة . إلقيه بعيدا عن هنا ! تخلصي منه فإني لا أريده هنا ! »

وجاءت السيدة تشون الى المطبخ على صيحات «مانويلا» ، وتعاوننا معا كأنها يقتلعان شجرة في فتح ذراعي المرأة البائسة . بيد أنها حين أدركت أنها تنتزعان طفلها منها ، فتحت عينيها وأطلقت صرخة حادة ثم سقطت مفشيا عليها .

وصاحت «مانويلا» : إنه الطفل الذي تفوح منه الرائحة . إنه ميت ! يا للهول ! . ولم تحر ذات السن الذهبية منطلقا ، وبينما العاهرات يتدفقن الى المطبخ جرت إلى الهاتف كيها تخطر السلطات . كانت كل واحدة تريد أن ترى الطفل وتقبّله ؛ وغطينه بالقبلات وتنازعن عليه فيما بينهن . كان السوجه المغضن الصغير مفتحا برضاب الرذيلة ، وكانت قد أخذت تنبعث منه رائحة كريهة . وامتلا المكان بالبكاء وبالحديث عن اجراءات اقامة جناز للطفل . وتسوجه المجاور «فارغان» لاستخراج تصريح الدفن من الشرطة . وأخلبت أكبر حجرات النوم الخاصة من الاثاث ، وأحرقوا فيها البخور لطرده رائحة المني العفنة من الستائر والسجاجيد ، وأحرقت «مانويلا» فطراتنا في المطبخ ، ووضعوا الطفل على صفحة سوداء من البناء وسط الورود والكتان حيث رقد مقعبا على نفسه ، جافا مصفرا ، كبذرة نبات لبلاي .

لقد بدؤن جميعا كما لو كانت كل واحدة منهن قد فقدت طفلا تلك الليلة . كانت أربع شموعات تحترق . ورائحة قطائير الذرة والبراندي ، ولحم عليل ، وأعقاب سجائر ونيذ .

وكانت ثمة امرأة نصف مخمورة ، وأحد نديها عار ، تمضغ سيجارا بدلا

من أن ندخته . ظلت تردد وسط أنهار من الدموع :

نم يا صغيري نم

نم يا حبيبي الوليد

والأسيان الذئب

نأكلك !

نم يا حيائي نم

لأن علي أن أذهب الآن

لأغسل لك اللقائف

وأجلس أحبك لك الثياب .

تقرير عن الرسائل الموجهة إلى السيد الرئيس

١ - السيدة «البخاندرا»، أرملة المرحوم «بران»، القاطنة في هذه المدينة، وصاحبة حانوت الأثاث المسمى «البايينا فرانكا»، تقرر أنه لما كان محلها مجاورا لحانة «الخطونان»، فقد كان يوسعها أن ترى عدة أشخاص يترددون على تلك الحانة، وخاصة بالنيل، بحجة زيارة إحدى المريضات. وهي تشرف بإحاطة السيد الرئيس عنيا بهذه الوقائع، إذ يبدو لها - من المحادثات التي سمعتها عبر الحائط - أن الجنرال «إيوسيبو كاناليس» قد يكون مختبئا في تلك الحانة، وأن الأشخاص الذين يترددون على ذلك المكان يتآمرون ضد سلامة الدولة وعلى حياة السيد الرئيس الغالية.

٢ - «سوليداد بلماريس»، القاطنة في هذه المدينة، تقرر أنها لم تعد تجد ما تفتت به لأن مواردها قد نفذت. ولما كانت غريبة عن هنا ولا يمكن لأحد أن يقترضها نفودا، فإنها ترجو السيد الرئيس أن يفرج عن ابنها «مانويل بلماريس» وعن زوج اختها «فيديريكو أورتيروس ب». وأن الوزير المفوض بسفارة بلدها هنا يمكنه أن يشهد أنه لا صلة لها بالسياسة، وأنها ما جاء هنا إلا ليكسب عيشها بالعمل الشريف، وأن جريمتها الوحيدة أنها قبلت توصية من الجنرال «إيوسيبو كاناليس» لمساعدتها في الحصول على وظيفة في محطة السكك الحديدية.

٣ - الكولونيل برود نسو بيرفكتربازا يقرر: أن الرحلة التي قام بها مؤخرا إلى الحدود كانت تهدف إلى التعرف على حالة الأراضي والطرق والممرات البرية هناك لتحديد المواضع التي ينبغي إتخاذ مزيد من الإجراءات بشأنها. وهو يعطي وصفا تفصيليا لحطة الحملة يمكن القيام بها في نقاط إستراتيجية ملائمة في حالة حدوث حركة ثورية، وهو يؤكد نبا تطوع أفراد عند الحدود لذلك الغرض، وأن

منهم «خوان ليون بارادا» وغيره، وانهم يحوزون أسلحة من النوع التالي : قنابل يدوية ، رشاشات يدوية ، بنادق محدودة المدى ، ديناميت وغيره من لوازم زرع الألغام ؛ وأن الثوار لديهم ما بين ٢٥ و ٣٠ رجلا مسلحا بإمكانهم الهجوم على قوات الحكومة المرابطة هناك . ولم يكن بإمكانه تأكيد خبر أن «كاناليس» هو قائدهم ، ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فإنهم بلا شك سيقومون بغزو بلدنا ما لم نتخذ الإجراءات الدبلوماسية لتسليم هؤلاء الثوار من البلد المجاور . ويضيف أيضا أنه مستعد لتنفيذ الهجوم المحدد له بداية الشهر القادم ، بيد أنه يفتقر إلى أسلحة لفرقة المشاة ، وليست لديه ذخيرة كافية ، وأنه باستثناء بعض المرضى الذين يحتاجون رعاية طبية ، فإن قواته بحالة طيبة ، وأنهم يتلقون تدريبا من السادسة إلى الثامنة صباح كل يوم ، ويُخصص لغذائهم رأس من الماشية كل أسبوع ، وأن الموقع أدناه قد طلب أكياسا من الرمل من الميناء لبناء تحصينات .

٤ - «خوان أنطونيا ماري» ، يشكر السيد الرئيس على الاهتمام الذي تفضل بإبدائه نحوه ، بتوفير الرعاية الطبية اللازمة له . وهو جاهز الآن للعودة إلى الخدمة و يرجو الإذن له بالحضور إلى العاصمة للاضطلاع ببعض المهام الناشئة عن معلوماته الخاصة عن الأنشطة السياسية التي يقوم بها المحامي « قابيل كرفخال » .

٥ - « لويس رافيليس م » ، يقرر أنه بالنظر إلى مرضه ونقص الوسائل الكفيلة باستعادته لصحته ، فإنه يود العودة إلى الولايات المتحدة . حيث يرجو تعيينه في إحدى الوظائف بإحدى قنصليات الجمهورية ، لا في « نيواورليانز » ، وليس بموجب الظروف السابقة ، بل بوصفه صديقا مخلصا للسيد الرئيس . وكان من حسن حظه أن أدرج اسمه في جدول المقابلات في نهاية يناير الماضي ، ولكنه حين كان في الصالون وعلى وشك الدخول ، لاحظ وجود شيء من الريبة من جانب ضباط الحراسة ، الذين عدلوا موضع اسمه في القائمة ، وحين حل دوره ، أخذه ضابط إلى حجرة مجاورة حيث فتشه كأنما هو فوضوي . وقال له إنه يفعل ذلك بناء على إخبارية بأن المحامي « قابيل كرفخال » قد دفع له مالا كبيرا يقوم باغتيال رئيس الجمهورية . ولدى عودته إلى الصالون ، وجد أن مقابلته قد ألغيت ، ورغم أنه بذل منذئذ كل ما في وسعه كيما يقابل السيد الرئيس ليطلع على بعض الأشياء التي لا يمكن تسطيرها على الورق ، فإنه لم ينجح في ذلك المسعى .

٦ - « نيقوميديس آستونو » يكتب مقررًا أنه في طريق عودته إلى العاصمة بعد

إحدى رحلاته العديدة التي تحمله إليها أعماله، لاحظ أن الملصق الإعلاني المربوط إلى خزان المياه - والذي يظهر فيه اسم السيد الرئيس - قد دُمِّر كله تقريبا، إذ نُزعت عنه ستة حروف وخرَّبَت حروف أخرى فيه.

٧ - «لوسيو فناسكيز»، المضرب عليه في السجن المركزي بأمر المدعي العسكري العام، يرحو مقابلة السيد الرئيس.

٨ - «كاتارينو ريخيسيو» يقرر أنه يدير عفار «لاتيرا» المملوك للجنرال «إوسيبو كاناليس». وأنه في أحد أيام شهر أغسطس الماضي رار ذلك السيد أربعة أصدقاء، أعلن لهم (وهو في حالة سكر) أنه إذا اندلعت الثورة فئمة كتيبتان تحت أمره: واحدة تأتمر بأمر أحد أصدقائه هو الميجور «فاربان»، والأخرى لأحد العمداء لم يذكر اسمه. ولما كانت شائعات الثورة لا تزال تتردد، فإن الموقع أدناه يكتب لأبلاغ السيد الرئيس بهذا، نظرا لأنه لم يتمكن من مقابله لأبلاغه بذلك شخصيا، رغم مساعيه العديدة لهذا الغرض.

٩ - الجنرال «ميغاديو رايون» يرفق خطابا تلقاه من القس «بلاس كوستديو» يقرر فيه أن الأب «أوركينخو» يفتري عليه الشائعات (حيث أنه سيخلف الأب في رئاسة أبرشية «سان لوقا» بأمر من الأسقف) ويثير عليه السكان الكاثوليك بأكاذيبه، تعاونه السيدة «أركاديا دي أبوسو». ولما كان وجود الأب «أوركينخو» في الأبرشية يمكن أن تترتب عليه عواقب وخيمة، وهو صديق للمحامي «قابيل كرفخال»، فإن الموقع أدناه يتشرف بإحاطة السيد الرئيس علما بهذه الوقائع.

١٠ - «الفريدو توليدانو»، من هذه المدينة، يقرر أنه نظرا لأنه يعاني من الارق ولا ينام إلا في ساعة متأخرة من الليل، فإنه قد فاجأ أحد أصدقاء السيد الرئيس - هو «ميغيل ذو الوجه الملائكي»، بقرع بعنف على باب منزل السيد «خوان كاناليس»، شقيق الجنرال المسمى بنفس اللقب، والذي دأب أبضا على انتقاد الحكومة. وهو يبلغ السيد الرئيس بذلك علّه يجد فيه ما يهمه.

١١ - «نيكوميدس أسيتونو»، وكيل أعمال منتقل، يقرر أن الرجل الذي عاى اسم السيد الرئيس من على ملصق خزان المياه هو «غيرمو ليزازو» المحاسب، وهو في حالة سُكْر.

١٢ - «كاسيميرو ريبيكولونا» يقرر أنه سينتم قريبا ستين ونصفا من الاعتقال

في مركز الشرطة الثاني؛ وإنه لما كان فقيرا ولا أقارب يشفعون له، فإنه يرجو من السيد الرئيس أن يتكرم بالأمر بإطلاق سراحه، وأن الجريمة المنهم بها هي أنه أزال إعلانا عن ذكرى والدته السيد الرئيس من على باب الكنيسة التي يعمل مساعدا للنفس بها، بناء على تحريض من أعداء الحكومة، يقول إن تلك التهمة غير صحيحة، وإنه إن كان قد فعل ذلك فلأنه قد خلط بين الإعلان وبين إعلان آخر، حيث أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب.

١٣ - الدكتور «لويس مارينيرو» يرجو من السيد الرئيس الإذن له بالسفر إلى الخارج بغرض البحث والدراسة، بصحبة زوجته.

١٤ - «أديلايدا بيبال»، نزيله دار الدعارة الرسمية لـ «المنشوة المديدة» في هذه المدينة، ترغب في إبلاغ السيد الرئيس أن الميجور «مودستو فارفان» قد أخبرها حين كان محمورا أن الجنرال «ابوسير كاتاليس» هو الجنرال الوحيد الأصيل في الجيش، وأن المصيبة التي حلت به إنما ترجع إلى خوف السيد الرئيس من الفداة الأكفء، وإن الثورة ستنتصر في النهاية رغم كل شيء.

١٥ - «مونيكيا بردومينو»، المريضة في المستشفى العمومي، في السرير رقم ١٤ في عنبر «سان رافاييل»، تقرر أنها لما كان سريرها محاورا للمريضة «فيدينا روداس»، فإنها قد سمعتها تتحدث عن «الجنرال كاتاليس» في هدبانها، وإنه نظرا إلى أنها هي نفسها مريضة فإنها لم تفهم ما قالت المذكورة، ولكن قد يكون مستصوبا أن يقوم شخص بمرافقة ما نقول ويكتب ملاحظات به، وترسل الموقعة أدناه هذه الإخبارية إلى السيد الرئيس انطلاقا من إعجابها القائل بحكمه.

١٦ - «توماس جافيلي» يعلن زواجه من الأنسة «أركلينا سواريز»، ويرغب في تكريس هذا الزواج للسيد رئيس الجمهورية.

٢٨ أبريل . . .

- ٢٤ -

دار الدعارة

- تعالي هنا يا فتاه ...

- ولماذا هنا وليس هناك ...

- ماذا ذهالك ؟

- دهاني ما دهاني ...

وصرخت ذات السن الذهبية في الفتيات :

- إصمتن حالا ، إصمتن ، ما هذا ؟ منذ يبرع الفجر ومن هنا يتحادثن
وريشاجرن ؛ إنهن كاخيوانات التي لا تفهم .

وكانت صاحبة الفخامة ترتدي بلوزة سوداء وتنورة أرجوانية ، جالسة تهضم
عشاءها في مقعد من الجلد وراء نضد البار .

وبعد برهة ، وجهت كلامها إلى خادمة ذات بشرة نحاسية وصفائر مجدولة
لامعة :

- « بانثشا » ، إذهبي وقولي للفتيات أن يأتين إلى هنا ، فهذا لا يصح ،
فالزبائن قد يحضرون في أي لحظة ولا بد أن يكن هنا جاهزات ينتظرن ! دائما علي
أن أكون وراءهن في كل شيء !

ودخلت فتاتان تحريان إلى الغرفة لا ترتديان في أقدامهن إلا الجوارب .

- كفى ضجيجا يا « كونسويلر » . أه . يا لها من جميلتين صغيرتين ! انظر
إلى لبعهما ! واسمعي يا « أدلايدا » - « أدلايدا » ، إنني أتحدث إليك - إذا حضر
الفيجور من الأفضل أن تخلعي عنه سيفه مقابل ما عليه من ديون لنا . كم بلغت

ديونه أيها القرد المعجوز ؟

فرد البارهان : تسعمائة بالضبط ، بالإضافة إلى ستة وثلاثين أعطيتها له بالأمس .

- إن السيف لا يساوي كل هذا ، حتى ولو كان من ذهب ، ومع ذلك فإنه أفضل من لا شيء . « أدلايدا » ، إنني أتحدث اليك لا إلى الحائط !

فردت « أدلايدا » بين ضحكة وأخرى :

- أجل يا سيلة « تشون » ، أجل إنني أسمعك .

ثم واصلت لعبها مع رفيقتها التي كانت قد أمسكتها من شعرها .

وجلست تشكيلة النساء اللاتي تعرضهن دار « النشوة اللذيذة » هنا وهناك على الأرائك القديمة صامتات . كان هناك من كل نوع : سمينات ، نحيفات ، متقدمات في السن ، شبابات ، طويلات ، قصيرات ، مراهقات ، وديعات ، نفورات ، شقراوات ، حمراوات الشعر ، سوداوات الشعر ، صغيرات العين ، واسعات العين ، بيضاوات ، سمراوات ، خنثويات . ورغم أن كل واحدة كانت تختلف عن الأخرى ، فقد يبدو جميعا متشابهات ، فقد كانت رانحتهن واحدة ، تقوچ منهن راتحة الرجل ، كلهن الرائحة اللاذعة للمحار العتيق . وكانت انداؤهن تترجرج هنا وهناك داخل قمصانهن القطنية الصغيرة الرخيصة ، كأنها تكاد تكون مائلة . وحين يجلسن في استرخاء منفرجات الفخذ ، فإنهن يبنّ عن سيقان نحيلة كمواسير تصريف المياه ، وأربطة جوارب زاهية اللون ، وسراويل إما حمراء مطرزة بشريط أبيض ، أو وردية خفيفة مطرزة بشريط أسود .

كان إنتظار الزبائن يملأهن بالقلق . كن يتظرن كالمهاجرين ، وفي عيونهن تعبير حيواني ، يجلسن في مجموعات أمام المرايا . ويعمد بعضهن ، دفعا للضجر ، إلى النوم ، والبعض إلى التدخين ، بينما يأكل البعض حبات النعناع ، ويحصى البعض بقع بقايا الذباب على الورق الأزرق والأبيض الذي يزين السقف . كانت المتعديات منهن ينشاجرن ، بينما الصديقات يلاطفن بعضهن بعضا في وهن وقلة حياء .

وكن لمن جميعا تقريبا القاب غير اسمائهن . فالفتاة ذات العينين الواسعتين

تدعي الغزالة ، فإذا كانت قصيرة فهي الغزالة القصيرة ، وإذا كانت متقدمة في السن ممثلة ، فهي الغزالة الكبيرة . أما الفتاة ذات الأنف المرتفع إلى أعلى فهي الرومانية ؛ والسمراء هي الاسمرانية ؛ والخلاسية : الداكنة ؛ والفتاة ذات العيون المائلة : الصينية ؛ والشقراء : قطعة السكر ؛ والفتاة التي تتكلم بصعوبة : المتهتة .

والى جانب هذه الألقاب العامة ، كانت هناك أيضا القاب الساخرة ، والخزيرة ، وذات القدم المفلطحة ، وذات اللسان الذي يفطر عسلا ، والفردة ، والدودة الشريطية ، والحمامة ، والقبيلة ، والجبانة ، والطرشاء .

وكان بضعة رجال يفدون في الساعات الأولى من الليل ليتسلوا بعض الوقت بأحاديث العشق مع أي من الفتيات غير المنشغلات وتقبلهن ومداعبتهن . مداعبات ثقيلة . كانوا دائما متحدثين مفلين . وكانت السيدة « تشون » تنوق إلى طردهم ، لأنهم قد اقترفوا في نظرها جريمة ، هي أنهم فقراء ، ولكنها كانت تتحملهم إكراما « للمملكات » . يا للمملكات المسكينات ! إنهن قد علقن بهؤلاء الرجال - الذين يستغلونهن مقابل الحماية ويخدعنهن باسم الحب . إنطلاقا من توقعهن للحب والإحساس بوجود رجل يملكه .

وكان بعض الصبية يحضرون أيضا في مطالع الليل . كانوا يأتون يرتعدون ، لا يكادون يفقدون على الكلام ، يتحركون في وجل كالفراشات زائغة البصر ، ولا يستردون أنفاسهم إلا بعد أن يخرجوا إلى الطريق . صيد سهل . طائعون لا يخادعون . « مساء الخير » ، « لا تنسني » . وبدلا من الإثم والاستئساد اللذين يدخلون بهما إلى الماخور ، يخرجون بمذاق كريمة في أفواههم ، وذلك الخور اللذيذ الناتج عن الضحك مع امرأة والتقلب في أحضانها . آه ، ما أحلى الإبتعاد عن هذا المنزل العفن ! ويستشقون الهواء كما لو كان عشا ناضرا زاهرا ، ويحدقون في النجوم كأنما هي تعكس قوتهم وفتوتهم .

وبعد ذلك يتقاطر على المنزل الزبائن الجادون : رجل أعمال محترم ، متحمس مستدير البطن ، وقدر هائل من اللحم يحيط بتجويف صدره ؛ ثم موظف في أحد المحلات ، يضم الفتيات إليه كما لو كان يقيس القماش بالمتر ، بعكس الطبيب ، الذي يبدو كما لو كان يفحص صدرهن بالسماعة .

وصحافي ، يترك داتها شيئا وراءه كمرهن ، حتى ولو كان قبعتها . ومحام ، يشبه
القط وزهرة الجيران يوم في آن واحد ، بمظهره ووداعته المبتذلة غير المريحة . وزيني
ذو أسنان بيضاء كالجليب . وموظف حكومي محني الكتفين ، غير جذاب للنساء .
وتاجر بلدين . وصانع بعض برائحة جلد الماشية . والثري الذي يتلمس بين حين
 وآخر محفظته وساعته ونحواته . وكيميائي يفوق الحلاق تحفظا وإن كان يقل عن
طبيب الأسنان أدبا .

ومع انتصاف الليل تكون الحجرة في حالة هياج وفوران . فالرجال والنساء
يستخدمون الستهم لإذكاء عواطف الآخرين . قبلات . تلاق شهواني للأجساد
والرضاب ، بالتناوب مع العض ، استئمان مع ضربات . ابتسامات مع قهقهات
مماجئة فجأة ، فرقة فلية زجاجات الشمبانيا مع فرقة الرصاص حين يكون
حاضرا شجاع مخمور .

وصاح رجل مسن وهو يركز بمرقبه على منضدة ، وعيناه تطوفان هنا
وهناك ، وقدماه تتحركان في قلق ، وشبكة من العروق نافرة في جبهته المتوهجة :

- « هذه هي الحياة حقاً ! » .

- وزاد حماسه فسأل واحدا من ندمائه :

- هل أستطيع الذهاب مع تلك المرأة هناك ؟

- لم لا أيها الشيخ ، إنهن هنا لهذا الغرض .

- وتلك الأخرى التي هناك ، إنني أفضّلها .

- حسنا ، بإمكانك الذهاب معها أيضا .

وكانت ثمة فتاة سمراء تعبر الحجرة عارية القدمين على نحو مثير .

- وتلك التي تير هناك ؟

- أي واحدة ؟ الحلامية السمراء ؟

- ما اسمها ؟

- « أدلايدا » : إنهم يلقبونها بالخنزيرة . ولكني لم أكن لأذهب معها ، لأنها

فتاة الميجور ، فارقان . أظن أنه يحتكرها .

ولاحظ الشيخ في صوت خفيض : الخنزيرة ! انظر كيف تلاطفه ! .

كانت الفتاة تستغل كل فنون احتياها كيما يفقد الميجور عقله ، فهي تحديق إليه عن قرب بعينيها الساحرتين ، اللتين زادهما التكحل جمالا ، وإستنفدت قواه بشفتيها المتلثنتين ولسانها ، كأنما هي تلتصق طوايح بريد ، وبثقل ثدييها الدافئين وبطنها الرخو .

وهمست « الخنزيرة » في أذن الميجور فارغان : « إنخلع عنك هذا العبد » ثم خلعت عنه السيف دون انتظار جوابه ، وأعطته للبارمان .

ومرّ قطار من الصيحات بأقصى سرعة عبر الحجرة من خلال أنفاق كل أذان الحاضرين فيها ، وواصل سيره مسرعا . . .

كان الأحباب يرقصون إثنين إثنين على وقع الموسيقى وخارج وقعها ، بحركات حيوانات ذات رأسين . وكان ثمة رجل قد صبغ وجهه كالنساء بعزف على البيانو . كان فمه والبيانو على السواء ينقصهما بعض الأسنان . وكان يرد على من يسأله لماذا يصبح وجهه : « لأنني لعوب ، لعوب بصورة فظيعة ، وفي غاية الرقة » . ويضيف كي يترك أثرا أفضل لدى سامعيه : « إن أصدقائي ينادوني «بيب» أما الفتيان فيسموني «البنفسجة» . وأنا أرندي قميصاً رياضياً مقصور الصدر ، رغم أنني لا أعب التنس ، كيما أظهر صدري الناعم ، وأضع « مونوكلا » لزوم الأناقة ، وسترة من الفراك لأنني شارد الذهن . واستخدم الأصابع وأحمر الشفاه (آه ، ما أشد شرور الناس الذين يسيئون الظن) كيما أخفي بثور الجذري من على وجهي ، فهي هناك وستبقى هناك كقصاصات الكرنفال الورقية . آوه ، حسناً ، لا أهمية لذلك ، لأنني قد تعودت عليه ! » .

ومر بالحجرة قطار من الصيحات بأقصى سرعة . ونحت عجالاته القاطعة ، بين الكباس والتروس ، رقدت امرأة غمורה تتلوى الماء ، ووجهها بلون نخالة الخبز . كانت تضغط بيديها على حقوبها في حين سالت دموعها فأزالت الأصابع من على وجنتيها وشفتيها :

- آه يا مبايضي ! آه يا مبايضي ! آه يا مبايضي ! آه يا مبايضي ! آه . . . مبايضي ! آه . . . مبايضي ، آه ! » .

وهرع كل شخص ، عدا أولئك المغمورين إلى درجة لا تمكنهم من الحركة إلى الانضمام للمجموعة التي تحلفت لثرى ما يحدث . وفي الفوضى التي ضربت

أطابها في المكان ، حاول الرجال المتزوجون أن يسروا ما إذا كان أحد قد هاجم المرأة ، حتى يكون بإمكانهم الهرب قبل أن تأتي الشرطة ، في حين لم ينظر الآخرون إلى الأمر بهذه الخطورة وجروا هنا وهناك حتى يحتكوا بالفنسات وسط الفرج والمرج .

وكانت المجموعة تتزايد حول المرأة التي رقدت تتلوى وترنحف وعيناها تدوران في محجريها ، بينما تدلى لسانها إلى خارج فمها . وفي قمة الأزمة ، إنخلعت أسنانها الصناعية ، وسرى هياج محموم بين النظارة ، بينما تمالت ضحكة حين سقطت أسنانها فجأة على الأرض العارية .

ووضعت السيدة « تشون » حداً لهذا المشهد الشائن . كانت مشغولة هناك في الداخل وهرعت للمساعدة كالمدجاجة السمينة التي تفاقى خلف فراشها ؛ وأمسكت بالمرأة المسكينة من أحد ذراعيها ومسحت بها الأرض وهي تجذبها حتى المطبخ ، حيث تعاونت معها « ماثويلا » في وضعها في عثرن القمح . بعد أن عاجلتها الطباخة ببعض ضربات من السيخ الخديدي .

واستغل الشيخ الذي أغرم بالخزيرة القوضى التي دبت فماتزعتها من الميجور ، الذي كان مخموراً جداً لدرجة لم يشعر معها بأي شيء . وصاحت ذات السن الذهبية حين عادت من المطبخ : يا لها من كلبة قذرة ، هه ، أيها الميجور « فارقان » . إن مبايضها لا تؤلفها حين يحين وقت الأكل واليوم طوائف اليوم ؛ إن ذلك مثل الجندي الذي يشعر عند بداية المعركة بالذات بالأم في . . . !»

وغرقت عبارتها في انفجار ضحكات مخمورة . كانوا يضحكون كأنما يبصقون عسلاً مخلوطاً « بالأنيس » . وفي هذه الأثناء ، تحولت السيدة « تشون » إلى البارمان وقالت له :

- لقد أردت أن أستعيض عن هذه المتوحشة العنيدة بالقضاء الجميلة التي أحضرتها من سجن « كاسانويثا » أمس . يا للخسارة أنها قد راحت من بين يدي !»

- آه ، أجل ، إنها كانت فتاة رائعة !

- لقد قلت للمحامي أن عليه أن يحمل المدعي العسكري العام على إعادة

نقودي لي . لن يسئولي ابن العاهرة هذا على العشرة آلاف بيزو التي أعطيتها له .
لست أنا من يفعل معها ذلك ، هذا المجنون !

- إنك على حق تماما . ولكني علمت أن ذلك المحامي ليس فوق مستوى
الشبهات .

- إنهم كلهم جماعة من المجرمين القذرين !

- وهو بارع جدا في أساليب المساومة !

- قل فيه ما نشاء . ولكني أصدق بشيء واحد : لن يلدغي المدعي العام
مرتين . لو أنه يظن أن بإمكانه أن «يلهف» النقود مني هكذا . . . ! » .

ولم تكمل عبارتها وانجذبت إلى النافذة لترى من يطرق الباب . وصاحت
بصوت عالٍ للرجل الواقف على الباب ، يستحم في ضوء القنديل الأرجواني ،
ولفاعة مرفوع حتى عينيه : «يا لجميع الملائكة القديسين ! تحدث عن الشيطان
تراه ! » .

ثم توجهت دون أن ترد على تحيته كي تخبر البوابة أن تفتح الباب على الفور .
- «إسرعى وافتحي الباب يا «بانشا» . إسرعى ! إفتحي بسرعة ، إنه السيد
«ميغيل» ؟

كانت السيدة «تشنون» قد عرفت بحديثها الفائق وأيضا من عينيه
الشيطانيتين .

- حسنا ، يا لها من معجزة .

وبينما كان ذو الوجه الملائكي يجيبها ، جال بعينيه في الحجرة ، واطمأن حين
رأى شخصا قابعا عرف فيه المبحور «فارقان» ، وثمة خيط من اللعاب يسيل من
فمه المفتوح .

- معجزة كبرى ، لأنه ليس من عادتك أن تزورنا نحن البسطاء .

- كلا يا سيدة «تشنون» ، لا نقولي ذلك .

- لقد جئت في وقتك . إنني كنت أتضرع لتوي للقديسين كيما يساعدوني في
ورطة وقعت فيها ، ولقد أرسلوك لي ! » .

- حسنا ، إنني دائماً تحت أمرك كما تعلمين .

- شكراً . سأحكي لك عن ورطتي ، ولكن يجب أولاً أن تشرب شيئاً .

- لا تنعبي نفسك . . .

- ليس هناك من نعب . كأس صغير ليس إلا ، كأس صغير مما نحب . كما تريد . برهان على حسن النية ! كيف تريد الويكي ؟ وسوف أقدمه لك في جناحي الخاص ! تعال معي .

وكان جناح ذات السن الذهبية منفصلاً تماماً عن بقية انداز ، وبدأ كأنه عالم بحاله . مناضد ، صوانات بأدراج ، بوفيهات ، كلها مزودة باللوحات والنماثيل والصور والأثار الدينية . وكانت ثمة لوحة للعائلة المقدسة نلفت الأنظار بحجمها الهائل والمهارة التي رسمت بها . كان يسوع الطفل في طول زنبقة بيضاء ، وكان ما بنفسه أن يتكلم . وكان على الجانبين صورة رائعة للقديس يوسف مع العذراء في رداء مرصع بالنجوم . وكانت العذراء مزودة بالجواهر ، في حين يرفع القديس كأساً مرصعة بياقوتين ، كل منهما تساوي ثروة . وفي داخل صندوق زجاجي ، كان ثمة تمثال ليسوع أسمر البشرة يحتضر ، مغطى بالدماء ، وفي صندوق زجاجي آخر عبريض محاط بالأصداف كان ثمة تمثال للعذراء صاعدة إلى السماء - وهي تقليد بالنحت للوحة « موريللو » المشهورة . وكان أثمن شيء في التمثال هو الأفعى المصنوعة من الزمرد ، التي تقعي عند قدمي العذراء . وبين الصور المقدسة كانت هناك لوحات للسيدة « تشون » (والاسم تصغير لاسمها الحقيقي وهو «كونسيسيون») في سن العشرين ، حين كان ثمة رئيس للجمهورية تحت قدميها ، عارضاً عليها أن يأخذها إلى «باريس» ، فرنسا . وكذلك فاضيان من قضاة المحكمة العليا ، وثلاثة جزائريين يتفائلون بالسكاكين في أحد المهرجانات من أجلها . وفي أحد الأركان ، بعيداً عن الأنظار ، صورة لمن صمد من عشاقها ، وهو رجل كثيف الشعر . انتهى به الأمر أن أصبح زوجها لها .

- اجلس هنا على الأريكة يا سيد «ميفيلينو» . ستكون مرتاحاً هناك .

- إنك تعيشين عيشة هنية يا سيدة «تشون» .

- إنني أعمل على راحتي . . .

- إن المكان ، كالكنيسة . . .

- لا تهزأ بي، لا تسخر من قديمي .

- وماذا تريد مني ؟

- اشرب كأسك أولاً .

- حسناً جداً، في صحتك .

- في صحتك يا سيد ميفيليتو . وأرجو أن تغفر لي عدم شربي معك، إذ إن معدتي ليست على ما يرام . ضع كأسك هنا، على هذه المنضدة الصغيرة . هنا، ناولني إياه .

- شكراً .

- حسناً؛ كنت أقول يا سيد «ميفيليتو» إنني في ورطة شديدة ويسعدني أن أسمع نصائحك، ذلك النوع الذي يمكنك وحدك أن تسديها لي . لقد حدث أن أصبحت إحدى النساء التي لدي هنا لا نفع فيها فجأة، لذلك فقد أخذت أبحث عن غيرها . وقال لي أحد أصدقائي إن ثمة سجين في «كاسا نريفا» موضوعه هناك بأمر من المدعي العام، فتاة جميلة هي ما ابتغي بالضبط . حسناً، إنني أعرف ما يجب عمله، لذلك فقد ذهبت مباشرة إلى محامي - السيد «خوان فيداليتاس» - الذي سبق أن تحصل على بعض النسوة لداري، وجعلته يحرر لي خطاباً مناسباً للمدعي العسكري العام، عارضة عشرة آلاف بيزو ثمنها لها .

- عشرة آلاف بيزو ؟ ؟

- أجل . ولم يكذب المدعي العام خيراً، فقد أجابني على الفور أنه موافق، وحالاً تسلم النفود (التي أحصيتها بنفسني أوراقاً نقدية من فئة ٥٠٠ بيزو على مكتبه) أعطاني أمراً كتابياً لسجن «كاسانويفا» تسليمي الفتاة التي أريدها . وقالوا لي هناك إنها سجين لأسباب سياسية . يبدو أنهم قبضوا عليها في منزل الجنرال «كاناليس»

- ماذا تقولين ؟

كان ذو الوجه الملائكي يتابع قصة ذات السن الذهبية بعدم اكتراث، مرهفاً أذنيه للباب كيمناً يؤكد من عدم مغادرة الميجور «فارفان» للمكان دون علمه (ذلك أنه كان قد بحث عنه ساعات طويلة) ولكنه حين سمع اسم «كاناليس» بدا وكأن

شبكة من الأسلاك الدقيقة قد نُشرت فجأة أمامه . لا بد أن هذه المرأة التعسة هي المربية «تسابيلا» التي ذكرتها كميلة في هذيانها المحموم .

- آسف أن أقاطعك . . . ولكن أين هذه المرأة الآن ؟

- سوف أتى لذلك، ولكن دعني أكمل قصتي . أخذت أمر المدعي العام وذهبت بنفسني مع ثلاث فتيات لاحضارها من «كاسانويقا» . لم أكن أريد أن يخذعوني ويعطوني أخرى أقل منها شأنًا . وقد ذهبنا في عربة أخرى حتى نكون مستريحات . وهكذا وصلنا، وأعطينهم الأمر، وفحصوه وقراوه جيدًا، وأحضروا الفتاة، وسلموها لي، وبإختصار، أحضرناها معنا هنا حيث كان الجميع في انتظارها وأجبروها لأول وهلة . كل شيء على ما يرام حتى الآن، هه، يا سيد ميفيليتو.

- وأين وضعتها ؟

كان ذو الوجه الملائكي يرد أن يأخذها من هنا في هذه الليلة ذاتها . وبدت له المدقات أعوامًا إذ كانت هذه المرأة العجوز تحكي قصتها .

- إنكم جميعًا سواء أيها الشبان المغرمون ! ولكن دعني أكمل لك . بعد أن تركنا «كاسانويقا» لاحظتُ أن تلك المرأة ترفض أن تفتح عينيها أو أن تنطق حرفًا . كنا كأنما نتحدث إلى جدار صامت . ظننت أنها تلعب علينا لعبة أو شيئًا من هذا القبيل . والأدهى أنني لاحظت أنها كانت تحتضن رزمة في حجم طفل صغير بين ذراعيها .

واستطالت صورة كميلة في ذهن ذي الوجه الملائكي إلى أن انقسمت نصفيين كحرف ثمانية، بالسرعة التي تنفجر بها فقاعة الصابون عند لمسها .

- طفل صغير ؟

- أجل، واكتشفتُ طبائخي «مانويلا كالفاريو كريستائيس» أن ما كانت المرأة التعسة تهدده بين ذراعيها هو طفل صغير ميت قد بدأ يتعفن . ونادتني فجريت إلى المطبخ وتعاوننا نحن الاثنان في انتزاعه منها بالقوة، ولكن ما كدنا نفتح ذراعيها وقد كادت «مانويلا» أن تكسرها - ونأخذ الطفل الميت منها حتى فتحت عينيها على أنساعها كالميت يوم القيامة، وأطلقت صرخة لا بد أنها وصلت حتى

السوق، وسقطت سطيحة على الأرض .

- ميتة ؟

- لقد ظننا ذلك برهة . ثم جاؤوا وأخذوها، منقوفة في إحدى الشراشف إلى مستشفى القديس «خوان الإلهي» . لم أكن أريد رؤية ذلك المنظر، فقد أرعبتني حالتها . وقالوا إن الدموع أخذت تنسال من عينيها المغلفتين كأنها ذلك الفائض من المياه التي لا نفع فيها لأحد .

وتوقفت السيدة «تشون» لالتقاط أنفاسها ثم تمت:

- لقد سألت عنها الفتيات اللاتي كن في زيارة للمستشفى ذلك الصباح، ويبدو أنها في حالة سيئة . والآن، هذا هو ما يقلقني، فكما يمكنك أن تتصور، لا يمكنني أن أدع المدعي العام يحتفظ بالعشرة آلاف بيزو التي أعطيتها إياه، وإني أفكر في طريقة أجعله يعيدها لي، فلماذا يحرق السماء بسولي على ما هو حق؟ لماذا يحرق السماء؟ إنني أفضل ألف مرة أن أهب هذا المبلغ منحة لدار الفقراء .

- يجب على محاميك أن يعيدها لك، أما بشأن هذه المرأة المسكينة . . .

- تماماً! ولقد ذهب مرتين اليوم آسفة لمقاطعتك، لقد ذهب محامي فيداليناس مرتين لمقابلته، مرة إلى بيته ومرة إلى مكتبه، وفي كل مرة قال نفس الشيء، إنه لن يعيد لي شيئاً. ها أنت ترى كيف أن هذا الرجل لص حقير. إنه يقول لو أن بقرة نفقت بعد أن بيعت فإن الخسارة تقع على المشتري وليس على البائع. إنه يتحدث عن الناس كما لو كانوا حيوانات! هذا ما قال. أوه، حقا إنني أود أن . . .

كان ذو الوجه الملائكي صامتا. من تكون هذه المرأة التي بيعت؟ من يكون ذلك الطفل الميت؟

وظهرت السن الذهبية للسيدة «تشون» وهي تقول متوعدة:

- آه، ولكن ماذا أنوي فعله هو أنني سأعطيه علفة لم ينلها في حياته، ولا من أمه. إذا سجنوني فسيكون لأمر رهيب. يعلم الله أن كسب العيش أمر شاق مع وجود هؤلاء الناس الذين يسرقون المرء هكذا! عليه اللعنة ذلك الصعلوك العجوز. لقد قلت لهم بالفعل هذا الصباح أن يلتفوا طينا من المقبرة على عتبة دار

المدعى العام . سئرى إن كان ذلك يجلب عنه النحاس . . .

- وهل دفنوا الطفل؟

- لقد أعددتنا جنازا له هنا في هذا البيت . إن الفتيات عاطفيات جدا .
وقد من فطائر الذرة . . .

- حفل كبير؟

- بالضبط !

والشرطة ؟ ماذا فعلت؟

- لقد دفننا كيبا يعطونا شهادة وفاة . وفي اليوم التالي ، دفنا الطفل في الجزيرة
في كفن جميل مطرز بالساتان الأبيض .

- ألا تخافين وجود أقارب للطفل يطالبون بالجثمان أو يشكون من عدم
إبلاغهم بالأمر؟

- هذا يكون القشة التي تقصم ظهر البعير ! ولكن . . . من ذا الذي سيطالب
به ؟ إن الأب ، «روداس» ، في السجن ، والأم في المستشفى كما قلت لك .

وابتسم ذو الوجه الملائكي في سريرته ، فقد انزعج حمل ثقيل من على نفسه . لا
علاقة لذلك الطفل ولا تلك المرأة بكريمة .

- بماذا تنصحنى يا سيد ميغيليتو ؟ إنك ماهر جدا . كيف لي أن أمنع ذلك
البخيل العجوز من الاحتفاظ بنقودي ؟ إنها عشرة آلاف بيزو ، أتذكر ذلك؟ إنه
مبلغ ليس بالقليل !

- إن نصيحتي هي أن تدعى لرؤىة السيد الرئيس ونشتكي له . اطلبى
مقابلة وقصّي عليه الحكاية . وثقي أنه سيصحح الوضع ، إذ أن ذلك من سلطته .

- هذا ما فكرت فيه ، ولسوف أنفذه . سوف أرسل له غدا برقية عاجلة
أطلب مقابله . ونحن أصدقاء قدماء لحسن الحظ . كان يجيني حين كان لا يزال
وزيرا فحسب . لقد كان هذا منذ وقت طويل . كنت شابة جميلة آنذاك ، دقيقة
الخصر كعمود الخيران ، مثل تلك الصورة التي هناك . أتذكر أنني كنت اسكن حي
« سيليتو » مع أمي . عليها رحة الله . حين نثر ببغاء عينا فاعماها ، هلا سمعت

عن مثل سوء حظ كهذا! لا بد أن أعترف أنني قد شويت ذلك البيغاء، وكنت سعيدة تماما بهذا، وأعطيته للكلب، وأكله ذلك الكلب الغني وأصيب بالسمار لوقته. ولعل أكثر ما أتذكره من تلك الأيام بهجة هو أن البيت كان يقع في الطريق الذي يجب أن تمر به جميع الجنائز في طريقها إلى المقبرة. وكانت الجثث تمر بنا على الدوام كل يوم. لقد كان هذا هو السبب الذي قطع لأجله السيد الرئيس علاقته بي إلى الأبد. لقد كان يخشى الجنائز. أما أنا، فماذا يهمني من ذلك؟ إنها ليست غلطتي. لقد كان كالطفل الصغير، رأسه مليء بالأوهام. كان يصدق أي شيء يقوله له أي شخص، سواء بالخير أو بالشر. كنت في البداية حريصة عليه، واعتدت أن أواصل تقبيله طوال الوقت الذي تستغرقه الجنائز في المرور بمختلف ألوان النعوش أمام المنزل، حتى لا يلاحظ مرورها. ولكني مللت من ذلك ولم أعد أفعله. كان أحب شيء إليه أن تلعن له إحداهن أذنه، رغم أن طعمها يكون كريها أحيانا. إن بإمكانني أن أراه الآن، جالسا حيث أنت جالس، ومندبيله الحريري الأبيض معفود بعناية وإحكام حول عنقه، وقبعته العريضة، وغطاء خذانه بحوافه الوردية، وحلته الزرقاء.

- وبعد ذلك، أظن أنه لا بد وكان قد أصبح رئيسا للجمهورية بالفعل حين كان شاهدا على عرسك؟

- كلا، بالمرّة. إن المرحوم زوجي - رحمه الله - لم يكن يهتم بمثل هذه الأشياء. وكان يقول: إن الكلاب وحدها هي التي تحتاج إلى شهود وأناس تحملق فيها حين تتزوج، ثم ينطلق العروسان وخلفهما شريط من الكلاب الأخرى، وكلها سائلة اللعاب متدلية الألسن. . . .

حاجز الموت

وصلى النفس على جناح الطير . وقال في نفسه : ثمة أناس على استعداد لأن يهرعوا مقابل جزء من هذا . فماذا هناك أغل من نفس إنسانية ؟ وثمة أناس يفرغون من طعامهم ومعدتهم لا تزال تضج طلبا للمزيد مقابل جزء من هذا . مع . . . دة ! إن أؤمن بثلاثة أشخاص منفصلين في الثالث ، والله حقيقي واحد . ضجيج المعدة ليس هناك ، بل هو هنا ، عندي ، عندي ، عندي ، عندي ، في معدتي ، في معدتي ، في معدتي . . . من معدتك ، يا يسوع . . . هناك المائدة جاهزة ، المفروش الأبيض ، الأطباق البورسلين الناصعة البياض ، والخادمة العجفاء . . .

وحين دخل القس - تبعه بعض النسوة من الجيرة من الذمونات حضور مشاهد الاحتضار - إنزع ذو الوجه الملائكي نفسه من رأس السرير الذي تنام عليه كميلة ، وبدت وقع خطواته كاتنزاع الجذور العميقة من تربتها . وأحضرت صاحبة الحانة كرسيًا للقس ، ثم انسحب الجميع من الغرفة .

وبدأت تتمم كلمات الاعتراف الأخير : أنا ، الخاطئة ، أعترف لله به . . .

- باسم الأب والابن والروح القدس . . . يا ابنتي ، كم مضى عليك منذ أن اعترفت آخر مرة ؟

- شهران . . .

- وهل أدبت طقوس التوبة ؟

- أجل يا أبي . . .

- إسردني خطاياك . . .

- اعترف يا أبي ، أفي كذبت . . .
 - بشأن موضوع خطير ؟
 - كلا . واني عصيت والدي ، و . . .
 - (تك ، تاك ، تك ، نك ، ناك ، تك ، تاك)
 - واعترف يا أبي ، انني . . .
 - (تك ، تاك)
 - لم أحضر بعض القداسات . . .
- وبدا كان الفتاة المريضة والقس الذي تعترف له بتحادثان في قبو تحت الأرض . كان الشيطان والملاك الحارس والموت حاضرين الاعتراف . وأفرغ الموت نظره الخاوية في عيني «كميلة» ، بينما جلس الشيطان عند رأس السرير يبصق عناكب ، ويكي الملاك في أحد الأركان ، بشيخ طويل منتحب .
- واعترف يا أبي انني لم أكن أواظب على تلاوة صلواتي في المساء والصباح ، وانني . . .

- (تك ، تاك ، تك ، تاك)
- . . . تشاجرت مع أقراني من الفتيات !
- حول أمور تتعلق بسمعتك ؟
- كلا . . .
- يا ابنتي ، لقد إقترفت إثما عظيما في حق الله . . .
- واعترف يا أبي أنني ركبت الجياد كالرجال .
- أكان ذلك أمام الناس ، وهل سبب ذلك فضيحة ؟
- كلا ، لم يكن هناك سوى بعض الهنود .
- إذن لقد شعرت أن بوسعتك القيام بأي شيء يقوم به الرجال . إن هذا أيضا خطيئة كبرى ، فإن الله تعالى خلق المرأة كي تكون امرأة ، وعليها ألا تحاول أن تغير من طبيعتها ونقلد الرجال ، فإن هذا هو السب في طريق الشيطان الذي أراد أن يكون مساويا لله جل شأنه .

وفي الجزء الآخر من الغرفة ، أمام النضد الذي غطوه كيبا يصبح كمذبح الكنية ، بما عليه من زجاجات من كل صنف ولون ، كان ذو الوجه الملائكي

«ولامسكوانا» والجيران ينتظرون، لا ينطقون حرفاً بل يتبادلون نظرات مليئة بالخوف والرجاء، ويزفرون سيمفونية من النهدات، ثقيلة بما تحمله من فكرة الموت الخائفة. وأظهر الباب الموارب لمحة من الطريق ساطع النور، وفناء كنيسة «لامرسيد»، وبعض المنازل وحفنة من المارة. وشعر ذو الوجه الملائكي بالآلم لرؤية هؤلاء الناس يروحون ويغدون بلا اكترات رغم أن «كميلة» تحتضر - وهم كحبات رمال ثخينة في غربال شمسي، أشباح تسيطر عليها روح التعقل، مصانع براز متنقلة... .

وجرّ صوت القس سلاسل صغيرة من الرنين خلال الصمت الذي يسود الحجرة. وسعلت المريضة. وقطع الهواء طبول رثيها.

- أبتاه، إني أعترف بكل الخطايا الصغيرة والكبيرة التي اقترفتها ونسيتها.

وتلا ذلك عبارات الغفران باللاتينية، واختفاء الشيطان مهبطاً، وظهور الملاك كهالة من نور كيميا ينشر جناحيه الأبيض فوق «كميلة». ونهى غضب ذي الوجه الملائكي من المارة غير المباليين. ومن كراهيته الصبيانية المزوجة بالحنان، ويجمعه يفكر - إذ إن الرحمة لها دروب خفية - في أن يعمل على إنقاذ رجل يهدده خطر الموت، فربما يمنحه الله حياة «كميلة» في مقابل ذلك، رغم أن الأمر يبدو مستحيلاً من وجهة نظر العلوم الطبية.

وخرج القس في صمت، ونوقف على عتبة الباب ليُسعل سيجارة من ورق الذرة ويلعلم أطراف مسوحه الكهنوتي، فقد كان القانون يلزمه بأن يبقي مخفياً تحت عباءته ما دام في الطريق. كان يبدو رجلاً مسالماً ودبياً عذياً. وذاعت الأنباء بأنه قد استدعي كيميا تعترف له امرأة تحتضر. وغادر الجيران البيت بعده، كما خرج ذو الوجه الملائكي كي ينفذ خطته في إنقاذ رجل.

«حارة المسيح»، «الخصان الأبيض»، ثم «ثكنات الكلفاري»، وهناك سأل ذو الوجه الملائكي العريف الذي يقوم بالحراسة عن الميجور «فارغان»، فقال له أن ينتظر، ودلف جندي إلى الداخل منادياً:

- «الميجور «فارغان»! الميجور «فارغان»!

ومات صوته في الفناء الرحيب دونما جواب. ولم يرد عليه سوى أصدااء صوته

التي ترددت وسط المنازل البعيدة : جور فان فان ! جور فان فان !

ووقف المحبوب ينتظر على بُعد خطوات قليلة من الباب، دون أن يتجارب مع ما كان يجري حوله. كانت الكلاب والنسور تتشاجر على قطعة ميتة ملقاة وسط الطريق. وفي مقابل هذا المشهد مباشرة كانت ثمة نافذة ومن ورائها ضابط ينسئ بمراقبة المعركة الشرسة وهو يقتل طرفي شاربه. وكانت ثمة سيدتان تحتسيان عصير الفاكهة في حانوت صغير يموج فيه الذباب. ومن الباب الخارجي للمنزل التالي خرج خمسة صبية صفار يرتدون ملابس البحارة، يتبعهم سيد شاحب كالكرنية وسيدة حبلى (بابا واماما). وشق جزار طريقه وسط الصبية وهو يشعل سيجارة؛ كانت ملابسه تغطيها بقع الدماء، وقد شمر عن ساعديه، وحمل ساطوره الحاد بالقرب من صدره. وكان الجنود يروحون ويعدون، وثمة خيط منعرج من آثار أقدام حافية مبللة فرق القرميد الذي يغطي الصالة الداخلية ثم يختفي في الفناء. وصلصت مفاتيح الثكنة وهي تصطدم بيندقية الحارس إذ كان واقفا انتباه إلى جوار ضابط الحراسة الذي كان يجلس على مقعد حديدي في وسط حلقة من كتل البصاق.

ودلفت إلى المكان عجوز بيضاء الشعر، تمشي الهولنا كالغزال الصغير، جلدها في لون النحاس المحروق بفعل الشمس وقد غضته السنون، وانجهت إلى الضابط وغطت رأسها بشالها القطني في احترام وقالت له متضرعة:

- عفوا يا سيدي، إني أرجوك بحق الرحمة أن تدعني أتحدث مع ابني، وستكافئك العذراء على صنيعك.

وقبل أن يرد الضابط عليها أطلق سيلاً من البصاق - نفوح منه رائحة التبغ ونسويس الأسنان.

- ما هو اسم ابنك يا سيدي؟

- إسماعيل يا سيدي.

- إسماعيل ماذا؟

- إسماعيل ميخو يا سيدي.

وبصق الضابط مرة أخرى.

- ولكن، ما هو لقبه؟

- «مبخو» يا سيدي .

- إسمعي ، من الأفضل أن تعودتي يوما آخر فنحن مشغولون .

وانسحبت العجوز دون أن تُنزل الشال من على رأسها، في بطناء، وهي تحصى خطواتها كأنما هي تزن آلامها؛ وتوقفت برهة على حافة الطوار ثم عادت ثانية واقتربت من الضابط الذي كان لا يزال جالسا على مقعده .

- اعذري يا سيدي، ولكني لا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك؛ إني آتية من بعيد جدا، على مسافة ستين كيلومترا، لذلك فلاني إذا لم أراه اليوم فلا أعرف متى سأستطيع العودة . هلا استدعيت من فضلك؟

- لقد سبق أن قلت لك إننا مشغولون . اذهبي ولا تضايقيني .

وكان ذو الوجه الملائكي يشهد هذا المنظر، وثارت فيه مرة أخرى الرغبة في أن يفعل خيرا حتى يكافئه الله على ذلك بإنقاذ حياة كريمة، فقال للضابط في صوت خفيض:

- استدع الشاب أيها اللقنات، وهناك شيئا حق السجائر .

وتناول الضابط النقود دون أن ينظر إلى الغريب وأصدر أوامره بإحضار «إسماعيل مبخو» . ووقفت العجوز الضئيلة الحجم تمحى إلى من أحسن إليها كأنما هو ملاك .

ولم يكن الميجور «فارغان» موجودا في الثكنات . وظهر موظف في إحدى الشرفات وقلمه خلف أذنه، وأخبر المحبوب أن الميجور يكون عادة في هذه الساعة من الليل في دار «النشوة اللذيذة»، لأن ابن إله الحرب النبيل هذا يقسم وقته بين الواجب والهوى . ولكن، لن يضر شيء أن يبحث عنه أولا في بيته . واستقل ذو الوجه الملائكي عربة أجرة . كان «فارغان» يسكن شقة مفروشة في ضاحية بعيدة . وكان باب الشقة ناهل اللون كثير الفروج بفعل الرطوبة فكان يبين عن داخل الشقة المظلم . ودق ذو الوجه الملائكي مرتين وثلاثا . لم يكن هناك أحد في الداخل . وعاد لتوه، ولكنه ذهب يرى كيف حال «كميلة»، قبل أن يتوجه إلى دار النشوة اللذيذة . ودهش لصوت العربة بعد أن تركت الطرق غير الممهدة إلى الطرق المرصوفة : حوافر الجياد والعجلات، العجلات وحوافر الجياد .

حين انتهت ذات السن الذهبية من حكاية غرامها مع الرئيس، عاد ذو الوجه
الملائكي إلى الصالون. كان من الأهمية لديه بمكان ألا يغرب فيجور «فارقان» عن
نظره، وأن يتحقق من قصة المرأة التي قبضوا عليها في منزل «كاناليس» وباعها
المدعي العسكري العام النذل مقابل عشرة آلاف بيزو.

كان الرقص على أشده في الصالون، والراقصون يتميلون على أنغام القالس،
بصاحبهم صوت «فارقان» الغارق في السكر، بفنائه:

ماذا من البغايا
مفتونات بي
لأنني أغني لهن دائما
أغنية زهرة المقهى

واعتمد في جلسته فجأة وأدرك أن الخنزيرة ليست معه، فتوقف عن الغناء
وصاح بين نوبات الفواق:

- «إذن لقد ذهبت «الخنزيرة»، أليس كذلك أيها الأفاقون؟ إنها مشغولة،
أليس كذلك أيها الأفاقون؟ إذن أنا ذاهب، أقول لكم إنني ذاهب، أ... قو...
ل لكم إنني... ذاهب، ذاهب... حسنا، ولماذا لا أذهب؟... أقول لكم إنني
ذاهب...»

ونهض بصعوبة وهو يستند إلى المنضدة التي قد تمدد عليها، وإلى المقاعد
والجدران، ومشى مترنحا ناحية الباب. وجرت الخادمة تفتحه له.

- «أقول... لكم... إنني ذاهب! سوف تعود هذه العاهرة، أليس كذلك
يا سيده «تشنون»؟ ولكنني ذاهب! لم يعد أماننا نحن العسكريين المحترفين إلا أن
نموت من السكر، وعندها يكون بوسعهم أن يستقطروا الخمر منا بدلا من أن
يدفنونا! يعيش بخفي لحم الخنزير، ونعيش الجماهير!»

ولحق به ذو الوجه الملائكي على الفور. كان يسير على حافة الطوار مترنحا
كالبهلوان، يقف مرة وقدمه اليمنى في الهواء، ومرة قدمه اليسرى، ثم مرة أخرى
قدمه اليمنى، والآن قدماء الإنسان... ولحق نفسه قبل أن يقع وقال ملاحظا:
«هكذا... كما قال البغل للجام».

وكانت ثمة نوافذ مفتوحة في ماخور آخر تلقى بأضوائها في الطريق، وعازف بيانو طويل الشعر يعزف صوناتة ضوء القمر لبيتهوفن. ولم يكن هناك من أحد ينصت له في الغرفة الخالية سوى المقاعد التي اصطففت كالنظارة من حول البيانو الضخم المتهالك، الذي لم يكن يزيد في ضخامته عن حوت بونس. وتوقف ذو الوجه الملائكي جامدا وقد بهرته الموسيقى. وأسند الميجور - ذلك الدمية المطروعة - إلى الحائط، واقترب كئيبا يُخضع شذرات فؤاده المحطوم للألحان: كان يعود إلى الحياة وسط الأموات رجل ميت ذو عيين مشتعلتين معلق بعيدا بعيدا فوق الأرض، بينما كانت عيون مصابيح الطريق تنطفئ، واحدة بعد أخرى، وقطرات الندى الليلي تتساقط من الأسطح كالمايمر التي تصلب الكاري أو التي تندق في ألواح النعش الخشبية. وكان كل مفاتيح صغير داخل الصندوق المغناطيسي للبيانو يجذب رمال الألحان الموسيقية الدقيقة، وبعد أن يجبرها في جوفه فترة، يطلقها مرة أخرى على شكل أصابع للنغمات الوترية، مضاعفة كئيبا تكر باب الحب المغلق على الدوام: نفس الأصابع دائما، ونفس اليد دائما. وكان القمر ينجح عبر سماء ممهدة تجاه الحقل الغافية، مخلفا وراءه أحراجا تحيم عليها الظلمة، مرعبة للطيور، ولأولئك الذين يجنون الدنيا قد أنقلبت رحيبة واسعة كأنما بفعل السحر حين يولد الحب، وضيعة فارغة حين يموت الحب.

واستيقظ «فارغان» ليجد نفسه راقدًا على نضد حانة صغيرة، تهزه يد أحد الغرباء، كما يهزون الشجرة حتى تسقط ثمارها الناضجة.

- ألا تعرفني يا ميجور؟

- أجل... لا... حالا، حالا سأعرفك...

- ألا تذكرني؟

- آآ... أوه، «تائب فارغان» وهو ينهض من على النضد الذي كان راقدًا عليه، وقد بلله العرق كبغال الجمر.

- «إني ميغيل ذو الوجه الملائكي، في خدمتك».

وحياه الميجور بالتحية العسكرية.

- «أرجو أن تعذرني، فإني لم أتعرف عليك. ولكن، أجل، بالطبع، إنك من يرى دائما مع السيد الرئيس».

- حسنا! لا تندهش لإيقاظي إياك، يا ميجور، على هذا النحو المفاجيء .

- لا اهمية لذلك بالمرّة .

- ولكن لقد حان الآن وقت عودتك إلى الثكنات، وكان يجب أن أحادثك على انفراد، ومن المصادفة أن كانت صاحبة هذه . . . فلنقل هذا المقهى، غائبة الآن. لقد بحثت عنك في كل مكان، كالابرة في كومة من القش، أصيل أمس، في الثكنات، في شقتك. يجب أن تعدني بالألا نبوح لشخص بما سوف أقوله لك الآن.

- كلمة شرف .

وشد المحبوب على يد الميجور بحرارة وقال له بصوت خفيض وعينه على الباب :

- إنني في مركز بمكنني أن أعرف أنه قد صدرت أوامر بالتخلص منك. لقد أرسلت تعليمات إلى المستشفى العسكري بأن تُعطى لك جرعة منومة قاتلة في أول مرة تدخل هذه المستشفى عقب إحدى سهراتك الصاخبة. لقد أبلغت العاهرة التي تصاحبها في دار « النشوة اللذيذة » السيد الرئيس عن نوباتك الثورية .

وتصلب «فارفانه» في موضعه من وقع كلمات المحبوب إليه. ثم رفع قبضته في الهواء صائحا :

- آه ، الكلبة !

وضرب الهواء بقبضته كأنما هو يضرب العاهرة، ثم أحنى رأسه كأنما هو قد انسحق .

- يا إلهي ، وماذا سأفعل ؟

- لا تسكر في الوقت الحاضر، فهذا هو السبيل الوحيد لاثقاء الخطر الداهم، ثم لا . . .

- هذا ما كنت أفكر فيه، ولكنني قد لا أتحمل ذلك، فهو شيء صعب جدا. ماذا كنت ستقول ؟

- كنت سأقول لك أيضا انه يجب ألا تتناول طعاما في الثكنات .

- لا اعرف كيف اشكرك .

- بالصمت . . .

- بالطبع . ولكن هذا لا يكفي . ومع ذلك ، فلا بد أن تسنح لي فرصة أرد لك فيها هذا الجميل ؛ ومن الآن ؛ يمكنك أن تعتمد علي في أي شيء ، فأنا مدين لك بحياتي .

- ولسوف أعطيك نصيحة أخرى طيبة كصديق . حاول أن تعثر على طريقة تصبح بها من أتباع السيد الرئيس .

- أجل ، هذا هو طريق الخلاص ، أليس كذلك ؟

- لن يكلفك هذا شيئاً .

وكان كل منهما يضيف إلى ذلك الكلام في سريره :

إن أفضل وسيلة لكسب ثقة السيد الرئيس هي : ارتكاب جريمة ، مثلاً ، أو الجور العلني على الناس الضعفاء العزل ، أو إظهار نفوق القوة الغاشمة على الرأي العام ، أو اكتساب الأموال على حساب الأمة ، أو . . .

. . . وأفضل وسيلة هي ارتكاب جريمة قتل ، إن القضاء على أحد الزملاء هو أفضل برهان يقدمه مواطن على ولائه للسيد الرئيس . ثم يقضي شهرين في السجن حفاظاً على المظاهر ، ثم يتولى بعد ذلك مباشرة أحد المناصب العامة المخصصة لأهل الحظوة ، مما لا يُمنح إلا لمن له قضية معلقة أمام المحاكم لم يتم البت فيها ، وذلك حتى يمكن الزج بهم في السجن مرة ثانية إذا هم لم يحسوا السئول .

- لن يكلفك هذا شيئاً .

- إنك لفي غاية الكرم يا سيد ميغيل .

- كلا يا ميجور ، لا تشكركي ، إن قراري بإنقاذ حياتك هو قرباني إلى الله مقابل حياة مريضة في حالة خطيرة . حياتك مقابل حياتها .

- أهـي زوجتك ؟

وظافت أجمل كلمة في نشيد الأنشاد فترة سباحة في الهواء . كوشي سحري

لطيف، وسط أشجار مليئة بالملائكة الصغار، وبزاعم أزهار البرتقال.
وبعد أن خرج الميجور، قرص ذو الوجه الملائكي نفسه كيما يتأكد أنه هو
بلحمه ودمه - الرجل الذي ساق الكثيرين إلى حتفهم - هو الآن بنفسه الذي يدفع
رجلا إلى الحياة، في تلك الزرقة الصافية للصباح الطالع.

زوبعة

وأزاح ذو الوجه الملائكي صورة الميجور البدين من ذهنه، ثم أغلق الباب وتسلل على أطراف أصابعه إلى الغرفة الداخلية المظلمة. كان يشعر وكأنما هو يحلم. إن الفرق بين الحقيقة والحلم هو فرق زائف تماماً. نائم، مستيقظ، في أي الحالتين هو؟ وبدا في الغبشة كأنما يشعر بالأرض تميد تحت قدميه. وكانت الساعة والذباب يصحب كميئة إذ هي راقدة تنحصر، فالساعة - نابضة - تسقط حبات الأرز الصغيرة لتترك علامة على طريق العودة، حين تحمل ساعة الموت. أما الذباب فهو يجري فوق الجدران، ينظف أجنحته الصغيرة من برودة الموت. وكانت ثمة ذبابات أخرى تطن وهي تطير هنا وهناك بسرعة. وتوقف ذو الوجه الملائكي أمام السرير في هدوء. كانت المريضة لا تزال سادرة تهذي...

... لعبة الأحلام... برك من زيت الكافور... حوار النجوم البطيء...
الاتصال الخفي المائع العاري بالفضاء الخالي... مفصلة اليدين المضاعفة...
عدم جدوى اليدين في اليدين... صابون معطر... الحديقة في كتاب المطالعة... في بيت النمر... في ما وراء عالم البيغاوات الفسيح... في قبضة الإله... في قبضة الإله... في قداس منتصف الليل - المسمى قداس الديك - ديك على عُرْفه قطرة من القمر... ينفر القربان المقدس... يضيء وينطفئ، يضيء وينطفئ، يضيء وينطفئ... إنه قداس إنشاد... إنه ليس ديكا، إنه ومضة برق من السيلوليد في عنق زجاجة ضخمة يحيط بها جنود صغار... برق حانوت الحلوى المسمى «الزهرة البيضاء» التي تضعها القديسة روزا... رغبة بيرة الديك تقدم للديك الصغير... للديك الصغير...

سرف تسجيها

جنة هامة

يا ملاك الموت، موت!

فهي ليست سعيدة هنا

يا ملاك الموت، موت!

ثمة صوت طبول لا يُسمع خلاله أحد يتمخط، طبول تقتفي أثر الدقات في مدرسة الريح... قف! إنها ليست طبولا، بل هو باب يردد صدى مقرعة على شكل يد نحاسية. وتتردد الدقات كالنذير في كل ركن من أركان الصمت الداخلي للبيت... رات - تات - تات... طبول البيت. كل بيت له طبول على بابه تستدعي ساكنيه الذين هم عماد حياته، وحين يكون الباب مغلقا يكونون كالأحياء الأموات... رات - تات - تات... البيت... الباب... رات - تات - تات البيت... وحين تسمع مياه النافورة صوت طبول الباب ترهف أذانها، ويقول الناس لخدمهم في غلظة: «أوه، الباب يقرع!» وترجع الجدران صدى يتردد مرارا وتكرارا: الباب يقرع، اذهب وافتح الباب! «أوه، الباب يقرع، اذهب وافتح الباب!» الرماد في قنق ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا (بينما القطة جالسة كالحارس اليقظ) إلا أن يبعث رجفة رقيقة عبر قضبان الموقد؛ وتخاف الورود - الضحايا البريئة للأشواك القاسية؛ وتتكلم المرايا، تلك الوسائط المشربة، بصوت هو روح من الأثاث الميت: آي... يدقون، تعالوا افتحوا!!

... البيت كله يرتج كإنما حدث زلزال، ويريد أن يذهب ليرى من يقرع الباب، يقرع، يقرع، يقرع طبول الباب: وترقص الكسرولات، وتتهادى أصص الزهور، وتدق الأحواض الخديوية: «راتابلان، راتابلان!»، وتسلع الأطباق سحلة صينية، وتتناثر الأقداح وأدوات المائدة كالضحكة الفضية، وتبع الزجاجات الفارغات الزجاجية التي رُبنت بدموع دهن الشمعة والتي يستخدمونها شمعدانا في الغرفة الخلفية؛ وكتب الصلوات مع فروع النخيل تحاول عندما يقرعون الباب الدفء عن البيت ضد العاصفة، والمقصات، والأصداف، واللوحات، وخصلات الشعر القديمة، ودنان الزيت، وصناديق الكرتون، وعيدان الثياب، والمسامير...
... أعمامها هم الوحيدون الذين يتظاهرون بالنوم وسط الأشياء النائمة، في جزر أسرهم العريضة، مستترين بالأغطية المحشوة بالفطن والتي تعبق برائحة

عصير الأمعاء . وعيشا تفرض طبول الباب في الصمت العريض . وتغمغم واحدة من زوجات أعمامها ، وأكثرهن نفاقا : «إنهما لا يزالان يقرعان الباب» . ويرد زوجها في الضلام : «أجل ، ولكن من الخطر فتح الباب» . «كم الساعة الآن ؟ أه يا عزيزي ، لقد كنت مستغرقة في النوم . . . إنهما لا يزالان يقرعان الباب» . «أجل ، ولكن من الخطر فتح الباب» . «وماذا سيقول الجيران ؟» . «أجل ، ولكن من الخطر فتح الباب . إذا كان الأمر يتعلق بنا نحن فقط لفتحنا الباب بالطبع ، ولكن فكري فيما سيقول الناس عنا!» . «إنهما لا يزالان يقرعان الباب» . «أجل ولكن من الخطر فتح الباب» . «إنه لأمر شائن ، هل سمعت أبدا شيئا كهذا ؟» «أجل ولكن من الخطر فتح الباب !» .

ثم خفت صوت عمها الحسن وضدّر الآن عن حلق الخدم . ووصلت أشباح تعبى برائحة الخراف إلى حجرة نوم سيدها وهي تهمس : سيدي ، سيدي . انصتا كيف يدقان على الباب ! . . . » ثم تعود إلى أسرتها البغرية وإلى براغيثها وإلى أحلامها ، وهي تردد مرارا وتكرارا : أه ، ولكن من الخطر فتح الباب . أه ، إن من الخطر فتح الباب !» .

رات نات - نات على طبول البيت . . . ظلمة الطريق . . . الكلاب تغطي السماء بقرميد نباحها ، بأسسطة سطحا للنجوم وللزوحف السوداء والغاسلات المجبولات من الطين . اللائي يدفعن أذرعتهن في أعماق رغوة البرق العضي . . . «بابا . . . عزيزي بابا . . . بابا !» .

ونادت على أبيها في غمرة هذيانها ، وعلى مريتها العجوز التي ترقد ميتة في المستشفى ، وعلى أعمامها الذين لم يفتحوا لها أبواب منازلهم حتى وهي تختصر .

ووضع ذو الوجه الملائكي يده على جبهتها . وجال في خاطره وهو يرت عليها : «إن شفاءها ضرب من المعجزة . أه لو كان بإمكانني فحسب أن أطرد عنها المرض بدفء يدي !» كان يعاني من ذلك الحزن الغامض الذي يصيب من يرقب مخلوقا فنيا يختصر ، تلك الرقة الراجفة التي بعثت بالشجن يزحف تحت جلده وخلال لحمه . ما بوسعه أن يفعل ؟ وبدأ عقله يقحم آليا صلوات بين أفكاره : «لو كان بوسعي فحسب أن أرحف تحت جفنيها وأزيل دموع الحزن والوحدة من عينيها ، من تلكها العيتين اللتين بلون أجنحة الأمل . فليحفظك الله . نحن المحرومين

نضرع إليك يا إلهي . إن الحياة كل يوم جريمة . . . حين يحب المرء . إمنحنا يومنا يا إلهي .

وحين خطر بينه على باله كان كأنما يفكر في بيت غريب . إن بينه هنا ، مع «كميلة» ؛ صحيح إن هذا ليس منزله ، ولكن «كميلة» فيه . وماذا يحدث لو لم تكن «كميلة» هنا؟ واخترق جسده ألم غامض طواف . ماذا يحدث لو لم تكن «كميلة» هنا؟

ومرت عربة نقل ، فاهتز المنزل وارتجت الزجاجات على رفوف البئر؛ ودقت مطرقة باب ، واهتزت بيوت الحي . وأجفل ذو الوجه الملائكي إلى درجة شعر معها أنه لا بد وكان على وشك أن ينام وهو واقف . من الأفضل أن يجلس . كان ثمة مشهد إلى جوار منضدة الأدوية . وبعد لحظة كان هذا المقعد يستقبل جسده . نكثت الساعة ، رائحة الكافور ، ضوء الشموع المضاءة قربانا ليسوع كنيسة «لامرسيد» ويسوع «كاندلاريا» المجيدتين ، المنضدة ، المناشف ، الأدوية ، زئبق رداء القديس فرانسيس الذي أعفرت له لهم إحدى الحجرات كيما يطرد الشيطان ، كانت كلها تتحلل تحللا فوريا في هدوء في إيقاع بظيء ، في تدرج موسيقي يبعثه المخدر ، غناء للذبذبه به نقوب أكثر مما في اسفنجية ، خفي ، نصف ذائب ، مستور ، تخترقه ظلال الأحلام المتقطعة :

«من يعزف على الجيتار؟» . . . عظام صغيرة تتكسر في القبو المظلم ، الذي ترتفع منه أغنية المهندس الزراعي . . . البرد القارس بين أوراق الشجر . . . ومن جميع مسام الأرض ترتفع ضحكة متصلة شبطانية كالجناح المربع الأركان . . . هل هم يضحكون ، هل هم يبصفون ، ماذا يفعلون؟ لم يهبط الليل بعد ، ولكن الظلام يفصل بينه وبين كميلة ، ظلام الجماجم التي تضحك في مثالة المشرحة . . . تصدر الضحكة عن أسنان سوداء مريضة ، بيد أنها حين تبلغ الهواء تمتزج ببخار الماء وترتفع إلى أعلى كيما تصبح سحابا . وأسوار مجبولة من أمعاء بشرية تقسم الأرض إلى نصفين . وضلوع جواد تصبح فيولينة يعزف الإعصار اهادر أنغامه عليها . ويرى جنازة «كميلة» تمر من أمامه ، عينها تسبحان في زبد لجام نهر من العربات السوداء . . . لا بد أن للبحر الميت عيوننا أيضا!

عينها الخضراوان . . . لماذا يلوح السائقون بقفازاتهم البيضاء في

الظلمة؟ . . . ووراء موكب الجنائز، يغني هيكل عظمي مليء بعظام أفخاذ
الأطفال: «أيها القمر، أيها القمر، خذ برقوتك، والقي الحجر في البحيرة! . .
وكل عظمة صغيرة رقيقة تغني هذه الأغنية: أيها القمر، أيها القمر، خذ برقوتك،
والقي الحجر في البحيرة! . . وعظام الحوض يعيون مسنطيلة كالعرابي: «أيها
القمر، أيها القمر، خذ برقوتك، والقي الحجر في البحيرة! . . لماذا يتعين على
الحياة اليومية أن تسمر؟ . . لماذا يستمر الترام سير؟ . . لماذا لا يموت كل
الناس؟ . . بعد جنازة «كميلة» لا يمكن أن تكون الأشياء على حالتها السابقة،
كل شيء نائف، زائف، لا وجود له . . من الأفضل لو استطاع الضحك . .
البرج ينحني من وطء الضحك . . وهم يقتشون جيوبها بحثا عن تذكارات . .
الثراب الذي حلفته أيام «كميلة» . . لا قيمة له . . خبط . . ينبغي أن تكون
«كميلة» هنا الآن . . خبط . . بطاقة قدرة . . أوه، ووُجِئ ذلك الدبلوماسي
الذي يأتي بالنبيذ والبصائع المعلقة دون رسوم جمركية ثم يبيعها لخانوت بملكه
تساوي من أرض «النيرول» . . . دع العالم كله يغني . . . حطام سفينة . . أطواق
النحاة كالتيحان البيضاء . . . دع العالم كله يغني . . . كميلة، ساكنة بين
ذراعيه . . . مقابلة . . . يد قارع الجرس . . . إنهم يقتنون نواصي الطريق رأسا
عن عقب . . . شاحبة من الانفعال . . . تتميز غيظا، صامتة، متفحفة . . . لماذا
لا يندمون هذا ذراعهم؟ . . . وتترك نفسها تهبط بنسيج حاسة اللمس لديها، تستند
على الذراع التي تنقصها، وهي لا تمسك إلا بردن السترة الفارغ . . . في أسلاك
البرق . . . لقد أضاع وقته ينظر إلى أسلاك البرق، ومن منزل ضخم في «حارة
اليهود» يخرج خمسة رجال مجبولين من الزجاج المعتم، يعترضون طريقه، كل واحد
منهم ينز من صدغه سبل من الدماء . . . ويحارب بالسا ليصل إلى المكان الذي
تنتظره فيه كميلة. يعين برائحة صمغ طوابع البريد . . . وبعيدا بُرى جبل
الكرمل . . .

ويحاول ذو الوجه الملائكي في حلمه المنقطع أن يشق طريقه إلى الخارج. إنه
نعسى . . . إنه يبكي . . . ويحاول أن بعض خبط الظلمة الرفيع الذي يفصله عن
حجر النمل البشري الذي يُقام تحت تندات من القش على التل الصغير لبيع
اللعب والفاكهة والحنوى . . . ويُشرع محالبه . . . ويتصب شعره . . . وينجح في
عبور جسر صغير ويحري لمقابلة كميلة، ولكن الرجال الخمسة المجبولين من
الزجاج المعتم يعترضون طريقه ثانية. انهم يقسمونها شرائح صغيرة لعيد اقربان

المقدس! . ويصبح فيهم: «دعوني أمر قبل أن يدمروها كلية. إنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها لأنها ميتة! ألا ترون؟ انظروا، انظروا! كل ظل له ثمرة فاكهة وثمر شجرة من «كميلة». ماثورة في كل ثمرة! كيف يصدق المرء عينه؟ لقد رأيتها مدفونة وكنت على ثقة من أنها ليست هي، إنها هنا في عيد القربان المقدس، في هذه المقبرة، تعبق برائحة السفرجل والمانجو الكمشري والخوخ؛ وصنعوا من جسدنا حمائم صغيرة بيضاء، عشرات... مثات من الحمائم القطنية البيضاء الصغيرة مربوطة بشرائط ملونة مطرز عليها عبارات مثل «اذكريني» «حب خالد» «أنت في بالي دائماً» «حبي إلى الأبد» «لا تنسني». ويغرق صوته في صوت الأبواق الصبائية الخاد، والطبول المصنوعة من أمعاء السنوات العجاف والخبز العفن؛ وفي جبهة الناس (آباء يصعدون بخطى متثاقلة، وأطفال يطاردون بعضهم بعضاً)؛ وفي صلصلة الأجراس في أبراج الكنائس، وفي حمأة الشمس، وفي دفء الشموع العمياء في الظهيرة، في وعاء القربان المقدس الخلال... ويندمج الرجال الخمسة المجهولون من الزجاج المعتم في رجل واحد، شكل مجسول من دخان غاف... ومن بعيد، لا يبدو لهم مظهر ملموس... إنهم يشربون مياها غازية... راية من المياه الغازية مرفوعة في الأيدي ترفرف كالصرخات... متزلجون على الجليد... «كميلة» تنزلق بين متزلجين خفيفين، عبر مرآة عامة تعكس الخير والشر بلا محاباة. وشنت الأذان برنة صوتها المعطر وهي تحاول أن تدافع عن نفسها بقولها: «كلا، كلا، ليس هنا!» «ولكن، لم لا هنا؟» «لأنني ميتة» «وماذا يهم ذلك؟» «ذلك...» «ماذا؟ قولي ماذا؟» ومر بين الإثنين تيار من الهواء البارد من السماء الرحيبة وطساوور من الرجال يرتدون بناطيل حمراء. وخرجت «كميلة» وراءهم. ويدافع المفاجأة يندفع هو وراءها... ويقف الطساوور فجأة مع آخر دقة من الطبول... ويتقدم السيد الرئيس... هيته موشاة بالذهب... «نانتارارا!» ويتقهقر الجمهور مرتعداً... ويلعب الرجال ذور البناطيل الحمراء برؤوسهم...

برافو... برافو! أعيدوا مرة ثانية! مرة أخرى، أحسنتم! ولكن الرجال ذوي البناطيل الحمراء لا يطيعون أوامر رؤسائهم بل يطيعون صوت الجمهور ويستمتعون في اللعب برؤوسهم... ثلاث مرات... واحد: إرفع الرأس عاليا... إثنان: إذفها عاليا كما تمشط بين النجوم... ثلاثة: التقطها بين يديك وأعدّها إلى مكانها... برافو، برافو! أعيدوا مرة ثانية! مرة ثانية! أحسنتم! مرة ثانية! إن ذلك

يفشعر البدن . . . وغوت الأصوات تدريجيا . . . وتسمع الطيور . . . ويرى كل شخص شيئا لا يريد أن يراه . ويخلع الرجال ذوو البناتيل الحمراء رؤوسهم ريتة دون بها في الهواء ، ولكنهم لا يلتقطونها حين تهبط . وتهشم الجماجم على الأرض أمام صقري الأشخاص الجاهدين وأيديهم مثيدة وراء ظهورهم .

وايقظت ذا الوجه الملائكي دفتان عاليتان على الباب . يا له من كابوس مريع ! شكر الله على أن الحقيقة مختلفة تماما . إن القطة من كابوس يخلف في النفس ذات الشعور الذي تخلفه العودة من جنازة . وجرى ليري من يدق الباب . أهى أبناء عن الخراف أو استدعاء عاجل من السيد الرئيس ؟

- صباح الخير

ووجد ذو الوجه الملائكي شخصا أطول منه ، وردي الوجه ، يحني رأسه لينظر إليه خلال عويناته السمكية . ورد ذو الوجه الملائكي :

- صباح الخير .

- « معذرة . ربما يمكنك أن تخبرني ما إذا كانت السيدة التي تطبخ الطعام للموسيفيين تعيش هنا . إنها سيدة ترتدي السواد . . .

وأغلق ذو الوجه الملائكي الباب في وجهه . وكان أثر على قصير النظر لا يزال يتطلع حواليه باحثا عنه . ولما رأى أنه ليس هناك ، دق على باب التالي .

- «وداعا نينا توماسينا» . حظا سعيدا !

- إن ذاهبة إلى الميدان الصغير .

كان الصوتان قد تكلمتا في نفس الوقت . وحين ذهب ذو الوجه الملائكي كي يفتح الباب ، كانت «لامسكوانا» قد وصلت بالفعل .

وسأل ذو الوجه الملائكي «لامسكوانا» التي عادت لتوها من زيارة السجن :

- كيف الحاز ؟

- نفس الشيء .

- ماذا قالوا ؟

- لا شيء .

- هل رأيت «فاسكيزه»؟
- هل رأيته؟ لا أظن. لقد أخذوا سلة أفطاره ثم أعادوها ثانية، وهذا كل شيء.*
- إذن فهو ليس في السجن؟
- لقد كذبت أصمق حين أعادوا السلة كما هي، بيد أن سيدا أخبرني أنه قد عاد لعمله.
- مأمور السجن؟
- كلا. لقد وجهت إلى ذلك المتوحش ما فيه الكفاية. لقد كان يريد أن يخذلني.
- كيف نظنين حال كميلة؟
- إن المرض يأخذ مجراه. أجل، إن المرض يأخذ مجراه!
- إن حالتها في غاية السوء، أليس كذلك؟
- إنها محظوظة. ما أحسن أن يمضي المرء قبل أن يعرف ماهية الحياة! إنني أشعر بالحزن لأجلك أنت. إن عليك أن تذهب وتصلي ليسوع كنيّة «لامرسيد».
- من يدري، ربما يأتي بمعجزة من أجلك. هذا الصباح، قبل أن أذهب إلى السجن، أشعلت شمعة هناك وفلت له: «إسمع يا صغيري الأسود، ها أنا آتية إليك، لأنك أبونا ويجب أن تصغي إلينا: إن يوسعك أن تنقذ حياة هذه الفتاة، لقد رجوت العذراء أن تنقذها قبل أن انهض اليوم وما أنا أضايك الآن لنفس السبب؛ سوف أترك لك هذه الشمعة وأذهب وأنا واثقة من قدرتك، ولكي سوف أعود سريعا كيما أذكرك برجائي!»
- وتذكر ذو الوجه الملائكي حلمه وهو لا يزال شبه نائم. ومن بين الرجال ذوي البناتيل الحمراء، كان المدعي العسكري العام - بوجه بومة - يتبارز مع رجل مجهول، ويتقبله، ويلعقه، ويأكله، ويتبرزه، ثم يأكله مرة أخرى...

في طريق المنفى

تعثّر بغل الجنرال «كانالس» في ضوء الفسق الخافت، وقد أسكره التعب الذي برزح فيه تحت الثقل المصمت للراكب الذي يتعلق في خافة السرج الامامية. كانت الأطيّار تحلّق فوق الغابات، والسحب تعبر فوق الجبال، صاعدة هنا، هابطة هناك؛ هابطة هنا، صاعدة هناك. تماماً كما كان الراكب يصعد ويهبط (قبل أن يتغلب عليه النوم والإجهاد) فوق تلال لا معابر فيها، وعبر أنهار فسيحة مليئة بالصخور أنعشت مياهها المندفقة بغله، عبر منحدرات يبرقشها الطين وتنزلق عليها الحجارة فتتفتت نثارا على الوهاد، عبر أجمات مليئة بالعوسج، وعلى طول ممرات الماعز التي تعيد إلى الذهن ذكرى الساحرات وقطاع الطرق.

كان لسان الليل مندليا. عصابة من أرض المستنقعات. ثم برز شكل طيفي. ررفع الراكب من على بغله، وفاده إلى كوخ مهجور ثم رحل في صمت. بيد أنه عاد على الفور. لا بد أنه كان قد خرج بين طيور «الزيرة» التي تغني: كوكوكوكو، كوكوكوكو، كوكوكوكوكو!. وبقي برهة قصيرة في الكوخ ثم اختفى كال دخان. ثم عاد ثانية. وظل يدخل ويخرج، يدخل ويخرج. كأن الأمر يبدو كما لو أنه يخرج ليعلم ما وجدته، ثم يعود كما يتأكد من وجوده. وبدأت الطبيعة كأنما تتابع دخله وخروجه التي تشبه دخلات السحلية وخرجاتها، كالكلب الأمين، يهرز ذيله من الأصوات (كوكوكوكو، كوكوكوكو، كوكوكوكو) في صمت الليل.

وفي النهاية، عاد إلى الكوخ ولم يرحل. كانت الريح تقفز وسط أفنان الأشجار. وكان النهار يطلع على المدرسة اللبية التي تتعلم فيها الضفادع مطالعة النجوم. جو من الهضم السعيد. حواس الضوء الخمس. وأنخذت الأشياء تتخذ شكلا أمام عيني الرجل الذي كان يجلس القرفصاء على الباب، رجل طيب وجل،

سكت إجلالا لطلعة الفجر وتنفس الراكب النائم البريء . في الليلة الماضية لم يكن إلا طيفا، وهو الآن رجل من لحم ودم، إنه هو الذي قاد بغل الراكب . وحين بزغ الضوء أشعل نارا، واضعا أحجار الموقد الداخنة غير المتساوية على هيئة الصليب، كاشطا الرماد المحترق بقطعة من الخشب، وجامعا ركية من الأغصان الجافة والخشب الطري . والخشب الطري لا يحترق في هدوء، إنما يتكلم كاليفاء، ويشتم، ويقلص، ويضحك، ويكي . واستيقظ الراكب وقد تجمد خوفا مما يراه، ولم يكن قد استجمع وعيه بعد . وقفز قفزة واحدة إلى الباب ومسده في يده، عازما على أن يدافع عن نفسه حتى النهاية . ولم يفزع الرجل الآخر من قوّة المسدس المصوب نحوه، بل أشار في صمت إلى إناء القهوة الذي يجيس بالغليان إلى جوار النار . ولكن الراكب لم يأبه له وتقدم يبطء تجاه الباب . فقد ظن أن الكوخ لا بد محاصر بالجنود . ولم ير أمامه إلا سهلا فسيحا يستحم في ضوء الفجر الوردي . بعيدا . كالجلد الأزرق . أشجار . سحب . دغدغة زقزقة العصافير . وكان بغله غافيا تحت شجرة تين . ووقف يصغي دون أن تطرف عيناه كيما يختبر ما يراه أمامه، ولم يسمع شيئا على الإطلاق إلا الكونسير المتناغم للطيور والسريان البطيء للجدول رفاق، تركت مياهه الوفيرة همسا لا يكاد يُسمع في الهواء النقي، كالسكر المسحوق الذي يسقط في قدح من القهوة الساخنة .

قال الرجل الذي قاد بغله، وهو يكوم وراءه أربعين أو خمسين كوز ذرة في حرص : إنك لست من رجال الحكومة؟

ورفع الراكب عينيه ونظر إلى رفيقه، ثم هز رأسه من جانب إلى آخر دون أن يحرك فمه عن قدح القهوة .

فغمغم الأخير بسيما مأكرة، وهو يروح الطرف في أرجاء الحجرة كعيني كلب ضال : تاتينا! *

- إنني هارب . . .

وتوقف الأخير عن إخفاء أكواز الذرة وذهب يصب مزيدا من القهوة لرفيقه . لم يكن بوسع «كاناليس» الحديث عما وقع له من مصائب .

* تاتا، وتصغيرها تاتينا، هي كلمة محلية يطلقها المترو على البليس وهي تعني «الاب الصغير» .

- إنك مثلي يا سيدي ! إنني هارب بسبب ما استولي عليه من أكواز الذرة .
ولكنني لست لصا . لقد كانت هذه الأرض أرضي إلى أن استولوا عليها مني ، وبغالي
أيضا

واهتم الجنرال كاناليس بما كان يقوله الهندي ، وأراد أن يسمع تفسيره كيف
يسرق المرء ثم لا يُعد لصا .

- « سوف أخبرك يا « تاتينا » كيف أسرق رغم أنني لست لصا محترفا . لقد
كنت قبل هذا مالكا لقطعة أرض صغيرة بالقرب من هنا ، وثمانية بغال . كان لدي
منزلي ، وزوجتي وأولادي ، وكنت شريفا مثلك تماما . . . »

- أجل ، ثم ماذا حدث ؟

- « منذ ثلاثة أعوام ، جاء إلى هنا المندوب السياسي وأخبرني أن أقوم بنقل
حمل من أخشاب الصنوبر على بغالي للاحتفال بعيد ميلاد السيد الرئيس . فأخذنا
يا سيدي ، وماذا كان بوسعي أن أفعل غير هذا ؟ وحين وصل وشاهد بغالي ،
وضمعي في السجن في زنزانة انفرادية ، ثم اقتسم مع العمدة - وهو خلاسي -
حيواناتي . وحين طالبت بما استحق من نقود لديهما على عملي ، قال لي المندوب إنني
حيوان وإنني إذا لم أطبق فمي فورا فسوف يضعني في السجن مرة أخرى . فقلت
له : « حسنا جدا يا سيدي المندوب ، إفعل معي ما تريد ، ولكن البغال ملكي » .
ولم أستطع أن أنطق حرفا أكثر من ذلك يا تاتينا ، لأنه ضربني ضربة عنيفة على
رأسي بزناره حتى أنه كاد أن يقتلني . . . »

ولاحث ابتسامة مريرة ثم اختفت من تحت الشارب الأشهب للجندي
المعجوز الذي حلت به الكوارث . ومضى الهندي يقول بنفس اللهجة دون أن يرفع
صوته :

- « وحين خرجت من المستشفى جاؤوا يقولون لي إنهم قد وضعوا أولادي في
السجن وإنهم لم يطلقوا سراحهم إلا إذا دفعت لهم ثلاثة آلاف بيزو . ولما كان
أولادي صغارا ولا يحتملون الأذى ، فقد هرعت من فوري إلى المحافظ وسألته أن
يبقي عليهم في السجن ولا يبعث بهم إلى الخدمة العسكرية العاملة ، وإنني سوف
أرهن أرض كيبا أجمع لهم الثلاثة آلاف بيزو . وذهبت إلى العاصمة ، وانفق لي
المحامي هناك مع سيد أجنبي على توقيع ورقة نقول أنهما سيعطيني ثلاثة آلاف بيزو

رهنا للأرض . كان هذا ما قرأه لي من الورقة ، ولكنه كان مخالفا لما كان في الورقة بالفعل . وبعد ذلك بعثوا رجلا من المحكمة يقول لي إن علي أن أنرك أرضي لأنها لم تعد ملكي ، لأنني قد بعثها للأجنبي لقاء ثلاثة آلاف بيزو . وقد حلفت بالله أن ذلك غير صحيح ، ولكنهم صدقوا المحامي ولم يصدقوني ، واضطروني إلى الرحيل عن أرضي . ورغم أنهم قد أخذوا الثلاثة آلاف بيزو مني فقد أرسلوا بآبنائي إلى الخدمة العسكرية : مات منهم واحد وهو بحرس الحدود ، وأصيب الآخر بجراح رهيبه كان الأفضل معها لو أنه قد مات ، ثم ماتت أمهما ، زوجتي ، بالملاريا . وهذا هو سبب لجوئي إلى السرقة رغم أنني لست لصا ، يا ناتا ، حتى لو أنهم ضربوني حتى الموت أو ألقيوا بي في السجن .

- أهذا هو ما ندافع عنه نحن العسكريين؟

- ماذا قلت يا ناتا؟

كانت ثمة عاصفة من الأحاسيس تضطرم في صدر «كاناليس» العجوز، من ذلك النوع من الأحاسيس التي تضطرم في قلب رجل طيب إزاء مظاهر الظلم . كان يتألم نيابة عن بلده ، كما لو أن دماء ذلك البلد نفسها قد فسدت . كان يعاني الآلام في جملته ، في نخاع عظامه وجذور شعره ، تحت أظافره ، بين أسنانه . أين الحقيقة؟ ألم يفكر أبدا بعقله قبل الآن وإنما بردائه العسكري؟ إن الأمر يكون أكثر مدعاة للاشمئزاز وبالتالي للحزن إذا كان على المرء أن يكون عسكريا فحسب كذا يبقى السلطة في يد عصابة من الأفاكين المستغلين ، التشبهين بالآلهة ، الخونة لأوطانهم ، عن أن يموت المرء من الجوع في المنفى . أي حق يرغم العسكريين على الولاء لنظم لا تدين بالولاء لأي قيم ولا للعالم ولا للامة؟

وكان الهندي يحدق في الجنرال كأنما هو صنم غريب ، ولكن دون أن يفهم الكلمات القليلة التي ينطق بها .

- عليك أن ترحل يا ناتينا ، قبل أن تصل شرطة الخيالة ! .

وطلب «كاناليس» من الهندي أن يرحل معه إلى الدولة المجاورة ، ووافق الهندي ، ذلك أنه كان كالشجرة التي لا جذور لها بعد أن استولوا على أرضه . وكان الأجر طيبا .

وغادرا الكوخ دون أن يطفئا النار. وشقا طريقهما وسط الغابة بفأسيهما.
وكانت أثار أقدام فهد تبدو متعرجة أمامهما. ظلام. نور، ظلام. نور. شبكة من
أوراق الشجر الملتفة. وشاهدا بعد فترة الكوخ يبرق وراءهما كالشهاب. الظهيرة.
سحب جامدة. أشجار جامدة. كدر. بياض ناصع. أحجار ثم مزيد من
الأحجار. حشرات. هياكل عظمية، خالية من اللحم ودافئة كالثياب التي تُكوى
لنورها. تحلل. طيور مضطربة تحلق فوقهما. ماء وعطش. المداريات. تبدل لا
هبة له. ودائما، دائما، نفس الحرارة.

وكان الجنرال يرتدي مندبلا مجسم به قذاله ورقبته من لسعة الشمس. وكان
اهندي يسير إلى جواره، موقعا خطاه على خطى البغل.

- اعتقد أننا لو سرنا طوال الليل فقد نصل إلى الحدود صباح غد؛ ومن
الأفضل أن نخاطر ونسلك الطريق الرئيسي لأن علي أن أتوقف لدى بيت بعض
الصدقات في منطقة «لاس الدياس».

- الطريق الرئيسي يا تانا! ماذا تظن؟ لسوف نصادف هناك شرطة الخيالة.

- نعال، اتبعني! إذا لم تخاطر لن تحصل على شيء، كما أن صديقاتي هؤلاء قد
يكن ذوات نفع لنا.

- أوه، كلها يا تانا.

- وأجفل الهندي بغتة وقال :

- ألا تسمع ، ألا تسمع يا تانا؟

كانت تُسمع مجموعة من الجياد تقترب، بيد أن الرياح سكنت بعد ذلك،
وبدا كأن الصوت قد تراجع إلى الوراء، كأنها الجياد تبعد.

- صمتا !

- إنها شرطة الخيالة يا تانا. إني أعرف ما أقول. والآن يجب علينا أن نهرب
هذا الممر، رغم أنه الطريق الأبعد للوصول إلى «لاس الدياس».

وهبط الجنرال عبر طريق جانبي خلف الهندي. وتعين عليه أن يترجل ويقود
البغل. وحين ابتلعهما الأخدود الضيق شعرا وكأشها في داخل صدفة حلزون،
مستوربين من الخطر الذي يتهددهما.

وأطبقت الظلمة بغته . وكانت الظلال تنجمع في أعماق الوهدة الغافية .
وبدت الأشجار والأطيار كالنُذر المفلّزة في وسط النسمات اللطيفة المتماوجة دوما .
ولم يربا من مخلفات شرطة الخيالة إلا سحابة من الغبار الأحمراري توسطت بينهما
وبين النجوم ، وذلك حين كانا يجبان في المكان الذي غادرته الشرطة لتوها .
واستمرّا يسيران طوال الليل .

- «حين نصل إلى أعلى التل سنرى «الاس الديباس» يا تاتا» .

وسبق الهندي قدما مع البغل ليعلن وصولهما لصديقات «كاناليس» ، وهن
ثلاث أخوات غير متزوجات يقسمن حياتهن بين الصلوات وآلام احتقان اللوز،
والناسوعيات وآلام الأذن، وآلام الوجه والظهر والجنيين . والتهمن النبا ، وكاد أن
يغمي عليهن من فرط المفاجأة . واستقبلن الجنرال في حجرة النوم ، ذلك أن حجرة
الاستقبال لم تكن ترحي لهن بالثقة .

وفي الريف ، يدخل الزوار المنزل دون استئذان ويتوجهون لتوهم إلى المطبخ :
السلام لك يا مريم ، السلام لك يا مريم .

وحكى لهن الجنرال قصة نكبته في رنة بطيئة هادئة ، وذرف عدة دموع حين
أتى على ذكر ابته .

وبكت صديقاته من الحزن ، وكان حزنهن عظيما لدرجة تسين معه آلامهن ،
و وفاة والديهن ، التي كن يرتدين السواد الكامل حدادا عليها .

- ولكننا سوف نرتب أمر فرارك وعبورك الحدود بأي ثمن سوف أذهب لأسأل
الجيران . لقد حان الوقت كيما نتذكر من فيهم يعمل بالتهريب . ذلك إنني أعرف أن
كل المعابر الممكنة تقريبا تحرسها السلطات» .

كانت كبراهن هي التي قالت ذلك ، وتطلعت متسائلة إلى الآخرين .

وقالت الوسطى ، التي سكنت آلام أسنانها بفعل مفاجأة وصول الجنرال
«كاناليس» : أجل ، سوف نرتب أمر فرارك كيما قالت أختي ، يا جنرال . ولما كنتُ
أعتقد أنك ستكون بحاجة إلى بعض المؤن ، فسوف أذهب وأجهزها .

وقالت الصغرى : ولما كنتُ ستمضي اليوم معنا فسوف أبقى لأحادثك

وأسلبك شيئا ما» .

ونظر الجنرال بامتنان إلى الأخوات الثلاث - فقد كانت الخدمة التي يقدمنها له فريدة - ورجاهن في صوت خفيض أن يغفرون له ما سببه لهن من متاعب .

- لا شيء من هذا يا جنرال .

- كلا يا جنرال ، لا تقل هذا .

- إنني أدرك مدى طيبتك وشفقتك يا عزيزاتي ، ولكنني أعرف أنني أوردطكن معي بوجودي في المنزل .

- ولكننا صديقاتك مع كل هذا . لك أن تتصور أنه منذ ماتت أمنا . . .

- ولكن ، قولي لي ، كيف ماتت والدتك؟

- سوف تحكي لك أختي هذا ، سوف نذهب نحن ونجهز الأشياء .

قالت الأخت الكبرى هذا ، ثم تنهدت . كانت تحمل مشد الخصر ملفوفا في شافها ، وتوجهت لترتيبه في المطبخ ، حيث كانت الأخت الوسطى تجهز بعض المؤن للجنرال ، تحيط بها الخنازير والدواجن .

- لم يكن ممكنا نقلها إلى العاصمة ، ولم يفهموا علّة مرضها هنا ، وأنت تعرف الأمر يا جنرال . وقد ساءت حالتها شيئا فشيئا ، المسكينة ، وماتت وهي تبكي لأنها تركنا وحدنا في الدنيا . لم يكن هناك سبيل لتفادي ذلك . ولكن تصور أنه لم يكن معنا نقود ندفع منها أجر الطبيب ، الذي أرسل إلينا فاتورة بخمسة عشرة زيارة يصل ثمنها إلى حوالي قيمة هذا المنزل ، وهو الشيء الوحيد الذي خلقه لنا والدنا . إسمح لي بدقيقة ، سأذهب لأرى ما يحتاج إليه خادمك .

وحين خرجت الأخت الصغرى ، استغرق «كانالس» في النوم . عيناان مغلقتان . جسد في خفة الريشة .

- ماذا تريد أيها الفتى؟

- بحق السماء ، أخبريني أين أستطيع أن أقضي حاجتي . . .

- هناك ، في زريبة الخنازير! »

ونسج سلام الريف خيوطه في أحلام الجنرال النائم. إمتان حقول الذرة،
ورقة المراعي بأزاهيرها الصغيرة البسيطة. وسرعان ما انطوى الصباح، بعدما
اشتمل على خشية طيور الخجل ترشقها طلقات الصيادين؛ والخوف المدلهم الذي
نثيره مراسم دفن والقس يرش المياه المقدسة؛ وهياج ثور فتى نشيط. وفي أبراج
الحمام في فناء الأخوات العوانس وقعت أحداث هامة: موت حبيب، وخطبة،
وثلاثون زيجة تحت أشعة الشمس. أي لا شيء على الإطلاق!

لا شيء على الإطلاق! هكذا قالت الحمام وهي نطل من نوافذ بيوتها
الصغيرة. لا شيء على الإطلاق.

وفي الساعة الثانية عشرة، ايقظوا الجنرال لتناول طعام الغداء. أرز متبل.
مرق اللحم. بجنّة. دجاج. بازلاء. موز. قهوة.
- «السلام لك يا مريم!».

وأطبّق صوت المندوب السياسي عليهم وهم يتناولون الغداء. وشجبت وجوه
العوانس ولم يعرفن كيف يتصرفن. ونواري الجنرال وراء أحد الأبواب.
- لا نترعجن يا عزيزاتي، فأنا لست الشيطان ذا الأحد عشر ألف قرن! يا
إلهي، كيف تخفن مني هكذا، خاصة بعد أن تصرفت معكن تصرفاً رحيماً.
كانت المسكينات قد فقدن القدرة على الكلام.

- ثم، ألن تطلين مني الدخول والجلوس، حتى ولو كان ذلك على الأرض؟
وأحضرت الصغرى مفعدا لأهم موظف في القرية.

- شكراً جزيلاً. ولكن، من كان يتناول الطعام معكن؟ إنني أرى طبقاً رابعاً.
وحملفن جميعاً ناحية طبق الجنرال.

فتلعثمت الأخت الكبرى قائلة وهي تلوي أصابعها من فرط اليأس. إنه، كما
تعرف...
وأنقذتها الوسطى قائلة:

- من الصعب شرح الأمر، ولكن برغم وفاة والدتنا فإننا نهيم، لها مكاناً معنا

دائما، حتى لا تشعر بالوحدة.

- أوه ، يبدو انكن تتحولن إلى مجال الروحانيات .

- ألا تتناول شيئا أيها المندوب؟

- شكرا لك ، ولكنني تناولت طعامي بالفعل . لقد جهّزت لي زوجتي الغداء ، ثم لم أستطع أن أغضى إغفاءة الظهر لأنني تلقيت برفية من وزير الداخلية يحظرني فيها أن ألتخذ الإجراءات ضدكن إذا لم تدفعن للطبيب أجره .

- ولكن يا سيادة المندوب ، هذا ليس عدلا ، أنت تعرف أنه ليس . . .

- قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن صوت الفانون هو كل شيء» .

فهمت الأخوات الثلاث والدموع في مآقيهن : «طبعاً»

- إنني جد آسف أن آتي وأسب لكن هذا الإزعاج ، ولكن هكذا هي الأمور كما تعرفن ، تسعة آلاف بيزو ، أو المترل ، أو . . .

وقد تبدى عناد الطبيب الكريه بوضوح في الطريقة التي دار بها المندوب على عقبه ، وأعطاهن ظهره ؛ ظهرٌ بداً مماثلاً لجذع الشجرة .

وسمعهن الجنرال يبكين . وأغلقن الباب الخارجي بالمفتاح والمزلاج خفية أن يعود المندوب . وتناثرت دموعهن فوق طبق الدجاج .

- يا لقسوة الحياة يا جنرال . إنك سعيد الحظ إذا تغادر هذا البلد نهائيا .

فسأل «كاناليس» مخاطبا الأخت الكبرى : بماذا كان يهددكن؟» .

وقالت الكبرى لاختيها دون أن تحفف دمعها :

- فلنقل له إحداكما .

فقال الصغرى في لعنة : بأن يخرج ماما من قبرها .

فحملن «كاناليس» في الأخوات الثلاث كلهن وتوقف عن الأكل .

- ماذا تقولين؟

- تماما هكذا ، بأن يخرج ماما من القبر .

- ولكن هذا ظنم .

- قولي له .

- حسنا . ولكن عليك أن تعلم يا جنرال أن طبيب قريتنا هو واحد من أسفل أوغاد أهل الأرض طرا ، لقد قالوا لنا ذلك من قبل ، ولكن المرء لا يتعلم إلا بالتجربة . وماذا كنا سنفعل ؟ من الصعب تصديق أن الناس يمكن أن يكونوا بهذا الشر .

- هل لك في بعض الفجل يا جنرال ؟

وناولته الوسطى الطبق ، وبينما كان الجنرال يتناول منه بعض الفجل ، واصلت الصغرى قصتها :

- لقد وقعنا في مصيدته . هذه هي لعبته : حين يسقط أحد زبائنه فريسة مرض خطير ، ويكون آخر ما يفكر فيه الأقارب ترتيبات الجنازة ، يأمر بإعداد مقبرة للدفن . ثم حين يحتم القضاء ، يضرب ضربه ؛ وهذا ما حدث لنا ، إذ بدلا من أن نترك ماما تدفن في الأرض الجرداء ، قبلنا مكانا لها في المقبرة التي أعدها دون أن ندرك ما نحن مقبلات عليه من جراء ذلك .

وقالت الكبرى ملاحظة وسط الشهقات وهو يعلم أنا نسوة لا عائل لنا .

- أقول لك يا جنرال ، إنه في اليوم الذي أرسل إلينا الفاتورة ، صعدنا كلنا : تسعة آلاف بيزو لقاء خمس عشرة زيارة ؛ تسعة آلاف بيزو أو هذا المنزل ، لأنه يريد فيها يبدو أن يتزوج ، أو . . .

- أو ، إذا لم ندفع ، كما قال لأختي ، ربا للبشاعة ، «بوسعك أن تأخذن قمامتك من مقبرتي» .

وضرب «كاناليس» المائدة بقبضة يده .

- يا للسافل القذر !

وقرع المنضدة مرة أخرى ، مما جعل الأطباق وأدوات المائدة والأكواب تصلصل ، وفتح أصابعه لم أغلقها كأنما يريد أن يخنق هذا الوغد ويدمر جماع النظام الاجتماعي الذي أفرز مثل هذه الأمور المسيئة المخجلة واحدة وراء أخرى .

وجال في خاطره : «هل وعد الناس البسطاء مملكة السماء على الأرض - هذا

اللغو الريائي - لمجرد أن يحتملوا مثل هؤلاء الأوغاد. كلا! كفانا من حكم الجمال هذا! إني أقسم على العمل في سبيل الثورة الشاملة، يجب قلب كل شيء، ظهرا لبطن. يجب أن يشور الناس ضد الطفيليين، ضد من يستغلون مناصبهم الحكومية، والعاطلين الذين يحسن إرسلهم لفلاحة الأرض. لا بد أن يأخذ كل واحد نصيبه من الدمار! الدمار! الدمار! لن يحتفظ أي عميل منهم برأسه.

وحدد لرحيله الساعة العاشرة من مساء تلك الليلة، وفقا لترتيب التخذ من مهرب من أصدقاء عائلة الأخوات الثلاث. وحرر الجنرال خطابات عدة، منها خطاب عاجل إلى إبنته. وأتفق على أن يحمل الهندي الخطاب ثم يعود من الطريق الرئيسي. ولم يقل أحد وداعا. ومضت الجياد وحوافرها ملفوفة بالخرق، بينما وقفت الأخوات عند الحائط، يبكين بحرقة في عتمة حارة مظلمة. وحين بلغ الجنرال الطريق الواسع شعر بيد تمسك بلجام جواده. وسمع وقع أقدام. وهمس له المهرب: «لشد ما أفزعوني. لقد ضاعت أنفاسي. ولكن لا تقلق، إنهم بعض الرجال يصحبون الطبيب للغناء تحت شجرة خطيبته».

وكان نمة مشعل مضاء عند نهاية الطريق، يرسل ألسنة من اللهب تنضم على نورها ثم تتفرق أشكال البيوت والأشجار وخمس أو ستة رجال يقفون معا تحت إحدى النوافذ.

وسأل الجنرال ومسدسه في يده: «من فيهم الطبيب؟» وشد المهرب عنان جواده، ورفع ذراعه وأشار إلى رجل يحمل جيثارا. وشفت طلقة رصاص الهواء، وسقط رجل على الأرض كما تسقط موزة من قرطها.

- يا إله السموات! انظر ماذا فعلت! لا بد أن نهرب، سريعا، وإلا قبضوا علينا! هيا، إهمز حصانك!.

- إن هذا... هو ما يجب... على كل شخص أن يفعله... يحرر الشعب!

نطق وكأنه ليس بهذه الكلمات بصوت منقطع بين خيب حصانه الراكض. وأبقت جلبة حوافر الجوادين الكلاب، وأبقت الكلاب الدجاج. وأبقت الدجاج الديكة، وأبقت الديكة الفلاحين، الذين عادوا إلى الحياة في تناقل، نثاء بون وينمطون ويشعرون بالخوف.

ورفعت جماعة المغنين الليليين جسد الطيب الميت . وخرج الناس بقتاديلهم من
النازل المجاورة . ولم تستطع الفتاة التي كانوا يغنون لها البكاء ، بل وقفت مشدوهة من
فعل الصدمة في ملابس نومها تمسك بقتديل صيني في يدها البيضاء ، ونظراتها ضائعة في
الظلمة القاتلة .

- نحن الآن نحاذون للنهر يا جنرال ، ولكن عليّ أن أقول لك إنه لا يقدر على
عبوره في المكان الذي نريد عبوره فيه إلا الرجال الشجعان . آه أيتها الحياة ، لو إنك
تدومين إلى الأبد! .

فرد «كاناليس» الذي كان يركب جوادا أسود وراءه :

- ومن يخاف؟

- براقوا! إن المرء يحس بشجاعة الأسود لو أن ثمة رجلا وراءه . إمسك بي
جيذا ، جيذا ، وإلا ضللت طريقك .

كان كل شيء مبهم المعالم حولهما ، وكان الهواء دافئا ، وإنما تجري فيه تيارات
ثلجية . وكانا يسمعان النهر جاثشا خلال أعواد البوص .

وترجلا وقفزا إلى المجرى . وعقل المهرب الجوادين في مكان يعرفه جيدا حتى
يمكنه أخذهما عندما يعود . ووسط الظلال ، عكست رقاع النهر السماء المرصعة
بالنجوم . وكانت تطفو على صفحته نباتات غريبة تنافط من أشجار خضراء ، لها
عيون بلون التلك وأسان بيضاء . وقرقرت المياه عبر الضفاف الدهنية الغافية ،
تبعى برائحة الضفادع .

وظفق المهرب والجنرال يقفزان من جزيرة إلى أخرى في صمت ، وكل منهما
حامل مسدسه في يده . وتبعهما ظلاهما كالتماسيح ، وتبعتهما التماسيح كظليهما .
ووخزنهما سحائب من الحشرات ، وكان ثمة سمّ مجنح يخلق في الهواء . وعبقت في
الجو رائحة البحر ، البحر واقعا في شبكة الغابة ، بكل سمكاته ، ونجومه ،
ومرجانه ، وشعابه ، وبأعماقه وبياراته . وكانت الطحالب تندل فوق رأسيهما كأنها
مجسمات مخاطية لأخطبوطات تحتضر . وحتى الوحوش المتوحشة لم تكن تجرؤ على
الذهاب حيثما كانا ذاهبان . وظفق «كاناليس» يدبر رأسه في كل اتجاه ، ضائعا في
هذه الطبيعة المشرومة التي لا يصل إليها أحد والمتوحشة توخش روح حيواناتها .

وهاجم تمساح المهرب، وبدأ واضحاً أنه قد ذاق طعم اللحم البشري من قبل . ولكن المهرب قفز من طريقه في الوقت المناسب . بيد أن الجنرال لم يكن سعيد الحظ . بالمثل ، إذ استدار يدافع عن نفسه وجمد مصعوقاً إذ وجد تمساحاً آخر ينتظره فاعر الفكين . لقد كانت لحظة حاسمة . وشعر برعشة عميقة نسري في عموده الفقري ، وانتصب شعره ، وفقد النطق من فرط الهلع . وشد على قبضتيه . ودوت ثلاث طلقات متتابعة ردها الصدى ، قبل أن ينتهز الجنرال فرصة هروب الوحش الجريح كيما يقفز إلى مكان آمن . وأطلق المهرب طلقة أخرى . وحين استعاد الجنرال توازنه جرى إلى الأمام وصافح المهرب ، مما أحرق أصابعه من جراء لمسه قوة المسدس .

وكانت الشمس تشرق حين افترقا عند الحدود . وفوق الحقول اللازوردية ، وفوق الجبال بقممها الكثيفة المغطاة بأشجار تحيلها الطيور إلى صناديق موسيقية ، وفوق الغابة ، كانت سحب على شكل التمانيع تطفو في السماء ، تحمل كنوزاً من النور على ظهرها .

الجزء الثالث

أسابيع ، شهور ، وسنوات . . .

حديث في الظلام

الصوت الأول : أي يوم نحن فيه ؟

الصوت الثاني : أجل ، أي يوم نحن فيه ؟

الصوت الثالث : إنتظرا . . . لقد قبضوا عليّ يوم الجمعة : الجمعة ،

السبت ، الأحد ، الإثنين . . . الإثنين . . . ولكن ، كم انقضى عليّ وأنا هنا ؟
حقا ، أي يوم نحن فيه ؟

الصوت الأول : احس أنني في مكان قصي محيق . ألا تحمون بنفس هذا
الشعور ؟

الصوت الثاني : لقد نسونا في قبر من قبور المقبرة العتيقة ، مدفونين إلى
الأبد . . .

- يجب ألا نتحدث هكذا !

الصوتان الأولان : يجب ألا

- . . . نتحدث هكذا !

الصوت الثالث : ولكن ، لا تتوقفا عن الكلام . إنني أخاف من الصمت ،
إنني خائف . إنني أنخبيل يداي تمتد نحوي في الظلام لتقضم على عنقي وتخنقني .

الصوت الثاني : تحدث بحق الإله ! قل لنا عما يحدث في المدينة ، إنك آخر
من رآها فيها . ماذا يفعل الناس ؟ ما حال كل شيء ؟ . . . أحيانا أنصور المدينة
كلها مدفونة في الظلال مثلنا ، سحينة بين جدران عالية جدا ، بينها الشوارع قابعة
في الرودة وسط طين الشتاء الميت . لا أعرف إذا كنتما نشمران كما أشعر ! ولكني

في نهاية الشتاء لا أحتمل أن أفكر بأن الطين يتيسر وحين أتحدث عن المدينة ،
يتتابني اشتياق لعين إلى الطعام ، إنني أستهي بعض تفاحات كاليفورنيا
الصوت الأول : أربما البرتقال . أما أنا فأفضل قدحا من الشاي
الساخن .

الصوت الثاني : ثم التفكير بأن كل شيء يسير كالمعتاد في المدينة ، كما لو لم
يحدث شيء ، كما لو أننا لسنا مدفونين هنا أحياء . ولا بد أن الترام يسير كالمعتاد .
كم الساعة يا ترى مع كل هذا ؟

الصوت الأول : حوالى . . .
الصوت الثاني : ليست لدي أي فكرة . . .

الصوت الثالث : تكلمي ! استمرا في الكلام ! لا تترقفا بحق السماء ! إنني
أخاف من الصمت ، إني خائف . إنني أتخيل دائما عندما نمتد نحوي في الظلام
لتقبض على عنقي ونخنقني .

ثم أضاف في صوت حزين : لم أحب أن أقول لكما ذلك ، ولكنني أخشى أنهم
قد يجلدوننا . . .

الصوت الأول : لا نتحدث عن ذلك ! لا شك أن ضرب المرء شيء مرعب .
الصوت الثاني : حتى أحفاد الرجال الذين جلدوا بشعرون بالخزي من ذكرى
ذلك .

الصوت الأول : إنك لسان شر ! من الأفضل أن نلزم الصمت .

الصوت الثاني : كل شيء يبدو شرا في نظر رجل الكنيسة .

الصوت الأول : لا شيء من هذا القبيل . أي أساطير خرقاء قد حشوا بها
راسك ؟

الصوت الثاني : أقول لك أن أي شيء يقوم به الآخرون يعتبره رجل الكنيسة
شرا .

الصوت الثالث : تكلمي ! استمرا في الكلام ! لا تتوقفا بحق من تحبانه أكثر

من غيره في هذه الدنيا ! إن الصمت يملأني بالرعب ، إني خائف إني أنجبل دانيما
بدا أتمد نحوي في الظلام لتقبض على عنقي وتختني .

كان الطالب ومساعد النمس لا يزالان محبوسين في السجن الذي قضى فيه
الشحاؤون ليلة واحدة ، بيد أنه كان معها الآن المحامي « كرفخال » .

قال كرفخال : لقد تم إلقاء القبض علي بطريقة مرعبة جدا . ذلك أن
الخادمة التي خرجت في الصباح لتبتاع بعض الخبز عادت لتقول لنا إن المنزل محاط
بالجنود . قالت ذلك لزوجتي وزوجتي قالت لي . بيد أنني لم أهتم بالأمر ،
وتصورت أنهم يبحثون عن أحد مهربي البراندي أو غيره من المجرمين . وأنهيت
حلاقة ذقني ، وأخذت حمامي وتناولت إفطاري ، وارنديت ملاسي كسما أتوجه
لنهضة رئيس الجمهورية - كنت في « آخر أئمة » كما يقولون . « أهلا يا صديقي ، يا
ها من مفاجأة » . هكذا قلت للمدعي العسكري العام حين وجدته على عتبة بابي
مرتديا زيه الرسمي الكامل . فرد علي قائلا : « لقد حضرت هنا من أجلك . هيا
بنا فقد تأخرنا بالفعل » . وسرت معه بضع خطوات ، وحين سألتني عما إذا كان
لدي فكرة عن سبب محاصرة الجنود للمنزل ، قلت له كلا . فقال : إذن سأقول
لك أيها الجرد الصغير . لقد حضروا للقبض عليك . « ونظرت إلى وجهه ورأيت
أنه لا يمزح . وعند ذلك أمسك أحد الضباط بذراعي واصطحبني الجميع خارجا .
مرتديا مترقي الصياحية وقبعتي العالية ، وألقوا بجثتي في هذا السجن » .

وأضاف بعد فترة صمت : والآن ، نكلها أنتما الإنسان . إني أرعد من
الظلام ، إني خائف !

وهتف الطالب : أه يا عزيزي ، أه يا عزيزي ! ماذا حدث ؟ إن رأس
مساعد القس بارد كالثلج .

- ماذا تعني ؟

- إني ألهه ، ولكنه لم يعد يشعر بأي شيء ، و

- إنه لست أنا ، حاذر مما تقول !

- من هو إذن ؟ أنت يا كرفخال ؟

- كلا .

- إذن . . . هل هناك رجل ميت بيننا ؟

- كلا ، إنه ليس رجلاً ميتاً . . . إنه أنا .

فقال الطالب : ولكن ، من أنت ؟ إنك تبدو بارداً جداً . ورد صوت بالغ الضعف : إنني واحد منكم .

وصاحت الأصوات الثلاثة الأولى : أروروه !
وحكى مساعد القس لكرفخال قصة مأساته :

- « لقد غادرت الكنيسة » ، وتصور نفسه خارجاً من غرفة مفتنيات الكنيسة التي تفوح منها رائحة المجامر المطفأة ، والأثاث الخشبية العتيقة والزخارف الذهبية وجذاذات شعر الموتى ، « واخترقت صحن الكنيسة » ، ورأى نفسه يخترق بهو الكنيسة الداخلي ممثلاً رهبة من وجود سر الأسرار فيه ، وسكون الشموع وحركة الأبواب ، « وتوجهت لانزع عن لوحة الاخطارات إعلاناً عن تاسوع المذراء - لأن أحد الأخوة قال لي أنه قد إنتهى . ولكن المشكلة هي أنني لا أعرف القراءة ، فترعت بدلاً من ذلك ، عن طريق الخطأ ، إعلاناً عن الاحتفال بذكرى والدة السيد الرئيس ، وكان معروفاً بأمري منه . ولم يكن في الإمكان أن أفترف أسوأ من ذلك الخطأ . وقبضوا عليّ ووضعوني في هذا السجن بوصفي أحد الثوريين ! » .

وكان الطالب هو الوحيد بينهم الذي لم يبيح بسبب القبض عليه . وكان الحديث عن رثيته الممروضة أمون عليه من ذكر وطنه بسوء . وركز على علته الجسمانية حتى ينسى أنه قد رأى النور أثناء غرق السفينة ، وأنه رأى النور وسط الجثث ، وأنه قد فتح عينيه في مدرسة لا نوافذ لها ، حيث أطفالاً بصيص الإيمان في نفسه حالماً وصل ، دون أن يستبدلوا به شيئاً سوى الظلمة والفوضى والاضطراب وكآبة الخصيآن الفلكية . وفي صوت خفيض ، بدأ يتلو قصيدة الأجيال الضائعة التالية رويداً رويداً :

إننا نسير في موانئ العدم

دولماً ضوء يلتصع على ساريات أذرعنا

تغرقنا الشموع المألحة

كالملاحين العائدين من البحر

شفاك هما ملاذي وماوأي

فقبليني طويلاً

يذني في يدك . . . منذ أمس

آه ، عبثا تنبعث الحياة .

في مرمى قلبنا البارد .

لقد انكسر الأبريق وأريق العسل

بينما النحللات تهرب بعيدا في الفضاء

كأنها الشهب ، لم يحن الوقت بعد .

لقد سقطت ورققات وزدة الرباح .

بينما القواد موثوق إلى أحجار القبور

آه ، طم طم طم ، العربية تدمدم في سيرها

ونخضي الخياد في الليل الذي لا يظلم له قمر

تملاها الورود إلى أنخص حوافرها

كأنها تعود من رحلة إلى النجوم

وليس من المقبرة .

آه ، طم طم طم ، العربية تدمدم في سيرها

قاطرة بحرا من الدموع ، طم طم طم ،

بين حاجبين من الريش ، طم طم طم .

أحجيات الفجر في وسط النجوم

ثنايا الوهم في عرض الطريق

كم هو بعيد عن العالم ، وكم هو باكر

موجات من الدموع تجاهد وسط المحيط

كيبا تصل إلى شاطئ الجفون .

قال كرفخال بعد صمت طويل : تكلموا ، استمعوا في الكلام ، استمعوا في

الكلام !

فتمتم الطالب : فلتكلم عن الحرية .

فقاطعه مساعد الفس قائلا : يا لها من فكرة ! تصوروا أن نتكلم عن الحرية

ونحن في السجن !

- ألا تفترض أن المرضى يتحدثون عن الصحة وهم في المستشفى ؟ ونغمم الصوت الرابع في وهن : لا أمل لنا في الحرية يا أصدقائي ! علينا أن نحتمل ما يحدث لنا إلى ما شاء الله . إن الرجال الذين كانوا يخلصون أئمة لوطهم قد أصبحوا بعيدا الآن : بعضهم يتسول أمام المنازل في بلاد أخرى . وآخرون يتحولون إلى تراب في مقابر جماعية . سوف يأتي اليوم الذي لن يجوز فيه أحد على السير في شوارع هذه المدينة . ولم تعد الأشجار تطرح ثمارا كما كان الأمر من قبل . والدرة لم تعد تشبع المرء كما كانت قبلا . والنوم أقل راحة . والمياه أقل إرواء . وقد أصبح إستنشاق الهواء مستحيلا . ويأتي المضاعون بعد الأوبة . وبعد الطاعون تأتي الأوبة . وسرعان ما سيقع زلزال يفضي علينا جميعا . إن عيني تخبرني أن جنسنا محكوم عليه بالفناء . والرعد هو صوت آت من السماء يقول : إنكم أشرار فاسدون . أنتم شركاء في الشر ! لقد أخبت الرصاصات الغادرة رؤوس مئات من الناس على جدران سجننا هذا . وقصورنا المرمية مخضبة بالدماء البريئة . أين إذن يمكن للمرء أن يتجه بحثا عن الحرية ؟

مساعد القس : إلى الله العلي القدير .

الطالب : ما جدوى ذلك ، إذا كان لا يجيب ؟

مساعد القس : لأن ذلك إرادته المقدسة .

الطالب : واحسرتاه !

الصوت الثالث : تكلموا ، استمروا في الكلام بحق السماء ! لا تتوقفوا . إنني أرتعد من الصمت ، إنني خائف . إنني أتحيل دائما أن يدا تمتد نحوي في الظلام لتقبض على رقابنا وتخنقنا !

- من الأفضل أن نصلي . . .

ونشر صوت مساعد القس إذعانا مبيحا في طول زنزاة السجن وعرضها . ونتم كرفخال ، الذي عُرف عنه في الجوار أنه ليبرالي يكره القس :
- فلنصل . . .

- أن الطالب هتف يقاطعه : ماجدوى الصلاة ! ينبغي لنا ألا نصلي .
- مي لنا أن نسعى إلى تحطيم هذا الباب ونخرج لننضم إلى الثورة ! .

وامندت ذراعها شخص لم يكن بمسطاعه أن يراه ، وطوقه في حرارة ، وشعر
على خده باللمس الخشن للنحية صغيرة مخضلة بالدموع ، وصوت يقول :
بإمكانك الآن أن تموت في سلام أيها القائد السابق لمدرسة « سان خوسيه »
للمشاه ، فلا يزال ثمة أمل في بلد يتحدث شبابه على هذا النحو ! .

الصوت الثالث : تكلموا ، استمروا في الكلام ، استمروا في الكلام ! .

مجلس عسكري

بلغ نص اللائحة الجنائية التي نتهم « كانالس » و « كرفخال » بالعصيان والتعرد والخيانة ، بكل ما يحمله ذلك من ظروف مشددة ممكنة ، صفحات عديدة لدرجة لم يكن معها ممكنا تلاوته حتى آخره في جلسة واحدة . وقد قرر أربعة عشر شاهدا بالاجماع بعد حلف اليمين أنهم في ليلة ٢١ أبريل كانوا موجودين في « رواق الرب » حيث تعودوا قضاء الليل نظرا لفقرهم الشديد ، وأنهم رأوا الجنرال كانالس والمحامي قابيل كرفخال يهجمان على ضابط ، عرفوا فيما بعد أنه الكولونيل خوسيه بيراليس سونرينتي ، ويخفقانه بالرغم من المقاومة الباسلة التي أبدأها لها ، فقد ناضل ضدّهما يدا بيد كالليث الهصور ، بيد أنه كان عاجزا عن استعمال أسلحته للدفاع عن نفسه ضد قوتها الغاشمة . وفرروا أيضا أنه حالما تمت الجريمة ، خاطب « كرفخال » « كانالس » بالعبارات التالية أو بما يفيد معناها : « الآن وقد قتلنا « الرجل ذا البخل الصغير » ، يتعين على القادة العسكريين أن يسلموا أسلحتهم ويعترفوا بك يا جنرال رئيسا أعلى للجيش . سيطلم الفجر بعد برهة ، فلتسرع بنقل الأنباء إلى الذين تجمعوا في منزلي ، حتى يتمكنهم المضي في اعتفال رئيس الجمهورية وإعدامه وتشكيل حكومة جديدة » .

وذهل كرفخال . لقد كانت ثمة مفاجأة في انتظاره في كل صفحة من صفحات الاتهام . ولو لم يكن الاتهام خطيرا للغاية لكان الأمر مدعاة للضحك . ومضى يقرأ . كان يقرأ على الضوء الترامبي من نافذة تطل على فناء مغلق ، في الغرفة الصغيرة العارية المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام . وكان المجلس العسكري الذي سيحقق في الموضوع سينعقد في تلك الليلة ، وقد تركوه وحيدا مع صفحات الاتهام كيما يعد دفاعه . ولكنهم أخرروا ذلك حتى اللحظة الأخيرة .

كان يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وقرأ دوتما وعي أو توقف ، نعيده فكرة أن الظلام قد أخذ يقرض الأوراق التي كانت تبدو كأنها هي تذوب إلى رماد رطب بين يديه . ولم ينجح في قراءة الكثير منها . كانت الشمس تغرب ، ونورها يتحول إلى العتمة ؛ وكان الأسى يظلل عينيه لفقدانها . سطر أخير ، كلمتان ، ضربة قلم ، تاريخ ، رقم صفحة . . . وجاهد عبثا كيها يقرأ رقم الصفحة ؛ كانت الظلمة تفيض على الصفحة كلطخة حبر أسود . بيد أنه تشبث بالملف في لهفة كأنها ، بدلا من اضطرابه إلى قراءته ، سوف يلف حول عنقه كالحجر قبل لقائه إلى الهاوية . وكانت تُسمع صلصلة قيود المسجونين غير السياسيين على طول الأفنية غير المرئية ، وفيما وراءها أيضا ثاني الأصوات المختنقة لجلبة المرور في شوارع المدينة . « آه يا إلهي . . . إن جسدي المتجمد البائس في حاجة إلى الدفء وعيني تحتاجان للنور احتياجا أمسا من حاجة جميع سكان نصف الكرة التي تشرق الشمس عليهم الآن مجتمعين . لو أنهم علموا معاناتي لكانوا أشفق علي منك يا إلهي ولردوا علي الشمس حتى أتمكن من إنهاء القراءة . . . »

وأعاد إحصاء الصفحات التي لم يقرأها مرات ومرات ، باللمس فحسب . وأحده ونسمون . مرات ومرات مرّا بأصابعه على سطح الصفحات خشنة اللمس ، محاولا القراءة كما يفعل الأعمى في دوامة البأس . كانوا قد نقلوه في الليلة الماضية في أوائل المساء ، في عربة مغلقة ، وسط مظاهر استعراض كبير للقوات من مركز الشرطة الثاني إلى السجن المركزي . ورغم ذلك ، كان سروره عظيما بمشاهدة الشارع من حوله وسماعه والاحساس به ، حتى لقد شعر برهة أنهم إنما يقودونه إلى منزله : وماتت الكلمات على شفثيه في بحر من الدموع والاشتياق .

ووجدته رجال الأمن وصحيفة الاتهام الجنائي بين ذراعيه والمذاق العذب للطوق المبتلة في فمه ، فنزعوا الوثائق منه ودفعوه دوتما كلمة إلى الحجرة التي كان المجلس العسكري منعقدا بها .

واستجمع كرفخال شجاعته ليقول للجنرال الذي كان يترأس المجلس : « ولكن ، سيدي الرئيس ، كيف يمكنني الدفاع عن نفسي وأنتم لا تعطوني حتى لمجرد قراءة لائحة اتهامي ؟ »

فرد رئيس المجلس : « هذا لا علاقة له بنا . إن الفترات التي تتخلل
الجلسات قصيرة ، والوقت يمر ، وهذه القضية عاجلة . لقد استدعيناها هنا كي
نصدر الحكم » .

وما تبع ذلك كان بالنسبة لكسرفخال حلماً ، نصفه مراسم ، ونصفه الآخر
مهزلة . كان هو الممثل الرئيسي ، يواجههم جميعاً من مكانه على أرجوحة الموت ،
وسط فراغ عدائي . بيد أنه لم يشعر بالخسوف ، لم يشعر بشيء شيء ، بل سامت
مخاوفه تحت جلده الخدر . وأبدى شجاعة عظيمة . وكانت المنضدة التي جلست
هيئة المحكمة حولها مغطاة بعلم الدولة ، كما نقضي اللوائح . أزياء عسكرية . قراءة
الوثائق . وثائق عديدة . حلف اليمين . وكتاب القانون العسكري يرقد كالحجر
على المنضدة ، فوق العلم . وكان الشحاذون جالسين في مقاعد الشهود . جلس
« ذو القدم المسطوحة » منتصب الظهر ، بوجهه الشمل البشوش الخالي من الأسنان
وشعره المصفوف بعناية ، لا تفوته كلمة مما كان ينثى ولا تعبير يرسم على سبهاء
رئيس المحكمة . أما سلفادور النمره فقد تابع سير المحاكمة بهيبة الغوريلا ،
وهو يحفر في أنفه المفرطحة ، أو في الأسنان القليلة المنتشرة في فمه العريض الذي
يمتد من الأذن إلى الأذن الأخرى . أما « فيردا » الطويل الأعجف ذو الهيئة
الشريرة ، فقد لوى وجهه وخلع على نفسه هيئة الجثة كيما يتسم لأعضاء
المحكمة . وعمد « لولو » القمر السمين المتجمد الوجه إلى الانخراط في سوبات
فجائية من الضحك أو الغضب ، من الرد أو من الكراهية ، وبعدها يغلظ عينيه
ويسد أذنيه حتى يعلم الجميع أنه لا يريد أن يرى أو يسمع شيئاً مما يجري في
القاعة . والتف « دون خوان دي لاليفاكوتا » بمعطفه الفراك العتيق الذي لا يرى
دونه ، ضيلاً ، شارد الذهن ، تنثى ملابسه المستعملة بأنه ينحدر من أسرة
برجوازية : ربطة عنق عريضة ملطخة بعصير الطماطم ، حذاء من الجلد الأصلي
ملثوي الكعبين ، ردنان صناعيان ، صديري منفصل للقميص ، بينما خلعت عليه
تبعته المصنوعة من القش ، وصممه الثقيل مظهراً رشيقياً . وأخذ دون خوان ،
الذي لم يكذب بسمع أي شيء ، يحصي الجنود المنتشرين أمام جدران القاعة على
مسافة خطوتين من أحدهما الآخر . وإلى جواره جلس « ريكاردو » العازف ،
يغطي رأسه وجزءاً من وجهه بمنديل ملون ، يحمر الأنف ، ولحيته الشائكة عليها
بقايا من طعام . وكان ريكاردو العازف يكلم نفسه ، وعيناه مثبتتان على بطن
الصماء البكهاء المتفخ ، التي كانت جالسة معهم إلى جواره يسيل اللعاب من فمها

وتحكك القمل تحت إبطها الأيسر . وبعدما كان يجلس « بيريكبي » ، وهو زنجي ذو
أذن واحدة على شكل المبولة . وبعد بيريكبي ، « ميونا » الصغيرة ، وكانت باللغة
النحافة ، عوراء ، لها شارب خفيف ، وتنبعث منها رائحة الحشايا العتيقة .

وبعد تلاوة لائحة الاتهام ، نهض المدعي ، وهو عسكري قصير الشعر تبرز
رأسه الصغيرة من صدر عسكري ذي بنيفة باللغة الضخامة بالنسبة إليه ، وطالب
بالحكم على المتهم بالإعدام . والتفت كرفخال يتطلع إلى أعضاء المحكمة باحثا
عن أي دلائل على الحكمة والنجابة . وكان أول عضو وقعت عليه عيناه ثملا
كأشد ما تكون الثمالة . وكانت يداه تقعيان على العنم أمامه ، كيدي فلاح يثقل
في رداية في حفل ريفي . وإلى جواره كان ثمة ضابط أسمر البشرة ، ثم هو
الأخر . أما رئيس المحكمة ، الذي كان يفوقهما ثمالة ، فقد بدا وكأنه على وشك
أن يغمى عليه من فرط السكر .

ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة دفاعا عن نفسه . لقد حاول النطق ببعض
العبارات ، ولكنه تلقى على الفور انطبعا بأن ما من أحد ينصت إليه ، والواقع
أنه فعلا لم يكن هناك أحد ينصت . وتجددت كلماته في فمه كأنها خبز رطيب .

كان الحكم قد صدر وصيغ سلفا ؛ وكان ثمة شيء فخم فيه يتناقض مع
بساطة أولئك الذين ينفذونه ويصدقون عليه ؛ دمي من اللحم المقدد ومن
الذهب ، تستحم من أعلى إلى أسفل بالضوء المنهل من المصباح الزيتي ؛ أو
يتناقض كذلك مع الشحاذين بعيونهم الصفدية وظلالهم الشعبانية التي تنطرح على
الأرض البرتقالية كأنها أقمار سوداء ؛ أو مع الجنود الصغار الذين يلهون في سبور
بذلاتهم ؛ أو مع أثاث القاعة الذي ينتصب صامتا كأنما هو في منزل ارتكبت فيه
جريمة قتل . وصاح كرفخال بأعلى صوته :
- إنني سأمتأف الحكم .

فبرطم رئيس المحكمة قائلا : دعك من هذا ، فلا يوجد هنا استئناف ولا
استئناف ، أو أي كلام فارغ من هذا القبيل .

وساعد كرفخال كوب من الماء هائل الحجم ، استطاع الإمساك به على
ضخامته لأن الحول كله كان في يديه ، على ازدياء ما كان يحاول أن يطرده من

جسده : فكرة المعاناة ، آلية الموت ، وقع الرصاص على العظام ، الدماء على الجلد الحي ، تجمد العينين ، الملابس الدافئة ، الأرض . وغلب الفزع فأعاد الكوب وبقي ذراعه ممتدا إلى أن استجمع شجاعته وسحبته إلى جانبه . ورفض سيجارة قدموها له . وتحسس رقبته بأصابع مرتجفة بينما راحت عيناه ، بعكس وجهه الشاحب شحوب الإسمنت ، تتجولان دوغما قيد بين جدران القاعة الناصعة البياض .

ودفعوا به وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة عبر ممر يعصف فيه الهواء ، ومذاق حريف في فمه ، وساقاه لا تقريان على حمله ، وعبرة في كل عين .

وقال له ضابط ذو عينين كعيني مالك الحزين : « هاك . . . خذ جرعة ! » . ورفع الزجاجاة التي شعر بها مائلة إلى فمه وشرب .

وصاح صوت من الظلمة : « أيها الضابط ، عليك أن تلتحق بفرقتك العاملة غدا . لدينا أوامر بعدم التسامح بأي صورة من الصور مع المجرمين السياسيين . »

وبعد بضع خطوات أخرى ، دفنوه في جُب تحت الأرض ، طوله ثلاثة أمتار في مترين ونصف ، وبه إثنا عشر رجلا محكوما عليهم بالاعدام ، لا يتحركون لعدم وجود أي مكان ، الواحد منهم إلى جوار الآخر كالسردين ، يفضون حاجاتهم وهم وقوف ، ويطأون فضلات أجسامهم مرارا وتكرارا . وكان « كرفخال ، رقم ١٣ . وبعد رحيل الجنود ، ملأت الأنفاس الاليمة لتلك الجمهرة من المعتدين صمت الجب الذي كانت تعكسه على البعد صرخات أحد المسجونين .

ورجد « كرفخال » نفسه مرتين أو ثلاث مرات بحصي في آلية صرخات ذلك التعس المحكوم عليه بالموت عطشا . إثنان وسبعون . ثلاثة وسبعون . أربعة وسبعون . . . وجعلته نثانة البراز الموطوء ، بالاقدام ونقص الهواء يشعر بالاعياء ، وحمله بعيدا عن هذه المجموعة من البشر ليحول على شفا جرف جهنمي من اليأس ، محصيا صرخات السجين .

وكان « لوسيو فاسكيز » بروح جيئة وذهابا في زنزانة أخرى مجاورة ، وقد كساه مرض الصفراء لونا معصفرا ، وأظافره ومقلاته بلون الجانب السفلي من ورقة أشجار

البلوط الخضراء . وكان الشيء الوحيد الذي يُسرّي عنه في شقائه هو أنه يوما ما سينتقم من « خيتارو روداس » ، الذي كان يعتبره مسؤولا عما يلقاه من رزايا . كان هذا الأمل البعيد هو ما يُبقي عليه الحياة ، أمل مدلهم اللون وحلو المذاق كالعمل الأسود . إن بإمكانه أن يحتمل البقاء هنا إلى الأبد لو كان يستطيع أن ينفذ انتقامه فحسب . لقد عشت الليالي الخالكة السواد في صدره الخسيس ، لدرجة لم يعد معها من شيء يُدخل بصيصا من النور على أفكاره الشريرة إلا صورة السكين وهي تقطع أحشاء « روداس » تاركَةً فيه جرحا كالقلم القساغر . وقضى « فاسكيز » ساعة وراء ساعة ، ويداه متقلصتان من البرد ، يتذوق طعم إنتقامه ، كدودة مجبولة من السطين الأصفر . اقتله ! اقتله ! . . . وكان يمد ذراعه في الظلمة ، كأنما عدوّه قد بات بالفعل في متناول يده ، ويتحسس في خياله مكّينه البارد كالثلج ، ويهجم على « روداس » كأنه شبح يقوم بحركاته المعهودة . وأعادته إلى الواقع صرخات السجين ، الذي كان يردد في صراخه بعض كلمات بالإيطالية :

- « بحق الله ، من فضلكم . . . ماء ! ماء ! ماء ! ماء ! أيها الضابط . . . ماء ! ماء ! بحق الله ، من فضلكم . . . ماء . . . ماء . . . ماء . . . ماء ! » .

وانتهى السجين بنفسه على باب زنزانته ، التي عزلت تماما من الخارج بطبقة من الطوب الأحمر المثبت إلى الأرض بالأسمنت وغطيت جدرانها بالأسمنت أيضا .

- « ماء ، أيها الضابط ، ماء ، أيها الضابط ، ماء ! بحق الله ، من فضلك أيها الضابط ! » .

وظل السجين ، وقد نفدت منه الدموع ، واللعاب ، وكل ما هو رطب أو بارد ، وقد استحال حلقه أكمة شوك حارقة ، مترددا بين عالم من نور ورقاع من ظلمة ، يقرع صرخاته التي لا تنقطع :

- « ماء ، أيها الضابط ! ماء أيها الضابط ! ماء أيها الضابط ! » .

وكان ثمة رجل صيني على وجهه علائم الجدري معني بشؤون السجناء . وكان يأتيهم « كل بضعة قرون » كأنما هو آخر نفس في الحياة . هل كان ذلك

المخلوق شبه الإلهي يوجد حقا ، أم كان خيالا من خيالات أحلامهم ؟ كانت رائحة البراز الموطوء وصرخات السجين تجعل رؤوسهم تدور ، كما أنه من الممكن أن ذلك الملاك الخنون لم يكن سوى رؤيا خيالية من بنات أفكارهم .

- ماء أيها الضابط ! ماء أيها الضابط ! بحق الله ، من فضلكم ، ماء ! ماء ! ماء ! ماء ! « .

وكان ثمة جنود يروحون ويجيئون ، تدق كعابهم على الأرض المغطاة بالقرميد وهم يرتدون صناديقهم الجلدية ، وكان البعض منهم يزأر بالضحك ويرد على السجين الصارخ بقوله :

- « أيها التيرولي ، أيها التيرولي ، لماذا قتلت الطائر الذي يتحدث كالإنسان ؟ » .

- « ماء ، بحق الله ، من فضلكم ، ماء ، أيها السادة ماء من فضلكم ! » .

وكان « فاسكيز » يتدبر انتقامه ، بينما تركت صرخات الابطال الهواء جافا عطشا كغلاف قصب السكر . وجعله صوت طلقة رصاص يحبس أنفاسه . لقد بدأ تنفيذ أحكام الإعدام . لا بد أن الساعة الآن الثالثة صباحا .

زواج في ظلال الموت

- « ثمة مريضة تختضر في حيننا » .
- وخرجت عانس من باب كل منزل .
- « ثمة مريضة تختضر في حيننا » .

وخرجت من منزل « المائتين » امرأة تدعى « بنرونيلا » ، وجهها وجه جندي وحركاتها حركات دبلوماسي ، ولو خيروها لاختارت على الأقل أن تدعى « برتا » تدليلاً ، لعدم وجود مغريات أخرى فيها . وبعدها ، جاءت صديقة من منزل « المائتين » أيضاً تدعى « سيلفيا » ، وجهها كالعدساية وملابسها على الطراز البروفينيانى* ، ثم إحدى معارف « سيلفيا » وتدعى « إنغراسيا » ، ترتدي كورسيها يضغط على جسدها حتى ليصح نعتة بالدرع . وحذاء ضيقاً عند كعبيها ، وسلسلة ساعة تدلى حول عنقها كأنها حبل مشنقة ، ثم ابنة عم « إنغراسيا » ، ذات رأس على هيئة القلب كرأس الأفعى ، وكانت أجنسة الصوت ، مدملجة ، ذات مظهر رجولي ، لا تكاد تجاوز إحدى ميقان إنغراسيا حجماً ، ومدمنة على التنبؤ بالكوارث واستطلاع ظهور الشهب ، أو المسيح الدجال ، أو العصر الذي سيلجأ فيه الرجال إلى قعم الأشجار هرباً من مطاردة النساء ، والذي ستصعد النساء فيه إلى تلك الأشجار لإعادتهم إليهن ثانية !

ثمة مريضة تختضر في حيننا . يا له من نبا ! كان الأمر لا يبين عن سرورهم بتلك الفكرة ، بيد أنه كان يبين في الطريقة التي حاولت بها أصواتهن الخافتة إخفاء حبورهن بذلك الحدث الذي قد يهيء للكثيرات منهن العمل بمقاصاتهن ، بل

* نسبة إلى أول أسرة مالكة في فرنسا .

ويخلف كثيرا من الفماش هن جميعا بحيث تأخذ كل واحدة لنفسها ثوبا منه .

كانت « لامسكواتا » في انتظارهن . وأعلنت « بشرونيللا » الأنبة من منزل
« المائتين » : - « إن أخواني جاهزات » .
ولم تُبين لأي شيء هن جاهزات .

وقالت « سيلفيا » : فيها يتعلق بالملابس ، يمكنك طبعا الاعتماد عليّ . إذا
لزمك شيء منها .

أما « إنغراسيا » ، إنغراسيا الصغيرة ، التي تعبق برائحة مرق اللحم حين لا
تفوح منها رائحة دهان الشعر ، فقد أضافت ، وهي تنطق بنصف الكلمات من
فرط ما يضغط الكورسيه على جسدها :
- « لقد فكرت فيها وتلوث صلاة على أرواح المحتضرين بعد أن فرضتُ من
صلواتي » .

كن متجمعات في الغرفة الواقعة وراء الحانة ، يتكلمن في صوت خفيض ،
ويحاولن ألا يمعرن الصمت الذي كان يجلس سرير المريضة كأنه دواء طبي ، أو
يضايقن السيد الذي كان يجلس إلى جوارها ليل نهار . إنه سيد أصيل حقا . كن
يتوجهن إلى السرير على أطراف أصابعهن ، مدفوعات بالرغبة في القاء نظرة على
وجهه أكثر منه بالنظر إلى « كميلة » الراقدة هناك كالشبح ، بأهدابها الطويلة ،
وعنقها النحيل النحيل ، وشعرها المهوش . وحين شمن رائحة سر في الموضوع
(اليس ثمة سر دائما حيثما كانت قصة حب ؟) لم يبدأ هن بالحق استخلصن
مفتاح السر من صاحبة الحانة . إنه خطيها ! خطيها ! خطيها ! خطيها !
طبعا ! إنه خطيها ! ورددن جميعاً الكلمة السحرية ، كلهن ما عدا سيلفيا ، التي
خرجت دون أن يلاحظها أحد حالما عرفت أن « كميلة » هي ابنة الجنرال كاناليس ، ولم
تعد بعد ذلك . كانت ترى من الأفضل عدم الاختلاط بأعداء الحكومة . وقالت
لنفسها إن الشخص الذي يعودها ربما يكون خطيها أي نعم ، وقد يكون أيضا
من أصدقاء السيد الرئيس ، « ولكنني شقيقة أخي ، وأختي نائب في البرلمان ،
وربما أضرب به إختلاطي بهم . لا بد لنا أن نضع ثقتنا في الله ! » . ورددت حين
خرجت إلى الطريق : « لا بد لنا أن نضع ثقتنا في الله ! » .

ولم يكف ذو الوجه الملائكي يشعر هؤلاء النسوة ، رغم أنهم كن حريصات على إتمام مجاملتهن للفتاة المريضة بمواساة خطبها . وشكرهن دون أن يسمع ما يقلن . مجرد كلام . وروحه بكاملها متبها لأنين كميلة المولم الذي يصدر عنها برغمها ، ولم يستجب لمظاهر العطف الذي أبدينه وهرن بصافحه . وشعر بجسده يبرد ، مسحوقا تحت وطأة البؤس الذي انتابه . وتملكه إحساس بأن الدنيا تظفر ، وأن أطرافه قد خدرت ، وأنه مشتبك مع أطراف غير مرئية في حيز أكبر من الحياة ، حيز من الفراغ بدا فيه الهواء والنور والظلال والأشياء منفصلة عنه وحيدة .

وكسر الطيب سلسلة أفكاره .

- ما العمل إذن يا دكتور . . . ؟

- لن ينقذها سوى معجزة ! .

- سوف تعود ، أليس كذلك ؟

لم تهدأ صاحبة الحانة لحظة ، ورغم ذلك لم يبد عليها أي تعب . كانت تغسل الثياب لبعض الجيران ، ولذلك نقت الثياب في الصباح الباكر قبل أن نذهب بطعام الإفطار إلى فاسكيز في السجن ، ولم تكن قد سمعت أنباء عنه مؤخرا . وحين تعود ، كانت تغسل الثياب وتعصرها وتعلقها لتجف ، ثم تهرع إلى أداء بعض الأعمال المنزلية في بيتها خلف الحانة ، وغير ذلك من الأشياء : العناية بالمريضة ، إشعال الشموع أمام نور القديسين ، محاولة حمل ذي الوجه الملائكي على تناول بعض الطعام ، انتظار الطيب ، الذهاب إلى الصيدلية ، تحمل ثقل ظل « القسيسات » كما تُسمى هؤلاء النسوة العوانس ، والشجار مع صاحب محل حشايا الأسرة المجاور لها . وصاحت من على عتبة الباب وهي تتظاهر بأنها نهش الذباب بعيدا بخرقة ثياب : « حشايا للمخازير الكسولة ! حشايا للمخازير الكسولة ! » - لن ينقذها سوى معجزة !

ردد ذو الوجه الملائكي عبارة الطيب . معجزة ، الاستمرار التعسفي لما هو قابل للموت ، إنتصار جزء من الإنسانية على المطلق العقيم . وشعر برغبة جارفة في التضرع إلى الله لإنجاز معجزة ؛ بيد أن العالم في تلك الأثناء كان يدور ويلف

بعيدا عن تناولها - بلا فائدة ، معاديا ، مضطربا ، لا هدف له .

كانوا جميعا في انتظار المأساة من لحظة إلى أخرى . نباح كلب ، طرفة قوبة على الباب ، دقات أجراس كنيسة « لامرسيد » ، كانت تدفع الجيران إلى رسم علامة الصليب والتنهد قائلين : « لقد استراحت أخيرا ! أجل ، لقد حانت ساعتها . يا للرجل المسكين . إنه المصير المحتوم . إنها إرادة الله . إنه مصيرنا جميعا . » وأخذت « برونيل » تقص ما جرى لصديقة لها :

- « إنه أحد هؤلاء الرجال الذين لا يظهر عليهم أي تقدم في السن ، يدرس الإنكليزية ومواد أخرى أكثر غرابة ، ويعرف عادة بلقب « المعلم » . »

كانت تريد أن تعرف ما إذا كان ممكنا إنقاذ حياة كميلة عن طريق الشعوذة ، ولا بد للمعلم أن يعلم ، فبالإضافة إلى دروس اللغة الإنكليزية التي يعطيها ، كان يكرس وقت فراغه لدراسة التصوف ، والروحانيات ، والسحر ، والتنجيم ، والتنويم المغناطيسي ، وعلوم الباطن ؛ بل وكان قد اخترع طريقة سماها : « مستودع السحر النافع في العصور على الكنوز المخبوءة في المنازل المكونة بالأسباح » . ولم يستطع المدرس مطلقا أن يعلل أسباب إدمانه لعلوم المجهول ، فقد كان في مطلع شبابه ميالا إلى الكنيسة ، ولكن امرأة متزوجة ، أكثر منه تجربة وتسلطا ، تدخلت يوما حين كان متوجها لإنشاد صلوات الكنيسة ، فكانت النتيجة أن خلع مسوحه وغيرها من أردية القسوس ، وظل هكذا يبدو عليه البله والوحدة وترك كلية اللاهوت إلى كلية التجارة ، وكان سيخرج فيها بنجاح لو لم يضطر إلى الهروب من استاذة المحاسبة التي وقعت في غرامه . وفتحت له بعد ذلك أبواب عالم الميكانيكا ، في صورة الحدادة الشاقة ، والتحق بورشة قريبة من منزله لينفخ في كبر الحداد ، بيد أنه لم يكن معتادا على العمل الشاق ولا هو متين البنية بما فيه الكفاية له ، فترك ذلك العمل أيضا . ولماذا يتعين عليه أن يعمل وهو ابن الأخ الوحيد لسيدة بالغة الثراء كانت قد كرّسته للكنيسة ، ولم تفقد بعد أملها في أن يصبح قسا ؟ وكانت تقول له : « عد إلى الكنيسة بدلا من أن تجلس هنا تشاهب ، عد إلى الكنيسة . ألا ترى أنك قد ضقت ذرعا بالدنيا ، وأنت نصف أحمق وضعيف كقالب الزبد ، وأنت قد جربت كل شيء ولم ترض أبدا عن شيء » :

جندي ، موسيقي ، مصارع نيران ؟ ! . وإذا لم تكن تريد أن تصبح قسا ، فلماذا لا تصبح مدرسا - تعطي دروسا في الانكليزية مثلا ؟ إذا لم تكن من الصفوة التي اختارها الله ، فلماذا لا تختار أنت التلاميذ ؟ إن الانكليزية أسهل من اللاتينية وأكثر نفعا منها ، وأنت إذا أعطيت دروسا في اللغة الإنكليزية فسيفترض تلاميذك أنك تتحدث الإنكليزية رغم أنهم لا يفهمونك ، فإذا كانوا لا يفهمون فهذا أفضل ! .

وخففت « برونيللا » من صوتهما ، كما تتحدث دائما عن أمور نسحق فؤادها :

- « إنه محبٌ بعبدها ، يتعبد في محرابها أيها المعلم ؛ ورغم أنه قد اختطفها ، فقد عالجها باحترام ويأمل أن تبارك الكنيسة إتحادهما الأبدى . إن المرء لا يرى مثل هذه الأمور كل يوم . . . » .

وقالت أطول ساكنة في منزل « المائتين » ، وهي امرأة تبدو وكأنها قد صعدت عدة درجات من سلم جسدها ذاته ، وهي تدخل إلى الغرفة حاملة باقة ورد :

- إنها تحدث الآن أقل من أي وقت مضى يا طفلي .

- ولقد غمرها هذا المحب بكل ألوان العطف أيها المعلم ، وبالتأكيد إنه سوف يموت معها . . . آه .

وقال المعلم في ببطء : أتقولين يا برونيللا إن السادة الأطباء قد أعلنوا أنه ليس بإمكانهم عمل شيء لانقاذها من يدي القدر ؟

أجل يا سيدي ، إنهم عاجزون . لقد أعلنوا ثلاث مرات أن لا أمل البتة .

- وهل تقولين يا برونيللا إن معجزة فحسب قادرة على إنقاذها ؟ .

- هو ذاك . وإن قلبي يدمي من أجل ذلك الشاب المبكين .

- حسناً . إن عندي الحل . لسوف نعمل على أن تحمل تلك المعجزة . إن

الشيء الوحيد الذي يمكنه مكافحة الموت هو الحب ؛ لأن الحب والموت ، كما

نحبرنا « نشيد الإنشاد » لها قبر مماثل من القوة : وإذا كان حبيب هذه الفتاة - كما

تقولون - يعيدها ، ويحبها حبا عميقا ، أعني بكل فؤاده وجوارحه ويريد الزواج منها ، لذا فبإمكاننا أن ننقذ حياتها عن طريق مراسم الزواج المقدسة . وطبقا لنظريتي في التطعيم ، فإن هذا هو ما يجب فعله في هذه الحالة ، .

وكاد أن يغمر على « بترونيلا » بين ذراعي المعلم . وأيقظت المنزل كله ، وذهبت مرة أخرى إلى منازل الصديقات ، وأرسلت « لاسكواتا » كيما تحدث القس . وفي نفس ذلك اليوم ، تم زواج ذي الوجه الملائكي وكميلة ، على أعتاب العالم الآخر . وأمسك ذو الوجه الملائكي يدا طويلة رقيقة ، باردة كسكين ورق عاجية ، في يده اليمنى المحمومة ، بينما تلا القس عبارات مراسم الزواج الديني باللاتينية . وكان سكان منزل « المائتين » حاضرين : انغراسيا ، والمدرس يرتدي ملابس سوداء . وهتف المعلم بالانكليزية حين انتهت مراسم الزواج :

- « إخلق لي نفسك روحا جديدة ، من أجلي ! » .

حرّاس من جليد

كان بُرى في مدخل السجن صفان من سيوف البنادق الالامعة ؛ وكان الحديد
القائمون بالحراسة يجلسون في مواجهة أحدهم الآخر كأنهم المسافرين في عربات
السكة الحديد المظلمة وفجأة ، توقفت إحدى العربات المارة أمام الباب . وانحنى
السائق إلى الخلف كي يسيطر على الزمام على نحو أفضل ، وهو يهتز من جانب إلى
آخر كالدمية المصنوعة من الخرق القذرة ، ويطلق الباب . لقد كاد يفتد توازنه
ويسقط . ووصل صوت احتكاك عجلات العربة بالأرض من جراء إيقافها بعثه
إلى داخل المبنى المشؤوم ذي الجدران الملساء العارية ، وتراجع من العربة ببطء
رجل مستدير البطن لا تكاد ساقاه تصلان إلى الأرض . وشعر السائق بأن عربة
الأجرة قد استراحت من ثقل وزن المدعي العسكري العام ، فوضع سيجارته
المطفأة بين شفتيه الجافتين . . . يا لها من راحة أن يبقى وحده مع جياده ! وأرخى
الزمام وساق العربة كيما ينتظر في مواجهة المنزل ، إلى جانب حديقة صخرية كقلب
الخونة المقدود من صخر ، في نفس اللحظة التي ألقت فيها إحدى النسوة بنفسها
أمام قدمي المدعي العام ، راجية منه في صوت عال أن يسمع إلى شكواها .

- « إنهضي يا سيدي ؛ لا يمكنني أن أستمع إليك على هذا النحو ! كلا ،

كلا ، إنهضي أرجوك ؛ لم أتشرف بعد بمعرفتك . . . » .

- « إنني زوجة كرفخال المحامي . . . » .

- « إنهضي . . . » .

ولكنها انفجرت مرة أخرى :

- « لقد كنت أبحث عنك طوال الليل والنهار يا سيدي ، في كل ساعة ، في

كل مكان ؛ في منزلك ، في منزل والدتك ، في مكتبك ، بلا جدوى . إنك الشخص الوحيد الذي يعرف ماذا حدث لزوجي ؛ إنك الوحيد الذي يعرف ؛ إنك الوحيد الذي يمكنه أن يدلني . أين هو ؟ ماذا حدث له ؟ قل لي يا سيدي إن كان لا يزال حيا ؟ قل لي يا سيدي إنه لا يزال على قيد الحياة . . . »

- الواقع يا سيدي أن المجلس العسكري الذي سينظر في قضية زميلي المحامي قد تلقى أمر استدعاء عاجلا للاجتماع هذه الليلة .

آآآآآ... !

وارتعشت شفتاها اللتان لم تستطع إطباقهما من الفرحة . إنه لا يزال حيا ! ومع هذا النبا جاءها الأمل .

حيا ! ... ربما إنه بريء ، ... فسيطلقون سراحه . . . بيد أن المدعي العام أضاف دون أن يغير نبرته الباردة :

- « إن الوضع السياسي للبلد لا يسمح للحكومة أن تنهاون بأي حال من الأحوال مع أعدائها يا سيدي . هذا هو كل ما أستطيع أن أقوله لك . اذهبي إلى السيد الرئيس واستمعيه للبقاء على حياة زوجك ، فقد يُحكم عليه بالموت ويعدم رميا بالرصاص ، وفقا للقانون ، بعد أربع وعشرين ساعة . . . »

- آه ، آه ، آه ، ...

- إن القانون فوق الأشخاص يا سيدي ، وما لم يعف السيد الرئيس عنه . . . - آه ، آه ، آه ، ...

ولم تستطع الحديث . ووقفت هناك وقد غاض اللون من وجهها وصار أبيض كالمندبل الذي كانت تقطعه مِرْقاً بأسنانها ، ساكنة ، بلا حراك ، نائمة الفكر ، تلوي أصابعها .

واختفى المدعي العسكري العام بين صفى السونكي . وبعد فترة من النشاط ، امتلأ فيها الطريق بعربات بها سيدات ومادة متأنقون في طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد استمتاعهم بالنزهة الرئيسية في المدينة ، بقي بعدها مستنفدا قفرا .

وأطلقت عربة ترام صغيرة تصفر وتبرق من شارع جانبي ، ومضت بعيدا نخرج على قضبانها . . . آه ، آه ، آه . . .

لم نستطع كلاما . كانت نمة كماشة باردة كالجليد تفيض على عنقها ويستحيل عليها النكاح منها ؛ وشعرت بجسدها ينزلق من كتفها إلى الأرض . لم تعد سوى رداء خالي ، برأس ويدين وقدمين فحسب . وتردد في سماعها صوت عربة أجرة تقترب عبر الطريق . وأوقفتها واستقلتها . وبدأت الجياد منتفخة كالدموع حين نوت عنقها واستدارت على أعقابها ثم توقفت . وقالت للسائق أن يحملها إلى منزل رئيس الجمهورية الريفي بأسرع ما يمكن . ولكنها كانت في عجلة وغفلة ، لهفة بانسة ، إلى درجة أنه رغم أن الجياد كانت تجري بأقصى سرعتها ، فإنها لم تتوقف عن الإلحاح على السائق بأن يجعلها تجري أسرع . . . كان عليهم أن يكونوا هناك الآن بالتأكيد . . . أسرع . . . لا بد لها أن تنقذ زوجها . . . أسرع ، أسرع ، أسرع . . . واختطففت السوط من السائق . . . لا بد لها أن تنقذ زوجها . . . وزادت الجياد من سرعتها بفعل ضربات السوط القاسية . . . كان السوط بشوط جوانبها . . . تنقذ زوجها . . . كان عليهم أن يكونوا هناك الآن . . . ولكن العربة لا تتحرك . . . كان يوسعها أن تشعر أنها لا تتحرك ، كانت العجلات تدور حول المحاور الثابتة دون أن تتقدم على الإطلاق ؛ كانوا متوقفين في مكانهم . . . ولكن عليها أن تنقذ زوجها . . . أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل . . . وتهدل شعرها - تنقذه - وإنحلت أزرار بلوزتها - تنقذه . . . ولكن العربة لم تكن تتحرك . . . كان يوسعها أن تشعر أنها لا تتحرك ، العجلات الأمامية فقط هي التي تدور ، ولكن كان يوسعها أن تشعر بالعجلات الخلفية تتلصق بطريقة جعلت العربة تنطاول كمنفاخ الكاميرا ؛ وكانت ترى الجياد تتصاغر وتتصاغر على البعد . . . كان السائق قد استعاد سوطه منها . . . لا يمكنهم المضي على هذا المنوال . . . أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، كلاً ، لا يمكنهم . . . أجل . . . كلاً ، أجل . . . كلاً . . . ولكن ، لم لا ؟ لم لا ؟ أجل . . . كلاً ، أجل . . . كلاً . . . وخلعت عنها خواتمها ، وشبك صدرها ، وأقراطها ، وسرارها ، ووضعنها كلها في جيب سترتها ثم ألقت بها إلى السائق ، راجية منه ألا يتوقف . لا بد لها أن تنقذ زوجها . ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد . . . لا بد أن

تصل إلى هناك ، تصل إلى هناك ، تصل إلى هناك ، ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد . . . لا بد لها أن تصل إلى هناك ، وترجو الأبقاء على حياة زوجها ، وتنقذه . . . ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد . حجارة ، أخاديد ، طين جاف ، عشب أخضر ، ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد . . . إنهم ثابتون كأسلاك أعمدة البرق ، أو بالأحرى يرجعون القهقري كأسلاك أعمدة البرق ، كالأشجار المزروعة ، كالحقول الياب ، كالسحب الموشاة بأشعة الشمس الغاربة ، كتقاطع الطرق المقفرة ، كالنيران الساكنة .

وأخيرا ، دلفوا إلى الطريق المؤدي إلى منزل الرئاسة ، عبر شريط ضيق يختفي وسط الأشجار والأحراج . كان قلبها يخفق في إختناق . واتخذ الطريق مسرى وسط بيوت صغيرة لقرية مقفرة نظيفة . وهنا بدأوا يصادفون عربات عائشة من ضيعة الرئيس - طراز « لانداو » وه « سلكي » وه « كالاتش » يشغلها أناس ذرو وجوه وملابس تشبه بعضها بعضا . وتقدمت جلبة العجلات وحوافر الجياد على الطريق المرصوف ، ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد ، لم يصلوا بعد . . . وبالإضافة إلى لوثك العائدين في عرباتهم - موظفون سابقون بالحكومة ، وضباط سمان متأنقون - كانوا يصادفون أناسا آخرين سائرين على الأقدام : أصحاب أراضٍ سبق استدعاؤهم لمقابلة الرئيس بصورة عاجلة منذ شهور مضت ؛ ومزارعون يرتدون أحذية كالحقائب الجلدية ؛ ومدرسات يتوقفن كل بضع دقائق لالتقاط أنفاسهن وعبونهن يعصف بها التراب وقد تقطعت أحذيتهم من وقع الطريق وارتفعت تنوراتهن إلى ركبتهن ؛ وفرق من الشرطة الهنود لا يفقهون إلا قليلا مما يجري حولهم . لا بد لها أن تنقذه . . . أجل ، أجل . . . ولكن هل يصلون أبدا إلى هناك ؟ أول شيء هو الوصول إلى هناك ، والرجاء ، وإنقاذه . ولكنهم لم يصلوا حتى الآن . لم يبق هناك الكثير ، عبور القرية ليس إلا . كان يجب أن يكونوا هناك الآن ، ولكن القرية لا تبدو لها نهاية ! إن هذا هو نفس الطريق الذي مرت به صور يسوع وعذراء الألام عمولة على الأكتاف في يوم الخميس المقدس . وعوت الكلاب عند سماعها موسيقى الطبول الحزينة حين كان الموكب يمر أمام الشرفة التي يقف فيها الرئيس تحت ظلة من قماش أرجواني موشحة برسوم الزهور . ومر يسوع وقد انحني ظهره من ثقل الصليب الخشبي ، أمام قيصر ، ولكن نظرات الإعجاب من الرجال والنساء انجذبت إلى قيصر وليس إلى يسوع . لم

تكن الآلام بكافية . لم يكف البكاء ساعات وساعات ، لم يكف ان تشيخ
والعائلات والمدن من وطأة اليأس ؛ بل كان لزاما لمضاعفة الإثم ان تعبر عبنا
السيد الرئيس بصورة المسيح وهو يتألم ، ومر بالفعل وعيناه غائمتان تحت ظلة
ذهبية شائنة ، بين صفين من الأفافين وعلى وقع صلصلة موسيقى وثنية .

وتوقفت العربية أمام المنزل الفاخر . وأسرعت زوجة « كرفخال » تجري عبر
طريق من أشجار مقطوعة الساق . وتوجه إليها أحد الضباط يقطع عليها
الطريق .

- سيدتي ، سيدتي . . . - لقد أتيت لمقابلة الرئيس .

- السيد الرئيس لا يقابل أحدا يا سيدتي ، عودي أدراجك .

- بلى ، بلى ، سيقابلني ، أنا ، إنني زوجة المحامي « كرفخال » ومضت
قدما إلى الأمام ، متملصة من أيدي الجنود الذين أسرعوا خلفها ينادون عليها ،
حتى وصلت إلى منزل صغير تسطع أنواره الباهتة في ظلال الغسق إنهم
سيعدمون زوجي أيها الجنرال ! .

كان ثمة رجل طويل القامة ، داكن البشرة ، مرصع بالنباشين الذهبية ،
يمشي في ردهة ذلك المنزل الدمية . وتوجهت إليه وقالت له بشجاعة : « إنهم
سيعدمون زوجي أيها الجنرال ! ، وظل الضابط الذي تبعها من الخارج يردد أنه من
المستحيل عليها أن تقابل الرئيس .

وبالرغم من حسن خلق الجنرال فقد رد عليها بفتور :

- السيد الرئيس لا يمكنه مقابلة أحد يا سيدتي . لا بد لك من الذهاب . . .

- أه يا جنرال ! أه يا جنرال ! ماذا سيكون حالي بدون زوجي ؟ ماذا سيكون
حالي بدون زوجي ؟ كلا ، كلا يا جنرال ! إنه سيقابلني ، دعني أدخل ، دعني
أدخل ! قل له إنني هنا ! إنهم سوف يعدمون زوجي ! .

كانت دقات قلبها تسمع عبر ردائها . ولم يذعوها تركع على ركبتها . وكانت
أغشية أذنيها تطوفان وقد اخترقها الصمت الذي واجهوا به طلباتها .

وطففت أوراق الأشجار الذابلة في الغسق كأنما من خشية الرياح التي تهب

عليها فتطيرها من على الأرض . وتهاكت على أحد المقاعد . إن الجنود مجبولون من جليد أسود . متصلبو الشرايين . وارتفع نسيجها إلى شفيتها بصوت خفيف الشياب المنشأة ، يكاد يماثل صوت السكاكين . وكان اللعاب ينبجس من ركني فمها مع كل دفقة أنين . وتهاكت على المقعد بعد أن روته بأنينها كأنما هر حجر لشحذ السكاكين . لقد أبعدوها عن المكان الذي كان يمكن أن تعثر فيه على الرئيس . ومرت دورية حراسة جعلتها ترتعد من البرد . كانت تفوح منها رائحة مقاتق الثوم والعسل الأسود وخشب الصنوبر المنزوع اللحاء . واختفى المقعد في الظلمة كاللوح الخشبي في وسط البحر . وتحركت من مكان إلى آخر حتى لا تفرق في مقعدها وسط الظلمة ، حتى تبقى على قيد الحياة . واستوقفها حراس منبثون وسط الأشجار مرتين ، ثلاث مرات ، مرات عديدة . كانوا يرفضون بأصوات أجشنة أن يدعوها تمر ، ويهددونها إذا ألحت بكعب أو ماسورة بنادقهم . وحين صادفت الإحباط عن الشمال ، جرت ناحية اليمين . وتعثرت في الأحجار ، وأصابتها الأجمات المليئة بالاشواك بالجراح . كان طريقها يسده مزيد من حراس من جليد . وتضرعت ، وناضلت ، ومدت يدها كالمسولة ، وحين لم يصنع أي واحد منهم إليها ، أخذت تجري في الاتجاه المقابل .

وجرفت الأشجار ظلها ناحية عربة الأجرة ، ظلها الذي ما كاد يضع قدميه على سلم العربة حتى عاد مرة أخرى كالمجنون ليرى ما إذا كان يجدي الاسترحام مرة أخيرة . واستيقظ السائق وكاد أن يطرح الحلى الصغيرة الراقدة في دفء جبهه حين جذب يده بسرعة كيما يمسك اللجام . كان الوقت يمر في ببطء شديد بالنسبة إليه ، وكان توافيا إلى العودة والمياهاة وسط أقرانه ، ولديه أسلحته لذلك الغرض : أقراط ، خواتم ، أساور ، بوسعه رهنها والانتفاع بالنقود . وحك إحدى قدميه بالأخرى ، وجذب قبعته فوق عينيه ، وبصق . ماذا كان يحدث هنا في الظلام ؟ وعادت زوجة « كرفخال » إلى عربة الأجرة كالسائرة في نومها . واتخذت مقعدها في العربة وقالت للسائق أن ينتظر برهة ، فربما يفتحون الباب . . . نصف ساعة . . . ساعة . . .

وسارت العربة دون أن يصدر عنها أي ضجيج ، فلما أنها لم تسمع جيذا ، ولما أنهم لم يتحركوا بعد . . . وكان الطريق يهوي إلى قاع وهدية عبر تل شديد الأغوار ؛ وبعد ذلك ، يصعد مرة أخرى إلى المدينة . أول جدار مظلم . أول

بيت أبيض . وفي فجوة حائط ثمة إعلان عن « أونوفرف » . . . وشعرت كأنما كل شيء يلتحم بحزنها . . . الهواء . . . كل شيء . ثمة مجموعة شمسية في كل دعة تذرّفها . . ومئات من قطرات الندى تسقط من الأسطح على الأفاريز الضيقة . . . لم تكن الدماء تكاد تجري في عروقها . . . كيف حالك ؟ إنني مريضة ، مريضة جدا . . . وغدا ، كيف سيكون حالك ؟ على نفس السؤال ، واليوم الذي يليه كذلك . . . كانت ترد على أسئلتها هي نفسها . . . واليوم الذي يلي الغد أيضا . . .

إن ثقل الموق يجعل الأرض تدور ليلا ، وهي تدور بالنهار بفعل ثقل الأحياء . . . وحين يزيد عدد الموق على عدد الأحياء ، سيصبح الليل أبديا ، لا نهاية له ، ذلك أن الأحياء لن يكون لهم الثقل الكافي لإعادة النهار . . .

وتوقفت العربية . وكان الطريق منبسطا ، ولكن ليس لها ، لأنها توقفت عند باب السجن الذي لا بد يقينا أن . . .

وسارت قُدماً في بطاء ، خطوة خطوة ، ملتصقة بالجدار . لم تكن ترتدي ثياب الحداد ، ولكنها اكتسبت قدرة الخفافيش على اللمس في الظلام . . . الخوف ، البرد ، الإشمئزاز ، قهرتها جميعا كيمياً تلتصق نفسها بالجدار الذي سيردد صدى ظلقات الرصاص . . . وعلى أية حال ، فهم لن يستطيعوا إطلاق الرصاص على زوجها ، هكذا ، بينما هي واقفة هناك . كيف يحدث هذا لرجال مثله ، أناس مثله ، لهم أعين ، وفم ، وأيد ، وشعر على رؤوسهم ، وأظافر على أصابعهم ، وأسنان في أفواههم ، ولسان ، وحلق . . . ليس ممكناً أن يطلقوا النار على أناس هكذا ، أناس لهم نفس لون الجلد ، لهم نفس زنة الصوت ، نفس طريقة الإبصار ، والسمع ، والإيواء إلى الفراش ، والنهوض ، والحب ، وغسل الوجه ، والأكل ، والضحك ، والسير ، لهم نفس المعتقدات والشكوك . . .

السيد الرئيس

بعد أن تم استدعاء ذي الوجه الملائكي على جناح السرعة إلى القصر الجمهوري ، أخذ يفكر بقلق في حالة كميلة ، وقد إرتسم في نظراته الخاترة شيء من المرونة كان أمراً جديداً عليها ؛ كما إنعكس في عينيه تعبير إنساني جديد . وكان يتقلب ويتحول في دوامة شكوكه ، كالثعبان الجبان الذي يتعثر في ذيله ، هل يذهب أم لا يذهب ؟ الرئيس أو كميلة ؟ كميلة أو الرئيس ؟ .

كان لا يزال يشعر بدفعات صاحبة الخانة في ظهره تستحثه على الذهاب ورتة صوتها المتضرع ، إذ كانت ترى في ذهابه فرصة للتوسط من أجل فاسكيو . « إذهب أنت ، وسأبقى أنا هنا أرعى المريضة » . وفي الطريق ، استنشق الهواء بعمق . كان يركب عربة تتجه إلى القصر الجمهوري . ضربات حوافر الجياد على الأرض الصخرية . . . دفع العجلات السائل . وأخذ يقرأ أسماء الحوانيت بعناية وهي تمر أمام ناظره : « القفل الأحمر » . . . « خلية النحل » . . . « البركان » . . . وكانت العناوين تبدو أشد وضوحاً في الليل عنه في النهار . . . « السكة الحديد » . . . « الدجاجة والكتاكيت » . . . وأحياناً ، كانت عيناه تقعان على أسماء صينية . . . « لون لي لون وشركاه » . . . « كوان سي شان » . . . « فو كوان ين » . . . « شون شان لو » . . . « سي يون سي » . . . ومضى يفكر في الجنرال كاناليس . لا بد أنهم بعثوا في طلبه كيما يحيطوه علماً بأخير الأنباء . . . مستحيل ! . . . لماذا مستحيل ؟ . . . لقد قبضوا عليه وقتلوه . . . أو ربما لم يقتلوه بل أعادوه سجيناً . وهبت سحابة من الغبار فجأة . كانت الريح تلعب مصارعة الثيران مع العربة . كل شيء جائز ! وحين وصلوا إلى خارج المدينة ، سارت العربة في سلاسة ، كالجسم الصلب الذي يتحول فجأة إلى سائل .

وأمسك ذو الوجه الملائكي ركبتيه بيديه وتهد . وضاعت جلبة العربة وسط آلاف من أصوات الليل الذي يزحف ببطء ، حثيثا ، كرويا . وظن أنه سمع جناحي طائر يرفرفان . ومروا على بضعة منازل متفرقة . ونبحتهم كلابٌ شبه ميتة . . .

وكان وكيل وزارة الحربية في انتظاره على باب مكتبه . ولم يكذب يمر وقت كاف للمصافحة حتى وضع سيجارته على حافة منفضة السحائر وقاده مباشرة إلى جناح السيد الرئيس . وأمسك ذو الوجه الملائكي بذراع وكيل الوزارة وقال له :

- جنرال ، هل تعلم لماذا إستدعاني الرئيس ؟

- كلا يا سيد مينيليتو ، إنني « أجهل » ذلك .

وعرف عند ذاك الموضوع . وأكدت ضحكة قصيرة ، تكررت مرتين أو ثلاث مرات ، ما جعله الرد المراع لسوكيل الوزارة يحسب . وحين وصل إلى غرفة الرئيس رأى غابة من الزجاجات فوق منضدة مستديرة ، وإلى جوارها طبق من اللحوم الباردة مع ثمار الأفوكاتو وسلطة الفلفل الأخضر . وتمت اللوحة بوجود المقاعد مقلوبة على الأرض هنا وهناك . وجاهدت النوافذ بأفاريزها المصنوعة من الزجاج الأبيض المعتم ، والتي يعلو كل منها عُرفٌ أحمر ، كيما تحجب الضوء المنسلل من المصابيح التي في الحديقة . وكان الضباط والجنود القائمون بالحراسة شاكي السلاح ، ضابط على كل باب ، وجندي عند كل شجرة . وتقدم السيد الرئيس من الطرف الأقصى للغرفة ، وبدت أرضية الغرفة كأنما تتقدم تحت خطواته والسقف من فوق رأسه .

وحياه المحبوب بقوله : « سيدي الرئيس » وأسرع يضع نفسه تحت إمرته ، حين قاطعه ذاك قائلا :

- نيه . . . نيسر . . . يرقا ! *

- هل يشير السيد الرئيس إلى إلهة الجمال « منيرفا » ؟ !

واقترب فخامته من المائدة بخطوات ناعمة ، وصاح بالمحبيب دون أن يلقي بالاً لكلامه عن « منيرفا » :

• كلمة تقارب كلمة سباب بالإسبانية .

- هل تعرف يا ميغيل أن من اكتشف الخمر إنما كان يبحث أصلا عن مشروب إطالة الحياة ؟

فأسرع المحبوب يقول : كلا سيدي الرئيس ، لم أكن أعرف ذلك .
- هذا غريب ، لأن ذلك مذكور في دائرة المعارف .

- إن الأمر يكون غريبا حقا لو كان عدم معرفة ذلك من جانب رجل له مثل سعة اطلاعك سيدي الرئيس ، ومن له حق اعتبار نفسه أحد أبرز ساسة العصر الحديث . ولكن ليس غريبا أن يكون مني أنا .

وارخى فخامته جفنيه فوق عينيه حتى يخفي عن نظاريه حالة الفوضى الضاربة أطنابها فيما حوله من أشياء على النحو الذي صورتها له في تلك اللحظة حالة السكر البين التي كان واقعا تحت تأثيرها .

- إه ، أجل ، إنني أعرف الكثير !

قال ذلك ثم أرخى يده وسط غابة زجاجات الويسكي السوداء ، وصب كأسا لذي الوجه الملائكي .

- اشرب يا ميغيل .

وغص حلقه بالكلام . كان ثمة شيء قد انحسر في حلقه ، ودق على صدره ليتخلص منه ، في حين انشدت عضلات رقبته التحيلة وانتفضت عروق جبهته . وجعله المحبوب يتلمع بعض المياه الغازية ، وبعد بضع تكريمات استعاد قدرته على الكلام .

وانفجر ضاحكا وهو يشير إلى ذي الوجه الملائكي : « ها ها ! ها ها ! ها ها ! على حافة الموت » . . . انفجار وراء انفجار من الضحكات . . . « على حافة الموت » ، ها ها ! ها ها ! . . .

وشحب وجه المحبوب ، وارتجف في يده كأس الويسكي الذي شرب منه لتوه نخب الرئيس .

- السيد . . . فقطعه فخامته قائلا :

- ... الرئيس يعرف كل شيء . ها ها ! ها ها ! ... على حافة الموت ،
وينصبحة أحد المتخلفين عقليا ، كما هم كل الروحانيين ! ها ها ! ها ها ! .

ووضع ذو الوجه الملائكي الكأس على فمه وضغط عليه وهو يشرب حتى يمنع
نفسه من الصباح غضبا . لقد رأى الضوء الأحمر لنوه ، فقد كان على وشك أن
يهجم على سيده ويغنى ضحكاته البائسة في صدره ، ورأى شعلة دماثة المشربة
بالخمر . ولو كان ثمة قطار قد مر على جسده ، لما سبب له من الآلام أكثر مما كان
يشعر به الآن . كان يشعر بالقرف ، ولكنه استمر يتصرف كالكلب المتمرن
الذكي ، السعيد بنصيبه من الفادورات ، والمُشبع بغريزة حب البقاء . وابتسم
كيما يخفي عداؤه ، بيد أن الموت كان مرتسما على عينيه المخمليتين ، كشارب السم
الذي يشعر بوجهه أخذا في الاحتقان . وكان فخامته يطارد ذبابة .

- ألا تعرف لعبة الذبابة يا ميغيل ؟

- كلا سيدي الرئيس .

- آه ، حقا إنك ... على حافة الموت ! ها ها ! ها ها ! ... هي هي !
هي هي ! هو هو ! هوو . هوووه !

واستمر مفهقها يطارد الذبابة وهي تطير من مكان إلى آخر ، وقد خرج
قميصه من زنار بنطاله ، وانتفخت أزرار بنطاله ، وانحلت ميور حذائه ، وسال
اللعاب من فمه ، بينما عيناه تشعان ضوءاً أصفر كمنح اليفضة .

وقال وقد توقف لاهثا عن مطاردة فريسته : ميغيل ، إن لعبة الذبابة هي
أحسن تسلية وأسهل لعبة في العالم ؛ إن الشيء الوحيد الذي يحتاجه فيها هو
الصبر . لقد كنا نلعب لعبة الذبابة لقاء الملائيم في قريتي حين كنت صبيا .

وعبس حين ذكر قريته ، وظلمت وجهه سحابة سوداء ؛ وتحول لينظر في
خريطة للجمهورية كانت معلقة خلفه ، وصوب ضربة بقبضته إلى اسم القرية .

وأبصر في مخيلته الطرق التي جابها طولا وعرضا حين كان صبيا فقيرا ؛ فقرا
ظالما ، والتي جابها شاباً مرغماً على كسب قوته بينما الخلاسيون المنحدرون من
عائلات ثرية يفضون وقتهم متنقلين من قصف إلى قصف . ورأى نفسه ضيلا ،

يبقى في ظلال أقرانه ، منعزلاً عن الجميع ، جالساً تحت مصباح الطريق الذي تعود أن يستذكر على ضوءه ، بينما أمه تنام على سرير من الخرق البالية ، والرياح تصفح الطرق المهجورة بهبات من الهواء المحمل برائحة الأغنام . ثم رأى نفسه لاحقاً في مكتبه كمحام من محامي الدرجة الثالثة ، وسط العاهرات والمقامرين وبائعي الفضلات ولصوص الجياد ، محتقراً من بقية زملائه الذين يتناولون قضاباً هامة .

وابتلع الكثير من كؤوس الشراب ، الواحد تلو الآخر . وكانت عيناه الجاحظتان تلمعان وسط وجهه المخضوضر ، وأظافره المجللة بالسواد تحدد إطار يديه الصغيرتين . - يا لهم من جحدة !

وأسنده المحبوب من فزاعه . وبدأ كأن الرئيس يرى أمامه أشخاصاً وهو يمر بعينه عبر الحجرة المشوشة ، وقال ثانية :

- « يا لهم من جحدة ! » ثم أضاف بصوت خفيض : « لقد أحيت باراليس سونريني » وسأطل أحبه دائماً ، وكنت على وشك أن أرفعه جنراً ، لأنه داس على أهل موطني وأذلهم ، ولو لم تتدخل أمي لكان قد قضى عليهم كلبه وانتقم لي من كل ما أحمل تجاههم من ضغائن ، وهي أشياء أنا وحدي الذي أعرفها . يا لهم من جحدة ! والأقطع أنهم قتلوه الآن والناس يخططون من كل جانب لاغتياي ، وأصدقائي يتخلون عني ، وأعدائي يزدادون و... كلا ، كلا ! لن يبقى من « رواق الرب » حجر واحد .

كانت الكلمات تتدفق من شفثيه كالعربة التي تجري فوق طريق زلق . وإنحنى فوق كتف المحبوب ، ویده الأخرى تضغط على بطنه ، ورأسه بدور ، وعيناه منطفتان ، وأنفاسه باردة كالثلج ، وسرعان ما تقياً فيضا من سائل برتقالي اللون . وهرع وكيل الوزارة إلى داخل الغرفة يحمل إناء من الميناء مطبوعاً على قاعه شعار الجمهورية ؛ وحين انتهى الطوفان - وقد ذهب أغلبه فوق ملابس المحبوب - تعاون الإثنين على حمله وسحبته إلى سريره .

كان يبكي ويردد مراراً وتكراراً : - « يا لهم من جحدة ! يا لهم من جحدة ! » وهمس وكيل الوزارة للمحبوب وهما خارجان :

- « تهانّي يا سيد ميغيليتو ، تهانّي . لقد أصدر السيد الرئيس أمره بنشر خبر زواجك في جميع الصحف ، مع إدراج اسمه على رأس قائمة المحتفلين » .
ودلفا إلى البهر ؛ ورفع وكيل الوزارة صوته قائلاً :

- « وذلك على الرغم من أنه لم يكن راضياً عنك في البداية ؛ فقد قال لي .
« لم يكن ينبغي لأحد أصدقاء » باراليس سونريتي « أن يفعل ما فعل ميغيل ؛ كان
يجب على الأقل أن يلتزم إذني قبل أن يتزوج من ابنة أحد أعدائي » . ثمة أناس
يريدون إلحاق الأذى بك يا سيد ميغيليتو ، أجل ، يريدون إلحاق الأذى بك .
طبعاً ، لقد حاولت أن أجعله يفهم أن الحب عاطفة عنيدة جامحة حاسمة خادعة .
- شكراً جزيلًا يا جنرال .

فاستطرد وكيل الوزارة في صوت مرح ، وهو يدفع ميغيل دفعات ودية رقيقة
تجاه مكتبه وهو يضحك طول الوقت :

- حسناً ، تعال إذن وانظر إلى هذا . تعال أنظر إلى الصحف ! لقد حصلنا
على صورة السيدة من عمها « خوان » . رائع يا صديقي العزيز ، رائع ! .

ودس المحبوب أصابعه في كوم الصحف الخفيض . وإلى جواره صورة
الشاهد الرئيس ، كانت ثمة صورة للسيد خوان كاناليس ، المهندس ، وأخيه
السيد خوسيه أنطونيو . « عرس في الطبقة الراقية . تم في الليلة الماضية الاحتفال
بزواج الأتة الفاضلة كميلة كاناليس والسيد ميغيل ذي الوجه الملائكي .
والعروسان . . . » . وجرت عيناه إلى سطور شهود العقد . . . « وكان شهود
العقد فخامة رئيس الجمهورية الدستوري ، الذي جرت مراسم الاحتفال في
قصره ، ووزراء الدولة ، الجنرالات . . . » وعبر فوق سطور قائمة الأسماء . . .
« وعمّا العروس المحترمان ، السيد خوان كاناليس المهندس ، والسيد خوسيه
أنطونيو كاناليس » . وفي نهاية الفقرة : « وهناك صورة للأنسة كاناليس في عمود
الاجتماعيات من طبعة اليوم لجريدة « الناسيونال » . ونحن نتشرف بإزجاء التهاني
للطرفين متمنين لهما كل سعادة في بينهما الجديد » .

ولم يدر ذو الوجه الملائكي أن يتوجه ببصره . . . « معركة الفردان مستمرة .

من المتوقع أن يشن الألمان هجوماً يائسا الليلة .

وأزاح عينيه عن صفحة الأخبار الخارجية وأعاد قراءة الكلام المكتوب تحت صورة كميلة . ها قد أفحم الشخص الوحيد الذي أحبه في هذه المهزلة الشائنة التي يشتركون فيها جميعا . وتناول وكيل الوزارة الصحيفة منه .
- إنك لا تكاد تصدق عينيك ، إه ، أيها الرجل المحظوظ !

وابتسم ذو الوجه الملائكي .

- ولكنك في حاجة إلى تغيير ملابسك يا صديقي . خذ عررتي .

- شكرا جزيلا يا جنرال .

- انظر . . . إنها هناك . فل للسائق أن يأخذك إلى منزلك بأسرع ما يمكن ثم عد إلى هنا مرة أخرى . مساء الخير ونهائي . . . أوه ، وبالنسبة ، خذ هذه الصحيفة لكي تراها زوجتك ، وانقل لها التهاني من خادمك انطيم

- إنني ممتن لك على كل شيء ، مساء الخير .

وسارت العربة وبها المحبوب ، دون صوت كأنها سهم أسود يحمره جوادان عجولان من الدخان . وشكلت أغاني الجداجد سطحا فوق عزلة الحقول الفواحة بعبير الخزامى ، وعزلة حقول الذرة التي بكثرت في الظهور ، والمراعي المخضلة بالندى ، وسياج الحدائق المحملة بالياسمين .

وقال في سريره : « أجل ، إذا واصل الجزء مني ف سوف أخنقه » ، وأخفى وجهه في المقعد الخلفي خفية أن يقرأ السائق ما ارتسم في عينيه : كتلة لحم متجمد على صدر الوشاح الجمهوري ، والوجه المفلطح جامد ساكن ، واليدان نطيطهما الأردن حتى لا يبين منها سوى الأصابع ، والحنذاء الجلدي مغطى بالدماء .

ولم تنفق حالته العدائية الجياشة مع هزات المركبة . كان يود لو كان جالسا ساكنا سكوت الفاتل الذي يستعيد جريمته في السجن ، سكونا ظاهريا ، خارجيا ،

نزل تعويضا ضروريا عن الثورة الجياشية التي نعتجل في افكاره . كانت دماؤه تنجلي في عروقها . وأخرج وجهه من نافذة العربة في الليل البارد بينما كان ينظف ثيابه مما غرق بها من قيء سيده بمندبل بلله العرق والدموع . كان يسب ويلعن وبكي من غيظ . . . آه لو كان بإمكانه فحسب أن أنظف الضحكات التي أفرغها فوق روعي ! . .

ولحقت بهم عربة أخرى بداخلها ضابط ، ثم سبقتهم على الطريق . وومضت السماء فوق لعبتها الشطرنجية الأبدية . وكانت الجياد تحب في وحشية تجاه المدينة في سحابة من الغبار . وقال ذو الوجه الملائكي لنفسه : « كش ملك ! » إذ كان ينظر إلى سحابة الغبار التي يهرع في وسطها الضابط ليحضر للسيد الرئيس واحدة من محظياته . كان يبدو وكأنه رسول الآلهة .

وفي المحطة المركزية للسكك الحديدية ، كان العمال يفرغون البضائع بضوضاء سريعة ، وسط نخير القاطرات التي يتصاعد منها البخار . وكانت الطرقات يظللها وجود زنجي يُطل من شرفة بيت عالٍ خضراء ، وخطوات السكاري المترنحة ، ورجل غني الهيئة يجر وراءه أرغنا هائل الحجم ، كأنه مدفع يُسحب بعد الهزيمة العسكرية .

النقاط فوق الحروف

أخذت أرملة « كرفخال » تهيم من منزل إلى منزل ، حيث إستقبلوها ببرود في كل مكان ؛ ولم يجرؤ إلا القليل من الناس على إظهار حزنهم على وفاة زوجها خوفاً من اعتبارهم أعداء للحكومة . وفي بعض الحالات أطل الخدم من النوافذ ليصبحوا بها دون لياقة :

« من تريدين ؟ أوه ، لا أحد في المنزل » .

وذاب الجليد الذي هطل عليها من جراء تلك الزيارات حالما وصلت إلى منزلها . وعادت تذرف فيضانات من الدموع أمام صورة زوجها ، دونما رفيق سوى ابنتها الصغيرة ، وخادمة صماء ظلت نصيح بالطفل بأعلى صوتها : « إن حب الأب هو أعظم نعمة في الوجود ! » ، ويبغاء يردد مرارا وتكرارا : « بغيان ملوكي من البرتغال ، ملايكه خضراء وليس معه ملين ! صباح الخير أيها المحامي . صافحيني يا بولي . النسر في المضلة . رائحة ملايكه محترق . مبارك هو سر القربان المقدس ، ملكة الملائكة الطاهرة ، العذراء التي حملت دون دنس . آي ، آي ... » .

كانت قد خرجت ترجو الحصول على توقيعات على ملتمس إلى الرئيس لتسليمها جثة زوجها ، بيد أنها لم تجرؤ على ذكر الموضوع في أي من البيوت التي زارتها ؛ ذلك أنهم إستقبلوها دون أي ترحاب ، في تردد ، بين نوبات سعال وفترات صمت مشؤوم . ومن ثم فقد أحضرت معها الورقة تحت شالها الأسود لا تحمل أي توقيع غير توقيعها هي . كانوا يشيخون برؤوسهم جانبا ، متظاهرين أنهم لم يروها ؛ واستقبلوها على عتبة الباب دون العبارة المعهودة : « تفضل بالدخول » . وبدأت تشعر كأنها تعاني من مرض مُعدي خطي ، شيء أفتقع من

الفقر ، من الكوليرا ، من الحمى الصفراء ؛ ورغم ذلك فقد تلقت إبلا من « الخطابات الغفل » كما تقول الخادمة الصماء كلما عثرت على خطاب ملقى من تحت فرجة باب المطبخ الصغير الذي يطل على زقاق مظلم مهجور ، وهي أوراق مطوية مكتوبة بخط مرتعش توضع هناك تحت ستار الليل ، وكان أقل وصف يخلعونه عليها في تلك الخطاب هو القديسة ، الشهيدة ، الضحية البريئة ، بالإضافة إلى رفع مكانة زوجها التمس إلى السماء ، ووصف الجرائم التي ارتكبتها الكولونيل « باراليس سونرينتي » بتفاصيلها البشعة .

وفي صباح اليوم التالي ، كان هناك خطابان بدون توقيع تحت عتبة الباب . وأحضرتها الخادمة ملفوفين في مبدعتها ، لأن يديها كانتا مبتلتين . وكان نص الخطاب الأول كما يلي :

سيدتي : إن هذه ليست أفضل طريقة أنقل بها لك ولاسرتك المحزونة الاحترام العميق الذي أكنه لشخصية زوجك ، مواطننا المبجل السيد « قابيل كرفخال » ، ولكن إسمحي لي أن أبدأ إلى هذه الطريقة من باب الحرص ، ذلك أن بعض الحقائق لا يمكن استئمانها للورق . ويوما ما سأقول لك إسمي الحقيقي . لقد كان والدي أحد ضحايا ذلك الرجل الذي تتظره كل أهوال جهنم - الكولونيل « باراليس سونرينتي » - ذلك القاتل المأجور الذي سوف نُسَطَّرُ أفعاله يوما ما في صفحات التاريخ ، إذا كان يوجد من هو على استعداد لأن يغمس قلمه في سم الثعابين ليكتبها . لقد قتل هذا الرجل الجبان والدي في طريق مهجور منذ سنوات عديدة . ولم يثبت شيء ، بالطبع ، وكانت الجريمة سظل لغزا لو لم يتقدم أحد الغرباء الذي كتب إلى أسرتي ، دون توقيع ، يصف الجريمة البشعة بالتفصيل . ولأنني لا أعلم ما إذا كان زوجك ، هذا الإنسان المثالي ، هذا البطل الذي له في قلوب مواطنيه تمثال من المجد ، هو في الحقيقة من انتقم من جرائم « باراليس سونرينتي » ، ذلك أن هناك عددا من القصص المختلفة متداولة حول هذا الموضوع ، ولكن هل أية حال فإنني أرى من واجبي أن أعبر لك عن خالص عزائي ، وأن أؤكد لك يا سيدتي أننا قد بكينا جميعا معك لخسارة رجل خلص بلده من أحد رجال العصايات المتعدين الذين يسيئون إليه ، والذين يستغلون ذهاب

أمريكا الشمالية لإخضاعه لحكم الحديد والنار .

وتقبلي تحياتي .

(صليب قلعة رافا)

كانت الأرملة مستزفة فارغة ، قد شلها قصور عميق عن الحركة جعلها تبقى راقدة في سريرها ساعات طويلة كالجثة أو هي أشبه ، فعصرت أنشطتها على مجال منضدة مجاورة لسريرها (وعليها الأشياء التي تحتاج إليها دائما حتى تتجنب النهوض) وعلى هجمات من المستيريا تتأبها إذا حاول أي شخص فتح الباب أو استخدام مكنسة أو صدر عنه أي صوت بالقرب منها . وخلعت الظلمة والصمت والقذارة هيئة على عزلتها ، على رغبتها في أن تكون وحيدة مع خزنها ، مع ذلك الجزء منها الذي مات مع زوجها والذي كان يسيطر تدريجيا على جسدها وروحها .

وبدأت نقرأ الخطاب الآخر الغفل من التوقع بصوت عالٍ :

سيدني المحترمة المجللة : سمعت من بعض الأصدقاء أنك قد وضعت أذنك على جدران السجن ليلة إعدام زوجك ربما بالرصاص . وحتى لو أنك سمعت وأحصيت الطلقات التسع ، فإنك لن تعرفي أيها اختطفت المحامي «كرفخال» ، رحمة الله عليه ، من بين الأحياء .

وبعد كثير من التردد خوفا من أن أصيب لك ألما ، قررت أن أكتب إليك باسم مسنعار - فمن الخطورة استئمان الخطابات هذه الأيام - لأنقل إليك كل ما أعرف عن الموضوع ، فقد شهدت الإعدام . كان ثمة رجل نحيف أسمر البشرة وذو شعر أشيب يغطي جبهته العريضة ، يمشي أمام زوجك . ولم أفلح في معرفة اسمه .

وبرغم المعاناة التي تبدت في دموعه ، كانت عيناه الغائرتان تشعان بشعور دافق من الرحمة الإنسانية ، وكان بوسع المرء أن يقرأ فيهما أن صاحبهما رجل نبيل وكريم . وكان المحامي يتعثر خلفه دون أن يرفع عينيه عن الأرض - وربما أيضا لم يكن يراها - يبلل العرق جبهته ، وإحدى يديه على صدره ربما ليمنع قلبه من أن ينفجر . وحين خرج إلى القضاء ورأى نفسه محاطا بالجنود ، حك عينه بظهر يديه كأنما هو لا يصدق ما يراه . كان يرندي حلة ناعلة صغيرة عليه بحيث لا تصل

أكمام السترة إلا إلى مرفقيه ، ولا يصل البنطال إلا إلى ركبتيه ، ملابس قديمة
مجمعة قذرة مهلهلة ، ككل الملابس التي يرتديها السجناء المحكوم عليهم
بالإعدام ، بعد أن يعطوا ملابسهم الأصلية إلى أصدقائهم الذين يخلفونهم وراءهم
مقبورين في زنانات السجن التحتية ، أو إلى حراس السجن مقابل بعض
الخدمات الخاصة . كانت فتحة قميصه لا يقيمه سوى زر واحد من العظم .
ولم يكن يرتدي ربطة عنق ولا حذاء . بيد أن وجود رفاقه في الكارثة معه ،
أنصاف عرايا مثله ، أنعش شجاعته . وبعد أن فرغوا من قراءة حكم الإعدام ،
رفع رأسه ونظر في حزن إلى صف حراب السونكي وقال شيئا غير مسموع .
وحاول الرجل المحرم الذي كان بجواره الكلام هو الآخر ، ولكن الضباط أسكتوه
بتهديده بسيوفهم . كانت أيدي الضباط ترتعش من جراء الخمر التي شربوها ،
وبدت سيوفهم كالشمعات الزرقاء للكحول المحترق في ضوء القنبر الشاحب .
وفي تلك الأثناء ، ارتج صوت مصطدما بصداه المتردد من الجدران وهو ينطق
عبارة : « من أجل الأمة ! » ، وتبع ذلك واحد ، إثنان ، ثلاث ، أربع ،
خمس ، ست ، سبع ، ثمان ، تسع دورات من الرصاص . وكنت أعدها على
أصابعي ، دون أن أشعر بما أفعل ، ولذلك فقد تولد لدي منذ ذلك الوقت انطباع
غريب بأن عندي إصبعاً زائداً . وأغلق الضحايا عيونهم وثنوا أجسادهم كأنما
ليتخسوا طريقهم بعيداً عن مرمى الموت . وارتفع نقاب من الدخان فاصلاً بيننا
وبين هذه الحفنة من الرجال الذين جاهدوا عبثاً أن يمسك الواحد منهم بالآخر إذ
هم يسقطون بدلاً من أن يهتوا وحدهم إلى الفراغ . وارتجت طلقات الرحمة
كانفجار الصواريخ الرطبة التي يتأخر مقعولها وتنفجر على نحو رديء . وكان من
حسن حظ زوجك أن قتلته أول دورة من الرصاص . وكان يُسمع عالياً ، في
السماء الزرقاء البعيدة المنال ، صوت الأجراس والأطيار والأنهار ، خافتاً لا يكاد
يبين . وقد قيل لي أن المدعي العسكري العام قد اضطلع بدفن الجثث — » .

وقلبت الصفحة في لهفة ، « الجثث » ، بيد أن بقية الكلمة لم يكن لها وجود ،
ولا أي صفحات أخرى ؛ فقد انقطع الخطاب فجأة ، ولم يكن هناك من بقية له .
وأعادت قراءة الخطاب ، ولكن عبثاً ، ويحشت داخل المظروف ، وقلبت
الفراش ، ويحشت في الوسائد ، وعلى الأرض ، وعلى المائدة ، وقلبت كل شيء

رأساً على عقب في لففتها لأن تعرف أين دفن زوجها. وفي الفناء ، كان البيغاء يهذر :

« بغبغان ملوكي من البرتغال ، ملابسه خضراء وليس معه مليم ! آه ، ها هو المحامي يأتي ، مرحى أيها البغبغان الملوكي ! قال لي الكذوب ! إني لا أبكي ولكني لا أنسى ! »

*

تركت خادمة المدعي العسكري العام أرملة « كرفخال » واقفة على عتبة الباب والتفتت إلى امرأتين تتحدثان بأعلى صوتيهما في ردهة المدخل .

كانت إحداهما تقول : اسمعي ، اسمعيني فحسب ، اذهبي وقولي له إنني لن أنتظره أكثر من ذلك . إنني لست من الهنود ، عليه اللعنة ، حتى يتركني « وقفائي يفمر عيشا » على هذا المقعد الحجري ! إنه يذكرني بوجهه القبيح ! قولي له إنني قد جئت أرى ما إذا كان سيرد لي أخيراً العشرة آلاف بيزو التي اختلسها مني لقاء امرأة من سجن « كاسا نويفا » ظهر أنها لا تفزع منها لدي ، لأنه في اليوم الذي أحضرتها فيه إلى منزلي وقعت فريسة نوبة صرع . ثم ، اسمعي ، قولي له إنها آخر مرة سأزعجه فيها ، لأن ما سأفعله الآن هو الذهاب للشكرى إلى السيد الرئيس .

وقالت لها المرأة الأخرى : لا تعكري دمك يا سيادة « نشون » ، إطرحي عنك هذا الوجه الغاضب البيا ثم .

وحاولت الخادمة الكلام إلى المرأة الأخرى : آتسي . . . ولكن الأنسة قاطعتها قائلة : إخرسي أنت .

ـ قولي له ما قلت لك ، ولا تقبلي منه الزعم بأنني لم أعطه فسحة من الوقت : قولي له إن السيدة « نشون » قد جاءت لتراه مع إحدى الفتيات ، وحين علمنا أنه ليس هنا ، ذهبتا فائتتين إنه سوف يرى من أي معدن هما

ولم تدرك أرملة « كرفخال » شيئا مما يجري حولها ، إذ كانت مستغرقة في أفكارها . كانت تبدو في ثيابها السوداء ، لا يظهر منها إلا وجهها ، مثل الجثة المسجاة في نعش ذي نافذة . وربتت الخادمة على كتفها . وبدت أصابع المرأة المعجوز كأنها هي مغطاة بخيوط العنكبوت . ودعتها إلى الدخول . ودخلتا المنزل .

ولم يكن بوسع الأرملة التحدث بوضوح ، بل كانت همهم كإمرىء قد تعب من طول القراءة بصوت مسموع .

- أجل يا سيدي ، إتركي خطابك معي . وحين يحضر - ولن يطول ذلك كثيرا إذ أنه كان يجب أن يكون هنا الآن بالفعل - سوف أعطيه له وأقول له ما تريد . - بحق الله

وفي اللحظة التي كانت أرملة « كرفخال » تغادر فيها المكان ، ظهر شخص يرتدي حلة قطنية بلون القهوة ، يتبعه جندي قد علّق بندقيته « الرمنغتون » فوق كتفه ، وخسجرا في زناره ، ونظافا مليئا بخراطيش الرصاص حول عجزته .

وقال ذلك الشخص للخادمة : من فضلك ، هل المدعي العسكري العام موجود ؟

- كلا ، إنه ليس هنا .
- وأين أستطيع أن أنتظره ؟
- إجلس هنا ، والجندي أيضا .

وجلس السجين وحارسه في صمت على المقعد الحجري الذي أشارت إليه الخادمة لهما من غير رقة .

إن الفناء يعبق برائحة زهور رعي الحمام والبيفونيا . وكانت ثمة قطرة تمشي على سطح المنزل ، وعصفور يحاول الطيران داخل قفصه الخيزراني . ومن بعيد ، كان يُسمع صوت خرير المياه التي تنساب في خول إلى النافورة كأنها يصيبها الدوار من السقوط .

وأغلق المدعي العسكري العام الباب في صلصلة من المفاتيح ، ثم وضعها في جيبه وتوجه إلى السجين والجندي . ووقف كلاهما .

وتساءل وهو يشنّ بأنفه : « خينارو روداس ؟ » كان البيت ، في كل مرة بدخل من الخارج ، يعبق برائحة مخلفات القطط .

- أجل يا سيدي ، في خدمتكم .

- هل يفهم حارسك اللغة الإسبانية ؟
- فرد روداس : « قليلا جدا منها » . والتفت إلى الجندي وأضاف :
- ما قولك ؟ هل تفهم القشتالية ؟
- نصفت نصف .
- فقال المدعي العام : حسنا جدا . يحسن أن تبقى هنا . وسوف أتحدث معه .
- إبق هنا إلى حين أن يعود ، سوف يتحدث معي .
- وتوقف روداس على باب حجرة المكتب . وطلب إليه المدعي العام الدخول ، ووضع الأسلحة التي كانت معه على منضدة مغطاة بالكتب والأوراق ، سدس ، وخنجر ، وحزام يد معدني ، وهرادة قصيرة .
- أظن أنهم قد أخطروك بالحكم ؟
- أجل يا سيدي .
- ست سنوات وثمانية شهور ، على ما أذكر .
- ولكن يا سيدي ، إنني لم أكن شريكا للرسو فاسكيز ، لقد فعل ما فعل دون أي مساعدة مني ؛ وحين وصلت إلى ذلك المكان ، كان الأبله يتدحرج بالفعل على سلاسل الرواق مغطى بالدماء وشبه ميت . ماذا كان يوسعي أن أفعل ؟ كانت أوامر . قال لي إنها أوامر صادرة إليه .
- حسنا ، لقد نفذ فيه حكم الله بالفعل
- والتفت « روداس » لينظر إلى المدعي العام ، كما لو لم يكن بإمكانه أن يصدق ما كانت سيئات وجهه الشريرة تؤكد ، وظلا صامتين . ثم نهده « روداس » قائلا :
- « لقد كان شابا طيبا » . ثم خفض صوته وهو يقول العبارات التالية في ذكرى صديقه ، وكان قد تلقى النبأ بين دقتين من دقات قلبه وما هو بشعر به في دماحه :
- « حسنا ، لا فائدة ترجى الآن ! لقد كنا ندعوه « بالقטיפه » لأنه كان دائما يعرف من أين تُقطف الثمرة » .
- لقد حُكم عليه طبقا لعريضة الاتهام على أساس أنه مقترف الجريمة ،
- وعليك بوصفك شريكا له . - ولكنني وكلت محاميا عني .

- لقد كان المحامي بالذات في الواقع ، وهو يعرف رأي السيد الرئيس من القضية ، هو الذي طلب الإعدام لفاسكيز وأقصى عقوبة لك .

- يا للشباب المسكين ! إنني على قيد الحياة على الأقل ، احكي القصة .

- وبإمكانك أن تصبح حرا على الفور إذا كنت رغبت ، لأن السيد الرئيس بحاجة إلى شخص مثلك ، شخص جرب السجن فترة لأسباب سياسية . إن الموضوع يتعلق بمراقبة واحد من أصدقائه ، لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد أنه بخونه هل تعني . . . ؟

- هل تعرف ميغيل ذا الوجه الملائكي ؟

- بالاسم فقط . إنه ذلك الذي اختطف ابنة الجنرال كاناليس ، أليس كذلك ؟

- أجل ، إنه هو . إنك ستعرف عليه بسهولة لأنه وسيم للغاية : رجل طويل ، حسن البنية ، أسود العينين ، شاحب الوجه ، حريري الشعر ، رشيق الحركة . إنه عميل خطير ، وتريد الحكومة أن تعرف كل شيء يقوم به ، والناس الذين يزورهم أو يتحدث معهم في الطريق ، والأماكن التي يتردد عليها في الصباح وفي الظهيرة وفي الليل ، ونفس الشيء بالنسبة إلى زوجته . سوف أعطيك تعليمات كاملة ونفودا كافية لذلك الغرض .

وتابع السجين حركات المدعي العام في بلادة ، إذ تناول بعد كلماته تلك ريشة من على المنضدة وغمسها في بحيرة كبيرة عليها تمثال للإلهة « تيميز » واقفة بين بشرين من الحجر الأسود ، وأعطاهما إلى « روداس » قائلا :

- وقّع بإمضائك هنا ، وماصدر أوامري غدا بإطلاق سراحك . جهز أشياءك كيما تخرج غدا .

ووقع « روداس » باسمه . وكان السرور يرقص في ثنايا جسده كالشور الصغير الخائج .

وقال وهو يخرج : « إنني ممنن جدا ، جدا . وكاد أن يقبل الجندي الذي كان بانتظاره ، وعاد إلى السجن كرجل ذاهب إلى الجنة .

بيد أن المدعي العكري العام كان أشد سرورا بالورقة التي وقّع عليها
« روداس » بامضائه ، والتي كان نصها كما يلي :

نسلمت من السيدة « كونيبيون غاموسينو » ، ولقبها « ذات السن
الذهبية » ، صاحبة محل الدعارة المسمى « النشوة اللذيذة » ، مبلغ عشرة آلاف
بيزو بالعملة المحلية ، وهو مبلغ أعطته لي كتعويض جزئي عن الضرر الذي سببه
لي بإغواء زوجتي - السيدة « فيدينا دي روداس » - بأن إستغلت حسن نيتها
وطيبتها ، واستغلت السلطات بأن عرضت عليها العمل كخادمة لديها ، ثم
أخرجتها ، دون أي تصريح بذلك ، في عداد الفتيات اللاتي يعملن في بيت الدعارة .

غينارو روداس

وسمع صوت الخادمة تقول من وراء الباب :

- هل يمكنني الدخول ؟

- أجل ، ادخلي .

- لقد أتيت لأرى ما إذا كنت تحتاج لأي شيء . إنني ذاهبة إلى الحانات
لشراء شمع ، ولا بد أن أقول لك إنه قد حضرت إلى هنا امرأتان من بيت
الدعارة ، قالتا لي أن أقول لك إنه إذا لم تُعَد إليهما العشرة آلاف بيزو التي سرقتهما
منهما ، فسيذهبان ويشكوان للرئيس .

ونتم المدعي العام وقد بدا عليه الضيق وهو ينحني ليلتقط طابع بريد من على
الأرض ، وماذا أيضا ؟

- كما حضرت سيدة في ملابس الحداد تريد رؤيتك ، وأظن أنها زوجة الرجل
الذي أعدم . . .

- أي واحد فيهما ؟

- السيد « كرفخال » . - حسنا ، وماذا كانت تريد ؟

- لقد أعطتني المسكينة هذا الخطاب . أظن أنها تريد أن تعرف أين دفن
زوجها .

وبينما المدعي العام يتطلع في تردد إلى الورقة المحاطة بالسواد ، استطردت الخادمة تقول : عليّ أن أقول لك إنني قد وعدتها بأن أبذل جهدي لمساعدتها لأنني أشعر بالأسف من أجلها ، فخرجت المسكينة وهي تؤمل خيراً .

- لقد قلت لك مرارا وتكرارا إنني لا أحب أن تتعاطفي مع الناس . يجب عليك ألا تشجعهم على الأمل خيرا . متى ستفهمين أن عليك ألا تشجعي الناس على الأمل خيرا ؟ في بقي ، أول شيء ، يجب على الجميع ، حتى القطة ، أن يتعلموه هو أنه لا توجد أسباب لأي أمل من أي صفة لأي شخص . إن المرء لا يمكن الاحتفاظ بمنصب مثل مناصبي إلا إذا أطاع الجميع أوامره ؛ والقاعدة التي استنّها السيد الرئيس هي عدم إشاعة أي أمل ، وينبغي ركل الناس وضربهم والدوس عليهم إلى أن يتبينوا ذلك . حين تأتي تلك السيدة ، عليك أن تعيدي إليها خطابها ، مطوبا كما هو ، وتقول لها إنه لا سبيل لها إلى معرفة المكان المدفون فيه زوجها .

- لا تغضب هكذا وإلا فسوف تقع فريسة للمرض . سأقول لها ذلك . رعاك الله وسدد خطاك .

وخرجت تحمل الخطاب ونحرق قدميها ، واحدة بعد الأخرى ، واحدة بعد الأخرى ، تحت تنورتها المنشأة .

وحين بلغت المطبخ ، جمّدت الخطاب بين أصابعها وألقت به وسط الفحم . وتغضنت الورقة بين النيران كأنها جسم حي ، ثم تحولت فجأة إلى كتلة من اللبدان الصغيرة المصنوعة من أسلاك الذهب . ومشت قطة سوداء عبر الرفوف حيث اصطفت مرطبانات البهارات ، منبسطة كالجسور ، ثم قفزت على المقعد الحجري إلى جوار المرأة العجوز ، وحكّت نفسها على بطنها العقيم ، وهي تهزّ كصوت تطاول إلى أن أصبح ذا أقدام أربعة ؛ ثم ثبتت عينيها الذهبيتين ، في حب استطلاع شيطاني ، على قلب النيران التي كانت الآن قد أنت على الخطاب وأحالته رمادا منشورا .

نور للعميان

كانت « كميلة » تقف في وسط الحجرة ، معتمدة على ذراع زوجها وعلى عصا للمشي . وكان الباب الرئيسي للحجرة يطل على فناء تفوح منه رائحة القسط والجرا ، أما النافذة فهي تطل على المدينة التي أحضروها إليها في دور النفاة على كرسي ذي عجلات ؛ وكان ثمة باب آخر صغير يقضي إلى حجرة مجاورة . وبرغم الشمس التي تغرب على طول نيران عينيها الخضراوين ، والهواء الذي يملأ رثيها كالسلسلة الثقيلة ، فقد تساءلت كميلة متعجبة إذا كانت هي التي تسير على قدميها ثانية . وبدأت لها قدمها أكبر من المعتاد ، وسافها كمكازين . كانت تبدو وكأنها تسير في عالم آخر وعيناها مفتوحتان على وسعها ؛ كانت مولودة من جديد ، دونما وجود ، تحيط بها الأشباح التي تسير في زبد من خيوط العنكبوت . كانت تشعر كأنها قد ماتت مع احتفاظها بوجودها ، كما يحدث في الأحلام ، ثم عادت إلى الحياة لتجد أنها تجمع بين واقعها وبين الحلم . كان والدها ، ربيها ، ومربيها ، يشكلون جزءاً من وجودها الأول . أما زوجها ، والمترل الذي يقطنه مؤقناً ، والخدم ، فهم وجودها الجديد . كانت من تسير هي وليست هي . الاحساس بالعودة إلى الحياة في حياة جديدة . وكانت تتكلم عن نفسها كأنها تتكلم عن شخص يعتمد على عصا من حياتها السابقة ؛ وكانت تتفهم أشياء غير منظورة ؛ فإذا تركوها وحدها غرقت في ذلك العالم الآخر ، جالسة تسرح بعيداً بأفكارها ، جامدة الشعر ، ويدها ترقدان في حجر تنورنها الطويلة التي تدل على عرسها الذي تم قريباً ، بينما الضجيج بصطخب في أذنيها .

وسرعان ما كان يوسعها أن تتجول في البيت ، ورغم ذلك فقد ظلت علية ، أو قل إنها ظلت غارقة في تقييم الأشياء المهولة التي وقعت لها منذ طبع زوجها أول قيلة له على خدها . كان الأمر أكثر مما تستطيع احتمالها ، بيد أنها تشبثت به بوصفه

الشيء الوحيد ملك يمينها حقيقة في عالم غريب عنها . كانت تستمتع بمنظر القمر ، في عليائه وفي ظلاله المنسكبة على الأرض ، أمام البراكين التي يظللها غمام السحب ، تحت النجوم المتلألئة كأنها حشرات ذهبية في برج حمام سامق خالٍ .

وأحس ذو الوجه الملائكي أن زوجته ترتعد داخل ثيابها الصفوية البيضاء ، لا من البرد ، لا كما يرتعد الناس عادة ، بل كما ترتعد الملائكة ، فقادها من يدها خطوة خطوة إلى حجرة نومها . تمثال الرأس الهائل الحجم فوق النافورة . . . السرير المعلق الساكن ، والمياه ساكنة سكوت السرير المعلق . . . أصص زهور رطية . . . زهور صناعية . . . عمارات يصل بينها ضوء القمر . . .

وأويا إلى فراشيهما ، يتحادثان من غرفة إلى الأخرى . كان ثمة باب يصل ما بين حجرتيهما . وخرجت الأزرار من عراها في وسن بصوت رقيق يحاكي صوت زهرة تُقطع ، وسقطت الأحذية على الأرض . كسقوط المرساة في عرض البحر ، وانسلخت الجوارب من على السيقان كما ينسلخ الدخان من المدخنة . وتحدث إليها ذو الوجه الملائكي عن أدوات الزينة الخاصة به المصقوفة على منضدة إلى جوار حامل المنشفة ، كما يخلق جوا عائليا في هذا المنزل الضخم الذي يبدو مهجورا ، وكما يُقصي أفكاره عن ذلك الباب الصغير الضيق ، كبوابة السماء ، الذي يفصل بين حجرتي نومهما .

ثم دلف إلى فراشه بكل ثقله ، وراقب فيه فترة طويلة دون أن يتحرك ، يرفل في المد الغريب ، محيلاً العلاقة التي تنمو ثم تتحطم باستمرار فيما بينهما . لقد اختطفها كما يستحوذ عليها بالقوة ؛ ثم لما الحب بينهما بدافع الغريزة العمياء ، فهجر خططه الأولى وحاول أخذها إلى بيت عمها ، ولكن الباب هناك يُوصد دونها . ولذلك فقد عادت إلى حوزته مرة أخرى ، ولا شك أنه لم تكن ثمة مخاطرة في الاستحواذ عليها آنذاك ، طالما أن الجميع يظنون فيه هذا الظن . بيد أنها تعلم حقيقة الأمر وتحاول تجنبه . ووقف مرضها عقبة أمام استحواذه عليها . ومساءت حالتها في ساعات قليلة . لقد كانت تموت . سوف يأتي الموت ويحل المشكلة . وهو يعلم ذلك ويبدو أحيانا مستكيناً للأمر رغم أنه يتمرد على هذه القوى العمياء في أغلب الأحيان . وتحبط دعاوى الموت أعز آماله ، والقدر يستظر حتى آخر لحظة كما يجمع بينهما .

كانت كالطفلة اولا حين لم تكن تستطيع المشي بعد ، ثم في طور المراهقة بعد
أن نهضت ومشت خطواتها الاولى ؛ وبين ليلة وضحاها ، استردت شفاتها لون
الدماء ، وامتلأ مشد صدرها بما يحمله من ثمرة ؛ وكانت نحس بالاضطراب
ويندى منها العرق حين يقترب منها الرجل الذي لم تتصور أنه سيكون زوجها .

وقفز ذو الوجه الملائكي من الفراش . وشعر بأن ما يفصل بينه وبين كميله
خطأ لم يقره أي منهما ، بزواج لم يوافق عليه أي منهما . وأغلقت كميلا عينيهما .
وابعدت خطواته ناحية النافذة .

كان القمر يختفي ويظهر من ثايا أركان السحب السابحة ، والطريق ينساب
كنهر من عظام بيضاء تحت جور من الظلال . ومن حين لآخر ، يحكي كل
شيء ، كالصدأ الذي يعلو الآثار القديمة ، ثم يظهر بعد ذلك موشحا بندف من
الذهب . وتدخل جفن أسود عريض وقطع أسنار هذه الرؤيا التي تبدى خلال
أجفان خافتة . وبدأت رموشه الهائلة وكأنما تبرغ من أعلى البراكين قاطبة ، وتنتشر
بخطى العنكبوت الهائل فوق هيكل المدينة ، دامغة إياها بظلال الحداد . وهزت
الكلاب آذانها كمقابض الأبواب ، وحلقت طيور ليلية في أفق السماء ، وانتقلت
أهة من شجرة سرو إلى شجرة سرو ، وسرت أصوات ملء الساعات الدقاقة .
واختفى القمر كلية وراء قمة فوهة بركان عالية ، وهبط ضباب كنقاب العروس
فوق أسطح المنازل . وأغلق ذو الوجه الملائكي النافذة . وكانت كميلا في غرفة
نومها تفر أنفاسا بطيئة ثقيلة كأنما هي قد نامت ورأسها تحت الأغطية ، أو كأن
نمة شبحا يرقد على صدرها .

وكانا يذهبان أحيانا في تلك الأيام للاستحمام . وكانت ظلال الأشجار ترقط
القمصان البيضاء التي يرتديها الباعة الجوالين ، الذين يحملون الأوعية الفخارية ،
والمكاسر ، وطيور الزينة في أقفاصها الخيزرانية ، وأكواز الصنوبر ، والفحم ،
وأخشاب التدفئة ، والذرة . كانوا يتنقلون في مجموعات تغطي ساحات شاسعة ،
يمشون على أطراف القدم دون أن يرمحوا كعصهم أبدا على الأرض . وكانت
الشمس تعرق منهم . وكانوا يلهثون ، ويلوحون بأذرعهم ، ثم يختفون كالطيور
المهاجرة .

وتوقفت كميلا في ظل كوخ نرفب عملية جمع حبات البن . كانت أيدي

القاطفين تتحرك وسط العناقيد المعدنية كأنها الحيوانات النهمجة ، فوق ، تحت ، ثم تلقي في جنون كأنها تدغدغ الشجرة ، ثم تتباعد كأنها تفك أزرار قميصها .

وأحاط ذو الوجه الملائكي بخصرها ثم قادها عبر ممر ينسبط تحت أحلام الأشجار الدافئة . كانا يشهران برأسيهما وجذعيهما ، أما ما تبقى ، الساقان واليدان ، فكانت تطفو معهما وسط زهور الأوركيد والسحالي ذات الألوان البراقة ، في نور فاتر تحول تدريجيا إلى ظلمة عسلية إذ هما يمضيان قدما داخل الغابة . وكان يشعر بجسد كميلة من خلال بلوزتها الرقيقة كما يحس المرء بحبات الذرة الناعمة الحريرية الرطبة من خلال الأوراق الناصرة : وكان الهواء يعبث بشعرهما . وحين وصلا إلى مكان الاستحمام كانت الشمس غافية على صفحة المياه ، ونمة مخلوقات خفية تطفو وسط ذوايات أعشاب السرخس الظليلة . وخرج ملاحظ الحمامات من كوخ ذي سطح من الزنك وهو يأكل حبات الفاصولياء ، وحياهما بإمضاء من رأسه ، وابتلع حفنة الفاصولياء التي كانت بين شذقيه ، وأخذ يتطلع إليهما بنظرة فاحصة تدل على الاعتداد بالنفس . وطلبا حمامين . وذهب لإحضار المفاتيح ، وفتح لهما كابينتين يفصل بينهما حاجز . وتبادلا قبلة سريعة قبل أن يذهب كل منهما إلى كابينته . وكان ملاحظ الحمامات يعانق من ألم في إحدى عينيه ولذلك فقد غطى وجهه لحمايتهما .

وشعرا بالضربة ، بعيدين أحدهما عن الآخر ، ضائعين وسط مهممات الغسابة . وخلع ذو الوجه الملائكي ملابسه أمام مرآة مخطومة بمجلة الشباب الوثأب . لماذا يتعين على المرء أن يكون رجلا ! ، حين يكون من الأفضل له أن يكون شجرة ، سحابة ، يعسوبة ، فقاعة ، أو طائرا مغردا ؟ وصرخت كميلة حين لمست قدميها المياه الباردة وهي نقف على أول درجة في سلم حوض الاستحمام ؛ وصرخت مرة أخرى حين نزلت إلى الدرجة الثانية ، وعلا صراخها مع الدرجة الثالثة ، واشتد حدة مع نزولها إلى الدرجة الرابعة . . . ثم . . . « سبلاش » ! وانتفخ قميصها الهندي كأنه البالونة ، ولكن المياه غمرته في نفس لحظة امتلائه بالهواء تقريبا ، فصاغت جسدها في ألوان القماش الغامقة من زرقاء وخضراء وصفراء : نهذان متوثبان . ويطن خصاء ، وإنحاءة رقيقة عند الفخذين ؛ ظهر أملس ، وكتفان تحيلان نوعا ما . وبعد أن أتمت « الفطرس » ،

خرجت ثانية من الماء وقد أحست بالاضطراب شيئا ما من الصمت الذي ران على أعشاب البوص ، والذي بدا كأنه يمد يدا إلى شخص مختفٍ هناك ، روح غريب يحوم فوق الحمامات ، أفعى ملونة باللوان الفراشات . ولكنها سمعت صوت زوجها يسأل من وراء الباب عما إذا كان بوسعه الدخول ، وأحست بالأمان .

وتقافزت المياه معها كأنها حيوان سعيد . ووسط نسج العنكبوت المضيء للظلال الممتدة فوق جدران الحمامات ، شاهدا ظلال جسديهما كأنهما عنكبوتان هائلتان . وكان الهواء يعبق برائحة النباتات المائية ، وبوجود الراكبين القصية ، ورطوبة بطن الضفادع ، وأنفاس العجول الصغيرة وهي تمتص المراعي الخضراء بعد أن تحولت إلى ذلك السائل الأبيض في ضروع أمهاتها ، وبرودة شلالات المياه التي تنبجس وهي تضحك ، وطيران الذباب الأخضر في قلق . وغمرها نقاب هلامي من فؤوس خرساء ، وصوت شخص يغني في الوهاد ، ورفرفة جناحي طائر .

وأطل ملاحظ الحمامات كي يسأل عما إذا كان الجوادان اللذان وصلا من قرية « لاكبراديتاس » لهما . لقد حان الوقت لارتداء الملابس ومغادرة الحمامات . وشعرت كميله بدودة تثني في المنشقة التي ألفتها حول كتفيها لحماية ملابسها من شعرها المبلل . ولم يستغرق إحساسها بها ، وصرختها ، وإسراع ذي الوجه الملائكي لنجدتها وقتل الدودة ، سوى ثوانٍ معدودات . بيد أنها لم تعد تحس بالمتعة بعد ذلك ، فقد بدأت تشعر بالخوف من الغابة ، وبدا كأنها هي تغرق في لُحاث رطيب ، وسبات بلا أحلام ، تنفض عنها الدود .

وكان الجوادان يذبان عنها الذباب بطرفي ذيلهما تحت شجرة تين . وهرع السائس الذي أحضرهما نحو ذي الوجه الملائكي وقبعته في يده .

- آه ، أهوانت . صباح الخير ! ماذا تفعل هنا ؟ ...

- إني أعمل . إني هنا منذ تفضلت عليّ وأخرجتني من معسكر الجيش ، منذ عام تقريبا أرى أن الوقت قد سرقنا . . .

- يبدو هذا سوف تغرب الشمس عما قليل يا سيدي ، وأمامنا مشوار طويل .

وسأل ذو الوجه الملائكي كميلاً ما إذا كانت تريد العودة الآن . وتوقف كي يدفع الحساب للملاحظ الحمامات .

- كما يحلو لك .

- « ولكن ، ألا تشعرين بالجوع ؟ ألا ترغين في تناول شيء من الطعام ؟ ربما كان بوسعنا شراء شيء من الملاحظ » .

واقترح عليهما السائس قائلاً : « الكما في بعض البيض ؟ » واستخرج من جيب سترته ، التي امتلأت بالأزرار التي فاقت عدد عراها ، منديلاً ملفوفاً به ثلاث بيضات . قالت كميلاً : شكراً جزيلاً . يبدو أنها طازجة للغاية .

- الشكر لك يا عروسة . أما عن البيض ، فهو طازج جداً ، فقد وضعته الدجاجات لتوها هذا الصباح ، وقد قلت لزوجتي : اتركي هذه على حدة فلاني أزمع حملها إلى السيد الملائكي .

وودعا ملاحظ الحمامات ، الذي كان لا يزال يسمح عينيه التي تؤله ، ويأكل حبات الفاصولياء .

ومضى السائس قائلاً : وكنت أفكر أن من الأفضل أن تبتلع السيدة البيض نيئاً ، لأن المسافة طويلة منا وربما شعرت بالجوع .

فردت كميلاً قائلة : كلا ، فلاني لا أحب البيض النيء . وربما أصابني بالمرض .

- إنني أظن أن السيدة معتلة بعض الشيء .

- ذلك أنني قد غادرت فراش المرض لتوي .

فقال ذو الوجه الملائكي : أجل ، لقد كانت مريضة جداً .

فقال السائس وهو يشد أحزمة السرجين : ولكنك ستحسّن الآن . فالنساء كالزود ، في حاجة إلى السقي والرعاية ؛ وسيصلح الزواج الآن من حالتك » .

وأرخت كميلاً جفניה وقد احمرت وجنتاها وغمرها الاضطراب ، كالنبات

الذي تطلع له بدلا من الأوراق عيون من كل جانب ؛ وتبادلت نظرة مع زوجها ،
نظرة مليئة برغبة متبادلة ، ووقعا بذلك على الاتفاق الضمني الذي كانا يفتقدان
وجوده حتى الآن .

نشيد الأنشاد

وكانا يقولان ، أحدهما للآخر : « ماذا يكون عليه الحال لو لم يجمع بيننا القدر ! » ذلك أن فكرة المخاطرة التي مرّ بها كانت تملأها بالرعب ، لدرجة أنه إذا حدث واقتربا ، فإن كلا منهما يأخذ في البحث عن الآخر ، وإذا كانا معا تعانقا ، وإذا كان الواحد منهما في أحضان الآخر ضمه إلى حضنه أكثر وأكثر ، ولا يكفي بذلك بل يقبله بحرارة ويُفرق نظراته في عينيه ، ثم يفرقان في خضم من السعادة يحملهما إلى حالة شفافه من الذهول ، في وفاق نشوان مع الأشجار الممتلئة بالعصارة الجديدة ، ومع ندف اللحم الصغيرة المقطاة بريش متلألئ الألوان والتي تطير في خفة نضارع خفة الصدى .

ولكن الثعابين بحثت في ذلك السؤال . لو أن القدر لم يجمع بينهما ، أكانا سيشرعان بالسعادة ؟ وطُرح حق تدمير هذه الجنة الساحرة عديمة الحدود في المزد بين الأشباح الجهنمية ، وبدأت الأرواح الشريرة تترقب ، وانبجس صوت الشك من بين لفاح الإثم الرطيب ، في حين نسجت الأيام خيوطا عنكبوتية في جوانب الزمن .

ولم يكن بمسئطاعه ولا بإمكانها أن يتجنبنا حضور الحفلة التي يقيمها رئيس الجمهورية في منزله الريفي هذه الليلة . وثقدا بينهما غريبا عليهما فجأة . كانا حائرين كيف يتصرفان . وجلسا في حزن يحيط بهما أريكة ومراة للزينة وأثاثات أخرى ، بدلا من العالم الساحر الذي كان يحيط بهما في شهور زواجهما الأولى . كان كل منهما يشعر بالأسف من أجل الآخر ، وبالحنجمل من كونها على ما هما عليه .

وكان ثمة ساعة حائط تدق في حجرة الطعام . ولكنها شعرا أنها بعيدان جدا

لدرجة يحتاجان معها إما إلى قارب أو بالون ليذهبا إلى مكان الحفلة . وجلسا في حجرة الطعام . . . وأخذتا يأكلان في صمت وأعينهما على رقاص الساعة الذي يقربهما مع كل حركة منه إلى موعد الحفل . ونهض ذو الوجه الملائكي كيما يرتدي سترة السهرة . وشعر بالبرودة وهو يدخل ذراعيه في الأكمام ، كشخص يلف نفسه في أوراق الموز . وحاولت كميلا أن تطوي منشفة المائدة ، ولكن المنشفة كانت هي التي طوت يديها عوضا عن ذلك ؛ وجلست بين المائدة ومقعدها ، لا تشعر بأي قوة للقيام بالخطوة الأولى في الاستعداد للذهاب إلى الحفل . وعاد ذو الوجه الملائكي ليرى الوقت ، ثم رجع إلى حجرته ليحضر قفازيه . ووصل إليها وقع أقدامه على مبعدة كأنما هو عيشي في نفق . وقال شيئا . شيئا . وبدأ صوته غير واضح . وعاد إلى الظهور بعد برهة في حجرة الطعام يحمل مروحة زوجته . ولم يكن بوسعه أن يتذكر ما هو الشيء الذي ذهب لإحضاره من غرفته وكان يبحث عنه في كل الأنحاء في إبهام . وتذكر آخر الأمر ، بيد أن قفازيه كانا في يديه بالفعل !

وقالت كميلا للخدم الذين كانوا يرقبون خروجهما من الباب إلى الممشى :
تأكدوا من إطفاء جميع الأنوار ، ثم أغلقوا الباب بعناية ، وبعد ذلك يمكنكم الذهاب إلى الفراش .

وانطلقا في عربة نجرها جناد حنة التغذية ، تحب في نهر من العملات الفضية المجلجلة المعلقة في السرج . ودفنت كميلا نفسها في ركن العربة ؛ لم يكن بوسعهما أن تنفض عنها ذلك الخدر الذي يجثم فوقها ؛ والتمع الضوء المبت لمصابيح الطريق في عينيها . ومن أوتة لأخرى ، كانت العربة ترتج بحركة مفاجئة تهزها عن مقعدها ، قاطعة حركة جسدها الذي أخذ يتابع إيقاع العربة . وكان أعداء ذي الوجه الملائكي يشيرون أنه لم يعد بعدد محبوب السيد الرئيس ولا من الأثيرين لديه ، وأخذوا يلتمحون في نادي أصدقاء السيد الرئيس ، إلى أنه ينبغي الآن أن يدعى ميفيل كاناليس بدلا من لقبه الحقيقي . وكان جالسا في العربة تهزه عجلاؤها وهو ينطيب مقدما مذاق الدهشة التي سببها لهم ظهوره في حفل الرئيس هذه الليلة .

وخلفت العربة الطرق المرصوفة وانحرفت إلى ربوة رملية جعلت العجلات تنن بصوت أجوف . وشعرت كميلا بالخوف ، فلم تكن ترى شيئا في الظلمة من

الريف حولها ، بل النجوم فحسب ، ولم تكن تسمع شيئا من الحقول المغطاة
بالندى إلا صرير الجنادب ، وشعرت بالخوف وارتدت إلى الخلف كأنها هي مسافة
إلى ختفها عبر ممشى (أو شبه ممشى) على إحدى جانبيه هوة تفغر فاهها ، وفي
الجانب الآخر جناح الشيطان منبسطا كالصخرة في وسط الظلمة .

وقال ذو الوجه الملائكي لزوجته وهو يأخذها برفق من كتفها بعيدا عن
الباب : ما الخبر ؟ . - - - إني خائفة .
- هس ، إهدئي .

- إن ذلك الرجل سيقلب العربى بهذه السرعة التي يسوق بها قل له أن يبطىء ،
قليلًا . ارجوك ! أه يا عزيزي ، ألم تسمع ما قلت ؟ قل له ! لماذا أنت صامت ؟
فقال ذو الوجه الملائكي : إن هذه العربيات

ولكنه قطع عبارته ، لأن زوجته أمسكت به حين حدثت هزة عنيفة غير
متوقعة من عجالات العربى . وشعرا كأنها يتدحرجان إلى الهوة .
قال وهو يللمم أطراف نفسه : خلاص ، لقد مر الأمر . لا بد أن العجالات
قد وقعت في حفرة عميقة .

وكانت الريح تهب على أعالي الصخور بقوة محدثة صريرا كصوت تمزيق
القماش . وأخرج ذو الوجه الملائكي رأسه من طاقة العربى ليصبح بالسائق أن
يكون حريصا بعض الشيء . وأدار إليه السائق وجهه الأسمر المنقور بيثور الجذري
وأبطأ جياده حتى أصبحت كأنها تسير بخطى جناثرية .

وتوقفت العربى في الطرف الأقصى لقرية صغيرة . وتقدم نحوهم ضابط
يرتدي معطفا فضفاضاً يصلصل مهمازه ، وتعرف عليهم وسمح للسائق بمواصلة
السير . وهممت الريح وسط أوراق عيدان الذرة الجافة المقطوعة . ولاح شبح
بفرة مربوطة أمام أحد المنازل . وكانت الأشجار غافية . وعلى مبعده مائتي باردة ،
تقدم ضابطان ليربا من القادم ، ولكن العربى لم تكد تتوقف . والآن ، وقد كانوا
على وشك الترحل أمام بيت رئيس الجمهورية ، تقدم ثلاثة كولونيلات إلى الأمام
تفتيش العربى .

ورحب ذو الوجه الملائكي بضابط أركان الحرب (كان جميلاً وماكراً كالشيطان) . وكان ثمة حنين للبيت الدافئ ، يحوم في رحابة الليل الغريبة ، ونور فنديل في الأفق يدل على موقع ثكنة مدفعية تقوم على حراسة رئيس الجمهورية .

وخفضت كميلة عينيها أمام رجل ذي تكشيرة شيطانية ، وكتفين مائلين ، وعينين مستطيلتين ، وساقين نحيلتين طويلتين . وحين دخلا ، سد هذا الرجل ذراعه ببطء وفتح يده كأنما هو على وشك أن يطلق حمامة منها بدلاً من أن يتحدث إليهما .

قال : « لقد أسير « بارثينوس البيتاني » في حروب « مبريدانس » وحُمل إلى روما حيث أشرف على تدريس البحر الشعري الإسكندري . لقد تعلمه منه « بربرنيوس » و« أوفيد » و« هوراس » وأنا . . . » .

وكانت ثمة سيدتان متقدمتان في السن تتحدثان عند باب الصالة التي كان الرئيس يستقبل فيها ضيوفه . وكانت إحداهما تقول وهي تمر يدها على تسريحة شعرها : « أجل ، أجل ، لقد قلت لهم إنهم لا بد أن يعيدوا انتخابه » .

- وماذا قال ؟ إنني منشوقة بالفعل إلى سماع ذلك . . . » .

- لقد اكتفى بالابتناس ؛ ولكني أعلم أنه سيعاد انتخابه . إنه أفضل رئيس للجمهورية عرفناه يا « كانديدينا » . هل تعلمين أنه منذ أن تولى الحكم ، فإن زوجي « مونتشو » قد تقلد أفضل المناصب ؟ » .

وخلف هاتين السيدتين ، كان « المعلم » يتكلم في ثقة واعتداد وسط مجموعة من الأصدقاء .

وقال المدعي العسكري العام ، وهو يلتفت يمينا ويسارا إذ كان يسير وسط الحلقة : « لقد سأل السيد الرئيس عنك ، لقد سأل السيد الرئيس عنك ، لقد سأل السيد الرئيس عنك . . . » .

فرد عليه المعلم : شكرا لك !

فقال أحد أصحاب المناصب السود ، مقوس الساقين ، ذهبي السن ، وهو يظن أن الشكر موجه إليه : « عفوا » .

كانت كميلة تود ألا يلاحظها أحد في هذا الجمع الحاشد . ولكن ذلك كان مستحيلا . ذلك أن جمالها النادر المثال ، وعينيها الخضراوين الصافيتين الهادئتين ، وجسدها الرقيق المغلف في رداثها الحريري الأبيض ، وصدرها النحيل ، وحركاتها الرشيقة ، وفوق كل شيء : كونها ابنة الجنرال كاناليس ، قد جعلها محط الأنظار . ولاحظت إحدى سيدات الجماعة قائلة :

- إنها لا تستحق كل هذا . امرأة لا ترندي « كورسيها » مشدّها بوسم أي شخص أن يرى أنها عادية !

وهست أخرى : « كما أنها قد أعادت تجهيز ثوب عرسها حتى ترنديه في الحفلات . . . » .

ورأت سيدة ناحلة الشعر الفرصة مواتية لتضيف :

- أنتم تعرفون أن الناس الذين لا يحسنون التصرف هم دائما من يصبحون عرضةً للانتظار . .

- أوه ، كم نحن قساة القلوب . إنما قلت تلك الملاحظة بشأن الثوب لأنه من الواضح أنهم في حالة عسر مادي ! »

فلاحظت السيدة ناحلة الشعر قائلة :

- « بالطبع هم معسرون ، ونحن جميعا نعلم السبب » ، ثم أضافت في صوت خفيض : « يقولون إن السيد الرئيس لم يعد يعطيه شيئا منذ زواجه من تلك الفتاة ! » .

- ولكن ذا الوجه الملائكي يكنّ له ولاء خالصا . . .

- بل كان يكنّ له ولاء خالصا بالآخرى . لأنه كما يشاع ، فإن ذا الوجه الملائكي هذا قد اختطف زوجته الحالية حتى يعمي أنظار الشرطة عن هروب حبه الجنرال من المنزل ، وأنه لولا ذلك لما تمكن الجنرال من الفرار !

وتقدمت كميلة رذو الوجه الملائكي وسط المدعوين إلى الطرف الأقصى من الصالة التي كان بها الرئيس . وكان فخامته يتحدث مع أحد فقهاء القانون ،

الدكتور « إريفرا غابلي » ، وسط مجموعة من السيدات اللاتي ، حين اقترب الرئيس منهن ، خرست الكلمات على السنتهن ، كمن ابتلع شموعاً مشتعلة ، ولم يجرؤن على التنفس أو على فتح شفاههن . وكان هناك رجال مصارف سبق القبض عليهم وخرجوا بكفالة ولا تزال قضاياهم أمام المحاكم ، ومكرتبيرون ذوو ميول تقدمية لم يرفعوا أعينهم عن السيد الرئيس دون أن يجرؤوا على توجيه التحية له حين ينظر إليهم ، ولا على الانحاب حين يحول بصره عنهم ؛ وأعيان القرى ، من انطلقاً حماسهم السياسي ، ولكنهم لا يزالون يبدون شيئاً من عزلة الكرامة الإنسانية حين يُعاملون كالجراذين بينما هم ليوث في الحقيقة .

وتوجهت كميلة وذو الوجه الملائكي إلى الرئيس لتحيته . وقدم ذو الوجه الملائكي زوجته . وقدم الرئيس يده اليمنى الصغيرة إلى كميلة ، وإستقرت عيناه عليها وهو ينطق باسمه ، كأنما هو يقول «أنا هو يقول أنا» تصوري من أكون ! . وفي هذه الأثناء كان الفقيه القانوني يُحتمى ظهور إحدى الحناوات ممن يحملن نفس اسم عشيقته «البانيو» وشخصيتها الفريدة ، بتلاوة بعض أبيات من شعر غارسيلاسو :

« لقد نشدت الطبيعة

خلق صورة واحدة فريدة من هذا الجمال

لذلك ، بعد أن خلقتك . حطمت سريعا القلب الذي صبتك فيه » .

وكان الخدم بروحون ويغدون حاملين صحافاً عليها كؤوس الشمبانيزا ، وفطائر صغيرة ، ولوز مملح ، وخلوى ، وسجائر . وأوقدت الشمبانيزا النار التي لم تكن بعد موقدة في هذه الحفلة الرسمية ، فبدأ كل شيء ، كما يفعل السحرة ، حقيقياً إذ ينعكس في المرايا الهادئة ، وخيالاً في الصالون ، وكذلك الصوت الورقي لآلة موسيقية بدائية مصنوعة من جرة فخارية أضيفت عليها سمة حضارية بتعليق آلات صغيرة من حولها .

ورن صوت الرئيس قائلاً : أيها الجنرال ، خذ السادة خارجاً ، فإني أود أن

• شاعر إسباني قديم (١٥٠١ - ١٥٣٦) مشهور بقصائده الغنائية الرومانسية .

أتناول العشاء وحدي مع السيدات

وأخذ الرجال يخرجون من الأبواب التي تطل على الليل البارق في جماعة واحدة ، ودونما كلمة ، وبعضهم متلهف إلى تنفيذ رغبة سيده ، والبعض الآخر يحاول إخفاء غضبه بالأسراع في الخروج . وتطلعت السيدات إلى بعضهن البعض ، ولم يجرؤن حتى على إخفاء أقدامهن تحت مقاعدهن .

والمح الرئيس قائلاً : بإمكان الشاعر أن يبقى . . .
وأغلق الضباط جميع الأبواب . وأحسن الشاعر بالخرج من وجوده وسط هذا الحشد من السيدات .

وامر الرئيس قائلاً : أنشد أيها الشاعر ، شيئاً لطيفاً ، نشيد الأنشاد مثلاً . . .

وراح الشاعر يتلو ما كان عالفاً بذهنه من ذلك السفر من شعر سليمان :

« نشيد الأنشاد الذي لسليمان . . .

آه ، ليفلني بقبلات من فمه !

أنا سوداء يا بنات أورشليم ولكني جميلة

كخيام سليمان .

لا تنظرن إليّ لكوني سوداء

فإن الشمس قد لوحتني . . .

حبيبي بالنسبة لي

فثنأ من المر

يبست بين ثديي . . .

نحت ظل حبيبي جلست

وكانت ثمرته حلوة في فمي .

ادخلني إلى بيت الخمر

وعلمه فوق عجة . . .

استحلفكن يا بنات أورشليم

ألا توظفن الحبيب ولا بالهدات

إلى أن يشاء

إلى أن يشاء . . .

ها أنت جميلة يا جيبتي

ها أنت جميلة ..

عينك حامتان من تحت نقابك ؛

شعرك كقطيع ماعز ؛

أسنانك كقطيع نعاج

صادرة من المغسل

كل واحدة تحمل ثوائم

وليست فيهن عقيم . . .

لهن مستون ملكة ونماتون مُرية . . .

ونفض الرئيس وعلى وجهه نذر شوم . وترددت وقع أقدامه كخطوات فهد
يفر على صخور قاع نهر جاف ، واختفى عبر الباب بعد أن ارتدّت إلى ظهره
الستائر التي جذبها عند خروجه .

وبقي الشاعر وجهرة السيدات في ذهول ، يحسون بالضالة والخوان ، محاطين
بجو من القلق كالجزو الذي تخلفه الشمس بعد أن تغرب . وأعلن أحد المساعدين
أن العشاء جاهز . وانفتحت الأبواب ؛ وبينما كان الرجال الذين كانوا ينتظرون في
الممر يعودون مرتعدين من البرد ، توجه الشاعر إلى كميلة وطلب منها أن تتناول
العشاء معه . ونهضت ، وكانت على وشك أن تتناول ذراعها حين أوقفنها يدُ
امتدت من خلفها . وكادت تصرخ من المفاجأة . لقد كان ذو الوجه الملائكي
مخنفيا طوال الوقت وراء إحدى الستائر بالقرب من زوجته ، وراه الجميع يخرج من
مخبئه .

ويدات طبول « المارمبا » تدق وتتصاعد نغماتها في الهواء ، بينما اهتزت
الجلاليل الصغيرة المعلقة تحتها كأنها الأكفان .

الثورة

لم يكن ثمة شيء يُرى على البعد . وكان الرجال يخلفون وراءهم خطا بآثار
أقدامهم كأنه ثعبان صامت طويل يبسط تعاريجه اللدنة المرنة المتجمدة . كان يمكن
عد أضلاع الأرض في النذر اليسير من المستنقعات الهضبة التي لم يمسه الشتاء
بسوء . ورفعت الأشجار نفسها إلى أعلى فروعها الكثيفة المترعة بالعصارة كيما
تستطيع التنفس . وكانت النار التي يحملونها معهم تبهر عيون الجياد المتعبة . وادار
جندي ظهره لينبؤ . لم تكن ترى ساقاه . كان الوقت قد حان كيما يعرف الرفاق
حقيقة الموقف ، بيد أنهم كانوا مشغولين بتنظيف بنادقهم بالشحم وخرق فساتين
لا تزال تعبق برائحة النساء . كان الموت يحصدهم ويغتطفهم من مضاجعهم
واحدا واحدا ، دون أن يخلفوا وراءهم ذكراً لأولادهم ولا لأي شخص آخر . كان
الأفضل لهم أن يحاطروا بحياتهم ويرروا أي شيء ينجم عن ذلك . إن الرصاصات
لا تحس بشيء وهي تحترق جسد الإنسان . فاللحم بالنسبة لها بمائل الهواء الدافئ
العذب ، هواء ذو كثافة معينة . وهي تصفر كالطيور . لقد حان الوقت لشدبر
موقفهم ، بيد أنهم كانوا مشغولين بشحن المذيات التي ابتاعها قادة الثورة من أحد
تجار الحديد أنت النار على حانوته . وكان النصل المشحوذ بمائل ابتسامة على وجه زنجي .

وصاح صوت : أنشد يا رفيق . لقد سمعتك تغني منذ برهة ! .

لماذا عشقتني يا قاسي القلب

وأنت لك فئاتك ؟

كان يحسن بك أن تتركني

وحدي كالشجرة الذابلة .

- استمر يا رفيق ، أنشد .

« ذهبنا إلى البحيرة
وهرعنا إلى مكان الاحتفال
ولكن لم يطلع القمر هذه المرة
ولم يكن هناك من أحد » .

- أنشد يا رفيق ، أنشد .

« إن اليوم الذي ولدت فيه
كان هو يوم مولدي
وعم الفرح في السماء
وإبتهجت الملائكة وصدحت » .

أنشد يا رفيق أنشد . كان نور القمر القلوي ينتشر فوق الأشجار وكانت الأوراق ترتجف في أعاليها . كانوا ينتظرون عبثا الأمر بالهجوم . كانت الشمس تشرق . وشعرت القوات إذ هي تنتظر في استعداد ساكن للهجوم على أول حصن للحكومة ، هذه الليلة نفسها ، كأن ثمة قوة غريبة خفية تسرق منها قدرتها على الحركة وتحولها إلى حجارة . وأحالت الأمطار الصباح الذي لم تشرق شمس به بعد إلى حساء ، وإنال فوق وجوه الجنود وظهورهم . وترددت أصدااء الكلام بصوت أكثر ارتفاعاً عن طريق دموع الإلهة المنهالة . وكانت الأنباء الأولى التي وصلتهم مقتضبة ومتضاربة ، كأغما تنقلها أصوات صغيرة تخاف ان تصرح بكل ما تعرف . وبدأ الجنود بشعرون كأن ثمة قضيباً من حديد أو قطعة عظم تستقر في أعماق أفئدتهم . وكان المعسكر بكامله يدمى كأغما من جرح واحد . لقد مات الجنرال « كاناليس » . وتجسدت الأنباء في مقاطع وعبارات . مقاطع من كتاب ألف باء ، وعبارات من الخدمات الجنائزية . واصطبغ مذاق السجائر والبراندي بالغضب وصيحات الحزن . كان مستحيلاً تصديق الكلمات التي يقال ، بيد أنها لا بد أن تكون هي الحقيقة . وصمت المسنون فيهم ، ينتظرون في نفاذ صبر سماع الحقيقة العارية ، بعضهم واقف ، وآخرون عمدون أو مقعون على الأرض ، ونزعوا قبعات القش من على رؤوسهم وألقوا بها إلى جوارهم وهم يرشون رأسهم في غضب . وهرع الشبان منهم إلى السوادي بحثاً عن مزيد من الأنباء . وأعمتهم

حرارة الشمس المتلألئة . وثمة سرب طيور يخفق في الهواء على مبعدة . ومن وقت
لاخر دوي طلقة رصاص . وبدأ الليل يطبق عليهم . سماء من قروح تحت عباءة
سحب عميقة . وأطفئت نيران المعسكر ولم يعد هناك سوى ظلمة داكنة لا شكل
لها ، عزلة سوداء تتكون من سماء وأرض وحيوانات ورجال . ثم قطع الصمت
خشب فرس بوقع حوافره : راتابلان ، راتابلان ، الذي رده الصدى مستخدما
جدول الضرب . واقترب الصوت شيئا فشيئا ، من حارس إلى آخر ، وسرعان ما
أصبح وسطهم ، وظنوا أنهم يحلمون حين سمعوا ما قاله الفارس القادم . لقد
مات الجنرال كاناليس فجأة ، بعد أن تناول وجبة طعام لتوه ، وهو على وشك
قيادة قواته إلى القتال . والأوامر الآن هي الانتظار . وقال أحدهم ملاحظا : « لا
بد أنهم دسوا له شيئا في الطعام ، ربما بعض نباتات « تشيلتب » وهو سم زعاف لا
يترك أثرا وراءه ، حتى يموت على هذا النحو » . وتمتم آخر : « كان يجب عليه أن
يكون أكثر حذرا ! آآآآآ... ؟ » . وصمتموا جميعا في تأثر بالغ طال
أطرافهم العارية المدفونة في التراب ... وابته ؟ ...

وأضاف صوت آخر بعد برهة طالت شأنها شأن كل المحن : « إن باستطاعتي
أن أنزل عليها اللعنة إن شئتم . إنني أعرف صلاة علمني إياها ساحر هناك عند
الساحل ؛ فقد حدث يوما ما نقص في الذرة في الجبال ، وهبطت إلى الساحل
لشراء شيء من هناك حين قابلته وتعلمتها منه . هل تجربون ذلك ؟ » .

ورد عليه صوت آخر في الظلمة : حسنا ، إنني أوافق من جهتي ، فهي قد
قتلت أباه .

ومرة أخرى ، سُمع خشب فرس عبر الممر ، راتابلان ، راتابلان ، راتابلان .
ومرة أخرى سُمع صياح الحراس ، ومرة أخرى ساد الصمت . وارتفع عواء
الذئاب كأنه سلم صاعد إلى القمر الذي بزغ في بطن تحوط به هالة كبيرة . وأعاد
الصدى الصوت مرة أخرى .

وفي كل مرة يحكى فيها أحد ما حدث ، كان الجنرال كاناليس يخرج من قبره
ويموت مرة أخرى : لقد جلس بأكل على ضوء قنديل إلى مائدة لا مفرش عليها ؛
وسمعا صوت الملاحق والسكاكين والأطباق ، ووقع أقدام مساعده ، وكوب ماء
يُصب وصحيفة تفتح ؛ ثم ... لا شيء بعد ذلك ، ولا حتى الأنين . لقد وجدوه

ملقى عبر المائدة مينا ، وخذته مستقر على نسخة من صحيفة (الناسيونال) ،

وعيناه نصف مغلفتين ، زجاجيتين ، تحديقان في شيء غير موجود .

وعاد الرجال في تردد إلى مهامهم اليومية . كانوا قد تعبوا من العيش كالحوانات المستأنسة ، فانضموا إلى ثورة (تشاماريتا) - وكان هذا هو اللقب المفضل الذي خلعه على الجنرال كاتاليس - لإحداث تغيير في طريقة حياتهم ، ولأن (تشاماريتا) قد وعد بإعادة حقول الكروم إليهم ، وكانت قد اغتصبت منهم بحجة إلغاء التجمعات ، ووعد بتوزيع حصص المياه بينهم بالعدل ، وإلغاء التعذيب ، وفرض الخدمة الإجبارية لمدة سنتين ، وإنشاء تعاونيات زراعية لاستيراد الآلات الحديثة وتوفير البذور الجيدة والحيوانات والأسمدة والفنيين ، وتسهيل وسائل الانتقال وتخفيض أسعارها ، وتسهيل التصدير وبيع المنتجات ، وقصر السلطة على من ينتخبه الشعب ويكون مسؤولا أمام الشعب فقط ، وإلغاء المدارس الخاصة ، وفرض الضرائب التصاعدية ، وخفض أسعار العلاج وتوفير خدمات الأطباء والمحامين للمجتمع ، والعمل بحرية العقيدة ، حتى يتمكن الهنود من عبادة آلهتهم وإعادة بناء معابدهم في أمان من الاضطهاد .

وعلمت كميلة بموت والدها بعد عدة أيام ؛ فقد نقل إليها صوت مجهول النبا على الهاتف .

- لقد مات أبوك حين قرأ في الجريدة أن رئيس الجمهورية كان شاهدا على عقد زواجك . فصاحت : هذا غير صحيح !

فقال الصوت المجهول وهو يضحك بصورة كريمة : ما هو غير الصحيح ؟

- هذا غير صحيح ؛ إنه لم يكن شاهدا . الو الو

بيد أن المتحدث المجهول كان قد وضع سماعة الهاتف في بطنه شديدا كشخص يتسلل خارجا خفية .

وغاصت كميلة في مقعد من الخيزران . كانت تشعر بصدمة . وبدأ لها بعد لحظة أن الغرفة قد فقدت مظهرها السابق وأصبحت مختلفة ، ذات لون مختلف ، وجو مختلف . مات ! مات ! مات ! ولوت كميلة يلها كأنما لتكسر شيئا ، ثم

انفجرت في ضحكة مستبيرة وفكّاهما مضمومان بينما عيناها مضممتان بدموع لا تجد
لها منفذا .

وكانت عربة رش المياه تمر عبر الطريق ، وصنورها يبكي بينما خزاناتها
المعدنية تضحك .

- ٣٧ -

رقصة « توهيل »*

- ماذا تطلبون أيها السادة ؟
- بيرة
- ليس لي ، أنا سأأخذ « ويسكي » .
- إذن واحد . . .
- واحد بيرة وواحد ويسكي وواحد براندي
- وبعض المأكولات الخفيفة !
- إذن واحد بيرة وواحد وويسكي وواحد براندي وبعض المأكولات الخفيفة .
- وترامى صوت ذي الوجه الملائكي عائدا من المرحاض يقول وهو يغلق أزرار بنطاله في شيء من العجلة : هاللو !
- ماذا تطلب ؟
- أي شيء ، احضر لي بعض المياه المعدنية .
- آه ، إذن واحد بيرة وواحد ويسكي وواحد براندي وواحد مياه معدنية .
- وجذب ذو الوجه الملائكي مقعدا وجلس إلى جوار رجل يبلغ الستة أقدام طولا ، له مظهر الزوج وحركاتهم رغم أنه أبيض البشرة ، وظهره سموي كالقصب الحديدية ، ويداه كالسندان المزدوج ، وثمة ندبة بين حاجبيه الشقراوين .

* توهيل : إك المطر في أساطير المايا ، بفرايمالا .

قال له ذو الوجه الملائكي : انسح لي مكانا يا مستر جنكيز ، فإني أود أن
أجلس إلى جوارك . - بكل سرور أيها السيد . . .

- سوف أتناول شرابي وأذهب لأن الرئيس في انتظاري . فقال مستر جنكيز :
أوه ، إذا كنت ذاهبا للقاء الرئيس فلا بد أن تكف عن حماقتك وتبلغه بأن
الشائعات التي تتردد عنك غير صحيحة ، غير صحيحة على الإطلاق .
فقال واحد من الأربعة ، وهو الشخص الذي طلب البراندي :

- هذا لا شك فيه .

فتدخل ذو الوجه الملائكي قائلاً للمستر جنكيز : وهل أنا الذي تقول له
ذلك ؟

فقال الأمريكي وهو يضرب رخام المائدة براحه يديه : وأقول للجميع
بالطبع ! لكنني كنت هناك تلك الليلة وسمعت بأذني المدعي العسكري العام يقول
إنك تعارض انتخاب رئيس الجمهورية ، وإنك نصير للثورة مثل المرحوم الجنرال
كاناليس .

وحاول ذو الوجه الملائكي عبثاً أن يخفي القلق الذي يحس به . ذلك أن
الذهاب لمقابلة الرئيس في ظل هذه الظروف شيء يثير الخوف .

وجاء النادل بطلباتهم . كان برندي سترة بيضاء عليها اسم المحل
« غامبريتوس » مطرزاً عليها بخيوط حمراء .

- واحد ويسكي ، واحد بيرة . . .

وابتلع مستر جنكيز ويسكي دفعة واحدة دون أن تطرف له عين ،
كشخص يشرب مطهراً معوياً ، ثم أخرج الغليون وحشاه بالتبغ .

- أجبل يا صديقي ، إن هذه الأشياء تصل إلى سمع الرئيس بطريقة أو
بأخرى ، وهي ليست بالأمر المحبب لديك . والآن حان دورك كيما تقول له
بصراحة حقيقة الأمور . إن الموقف دقيق جداً .

- شكرا على نصيحتك يا مستر جنكيز ، وسلاما ، سوف اذهب للبحث
عن عربة للذهاب سريعا . شكرا ، هه ؟ ومع السلامة للجميع .
واشعل « مستر جنكيز » غليونته .

وتساءل أحد الرجال الملتفين حول المائدة : كم كأساً من الويسكي شربت يا
مستر جنكيز ؟

فرد الأمريكي وغليونته في فمه واحدى عينيه نصف مغلقة ، والأخرى ، زرقاء
ناصعة ، تخلق في شعلة الكبريت الصفراء الصغيرة : ثمانية عشر .

- وإنك تُحق تماماً في ذلك ، فالويسكي مشروب رائع ، اليس كذلك ؟

- لا علم لي ! عليك أن توجه هذا السؤال إلى الناس الذين لا يشربونه
إنطلاقاً من ياسهم الكامل مثلي .

- لا تقل هذا يا مستر جنكيز .

- لماذا لا أقول ذلك ما دمت اعتقده حقاً ؟ في بلادي ، كل شخص يقول ما
يراه حقاً . تماماً . - إن هذا ميزة رائعة .

- أوه كلا ، إنني أفضل ما تسيرون عليه هنا . إنكم تقولون ما لا تعتقدون ،
ما دام أنه جميل جداً .

- إذن ففي بلادك لا تتداولون الحكايات ؟

- أوه كلا ، على الإطلاق ، ما عدا حكايات الإنجيل !

- كأس آخر يا مستر جنكيز ؟

- أجل ، أظن أنني سأأخذ كأساً آخر من الويسكي !

- برائئو ! إنني أحب ذلك ، إنك رجل على استعداد لأن تموت من أجل
مبادئك .

- كيف هذا ؟

- لقد قال صديقي إنك رجل على استعداد للموت .

- أجل ، لقد فهمت ما قال عن الموت في سبيل المبادئ . كلا ، إنني رجل يعيش في سبيل مبادئه . إن الحياة تضطرم في عروقي . أما الموت فلا أهمية له عندي ، فسوف أموت حين يشاء الله .
- إن المبتزر جنكيز يريد أن تمطر السماء ، ويسكى ، !

- « كلا ، كلا ، لماذا ؟ حيث لن يبيع أحد مظلات بل سيمسحون أقماعا ! » . ثم أضاف بعد فترة جذب فيها أنفاس غلبونه وتنفس في رقة بينما ضحك الآخرون : « إن ذا الوجه الملائكي شاب طيب ، ولكنه إذا لم يفعل ما قلت له فلن يغفر له ، بل سيُقضى عليه بدلا من ذلك » .
وفجأة ، دخلت البار جماعة من الرجال في صمت . كانوا مجموعة كبيرة للدرجة تعذر معها دخولهم جميعا من الباب مرة واحدة . وبقي معظمهم واقفا لدى الباب أو بين المناضد أو بالقرب من حافة البار . لن يطول مقامهم في البار لذلك فالامر لا يستحق الجلوس . وصاح رجل قصير نوعا ما ، مسن نوعا ما ، أصلع نوعا ما ، عليه دلائل الصحة نوعا ما ، مجنون نوعا ما ، غليظ الصوت نوعا ما ، قذر نوعا ما : « صمنا ! » ، ثم بسط إعلانا مطبوعا كبيرا ، وعاونته إثنان آخران من تبيينه على إحدى المرايا بالشمع الأسود . أيها المواطنون :

إن مجرد النطق باسم السيد رئيس الجمهورية هو بمثابة إلقاء نور مشاعل السلام على المصالح المقدسة للأمة التي غزت تحت حكمه الحكيم - وستظل تغزو - أوجه التقدم في جميع المجالات ، والنظام في كل شكل من أشكال التقدم !!!
وبوصفنا مواطنين أحراراً ، واعين بالتزامنا بالسهر على مصيرنا (الذي هو مصير الأمة أيضا) ، وبوصفنا رجالا نقف في صف الخير ونعادي القوضوية ، فإننا نعلن : إن خير الأمة هو في إعادة انتخاب رئيسنا العظيم ولا شيء غير إعادة انتخابه . إذ لماذا تخاطر بسفينة الحكم في بحار مجهولة ، حين يكون قائما على دفتها أكمل رجل دولة في عصرنا ، ذلك الذي سيضعه التاريخ عظيما بين العظماء ، حكيماً بين الحكماء ، حراً ، مفكراً ، ديمقراطياً ؟؟ إن مجرد تصور وجود شخص غيره في هذا المنصب الخطير يصل إلى حد التعرض لمصير الأمة (الذي هو مصيرنا نحن أيضا) ، وإن من مجرؤ على ذلك بافتراض وجوده - يستحق عزله بوصفه مجنوناً خطيراً ، فإذا لم يكن مجنوناً ، فهو يستحق أن يقدم للمحاكمة بوصفه خائناً لوطنه طبقاً للقانون !!! أيها الأخوة المواطنون : إن صناديق الانتخاب تنتظركم .

انتخبوا !!! مرشحنا !!! الذي !!! سيعيد الشعب !!! انتخابه !!!

وأثارت قراءة هذا المنشور بصوت عالٍ كثيراً من الحماس العام في البار ؛
وانبعثت صيحات وتصفيق . وبناء على طلب الجمهور ، نهض رجل لا أثر للعناية
في ملابسه ، طويل الشعر أسود ، جامد العينين ، لإلقاء كلمة :

« أيها المواطنون : إنني أفكر كشاعر ولكنني أتحدث كمواطنٍ وطني ! الشاعر
هو رجل اخترع سماء ، ولذلك يجب عليكم الاستماع إلى خطبة لا نظام فيها من
الرجل الذي اخترع ذلك الشيء الجميل الذي لا نفع فيه والذي نسميه « سماء » .
حين كتب ذلك الألماني الذي لم يفهمه الألمان ، كلا إنني لا أعني بذلك « نجيت » ولا
« كانت » ولا « شوبنهاور » ، عن الرجل الخارق (السوبرمان) فإنه كان يتنبأ بلا
شك بأنه سيولد في أمريكا ، من الأب الكون ومن الطبيعة الأم أول « سوبرمان »
حقيقي على الأرض . إنني أتحدث أيها السادة عنه ، عمن يفوق الفجر اشراقاً ،
عن الذي خلغ الوطن عليه لقب « صاحب الجدارة والإستحقاق » ، عن رئيس
الحزب وحامي حمى الشباب المجتهد . إن من أتكلم عنه أيها السادة ، كما لا شك
قد أدركتم ، هو رئيس الجمهورية الدستوري ، الذي أشير إليه بوصفه
« سوبرمان » ، المخلوق الخارق الذي كتب عنه « نيتشه » إنني أقول وأردد
ذلك من على هذه المنصة وحين قال هذه العبارة ، دق على نضد البار بقبضة
يده . « ولهذا أيها المواطنون ، فرغم أنني لست ممن اتخذ السياسة معاشاً ، فإنني
أؤمن إيماناً موضوعياً تاماً مخلصاً بأنه نظراً لعدم وجود « سوبرمان » أو « سوبر
مواطن » آخر بيننا ، فإننا نكون مجانين أو عمياناً ، عمياناً أو مجانين على نحو
إجرامي ، إذا نحن سمحنا بأن تنتقل أعتة الحكم من يد ذلك « السوبر قائد »
الذي يفود وطننا الحبيب الآن وإلى الأبد ، إلى يد مواطن آخر ، مواطن عادي ،
إلى مواطن ، أيها الأخوة المواطنون ، حتى لو كان يتمتع بكل الخصال الحميدة على
الأرض ، فلا بد أنه لا يزال مجرد إنسان . وهناك في قارة أوروبا العتيقة
المستنفدة ، قضت الديمقراطية على كثير من الأباطرة والملوك ، ولكن علينا أن
ندرك - وإننا ندرك - أنه وقد انتقلت الديمقراطية إلى قارة أمريكا - فهي قد حُفنت
بُطعم « السوبرمان » الذي يكاد يكون إلهياً ، وأنها تبني شكلاً جديداً للحكومة هو
« السوبر ديمقراطية » والآن ، أيها السادة ، سأشرف بأن أنشد لكم »

وصاح صوت : أنشد أيها الشاعر ، ولكن شيئا غير القصيدة ! .

- . . . ليلية « من « سي مايو » موجهة إلى « السوبر فريد » .

وتبع قطعة الشاعر الرائعة خطب أخرى أكثر حماسة منها ، تهدف إلى الهجوم على الحزب الآخر « الشائن » الذي يساند أمية « سان خوان » ونظام التعاويذ والسحر وغيرهما من الملطفات الدينية . وأخذ أنف أحد الخطباء ينزف ، وصاح عاليا بين الكلمات كيما يحضر له أحدهم « قالب آجر » منقوع في الماء حتى يشمه ويوقف النزيف بذلك .

قال « مستر جنكيز » : الآن يكون ذو الوجه الملائكي بين الحائط والرئيس . إني أحب الطريقة التي يتحدث بها هذا الشاعر ، غير إني اعتقد أن كون المرء شاعرا هو أمر محزن للغاية ؛ أما أن يكون المرء محاميا فهو أشد الأمور بعثا للحزن في الدنيا . والآن ، سأطلب كأسا آخر من الويسكي . وصاح : « ويسكي آخر لهذا السوبرمان ! »

وحين كان ذو الوجه الملائكي يغادر مقهى « غامبريناس » قابل وزير الحربية .

- إلى أين أنت ذاهب يا جنرال ؟

- لمقابلة السيد الرئيس . . .

- إذن فلنذهب معا .

- أنت ذاهب إلى هناك أيضا ؟ إذن فلنتظر عربتي فلن يطول غيابها . يعني

وبينتك ، لقد كنت الآن لدى إحدى الأرامل .

- إني أعرف أنك مغرم بالأرامل الطروببات يا جنرال .

- هيه ، هيا ، دعك من مداعباتك تلك .

- لم أكن مداعبا ، بل هي ملاحظة بسيطة .

- إنها ليست بالبسيطة ، بل هي جديرة بالملوك ! - حقا ؟

وسارت العربية في سكون كما لو كانت مصنوعة من ورق الشفاف . كان

الحراس مزروعين في أركان الطرقات ، وسمعاهم ينقلون الإشارة فيما بينهم :

« وزير الحربية ، وزير الحربية ، »

كان الرئيس يذرع حجرة مكتبه بخطوات قصيرة ، مرتدياً قبعة تفطي
جبهته ، وياقة سترته مرفوعة إلى أعلى فوق لفاع رقيق ، وأزرار صدره مفككة .
حلة سوداء ، قبعة سوداء ، حذاء أسود .

- كيف حال الجوبا جنرال؟

- بارد يا سيدي الرئيس . هناك ميغيل بدون معطف !

- سيدي الرئيس . .

- كلام فارغ . إنك ترتجف ، وستقول لي إنك لا تشعر بالبرد . إنك غير
حكيم بالمرّة . يا جنرال ، أرسل أحدهم إلى منزل ميغيل ليحضر له معطفاً على
الفور .

وخرج وزير الحربية مؤدياً التحية العسكرية ، وكاد يتعثّر في سيفه المتدلي على
جانبه ، في حين جلس السيد الرئيس على أريكة من الخيزران وقدم لذي الوجه
الملائكي مقعداً مجاوراً له .

وقال وهو يجلس : « كما ترى يا ميغيل ، عليّ أن أقوم بكل شيء بنفسي
واشرف على كل شيء ، لأنني أحكم أمة من « أصحاب النوايا » . وحين لا أباشر
الأمور بنفسي ، لا بد أن أعتمد على أصدقائي » . وصمت برهة ثم استطرّد
قائلاً : « إنني أعني بتعبير « أصحاب النوايا » أولئك الذين ينوون القيام بشيء أو
عدم القيام بشيء ، ثم لا ينفذون هذا ولا ذاك نتيجة لافتقارهم إلى قوة الإرادة .
وهم بهذا لا في العبر ولا في النفي . فمثلاً ، يمضي أصحاب الصناعة عندنا
حياتهم مردين مراراً وتكراراً : إنني أنوي بناء مصنع ، إنني أنوي تركيب
آلات جديدة ، إنني أنوي هذا ، إنني أنوي ذاك ، وهكذا إلى ما لا نهاية .
وأصحاب الزراعة يقولون : إنني أنوي تجربة وسائل جديدة ، إنني أنوي تصدير
منتجاني ، ويقول الكاتب : إنني أنوي تأليف كتاب ، والأستاذ : إنني أنوي تأسيس
مدرسة ، وأصحاب الأعمال : إنني أنوي القيام بهذه الصفقة أو تلك ؛
والصحفيون - أولئك الخنازير ذوو كتل الدهن التي تفرق فيها أرواحهم - إنني أنوي
تحسين حالة المجتمع . ولكن ، كما قلت لك ، لا أحد ينفذ شيئاً ، ولهذا فمن

الطبيعي أنه يجب عليّ أنا - رئيس الجمهورية - أن أقوم بكل شيء ، وأنحمل كل
لوم إلى جانب ذلك . ولك حتى أن تقول إنه لولاي لما كان هناك حظ ونصيب ، إذ
إن عليّ أن أقوم بدور إلهة الحظ في سحب الأرقام الفائزة في اليانصيب

ومرّ على شاربّه بأطراف أصابعه الشفافة الرقيقة النحيلة البنية اللون .
واستطرد قائلاً في نبرة صوت مختلفة :

- « وكل هذا يقضي بي إلى القول بأن الظروف تضطرنني إلى الاستمادة من
خدمات رجال مثلك ، من النافع وجودهم إلى جوارّي ، ولكنهم أشد نفعا خارج
الجمهورية ، حيث مخططات أعدائي ومزامراتهم وكتاباتهم الدينية تهدد حملة إعادة
انتخابي بالخطر »

ونخفض عينيه كأنهما يعوضتان محقتان بالدماء ، واستطرد يقول :

- « إنني لا أتحدث عن « كاناليس » وأتباعه ، فالمسوت دائما كان أصدق
حلفائي يا ميغيل ! إنني أتحدث عن الناس التي تحاول التأثير على الرأي العام في
أمريكا الشمالية ، أملا في إثارة الشبهات حول صوري في « واشنطن » . وحين
يبدأ حيوان متوحش سجين في قفص في تبديل شعره ، فإن ذلك لا يعني أنه يريد
من الآخرين نزع ما تبقى له من شعر بالقوة ، اليس كذلك ؟ حسنا ، إذن ؛ هل
أنا إنسان عجوز ذو عقل مخمور وقلب كالابنوس في صلابته ، كما يشيعون عني ؟
دع السفلة يقولون ما يشاؤون ! أما أن يقوم الشعب نفسه ، لأسباب سياسية ،
باستغلال ما قمت به كيما انقذ وطني من مذابح هؤلاء الكلاب ، فهذا شيء لا
يمكن قبوله ! إن إعادة انتخابي في كفة الميزان ، وهذا هو السبب الذي أرسلت
إليك من أجله يا ميغيل . عليك أن تذهب إلى « واشنطن » وتُحضر لي من هناك
تقريراً مفصلاً عن سُحب الكراهية والشكوك تلك ، وعن المراسم الجنائزية التي
تدور هناك والتي ليس فيها من دور محترم إلا دور الجثمان نفسه ، كما يحدث في كل
الجنائزات . »

فقال ذو الوجه الملائكي متلعثماً ، وهو مشطور بين رغبته في اتباع نصيحة
« المستر جنكيز » بالقاء أوراقه على المائدة ، وبين خوفه من أن يفقد - نتيجة أي زلة
لسان - فرصة قيامه بسفرة أدرك منذ البداية أنه قد يكون فيها خلاصه :

- « سيدي الرئيس ، إنكم تعلمون أنني تحت أمركم دون قيد ولا شرط لأي

غرضي كان : ومع ذلك ، أرجو أن نسمحوا لي بأن أقول كلمتين نظرا لأنني أردت دائما أن أكون أشد خدمكم إخلاصا وتكريسا . ذلك أنني أرد - قبل أن اضطلع بهذه المهمة الدقيقة - أن أطلب من السيد الرئيس أن يتعطف - إذا لم ير مانعا - ويامر بإجراء تحقيق في الاتهامات الباطلة التي ترميني بأنني عدو للسيد الرئيس ، والموجهة لي من جانب المدعي العسكري العام من ناحية . . .

- ولكن ، من ذا الذي يُلقي بالا إلى هذه الترهات ؟

- إن السيد الرئيس لا يمكن أن يشك في ولائي المطلق لشخصه والحكومت ، بيد أنني لا أريده أن يولياني ثقته الكاملة قبل أن يكتشف ما إذا كانت اتهامات المدعي العسكري العام صحيحة أم باطلة .

- « إنني لم أطلب منك النصيحة فيما يجب أن أفعل يا ميغيل ! كفاك هذا ! إنني أعلم كل شيء عن هذا الموضوع ، بل سامضي قدما وأخبرك أن في مكتبي هذا الاتهام الذي صاغه المدعي العسكري العام ضدك وقت فرار الجنرال « كاناليس » ؛ بل وأكثر من ذلك : بوسعي أن أقول لك إن عداوة المدعي العام لك نابعة عن ظُرف ربما تجهله تماما . لقد وضع المدعي العسكري العام ، بالاتفاق مع الشرطة ، خبطة لخطف السيدة التي هي الآن زوجتك لبيعها إلى صاحبة بيت للدعارة ، كان قد تلقى منها عشرة آلاف بيزو مقدما ثمنا للتنازل لها عنها . وقد اضطر إلى الاستعاضة عنها بامرأة مسكينة هي الآن على وشك الجنون من جراء ما تعانيه في ذلك البيت » .

وجلس ذو الوجه الملائكي ساكنا غمما ، محافرا أن يُظهر أمام سيده أقل تغيير في ملامحه ، دافنا مشاعره في أعماق قزاده وراء حاجز عينيه القطيفيتين السوداوين . كان يحاكي كرسية الخيزراني في شحوبه وبرودته .

« إذا سمح لي السيد الرئيس ، فإني أفضل البقاء إلى جواره أدافع عنه بدمي » .

- أتعني أنك لا تقبل ما أعرضه عليك ؟

- كلا ، إنني أقبله قبولا مطلقا يا سيدي الرئيس .

- حسنا جدا إذن . كل هذا لا لزوم له أبدا ، مجرد كلمات . منتشر صحف

الغد خبر رحيلك الوشيك ، ولا يمكنك أن تخذلي . ولدى وزارة الحربية أوامر بإعطائك اليوم ما تحتاج إليه من نقود للاستعداد . وسأرسل إليك نفقات الرحلة والتعليمات في محطة القطار .

ويدأ ذو الوجه الملائكي يشعر بدقات ساعة في باطن الأرض تشير إلى مرور الوقت المحتوم . ومن خلال نافذة مفتوحة على مصراعها ، مدت عيناه ، تحت حاجبيه السوداوين ، نظرها ورأتا ركية نيران تتوقد إلى جوار دغل من أشجار السور الخضراء الداكنة وجدراناً من الدخان الأبيض ، في وسط فناء شبه مطموس المظهر وسط الظلمة المطبقة . وكانت ثمة مجموعات من الحراس واقفة هناك تحت النجوم البازغة . ووقف أربعة أطياف لقسس في جوانب الفناء ، الأربعة يرتدون طحالب كالعرافين الباطنيين ، والأربعة ذوو أباد مغطاة بجلد الضفادع الأخضر الصفراوي ، والأربعة عيونهم مغلقة في الجانب المشرق من وجوههم ، ومفتوحة في جانبه المظلم . وفجأة ، دوى قرع طبول : طم ططم ، طم ططم ، طم ططم ، وظهر عدد كبير جداً من الرجال متخفين في صورة حيوانات ، يتفافزون في صف يسير الواحد منهم فيه خلف الآخر . ومن وسط عصا الطبول النابضة الملطخة بالدماء ، هبطت سرطانات البحر من الهواء الساقط وجرت الديدان من النيران الساقطة . ورقص السرجان ، حتى لا يظلموا مزروعين في الرياح ، على إيقاع الطبول ، وهم يغذون ركية النار بزيت « التريتينا » الساقطة من جباههم . ومن وسط الظلال التي لها لون الروث ، بزغ رجل ضئيل الحجم ذو وجه يماثل الفاكهة المجففة ، ولسانه مدلى بين فكبيه ، والأشواك على جبهته ، وليس له آذان ، يرتدي حول سُرته حبلاً من الصوف تتدلى منه رؤوس محاربين وأوراق القرع المعسلي .

وذهب ينفخ في النيران المتجمعة ، وبعث بهجة عمياء في نفوس الرجال الحيوانات إذ تناول بعض النار في فمه ولاكها بين أسنانه كما لو كانت قطعة من اللادن دون أن يحترق . وصدرت صيحة من الظلمة التي تلف الأشجار ، وارتفعت من هنا ومن هناك أصوات الخداد من القبائل التي كان رجالهم يتحاربون ويتقاتلون فيما بينهم منذ الميلاد : باحثائهم ، فقد كانوا رجالاً حيوانات ؛ وبجلودهم ، فقد كانوا طيور العطش ؛ وبخوفهم ، وبقيئهم ، وبحاجاتهم الجسمانية ، ضسارعين إلى « توهيل » - واهب النار - أن يرد عليهم شعلة النار الموقدة . ووصل « توهيل » ، ممتطياً نهراً من صدور الحماسات بفيض كاللين . وهرعت الغزلان إليه حتى لا يتوقف سيل المياه ، وكانت قرونها في رقة الأمطار ، وسقطت حوافرها الصغيرة على

الرمال البهيجة في خفة الهواء . وهرعت الطيور إليه حتى لا يتوقف خيالها السابح
على صفحة المياه - طيور عظامها أرق من الريش الذي يغطيها . وترددت وقع
أقدام من أعماق الأرض : راتبلان . . . راتبلان . . . راتبلان !

وطلب « توهيل » فرايين بشرية . وعرضت القبائل أمهر صيادها في محضره .
وسهامهم مشرعة في الهواء ومفاليهم معبأة .

وسأل « توهيل » : وهل يصطاد هؤلاء الرجال رجالا آخرين ؟

وترددت وقع الأقدام من أعماق الأرض : راتبلان . . . راتبلان . . .
راتبلان !

وردت القبائل : سننفذ ما تطلب على شرط أن نقوم يا واهب النار بإعادة النار
إلينا ، حتى لا يتجمد بعد الآن لحمنا ، ولا الهواء ، ولا أظافرنا ، ولا ألسنتنا ،
ولا شعرنا ! على شرط ألا تمضي في تدمير حيواننا وإخضاعنا إلى حياة هي الموت
ذاته ! وقال « توهيل » إني راض !

وتكرر وقع الأقدام من أعماق الأرض : راتبلان . . . راتبلان . . .
راتبلان !

- « إني راض ! إني أستطيع أن أسود الرجال الذين يصيدون رجالا .
ولذلك قلن يكون هناك لا موت حقيقي ولا حياة حقيقية . والآن ، ارقصوا رقصة
الأوراق من أجلي ! »

وتناول كل محارب صياد بوقه ونفخ فيه نفخا متواصلا دون أن يتوقف لالتقاط
أنفاسه ، على إيقاع الطبول والصدى ونغمات الهواء ، مما جعل عيني « توهيل »
ترقصان .

وبعد هذه الرؤيا العجيبة التي ليس لها ما يفسرها ، استأذن ذو الوجه الملائكي
من الرئيس . وعند خروجه ، ناداه وزير الحرب وتناولته رزمة أوراق مبالغة
ومعطفه . قال بصعوبة : ألسنت خارجا يا جنرال ؟

- وددت لو استطعت . ولكن ربما لحقت بك هناك ، وإلا فسنقابل يوما
آخر ، علي أن أكون هنا الآن ، كما ترى ، ولوى رأسه فوق كتفه الأيمن « أستمع
إلى صوت سيدي » .

الرحلة

وذلك النهر الذي كان يتدفق فوق السطح حينما كانت هي تحزم الأمتعة لم
يُصب في داخل المنزل ، بل بعيدا جدا ، في الفضاء الواسع المفضي إلى الريف ،
أوربا إلى البحر . وهبت ريح قوية فتحت النافذة ، وانهل المطر كما لو كان الزجاج
قد انصدع نارا ، وتطايرت السنائر والأوراق ، وانصفت الأبواب ، ولكن كميلة
مضت في مهمتها ، معزولة وسط الحقائق التي كانت غملاها . ورغم أنها أحست
بالبرد حتى نخاع عظامها ، فلم يبدُ شيء في عينيها لا مكتملاً ولا مختلفاً ، فكل
شيء بدا لها خاوياً ، منقطعاً ، لا وزن له ، هلامياً ، لا روح فيه ، تماماً مثلها هي
نفسها .

قال ذو الوجه الملائكي وهو يخلق النافذة : أمن الأفضل البقاء هنا ، أم في
مكان آخر بعيداً عن تناول ذلك الوحش ؟ ما رأيك ؟ لقد أردت ذلك تماماً ،
ولكني ربما أكون أمرب بعيداً !

- ولكن . . . بعد الذي رويته لي عن أولئك السحرة الأطباء المتوحشين
الذين يرقصون في بيته . . .

فرد بينما تعقعة الرعد تغطي على صوته : هذا لا يستحق أن يكون مدعاة
للقلق . ومع ذلك ، فما الذي يمكن أن يكتشفوه عني بسحرهم وتنجيهم ؟ فعلى
كل حال ، إنه هو نفسه الذي يبعث بي إلى واشنطن ، وهو الذي يتكفل بنفقات
رحلتي . آه يا إلهي ! قد يبدو كل شيء مختلفاً تماماً حين أكون بعيداً . كل شيء
محتمل . إنك سرف تلاحقين بي ، بحجة أنك مريضة ، أو أنني أنا نفسي مريض ؟
وبعد ذلك ، بوصعه أن يبحث عنا كيفما شاء ! .

- ولكن ، إفرض أنه منعمي من السفر إليك ؟
- حسنا ، حينئذ سوف أعود أدراجي وأبقي فمي مغلقا ، ولن يكون الوضع أسوأ حالا ! ذاك عما هو عليه الآن ، أليس كذلك ؟ إننا لا نخاطر بشيء ...
- إنك دانتها تظن كل شيء سهلا ! .

- إن لدينا ما يكفينا للعيش في أي مكان نخناره ، وأعني العيش ، العيش بحق وليس مجرد القيام طوال اليوم بترديد : أنا أفكر بعقل السيد الرئيس إذن فأنا موجود ، إني أفكر بعقل السيد الرئيس إذن فأنا موجود ...
وحدثت كميلة فيه بعينين مليئتين بالدموع . كان فمها كأنما قد أغمم بالشعر وأذناها بالمطر .

- ولكن ... لماذا تبكين ؟ ... لا تبكي ..
- وماذا تريدني أن أفعل ؟
- إن النساء جميعا سواء !
- دعني ..
- سوف تعتل صحتك إذا واصلت البكاء هكذا ، بحق النساء !
- كلا ، دعني ...
- كأنما أنا ذاهب إلى حضي أو أنهم سيدفنونني حيا .
- دعني !

وأخذها ذو الوجه الملائكي بين أحضانه . وعلى خديه الجامدين الرجلين ، اللذين لم يألفا البكاء ، جرت دمعتان متعرجتان حارقتان ، كأنهما مسماران لم يسهل اقتلاعهما .
وهست كميلة : ولكنك سنكتب لي ..
- بالطبع ...

- وكثيرا أرجوك . إنك ترى أننا لم نفرق أبدا قبل الآن . لا تتركني دون خطابات ، سيكون عذابا لي أن تمر الأيام دون أن أتلقي أنباء عنك . وإعني بنفسك ! لا تتق بأحد ، أسمعني ؟ لا تلق بالآلما يقوله أي شخص ، خاصة من

ابناء بلدك ، فهم في غاية السوء . وفوق كل شيء ، أرجوك (وهنا قاطعتها قبلات زوجها) ... أرجوك ... أن ... أرجوك ... أن تكتب ... لي ... دائما .

وأغلق ذو الوجه الملائكي الحفائب دون أن يرفع عينيه نحن عيني زوجته الحنوتين المشتاقين . كان المطر يهطل بشدة . وتدفقت المياه عبر الميازيب كالسلاسل الثقيلة . كانت فكرة أصيل الغد - وقد اقترب جداً - تخفها ؛ وحين أصبح كل شيء جاهزا ، خلعا ملابسها في صمت ، ودلفا إلى الفراش ، بين دقائق الساعة التي كانت تفتت الساعات الباقية ... تك ... تك ... تك ... تك ... تك ... تك ... وطنين البعوض الذي لم يدعها ينامان .

لقد خطر لي الآن أنني قد نسيت أن أقول لهم أن يغلقوا الأبواب حتى لا يدخل البعوض . يا إلهي ، يا لي من بلهاء !

وكان رد ذي الوجه الملائكي الوحيد هو أن احتضنها بشدة أكثر ، كانت كالحمل الصغير الذي لا يقدر بعد على الثغاء .

ولم يجرؤ على إطفاء النور ، ولا على إغلاق عينيه ، ولا على أن ينس بينت شقة . كانا أشد التصاقا ، الواحد منها بالآخر - تحت الضوء ، كما أن الصوت الإنساني يخلق مافة تفصل بين المتكلمين ، والجفتان المغلفتان ما هما إلا حاجز منيع ، والبقاء في الظلمة شكل من أشكال الفراق . وكان هناك الكثير مما يريدان قوله لأحدهما الآخر في هذه الليلة الأخيرة ، حتى أن أطول حديث بينهما كان سيبدو كالبرقية الخاطفة .

وملأت الفناء ضجة الخدم يطاردون دجاجة وسط أحواض النباتات . كان المطر قد توقف ، والمياه تنقطر في الميازيب كأنها ساعة مائية . وجرت الدجاجة ، وهفت ورفت ، ساعة إلى الهرب من الموت الذي ينتظرها . وهمس ذو الوجه الملائكي في أذن كميلة وهو يسوي بطنها المستدير بيده : يا طاحونتي الصغيرة ... وقالت وهي تضغط بجسدها على جسده : يا حبيبي ...

وتحركات ساقها تحت الغطاء كأنها مجدافان يضربان المياه المترققة في بحر لا قاع له .

كان الخدم لا يزالون يحرون ويصيحون . كانت الدجاجة قد هربت منهم ،
نابضة فرعة ، وعيناها تكادان تقفزان من محجريها ، فاعرة المنقار ، ناشرة جناحيها
كأنهما الصليب ، وقد تقطعت أنفاسها .

وتلاطفا ، إذ هما متعانقان ، بأصابع مرخفة - أصابع نصف مية ونصف
نائمة ، هلامية .

قالت له : « يا حبيبي » . وقال لها : « يا جنتي » . وقالت له : « يا
جنتي »

واصطدمت الدجاجة بإخائط أو اصطدم الحائط بها ، فهي قد شعرت
بالأمرين يحدثان في وقت واحد . وقطعوا رقبتها . ورفرت بجناحيها كأن بوسعها
أن تطير حتى وهي ميتة . وصاحت الطباخة وهي تنفض عنها الريش الذي لطخ
ميدعتها : « لقد لطخت نفسها ، الدجاجة المسكينة ! » وذهبت لتغسل يديها في
النافورة التي إمتلأت بمياه الأمطار .

وأغلقت كميلة عينيها . . ثقل زوجها . . رفرقة الأجنحة . . . اللطخة . . .
ومضت الساعة في دقائقها ، بسرعة أبطأ الآن . . . تك . . . تاك . . .
تك . . . تاك . . . تك . . . تاك . . . تك . . . تاك . . .

نظر ذو الوجه الملائكي بسرعة في الأوراق التي سلمها له أحد الضباط في
المحطة . وبدت المدينة له ، وهو يخلفها وراءه ، تخمش صفحة السماء بأظافر
أسطحها القذرة . وكان للوثائق التي سلمها أثر ملطف في نفسه . لقد حالفه
الحظ إذ هو يسافر الآن بعيدا عن ذلك الرجل ، في عربة قطار من الدرجة الأولى ،
محاطا بالعناية والرعاية ، دونما جاسوس يتعقبه ، وجيه ملآن بالشيكاكات النقدية .
وأرغى جفنيه كيما يركز أفكاره على نحر أفضل . واكتسبت الحقول حركة من عبور
القطار وسطها ، وأخذت تجري هي أيضا كالأولاد الصغار ، واحد وراء الآخر ،
واحد وراء الآخر ، واحدا وراء الآخر : أشجار ، بيوت ، جسور . . .

. . . يا لحسن حظي أن ابتعدت عن ذلك الرجل في عربة من الدرجة
الأولى ! . . .

... واحدا وراء الآخر ، واحدا وراء الآخر ، واحدا وراء الآخر ... كان
البيت يطارد الشجرة ، والشجرة تطارد السياج ، والسياج يطارد الجسر ، والجسر
يطارد الطريق ، والطريق يطارد النهر ، والنهر يطارد الجبل ، والجبل يطارد
السحاب ، والسحاب يطارد حقل الذرة ، وحقل الذرة يطارد الفلاح ، والفلاح
يطارد حيواناته ...

... محاطا بالعناية والرعاية دولما جاسوس يتعقبي ... والحيوانات تطارد
البيت ، والبيت يطارد الشجرة ، والشجرة تطارد السياج ، والسياج يطارد
الجسر ، والجسر يطارد الطريق ، والطريق يطارد النهر ، والنهر يطارد الجبل ،
والجبل يطارد السحاب ...

وسرت الصورة المنعكسة لقرية على طول سطح غدير شفاف مظلم كقناع
الجرة الضخمة .

... والسحاب يطارد حقول الذرة ، وحقول الذرة تطارد الفلاح ، والفلاح
يطارد حيواناته ...

... دولما جاسوس يتعقبي ، والشيكات النقدية في جيبي ...
... والحيوانات تطارد البيت ، والبيت يطارد الشجرة ، والشجرة تطارد
السياج ، والسياج ...

وشيكات نقدية كثيرة في جيبي !

وومض جسر عبر النافذة كأنه مسند عصا بلياردو ... ضوء وظل ، سلام ،
جافة من الصلب ، أجنحة عصافير ...

... السياج يطارد الجسر ، والجسر يطارد الطريق ، والطريق يطارد النهر ،
والنهر يطارد الجبل ، والجبل ...

وترك ذو الوجه الملائكي رأسه يسقط على ظهر المعقد المبطن بالقش . وتابعت
عيناه الغافيتان الشريط الساحلي الخفيض المنبسط ، الحار ، الرتيب ، بشعور
مضطرب بوجوده في القطار ، وعدم وجوده في القطار ، وتخلّفه وراء القطار ، ومع
كل لحظة يزداد تخلّفه عن القطار ، يزداد تخلفا ، يزداد تخلفا ، يزداد ، يزداد ،
يزداد ...

وفجأة فتح عينيه . كان قد استغرق في النوم ، النوم القلق لشخص هارب ،
قلق شخص يعرف أن الخطر قد يكون سابحا في الهواء ذاته الذي يتنفسه ؛ وبدأ
له أنه قد قفز لتوه في مقعده بالقطار من خلال ثقب خفي . كان عنقه يؤله ،
والعرق يتفصد من وجهه ، وثمة سحابة من ذباب تحوم حول جبهته .

وفوق الخضرة العابرة أمامه ، كانت سحب ساكنة تتجمع ، متفخخة بالمياه
التي امتصتها من البحر ، وعروق البرق تنبجس كالمخالب من وراء مراكزها
الرمادية القطيفية .

وتراءت قرية ثم اختفت ، قرية يبدو أنها مهجورة ، مجموعة من المنازل محاطة
بأوراق الذرة الجافة ، متجمعة ما بين الكنيسة والمقبرة . وجمال في خاطر ذي الوجه
الملائكي : « كم أود أن يكون عندي الإيمان الذي شيد هذه الكنيسة في هذا
المكان . الكنيسة والمقبرة ، لم يكن باقيا حيا من القرية الآن سوى الإيمان
والموق ! » . وغشيت عينيه سعادة الهروب . بيد أن هذا البلد يربيعه المتناقل هو
بلده ، هو حنانه ، هو أمه ، ومهما كانت الحياة الجديدة التي يبعثها فيه تركه هذه
القرى وراءه ، فإنه حين سيكون وسط أناس من بلدان أخرى ، فسيكون دائما ميتا
وسط أحياء ، يتوالى خلف الحضور الخفي لهذه الأشجار وشواهد القبور .

وتتابعت محطة وراء أخرى . وجرى القطار بلا توقف ، يصلصل فوق
القضبان المتخلخلة . صفارة هنا ، وصرير مكايح هناك ، ووراء ذلك تل ترصعه
حلقة من الدخان القذر . وأخذ الركاب يروحون بالقبعات والصحف والناديل ،
مختفين في الهواء الساخن الذي ترويه آلاف القطرات من عرقهم ؛ كانوا يشعرون
بالضيق من خشونة مقاعدهم ، ومن الضجيج ، ومن الطريقة التي تنخرهم بها
ملائسهم كأغما ثمة حشرات تففز بأقدامها على جلودهم ، وروؤوسهم محرقهم كأنما
لهم شعر حي ؛ وكانوا عطشى كأنما هم تناولوا مطهرا للامعاء ، وحزاني كآثموت
ذاته .

وأتى الغسق في أعقاب ضوء النهار ، واعتصرت السحب رذاذا من المطر ،
وبدا الأفق الآن يتفسخ ؛ ويعيدا - بعيدا جدا - التمتع علبة سردين صفيحية
يحيط بها زيت أزرق .

ودخل أحد موظفي القطارات ليضيء مصابيح المقصورة . وسوى ذو الوجه

الملائكي بنيت وربطة عنقه ونظر في ساعته . كان من المتوقع أن يصلوا إلى الميناء في بحر عشرين دقيقة ، بدت له قرناً على ضوء نقاد صبره وشوقه لأن يجد نفسه سليماً معافى على ظهر السفينة . وألصق وجهه في زجاج النافذة محاولاً أن يميز شيئاً في الظلمة . كان ثمة رائحة خضروات . وسمع نهراً يجري . وسمع نفس الخربير بعد مسافة أخرى ، ربما هو نفس النهر .

وأبطأ القطار من سيره وسط طرقات قرية صغيرة ، معلقة كشبكات النوم في الظلام ، ثم توقف شيئاً فشيئاً ؛ وبعد أن هبط ركاب الدرجة الثانية يحملون رزمهم ، مضى في سيره بخطى أبطأ تجاه أرصفة الميناء . بوسعه الآن أن يسمع تكسر الموجات ويميز الشكل الشاحب الطامس لمكتب الجمرك تبعق منه رائحة القار ، وبوسعه أن يسمع الزفير النعسان لملايين المخلوقات العذبة المملوحة .

ولوح ذو الوجه الملائكي محيياً من بعيد للرجل الذي كان في انتظاره على المحطة ، لقد كان الميجور « فارفان » . وشعر بالسرور إذ يلتقي في هذه اللحظة الحاسمة من حياته بصديق سبق له هو أن أنقذ حياته . وصاح به : « ميجور فارفان ! » .

وحياه « فارفان » من على مائدة ، ثم اقترب من النافذة وأخبره ألا يشغل نفسه بأمته ، ذلك أن بعض الجنود سيحضرون لحملها إلى السفينة . وحين توقف القطار ، صعد وصافح ذا الوجه الملائكي بحرارة . وغادر الركاب الآخرون القطار مسرعين .

- حسناً ، ما هي أحوالكم ؟

- وأحوالك يا عزيزي الميجور ؟ ولكن لا داعي للسؤال ، فلن أرى من رجهك ... » .

- لقد أبرق لي السيد الرئيس بأن أعني بكم وأن أرى ألا ينقصكم شيء ، » .

- هذا كرم منك يا ميجور .

ولم يستغرق خروج الركاب من المقصورة سوى دقائق معدودات ، وأطل « فارفان » برأسه من إحدى النوافذ وصاح :

- أين هم القادمون لحمل الحفائب أيها اللفتانت؟ ما معنى هذا التأخير؟ .

ومع كلامه ، ظهرت مجموعة من الجنود المسلحين عند الباب . ولم يدرك ذو الوجه الملائكي الشرك إلا بعد فوات الأوان .

قال « فارغان » ومدسه في يده : إني أقبض عليك بأمر من السيد الرئيس .

- ولكن أيها الميجور . . . إذا كان الرئيس . . . هذا مستحيل ! تعال معي ، تعال معي من فضلك ودعني أرسل برقية ! .

- إن الأوامر التي لدي صريحة يا سيد ميغيل ، وأفضل لك أن تأتي معي في هدوء !

- كم تشاء ، ولكن يجب ألا تنفوني السفينة . إني في مهمة . لا أستطيع . . .

- اسكت من فضلك ، وسلمني كل ما تحمل معك على الفور .

- « فارغان ! » .

- أقول لك سلمني ما معك .

- كلا ، استمع إلي يا ميجور !

- هيا ، نفذ ما أقوله لك ، نفذ ما أقوله لك .

- من الأفضل أن تستمع أنت لي يا ميجور .

- فلتكف عن وعيدك هذا !

- إني أحمل معي تعليمات سرية من السيد الرئيس . . . وأنت ستكون

المسؤول . . .

- فتشه أيها العريف إسبري حالاً من هو السيد هنا ! .

وظهر في الظلام شخص معصوب الوجه . كان في نفس طول قامه ذي الوجه الملائكي ، وفي نفس شحوبه ، وله نفس لون شعره البني الفاتح . وأخذ كل م كان العريف يستولي عليه من جيوب ذي الوجه الملائكي الحقيقي وما يرتديه (جواز السفر ، الشيكات النقدية ، خاتم الزواج المحفور عليه اسم زوجته - وقد

انتزع من هذا الخاتم بعد أن بلل الإصبع برضاب فمه ، أزرار القميص ،
المناديل) واجتنب على الفور .

وبعد ذلك بفترة ، رنت في الفضاء صفارة السفينة . وغطى السجين أذنيه
بأيديه . كانت الدموع تعمي عينيه . كان يود لو أمكنه أن يكر الباب ويهرب ،
يجري ، يطير ، يعبر البحر ، يتوقف عن أن يكون الرجل الذي كانه - يا للبحر
الهائج الذي يهدر تحت جلده ، ويا للندبة التي تحترق في لحمه ، وأن يصبح ذلك
الرجل الآخر الذي برحل الآن إلى نيويورك حاملا أمتعته ومنتحلا اسمه في الفم
رقم ١٧ .

الميناء

كان كل شيء هادئا وسط السكون الذي يسبق تغير المد ، ما عدا أصوات
الجداجد (الرطبية من رذاذ البحر والنجوم تتوهج على أغلفة أجنحتها) ، وصورة
النارة منعكسة على صفحة المياه كدبوس المشبك في وسط الظلمة ، والسجين يفرع
مقصورة القطار جيئة وذهابا وقد غطى شعره جبهته وتهدلت ملابسه ، كما لو كان
قد اشترك لنوه في أعمال شغب . لم يكن يستطيع الجلوس ؛ وطفق يصدر إيماءات
وحركات تماثل أفعال نائم يدفع عن نفسه - بالآهات والشكايات - يد الإله التي
تجذبه نحو المصير المحتوم : إما أن تشخه الجراح ، أو يموت موتا مفاجئا ، أو يكون
ضحية من ضحايا الجرائم ، أو يفر بطنه .

وطفق يردد : « إن « فارغان » هو أملي الوحيد . لو لم يكن الكولونيل فارغان
هنا ، من يعرف ماذا كان يحدث ! إنه على الأقل سوف يخطر زوجتي إذا هم قتلوني
ودفنوني » .

وانبعث صوت ضربات ثقيلة ، كما لو أن هناك قدمين تركلان عربة القطار ،
التي وقفت ساكنة على القضبان تحيط بها ثلة من الحرس المسلحين . بيد أن ذا
الوجه الملائكي كان يطير بفكره بعيدا هناك ، بين القرى الصغيرة التي مر عليها
القطار لنوه ، غارقة في حمأة الظلمة أو في غبار الأيام المشمسة الذي يعمى
الأبصار ، والتي تتغذى على الخوف من الكنيسة والمقبرة . لم يكن هناك من حي
سوى الإيمان والموت .

ودقت ساعة الشكنة العسكرية الواحدة صباحا . واهتزت شبكات
العنكبوت . لقد أتم عقرب الساعة الكبير دورة منتصف الليل . ودفع الميجور .

« فارفان » ذراعه اليمنى أولاً في كسل في سترته ، ثم الذراع اليسرى ، وبدأ بفك أزرارها ببطء محائل ، بادئا بالزر الذي فوق السرة ؛ لم يكن يرى شيئاً مما أمامه على الجدار : خريطة للجمهورية على صورة قم يثناء ب ، ومنشفة يغطيها غطاء جاف وذباب نعلان ، وسرج ، وبنديقة ، وجربندبة* . ومضى بفك زرّاً زرّاً حتى وصل إلى البنية . وحين وصل إلى البنية ألقى برأسه إلى الوراء ، فوقع عيناها على شيء لا يستطيع أن يراه دون أن يؤدي التحية العسكرية : صورة اليد الرئيس .

وفرغ من فك أزرار السترة ، وأطلق ربحاً ، وأشعل سيجارة من المصباح ، وتناول سوط الركوب وخرج . ولم يشعر به الجنود وهو خارج ، فقد كانوا نياماً على الأرض ، متدثرين بعباءاتهم الصوفية كالسوميات ؛ أما الحراس فقد حثوه بيناتهم ؛ ونهض الضابط المناوب وهو يبصق بعض الرماد هو كل ما تبقى من سيجارته التي نام وهو يدخنها ، ولم يكذب يجد متسعاً من الوقت إلا كي يسمح شفقيه بظهر يده وهو يحكي الميجور قائلاً :

- كل شيء على ما يرام ، يا سيدي .

كانت الأنهار تصب في البحر ، كشوارب القلط وهي تنصب في وعاء اللبن . وكان ظل الأشجار اليال ، وثقل السحالي في نزوها ، والماء في المستنقعات التي تحوم الملاريا فوقها ، والدموع المتعبة ، كل ذلك كان يتحرك كيما يصب في البحر .

وانضم رجل يحمل قنبلاً إلى « فارفان » حين دخل إلى عربة القطار مرة أخرى . وتبعها جنديان باسمان انهمكا في حل العُقد من الحبل الذي سيقيدان به السجين . وأمرهما « فارفان » أن يقبدا ذا الوجه الملائكي ، ومضيا به تجاه القرية ، يتبعهم الحراس الذين كانوا يحرسون عربة القطار . ولم يبد ذو الوجه الملائكي أي مقاومة . لقد ظن أنه قد اكتشف في طريقة الميجور وصونه والعنف الذي طلب به تنفيذ الأوامر إلى الجنود ، وهم الذين كانوا سيعاملونه معاملة خشنة على كل حال دون تحريض منه ، ظن أنه اكتشف في كل هذا خطة يدبرها صديقه كيما يساعده بعد ذلك حين يذهبون إلى مقر الحراسة دون أن يورط نفسه أمام الجنود . وحين غادروا المحطة ، اتجهوا إلى أقصى نقطة في خط الككة الحديد ، حيث أرغموه

* حفة عسكرية تحمل على الظهر .

بالضربات على الصعود إلى عربة قطار بضاعة غطيت أرضيتها بروث السماد .
كانوا يضربونه دوماً سبب ، كأنما لديهم أوامر بذلك . وصاح ذو الوجه الملائكي
بالميجور الذي كان يتبعهم منهمكا في حديث مع حامل القنديل : ولكن ... لماذا
يضربونني يا « فارفان » ؟

وكان الرد الوحيد على سؤاله ضربةً بكعب البندقية ، ولكن بدلا من أن تسدد
الضربة إلى ظهره ، وجهوا الضربات إلى رأسه ، مما جعل إحدى أذنيه تدمى ،
وألقت به أرضا على السماد .

والتقط أنفاسه ، ثم بصق الروث الذي التصق بفمه من وقع السقطة . كانت
الدماء تقطر على ملابسه . وحاول الاحتجاج ، فصاح به « فارفان » وهو يرفع
صوته في الهواء : إخرس ! إخرس ! .

فصاح ذو الوجه الملائكي دون أن يسقط : « ميجور فارفان ! » . كان
مهتاجا . وغبَّ الهواء برائحة الدم .

وكان « فارفان » خائفا مما قد يقوله ذو الوجه الملائكي ، فضربه بالسوط .
وترك السوط علامة على خد الرجل التعس ، وناضل مرتكزا بإحدى ركبتيه على
الأرض كحيا يحمرر يديه من الأغلال .

وقال في صوت يرتجف بالمرارة الجامحة . لقد فهمت . لقد فهمت . إن هذا
العمل قد يجعلك تفوز بترقية ، بنجمة أخرى ...

فقاطعه « فارفان » وهو يرفع سوطه مرة أخرى : إخرس ، إلا إذا كنت
تريد ...

وأمسك الرجل الذي يحمل القنديل بذراع الميجور مهدئا إياه .

« هيا ، إضربني ، لا تتوقف ، لا تخف . إني رجل ، والخصيان وحدهم هم
الذين يستخدمون السياط .

وسقط السوط على وجه الضحية مرتين ، ثلاث ، أربع ، خمس مرات في أقل
من ثانية .

وتدخل الرجل الذي يحمل القنديل قائلا : إهدأ يا ميجور ، إهدأ !

- كلا ، كلا . سوف أجعل ابن الكلب هذا يعض التراب . لن يذهب ما
قاله في حق الجيش هكذا دون عقاب . الحيوان . . . القدر ! .

وانكسر السوط من الضربات ، فواصل الميجور ضرباته على ذي الوجه
الملائكي بكعب مدمه مما انتزع قطعاً من الشعر والجلد واللحم من وجه السجين
ورأسه ، وكان يردد مع كل ضربة : « الجيش . . . النظام . . . أيها الحيوان
القدر ، خذ هذه . . . » .

وسحبوا جسد ضحيتهم الساجي من وسط الروث الذي سقط فيه ، وحملوه
من طرف خط السكة الحديد القصي إلى طرفه الآخر ، إلى أن اصطفت عربات
قطار البضاعة ، الذي سيحمله مرة أخرى خفية إلى العاصمة ، في أماكنها .

وصعد الرجل الذي يحمل القنديل إلى إحدى العربات يصحبه « فارفان » .
كما قد أمضيا الوقت يتحادثان ويشربان في مقر الحراسة إلى أن حان وقت
الرحيل .

كان رجل القنديل يقول : أول مرة حاولت فيها الالتحاق بالشرطة السرية ،
كان بها أحد أعز أصدقائي ويدعى « لوسيو فاسكيز » - الملقب بالقטיפه . . .
فقال الميجور : أظن أنني سمعت عنه .

- لم يقلوني آنذاك ؛ وكان صديقي ذاك رجلاً داهية - لذلك سمّوه
بالقטיפه ؛ وبدلاً من ذلك ، وقعت في مصيبة وفقدت كذلك ما كنت أنا وزوجتي -
فقد كنت متزوجة آنذاك - قد وضعناه من أموالنا في تجارة صغيرة . بل إنهم قد
أخذوا زوجتي إلى دار « النشوة اللذيذة » ، تلك المسكنة . . .

ونبه « فرفان » عند ذكر اسم « النشوة اللذيذة » ، بيد أن ذكرى
« الخنزيرة » - رمز جنسها الذي يحمل رائحة المراحض - والتي أشارت غريزته
يوماً ما ، لم تبعث فيه الآن إلا الفشعريرة . كان كرجل يسبح تحت الماء ، يصارع
طوائف الوقت « ذا الوجه الملائكي » خيالها يردد على الدوام : « نجمة أخرى ،
نجمة أخرى ! » .

- وما هو اسم زوجتك السابقة ؟ إنني أكاد أعرف كل الفتيات في دار « النشوة
اللذيذة » .

- لن يفيد معرفة اسمها ، فهي قد رحلت عن تلك الدار في نفس يوم التحاقها بها . كان لدينا وليد مات هناك وكاد ذلك يسلبها عقلها . لم يكن المكان المناسب لها . إنها الآن في مغل المستشفى مع الراهبات . لم تكن لتصبح عاهرة أبداً ! .

- ولكني أعتقد أنني أعرفها . لأنني كنت الشخص الذي حصل على تصريح الشرطة للجناز الذي أقامته السيدة « تشون » للطفل الوليد ، ولكن لم يكن عندي فكرة أنه ابنك الصغير ! .

- أما أنا فقد أصبحت معدما مفلسا . كلا ، شكرا . . . إذا بدأ المرء يفكر في كل ما مر به ، فإن كل ما يورده هو أن يطلق ساقه للريح وينجو بجلده .

- أما أنا فإني كنت سادرا في جهلي إلى أن حاولت إحدى العاهرات أن تشي بي لدى السيد الرئيس .

- وقد كان ذلك الشاب ، ذو الوجه الملائكي ، متورطا مع الجنرال « كاناليس » . كان غارقاً حتى ناصيته في حب ابنة الجنرال ، التي تزوج منها فيما بعد . ولم ينفذ أوامر السيد الرئيس ، كما يقولون . إني أعرف كل هذا لأن « لوسيو فاسكيز » - الفطيفة - قابله في حانة تدعى « الخطوتين » قبل ساعات قليلة من فرار الجنرال .

فرد الميجور وهو يفتش في ذاكرته : « الخطوتان ؟ » .

- « إنها حانة في ناصية الشارع . وصدق أولاً تصدق : كان مرسوما على واجهتها رجل وامرأة ، كل منهما على أحد جانبي الباب . كانت المرأة تقول - وأنا لا أزال أذكر الكلمات - « تعال ارقص في حانة « الخطوتان » ، أما الرجل فقد كان يحمل زجاجة في يده ويقول : « كلا شكرا ، إني أفضل رقصة الزجاجة ! » .

ومضى القطار في طريقه ببطء . كانت ثمة رقعة صغيرة من نور الفجر تطفو على البحر الأزرق . وبالتدريج ، من وسط الظلمة ، بدأت تظهر أكواخ القش في القرى ، والجبال القصية ، وسفن البضاعة الصغيرة البائسة ؛ ومقار الثكنات كعلب نقاب مليئة بجداجد ترندي الملابس العسكرية .

دجاجة عمياء

- « لقد مضت ساعات كثيرة على رحيله » .

في يوم الرحيل ، يبدأ الشخص الآخر بحسب كل ساعة إلى أن يمر ما يكفي كي يقول : لقد مضت أيام كثيرة على رحيله ! . ولكن بعد أسبوعين ينقضي حساب الأيام ويصبح الأمر : لقد مضت أسابيع كثيرة على رحيله ! . ثم شهر كامل . ثم ينقضي حساب الشهور . ثم عام كامل . ثم ينقضي حساب السنين . . .

كانت كميلة تنتظر ظهور ساعي البريد عند إحدى نوافذ غرفة الاستقبال ، وهي تخنّب ، وراء الستائر بحيث لا يراها أحد من الطريق ؛ كانت حلي وتخطيط ثياب المولود .

وأعلن ساعي البريد عن مقدمه بالدق كالمجنون على جميع الأبواب الخارجية . ودقة فدقة ، وصل إلى مستوى النافذة التي تقف وراءها كميلة . وتركت كميلة ما تخطيط لتنصت وتنتظر ، وقلبها يكاد يقفز من صدرها من فرط الإضطراب والسرور . « أخيراً سأتلم الخطاب الذي أشتاق إليه ! » حبيبي كميلة « بالخط العريض . . . »

ولكن ساعي البريد لم يدق بابها . ربما كان السبب هو . . . ربما فيما بعد . . . وناولت ما تخطيط ثانية وهي تهمهم أغنية تطرد بها أفكارها الحزينة .

وعاد ساعي البريد مرة أخرى في الأصيل . وكان من المستحيل عليها أن تخطيط غرزة واحدة في الزمن الذي استغرقته في الانتقال من النافذة إلى الباب . ووقفت تنتظر دفته ، مفرورة ، لاهثة الأنفاس ، غارقة في دموعها ؛ وحين ادركت أخيراً

أن صمت المنزل لم تقطعه أي دقة على الباب ، أغلقت عينيها في هلع ، وأخذت تنفض بالبكاء والقيء المفاجيء والنهبات . لماذا لا اخرج إلى عتبة المنزل ؟ ربما . . . يكون ساعي البريد قد نسي - إنه رجل لطيف - وسيحضر الخطاب غداً كأنما لم يحدث شيء .

وفي اليوم التالي ، كادت تخلع الباب من مفصلات وهي تفتحه على مصراعيه . وجرت تنتظر ساعي البريد حتى لا ينساها هذه المرة ، وكذلك كيما تجلب الحظ السعيد . ولكنه كان ماضياً في طريقه كالعتاد ، منحاشياً أسلتهما ، يرتدي ملابس خضراء زاهية (لون الأمل) بعينه الصغيرتين الضفدعيتين ، وأسنان عارية كأسنان الدمية العظمية في كليات التشريح .

شهر ، شهران ، ثلاثة ، أربعة . . .

ولم تعد تذهب إلى الحجرات التي تطل على الطريق ، بل جذبها حزنها العميق إلى القسم الخلفي من المنزل . وشعرت بنفسها كأنما هي إحدى أدوات المطبخ ، أو قطعة لحم أو خشب ، أو جرة فخارية ، مجرد شيء لا قيمة له .

قالت إحدى جاراتها من العارفات بأمور الولادة ، حين استشارتها الخادومات في شأن حالة كميلة : « إن هذا ليس بمجرد نزوات بل هو « وخم » الحمل » . وقد قالت ذلك لمجرد المتعة في الحديث أكثر منه بحثاً عن علاج للحالة . ذلك أنه كانت هناك علاجات كثيرة أمام الخادومات : فقد أضاف شموغا للقديسين ، وخففن من حدة فاقتهن بما أخذن يحمله من أشياء غالية خفيفة من المنزل .

وفي أحد الأيام المباركة ، خرجت المريضة من المنزل ، ذلك أن الجثث تطفو إلى السطح أيضاً . وجلست مقعبة في عربة أجرة ، تتحاشى عين أي شخص تعرفه ؛ وقد أشاح هؤلاء بوجوههم بعيداً عنها بدلاً من أن يجيئوها ، وانطلقت وكلها تصميم على مقابلة الرئيس بأي ثمن . وكان إفطارها وغداءها وعشاءها منديل مبلل بالدموع . وكانت لا تزال تعض عليه بنواجذها حين كانت تجلس في غرفة الانتظار . يا لكثرة الشقاء والمشكلات ، إذا حكم المرء على ذلك بالحشد الذي كان ينتظر مقابلة الرئيس ! أهل الريف يجلسون على حافة المقاعد المذهبة ، وأهل المدينة يغوصون فيها ويستندون إلى ظهورها . وكانوا يشيرون للسيدات إلى الكراسي ذات المرفقين في صوت خفيض . وكان ثمة شخص يتكلم في الردمة

الخارجية . السيد الرئيس ! وتقلصت أعصابها بمجرد التفكير فيه ، وركلتها طفلها في أحشائها كأثما يقول : فلنخرج من هنا ! .

وانبعثت مهمة أناس يغيرون من جلستهم . ثاؤبات . مهمة ملاحظات . خطوات أقدام ضباط أركان الحرب . حركات جندي يحاول تنظيف إحدى النوافذ . ذباب . ركلات الطفل الصغير في أحشائها . « لا تكن عنيقا هكذا ! لماذا تنصرف بمثل هذه الخشونة ؟ إننا سنقابل الرئيس لنسأله ماذا حدث لشخص لا يعرف أنك موجود ، ولكنه سيجبك حبا عارما حين يعود إلى المنزل ! آه ، إذن أنت تتعجل الخروج كيما تشارك في ما يدعوهُ الناس بالحياة ! إنني لا أعارض في هذا ، ولكنك أفضل حالا وأمنا حيث أنت الآن ! » .

ولم يقابلها الرئيس . قال لها أحدهم إنه يحسن بها أن تطلب مقابلة رسمية . برقيات ، خطابات ، محادثات رسمية ، بلا جدوى ! لم تكن تتلقى أي رد عليها .

ومرت ليل ، وجاءت أيام ، وغارت عيناها من الأرق أو طفتا في بحيرات من دموع . فناء رحيب . وهي نرفد على سرير معلق ، تنهى بحلوى من ألف ليلة وليلة وتلعب بكرة في يدها . وأخذت تنقل قطعة الحلوى من خدها إلى خدها الآخر ، فسقطت الكرة الصغيرة من يدها وتقاوت على أرض المر الذي يقع تحت السرير المعلق وتدحرجت إلى الفناء بعيدا ، بعيدا ، وأخذت تصغر إلى أن تلاشت تماما ، في حين غما حجم قطعة الحلوى في فمها . لم تكن نائمة كلية . وكان جسدها يرتعش للمس الشراشف . كان حلما تضيئه أنوار الحلم والأنوار الكهربائية على السواء . وأفلتت قطعة الصابون من بين يديها عدة مرات كالكرة المطاطية الصغيرة ، وبدت فطيرة إفطارها . وكانت تأكلها من فرط ما حل بها من جوع - كأثما تتضخم في فمها كقطعة الحلوى .

كانت الشوارع كلها خالية والناس كلهم في القداس ، حين تنوجه هي إلى ارباب الحكومة ، واحدا إثر الآخر ، في انتظار وصول الوزراء . ولم تكن تعرف كيف تكسب عطف الحراس العجائز الشكسين ، الذين لم يكونوا يردون عليها حين تكلمهم ، ويطردونها بلا رحمة - أولئك الكتل الشائنة من اللحم البشري - حين تلج في طلبها .

ولكنها الآن تتذكر بقية حلمها . لقد جرى زوجها والتفت الكرة الصغيرة .
الفناء الرحيب . الكرة السوداء الصغيرة . وزوجها يتضاءل حجمه شيئاً فشيئاً ،
ويبتعد عنها رويداً رويداً كأنما هو يتبدى في الطرف المصغر للتلسكوب ، إلى أن
يختفي خارج الفناء وراء الكرة ، في حين تضخمت قطعة الحلوى في فمها ، ولم
تعد تفكر في طفلها المنتظر .

وكتبت إلى قنصل بلدها في نيويورك ، وإلى الوزير المفوض بالسفارة في
واشنطن ، وإلى صديقة إحدى صديقاتها ، وإلى صهر أحد أصدقائها ، تطلب
أبناء عن زوجها . ولكنها كانت كأنما تلقى خطاباتها في سلة المهملات وليس في
صناديق البريد . وسمعت من بقال يهودي أن السكرتير المحترم للمفوضية
الأمريكية - وهو مخبر سري إلى جانب عمله كدبلوماسي - لديه أبناء مؤكدة عن
وصول ذي الوجه الملائكي إلى نيويورك . ولم يقتصر الأمر على وجود سجلات
رسمية في الميناء والفندق وملفات الشرطة تثبت وصوله إلى نيويورك ، بل إن
الصحف قد نشرت أبناء وصوله ، وأكد ذلك الناس الذين عادوا مؤخراً من
هناك .

وقال لها اليهودي : « إنهم يبحثون عنه الآن ، ولا بد أن يعثروا عليه ، حيا
أو ميتا ، رغم أنه قد استقل فيما يبدو سفينة أخرى من نيويورك إلى سنغافورة » .

وسألت : وأين تقع هذه السنغافورة ؟

فأجاب اليهودي ، بتكلمة من أسنانه الصناعية : « وأين تظن أنها تقع ؟ إنها في
اخذ الصين » .

فاستطردت تلح قائلة : وكم يستغرق الخطاب في الوصول من هناك إلى هنا ؟

- لا أعرف بالضبط ، ولكن لا أكثر من ثلاثة شهور .

وأحصت على أصابعها . لقد رحل ذو الوجه الملائكي منذ أربعة شهور .

إنه في نيويورك أو في سنغافورة . لقد انزاح حمل ثقيل من على ذهنها . يا لها
من راحة كبرى أن تفكر فيه بعيداً ، وأن تعرف أنه لم يقتل في الميناء كما أشاع
البعض ، وأنه رغم كونه بعيداً عنها في نيويورك أو في سنغافورة فإنه يفكر فيها طول
الوقت !

وأمسكت بالحنافة في حانوت اليهودي حتى لا يغمى عليها . كان فرحها قد جعلها تشعر بالدوار . وخرجت كأنها تنشي على الهواء ، أو كأنها بين ذراعي زوجها في بلد جديد ، مخلفة وراءها خم فخذ خنزير ملفوفة في الورق المنفض ، والزجاجات وسط القشر الإيطالي ، وعلب المرب ، والشيكولاته ، والتفاح ، والرنجة ، والزيتون ، والسماك المجفف ، والعنب الموسكاني ، مع خروجها من محل البقال . ه كم كنت بلهاء أن أعذب نفسي على هذا النحو ! إنني أفهم الآن السر في عدم كتابته لي ، ويجب عليّ أن أمضي في تمثيل دور المرأة التي هجرها زوجها والتي أعمتها الغيرة وتسمى إلى العثور على الرجل الذي تركها ، أو دور الزوجة التي تريد زوجها إلى جوارها خلال محنة الولادة الصعبة .

وحجزت قمرة في إحدى السفن وحزمت حقائبها . وكان كل شيء جاهز لسفرها حين رفضوا إعطاءها جواز سفر . ثمة فتحة ممتلئة بالأسنان المملوطة بالنيكوتين محاطة بإطار من اللحم المنتفخ تحركت من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى ، لتخبرها أن أوامر قد صدرت بعدم إعطائها جواز سفر . وتحركت هي سفتيها من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى ، في محاولة لتكرار العبارة كأنما هي قد سمعت خطأ .

وأنفقت مالا وفيراً على بريات بعثتها إلى الرئيس . ولم يصل رد . ولم يقدم لها المسؤولون الحكوميون أية معونة . ونصحوها وكيل وزارة الخربية ، وهو رجل سمح بطبعه مع النساء ، بألا تلج في هذا الموضوع ، فليس هناك من جهد يمكن أن يسفر عن إعطائها جواز سفر ، وقال إن زوجها قد حاول اللعب على السيد الرئيس ، وأن الأمر ميؤوس منه .

ونصحوها بالذهاب لمقابلة قس ضئيل الحجم ذي نفوذ ، أو إحدى عشيقات الرجل الذي يزود الرئيس بجياده . ولما ترددت البشاعات حينئذ بأن ذا الوجه الملائكي قد مات بالحمى الصفراء في « بناما » ، فقد وجدت كميلة كثيرين على استعداد لاصطحابها إلى جلسات تحضير الأرواح كما تحسم الشك باليقين . وهناك ، ! ينتظروا حتى تكرر سؤالها لهم . ولكن الوسيطة الروحانية بدت مترددة ، إذ قالت وسافها الضافتان تهزان تحت ثيابها الجامدة : إنني لا أحب أن نحل في جسدي روح شخص كان من أعداء السيد الرئيس . ولكن الضراعة ، مفرونة بالمال ، تهز الجبال ، فوافقت الوسيطة بعد أن افعموا جيها بالنفود .

وأطفئت الأنوار . وارتعت كميلة حين سمعتهم يسندعون روح ذي الوجه
الملائكي ، واضطروا أن يجرّوها خارج الحجرة وهي تكاد تكون غائبة عن وعيها .
وقالوا لها بعد ذلك إنها سمعت صوت زوجها ، الذي مات في أعالي البحار ، وهو
الآن في برزخ لا يمكن الوصول إليه ، راقد في سرير مترق مرقه ، على جشبة من
الماء ، محاط بجداول مليئة بالأسماك ، علاوة على أفضل وسادة : إنعدام
الوجود .

كانت قد أصبحت نحيفة مغمضة كالقطة العجوز وهي لم تتعد العشرين من
عمرها ، ولا شيء يبين في وجهها سوى عينيها - عينا خضراوان تحبط بهما هالات
سوداء في حجم أذنيها الشفافتين ، وذلك حين وضعت طفلا صغيرا . وبناء على
نصيحة طبيبها ، فإنها حالما نهضت من الفراش ، سافرت إلى الريف لتمكث هناك
بعض الوقت . وتعلقت بالحياة من أمتار وأهبة ، إذ كانت مهددة بالاصابة
بالانيميا الحبيثة ، والبل ، والجئون ، وهي تتلمس طريقها وطفلها بين ذراعيها
بلا أنباء عن زوجها ، باحثة عنه في المرأة : المكان الوحيد الذي يعود فيه الناس
الذين غرقوا ، وفي عيني طفلها ، وفي نفسها حين تنام وتعلم به في نيويورك أو في
سنغافورة .

وأخيرا ، جاء يوم ألقى ضوءاً على ليل حزنها المدهم ، حين كانت تنجول
كالطيف بين أشجار الصنوبر وبساتين البهاكة والأشجار السامقة في الحقول . كان
يوم « الأحد الأبيض » ، حين مسحوا طفلها بالملح والزيت والماء ورضاب القس ،
وخلعوا عليه اسم « ميغيل » . كانت العصافير تتسلاطف بمناقيرها - أوقيتان من
الريش تغرد إلى ما لا نهاية . وكانت الأغنام منهمكة في لعق صفارها . ياله من
إحساس كامل بالخير والرفاه خلقت حركات لسان الأم في الحمل الرضيع ، الذي
أخذ يرفرف بأهدابه الطويلة تحت وقع ملاطفتها له ! ونسابت الأمهار جريا وراء
الفرسات ذوات العيون الرطبية . وثغت العجول الصغيرة ببهجة واللعباب يبرق
بين فكّيهما وهي تحكهما بالضروع المترعة باللبن . وبدون أن تدرك سببا لذلك ،
ضمت كميلة طفلها إلى صدرها حين إنتهت موسيقى النعميد ، كما لو أن الحياة قد
عادت إليها من جديد .

ونشأ « ميغيل » الصغير في الريف وأصبح مزارعا . ولم تطل « كميلة » المدينة
بقدمها بعد ذلك أبدا .

كل شيء على ما يرام

مرة كل اثنين وعشرين ساعة ، ينفذ الضوء ما بين خيوط العنكبوت وأعمدة النافذة الحجرية إلى السرداب الأرضي ؛ ومرة كل اثنين وعشرين ساعة تتدلى إلى أسفل صفيحة غاز قديمة صدئة من حبل معقود تنن بالطعام للسجناء في الزنانات السردابية . وعند مرأى الصفيحة مليئة بمرق الدهن وبها مِرْقٌ من اللحم السدهني وقطع العجين ، كان السجن رقم ١٧ يشيح بوجهه عنها . كان يفضل أن يموت على أن يأكل ولو ملعقة واحدة منها . ويوما بعد يوم ، نذلت الصفيحة ثم ذهبت دون أن تمسها يد السجن . ولكن الحاجة كانت تلتهم عزمه تدريجيا ، فقد تركه الجوع بلا إرادة ولا تصميم ، وانتفخت عيناه وعطت بؤبؤيه مسحة زجاجية ، وطفق يشكلم بصوت عالٍ حديثا مشوشا إذ هو يذرع زنزانه الضيقة جبهة وذهابا ، ويحك أسنانه بأصابعه ، ويلوي أذنيه الباردتين . وجاء أخيرا يوم إندفع فيه إلى الصفيحة المدلاة كما لو كان يخاف أن تُرفع عنه في أية لحظة وغمر فيها فمه وأنفه ووجهه وشعره وهو يكاد يغرق من الجهد الذي يبذله في البلع والمضغ في أن واحد . وأنهى الحصة المخصصة له ، وحين جُذِبَ الحبل إلى أعلى راقب الصفيحة الفارغة ترتفع بسرور الحيوان الذي أشبع نهمه . ولم يستطع أن يمنع نفسه من مص أصابعه ولعن شفتيه . بيد أن شبعه كان قصير الأمد ، إذ سرعان ما تقيا كل ما أكله وسط لعناته وآهاته . والتصق اللحم والعجين بمعدته ورفض أن يتزحزح ، ولكن كل تشنج معوي كان يضطره إلى الانحناء على الجدار فاغر القم كشخص ينحني فوق هوة عميقة . وأخيرا انتظمت أنفاسه ، ولكن رأسه كان لا يزال يدور . ومشط شعره الرطب بأصابعه ، وهبط بها فيها وراء أذنيه كيما ينظف لحينه من القيء . كانت أذناه تُصْفِران ، ووجهه غارقا في عرق بارد لزج حريف ، كميّاه البطارية الكهربائية . وكان الضوء قد أخذ ينحسر بالفعل - إذ هو ما يكاد يأتي حتى

ينحسر . وعمد إلى التثبيت بما بقي له من قوة جسدية ، كأنما هو يصارع نفسه ، فنجح في الجلوس القرفصاء ، ثم مد ساقيه وأراح رأسه على الجدار ، واستسلم لثقل جفنيه كأنما هو قد تعاطى مخدرا قويا . بيد أنه لم يسترح في نومه ، ذلك أن صراعه كيما يتنفس رغم عدم كفاية الهواء تبعته حركات يديه انقلقة على جسده ، وقيامه بسحب إحدى ساقيه ثم الأخرى ، ثم مدهما ثانية في حركة لا إرادية ، وجهوده المحمومة كي يقتلع الفحم الحلي الذي بدا كما لو كان يحرق حلقة ، بخوذات أظافره الصغيرة . وحالما أصبح نصب مستيقظ بدأ يفتح فمه ويغلقه كالسمكة خارج الماء ، كيما يتذوق الهواء الثلج بلسانه الجاف ؛ وحالما اكتمل استيقاظه أخذ يصيح في هذيان محموم ، واقفا على أطراف أصابعه وجاذبا قامته إلى أقصى حد لها ، حتى يستطيع كل شخص أن يسمعه . وأخذت صيحاته تضعف شيئا فشيئا إذ يتردد صداها وسط أقبية السرايب . وقرع بقبضته على الجدران ، ودق بقدميه على الأرض ، وصاح عاليا مرة أخرى وأخرى ، إلى أن تحولت صيحاته إلى صراخ . . . « ماء ، مرق ، ملح ، دهن ، أي شيء ، ماء ، مرق . . . » .

وسقط على يده خيط من الدماء . . . دماء عقرب مهروس . . . أو عقارب . . . ذلك أن الدماء استمرت تسيل . . . دماء كل العقارب المهروسة في السماء وقد تحولت إلى أمطار . . . وأطفأ عطشه دون أن يعرف من أين تنهل عليه تلك الهبة السائلة ، التي أصبحت بعد ذلك مصدر عذاب له . ذلك أنه أمضى ساعات وساعات مقعيا على الحجر الذي اتخذته وسادة ، حتى بقي قدميه من بركة المياه التي تكونت في زنزانته حين حل الشتاء ، ساعات وساعات ، مبتلا حتى قمة رأسه ، بفطر بالمياه ، مبتلا حتى نخاعه ، يتشاءب ويرنجف ، يعاني عذابات الجوع كلما تأخرت الصفيحة الصغيرة في المجيء . وكان يأكل بنهم النحيفين من الرجال كيما يغذي أحلامه ، ثم يستغرق في النوم واقفا بعد آخر قسمة . وبعد ذلك ، كانت تدلى إليه صفيحة أخرى يقضي السجناء الانفراديون حاجاتهم البدنية فيها . وفي أول مرة سمع السجن رقم ١٧ تلك الصفيحة تدلى إليه ، ظن أنها وجبة غذاء أخرى ، وذلك في الوقت الذي دأب فيه على رفض الطعام ، فكان بتركها تصعد إلى أعلى دون أن يخطر بخیاله أنها تحتوي على براز ، ذلك أن رائحتها الكريهة كانت هي نفس رائحة المرق . وكانت هذه الصفيحة تنتقل من زنزانة إلى أخرى ، وحين نصل إلى رقم ١٧ ، تكون نصف ملانة . ويا لقسوة مشاعره حين يسمعها

ندلى إني حين لا يحتاج إليها ، ثم لا تأتي حين تمس حاجته إليها وبصم أذنيه بقرعه على الخائط كلسان الجرس المصمت ! وأحيانا يشند به العذاب فتموت رغبته بمجرد التفكير في الصفيحة : متسانلا هل ياترى تأتي أم لا تأتي ، أو تتأخر أو يسونها كلية (وهو ما كان يحدث أحيانا) أو ينقطع حبها (وكان ذلك يكاد يحدث كل يوم) فتعطي أحد السجناء دشا ثقيلًا . لقد كان مجرد التفكير في الأبخرة التي تنصاعد منها ، والنفث الشري ، والأطراف الحادة للصفيحة المستديرة ، والجهد المضروب ، كافيا كيما يقطع رغبته ، ثم يكون عليه إذن أن ينتظر المرة القادمة ، وأن يحتمل إثنين وعشرين ساعة من الغص ، وعمر التسول ، والدموع ، والفتنات ، والشائيم ، وطعم النحاس في رضابه ، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يقضي حاجته على الأرض ، مفرغا المحتويات الثينة لمعدته كالكلاب أو الأطفال ، وتخذ مع الموت .

ساعتان من الضوء ، واثنان وعشرون ساعة من الظلام الخالك : صفيحة مرق ، وصفيحة براز : عطش في الصيف ، وفيضان في الشتاء : هذه هي الحياة في الثرانات السردابية .

وفاء السجين رقم ١٧ لنفسه بصوت لم يكده يعرف عليه : « إن وزنك ينقص كل يوم ، وسرعان ما تستطيع الربيع أن تحملك إلى حيث كميته تنتظر عودتك إلى المنزل ! لا بد أنها قد نعت من طول الانتظار ، لا بد أن الحزن قد جعلها نحيلة كهود الخيزران ! ماذا بهم لو نحللت يدك ؟ أنها سوف تعيد إليها الدفء بضمهما إلى صدرها . قدرتان ؟ إنها سوف تغسلها بدموعها ! عيناها الخضراوان ! أجل ، مثل صور الحقول الخضراء في التيرول السماوي التي تظهر في بحلة « السراسيون » ، أو في خضرة أعواد القصب البرقشة بالأصفر الفاقع واللون النيلي . ومذاق كدماتها ، ومذاق شفيتها ، ومذاق أسنانها . . . ومذاق مذاقها . . . وجسدها ، كرقم ثمانية يخصصها النجيل ، أو سحابة الدخان على شكل القيثارة التي تخلفها الصواريخ النارية حين تنطلق وتفقد قوة دفعها . لقد خطفتها من برائن الموت في ليلة كانت الصواريخ النارية تنطلق إلى السماء . . . كانت الملائكة تنهادي ، والسحب تنهادي ، والأسطح تنهادي ، بخطوات قصيرة تشبه خطوات الحارس الليلي ، والبيوت ، والأشجار ، كل شيء كان ينهادي في الهواء معها رمعي » .

وكان يشعر بكميلة إلى جواره ، كالبودرة الخيرية الملمس ، في كل نسمة
ينقبضها ، في أذنيه ، بين أصابعه ، تجاه ضلوعه التي تهز عيني أحشائه العمياء
كالأهداف الراجفة . . .

وكان يمتلكها . .

كانت الرعشة تأتي في رفق ، دون أدنى تقلص ، تمر رجفة خفيفة على طول
أشواك عموده الفقري المتوترة ، ثم تنقبض فتحة الخبال الصوتية في سرعة ، ثم
نقط ذراعاه على الأرض كأنهما قد بُترا . . .

وكان التقزز الذي يسببه له إرضاء حاجته في الصفيحة ، مضاعفا للآثم الذي
يقرضه من جراء إرضاء حاجاته الغريزية بهذه الطريقة العقيمة بذكرى زوجته ،
يتركه دون أية قدرة على الحركة .

وبالأداة المعدنية الوحيدة التي كانت في متناوله ، وهي قطعة صغيرة جدا من
النحاس الأصفر انتزعها من أحد شريطي خذائه ، قام بحفر إسم كميلة واسمه
متشاكين على الجدار ، واستغل وجود الضوء الذي يسرور زنزانته كل اثنين
وعشرين ساعة فأضاف إلى الرسم قلبا ، وخنجرا ، وتاجا من الشوك ، وهلبا ،
وصليبا ، وقاربا صغيرا ، ونجما ، وعصفورين صغيرين كالشرطة التي على حرف
النون بالإسبانية ، وقطارا للسكة الحديد يخرج منه شريط حلزوني من الدخان .

ولحسن الحظ ، أعفاه ضعفه من عذابات الجسد . فقد فكّر في كميلة وقد
عاث الدمار في بدنه ، كما يشم المرء زهرة أو يسمع قصيدة . كان يفكر فيها
كالوردة التي كانت تزهر كل أبريل ومايو في شرفة غرفة الطعام التي كان يتناول فيها
الافطار كل صباح مع والدته أيام طفولته : فرع صغير غريب من فروع شجرة
الورد . وخلفته سلسلة من الصباحات الصبائية حائرا . كان النور يخفت . . .
يخفت . . . كان النور يخفت ، حالما يجيء ، وابتلعت الظلمة الجدران السمكية كأنها
قطع من البسكويت ، وسرعان ما ستصل بعد ذلك صفيحة البراز . أو لتلك
الوردة ! صوت الحبل الخشن ، والصفيحة معلقة في حبل بين جدران الأفيّة
المنعرجة . وارتجف من ذكر الثنائة التي تصاحب هذا الزائر الهام . أوأها لوردته ،
ناصعة البياض كالخليب في طبق إفطاره !

وعلى مر السنين ، أصاب السجين رقم ١٧ الهرم ، من المعاناة أكثر منه من

مرور الزمن . وحفرت غضون عميقة لا حصر لها أنحاديدي في وجهه ، وثبت له شعر أبيض كما ثبت للنمل أجنحة في الشتاء . ولم يبق شيء من هيئته . . . ولم يبق شيء من جسده . . . دوغما هواء ، دوغما شمس ، دوغما حركة ، يعاني من الدوسنطاريا والروماتزم والخور العصبي ، يكاد لا يرى ، لم يعد حيا فيه سوى الأمل في أن يرى زوجته مرة ثانية ، ذلك الحب الذي بدعم القلب في مواجهة الآلام والشقاء .

*

أزاح رئيس الشرطة السرية مقعده إلى الخلف ، وعقد قدميه تحت ، واستند برفقيه على المنضدة السوداء السطح ، وأذن قلمه من الضوء . وشدّ على أسنانه إذ مد فجأة إصبعين في حركة قارصة نجح بها في استخلاص شعرة من سن القلم كانت تحمل على الحروف التي يكتبها شوارب كشوارب الجمبري . ثم مضى يكتب :

« . . . وبناء على التعليمات الواردة » وشقّ القلم طريقه على سطح الورقة من ضربة لأخرى « عمل المدعو « فيش » على كسب صداقة السجين نزيل الزنزانة رقم ١٧ ، بعد أن أودع الحبس معه لمدة شهرين ، وتظاهر بالبكاء طوال النهار والليل ، صائحا على الدوام ومحاولا الانتحارين وقت وآخر . وتطورت صداقتها إلى تبادل الكلام ، فسأله السجين رقم ١٧ عن الجريمة التي ارتكبها في حق السيد الرئيس حتى يرسل به إلى هذا المكان الذي ينقطع فيه كل رجاء . ولم يجب المدعو « فيش » ، بل اكتفى بدق رأسه على الأرض وإطلاق سيل من السباب الضيق . ولكن السجين رقم ١٧ أصر على سؤاله إلى أن أطلق لسان « فيش » من عقاله فحكى له قصته : لقد ولد في بلد يتقن كل أهله الحرفة التي أصبح يعتاش منها ، لذلك فقد سافر إلى البلد الذي هما فيه الآن والذي يعاني نقصا في أهل حرفته . الرحلة . الوصول . بلد مثالي للأجانب . عمل هنا ، أصدقاء هناك ، مال ، كل شيء . ثم رأى فجأة امرأة في الطريق ؛ تتبعها مترددا ، ضد رغبته . متزوجة ؟ عزباء ؟ أرملة ؟ . لم يدر إلا شيئا واحدا ، هو أن عليه أن يتبعها . يا لهاتين العيشين الخضراوين الساحرتين ! فم كالوردة . وهي تمشي كالغزال الرشيق . ويصمم على الإتصال بها ، ويسير قبالة منزلها ، وينجح في الدخول ، ولكن عندما حاول التحدث إليها لم يرها بعد ذلك أبدا ، وأخذ رجل مجهول يتتبع خطواته بعد

ذلك كظله أينما ذهب . ما معنى ذلك يا اصدقائي ؟ ويدير أصدقاؤه وجوههم . ما معنى ذلك يا أحجار الطريق ؟ وترتجف الجدران من سماع سؤاله . والشيء الوحيد الذي يصبح واضحا جليا هو أنه قد اندفع وتحراً إلى حد أنه قد أراد أن يحب عشيقه السيد الرئيس . وهي ابنة أحد الجنرالات ، استسلمت للرئيس انتقاماً ، لأن زوجها قد هجرها ، كما قالوا له قبل أن يقيضوا عليه ويلقوا به في السجن بتهمة القوضوية .

« ويذكر المدعو « فيش » أنه عند هذا الحد من القصة سمع صوتاً يشبه صوت فحيح الثعابين وسط الظلام ، وأن السجين رقم ١٧ الذي يشاركه الزنزانة توجه إليه ورجاء في صوت ضعيف ضعف زعنفه السمك أن يخبره باسم تلك السيدة ، وكرر المدعو « فيش » أسمها له مرتين : كميلة كاناليس ، كميلة كاناليس . ومن هذه اللحظة ، بدأ السجين يمشى نفسه كأنما جسد كلة مصاب بالحكة الجلدية ، رغم أنه لم يعد يحس بأي شيء فيه ؛ ومزق وجهه كيما يحس دموعه التي سالت حيث لم يعد فيه سوى جلد جاف ، ورفع يده إلى صدره ولكنه لم يستطع أن يعثر عليه ، وكان كنسيج عنكبوتي من التراب الرطب وقد سقط على الأرض . . .

« ووفقاً للتعليمات ، قمت بنفسي بتسلم المدعو « فيش » ، الذي حاولت أن أنقل شهادته حرفياً في هذا التقرير ، سبعة وثمانين دولاراً ، تعويضاً عن الفترة التي قضاهما في الحبس ، وحلّة مستعملة من الكشمير ، وتذكيرة سفر إلى « فلاديفوستوك » . وقد حررت شهادة وفاة السجين رقم ١٧ على النحو التالي : وفاة نتيجة زحار أي اسهال مُعَدٍ .

« هذا هو كل ما أتشرف بإبلاغه إلى السيد الرئيس . . . » .

خاتمة

ظل الطالب راقفا مشدوها على حافة الطوار كما لو أنه لم ير في حياته رجلا في مسرح القسس من قبل . ومع ذلك ، لم يكن ثوب القس هو الذي أدهشه ، بقدر ما أدهشه ما همس به مساعد القس في أذنه إذ هما يحتضن أحدهما الآخر ببهجة حين إنقيا بعد أن أفرج عنها :

- « لقد تلقيت أوامر بأن أرندي هذا الثوب ! » وكان سيني كلامه عن ذلك ، ما لم ير في هذه اللحظة صفًا من السجناء يمرون وسط صفين من الجنود في وسط الطريق . ونم مساعد القس في حين صعد الطالب إلى الطوار :

- « يا للنعاء الساكنين ، هذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعوه لقاء هدم « رواق الرب » ! ثمة أشياء يجب رؤيتها عياناً كيما يصدقها المرء » .

وهنف الطالب متعجبا : « إننا نراها ، ونلمسها ، ثم لا نصدقها ! انني أتحدث عن « البلدية » » .

- ظننتك نعي ثياب القس التي أرندتها .

- إنهم لم يكتفوا بإرغام الأتراك على دفع نفقة تجديد طلاء الرواق ، بل إمتد غضبهم من اغتياك « الرحل ذي البغل الصغير » إلى هدم البناء نفسه .

- إحدرك أن يملك أحد أيها الثرثار . إصمت بحق الله ! هذا ليس مؤكدا . . .

وكان لدى مساعد القس المزيد من القول ، بيد أن رجلا ضئيل الحجم كان يجري وسط الميدان عاري الرأس ، توجه نحوهما وزرع نفسه فيما بينهما وأخذ يغني

بأعلى صوته :

أيتها الدمية الصغيرة
أي نحات ماهر صنعك ؟
هذا الوجه اللطيف ؟

وصاحت امرأة تجري وراءه وهي ترى على وشك الانفجار في البكاء في أية
لحظة : « بنيامين ! بنيامين ! » ! .

« إنه ليس « بنيامين » الأراجوز
لا ، ليس هو
الذي جعل منك شرطيا
ودمية لطيفة !

وصاحت به المرأة وهي تكاد تبكي الآن : بنيامين ! بنيامين ! أرجوكما ، لا
تهتما به ، لا تلقيا بالآإليه ؛ لقد جنّ تماما ؛ إنه لا يستطيع أن يفهم أن « رواق
الرب » لم يعد له وجود الآن !

وبينما كانت زوجة الأراجوز تقدم الاعتذارات عنه لمساعد النفس والطالب ،
هرع السيد « بنيامين » بعيدا كيما يغني أغنيته لشرطي منحرف المزاج :

أيتها الدمية الصغيرة
أي نحات ماهر صنعك ؟
أي صانع أعطاك
هذا الوجه اللطيف
أنه ليس بنيامين الأراجوز
لا ، ليس هو
الذي جعل منك شرطيا
ودمية لطيفة !

وتضرعت زوجة السيد بنيامين الأراجوز وهي تقف بينه وبين الشرطي :
أرجوك ألا تقبض عليه ، إنه لا يقصد شرا ؛ ألا ترى أنه مجنون ؟ إنه مجنون أقول
لك ، لا تقبض عليه ، كلا ، أرجوك ألا تضربه . لقد بلغ به جنونه أنه يقول إنه

يرى المدينة كلها ترقد حطاما كالرواق المهدوم !

وكان السجناء لا يزالون سائرين . كيف يكون الحال لو أن المرء كان واحدا منهم وليس مجرد شخص ينظر إليهم وهم يعبرون ؟

ووراء مركب الرجال الذين يدفعون عربات يد صغيرة ، جاء رجال يحملون معاول ثقيلة فوق اكتافهم كأنها الصليب ، ووراءهم أيضا صفان من الرجال يحضون قبودهم بحلقة رنين كالجلجل .

وتملص السيد « بنيامين » من يدي الشرطي الذي كان يجادل زوجته بحدة متزايدة ، وجرى يرحب بالسجناء بأية عبارات بلهاء وردت على ذهنه ساعنها :

- « انظر ماذا صنع الدهر بك يا « بانشو تونانشو » ، وسكينك تلك التي تأكل الجلد وتحب صنع الحروق في حجرة النوم القلبيية ! انظر ماذا حل بك الآن يا « لولو كوشولو » ، بمنجلك ذي الذيل المروحي ! انظر كيف تمضي الآن يا « مكسنو ملندريس » ، بينما أنت معتاد على ركوب الحصان ، مياه جديدة للخنجر ، أيها اللوطي الخائن ! من رأيك ومعلك مدسك حين كان اسمك « دومنغو » ، ومن يراك الآن بدونه حزيننا كيوم من أيام الأسبوع . لقد نقلت إليهم القمل ، فعلبها هي أن نقلهم . إن البمار المغطى بالأسماك لا يمكن أن يصنع بخنة للجنود ! أي شخص لا يملك قفلا لاغلاق فمه يحسن به أن يضع في يديه القبود ! » .

كان صية الخوانيت عائدين إلى بيوتهم ، وعربات النرام مكنتة إلى آخرها . وثمة عربة أجرة ، أو عربة ، أو دراجة . . دفقة من الحياة لبرهة قصيرة ، دامت الوقت الذي استغرقه مساعد القس والطالب في عبور ميدان الكتدراية ، ملجأ الشحاذين ومستودع الملحددين ، وتوديع الواحد منها للآخر أمام باب قصر كبير الأساقفة .

ونظر الطالب باحتقار إلى أطلال الرواق من على جسر من الألواح الخشبية التي نصببت على الحطام . وكانت ثمة نفحة ريح ثلجية قد أثارت سحابة كثيفة من الغبار ، كالدخان بلا نار أو بقايا انفجار قصي . وهبت نفحة ريح أخرى فاثارت وابلا من قطع أوراق رسمية ، لم تعد لها فائدة الآن ، تخطر على الموضع الذي كان يوما ما غرفة الاجتماعات في البلدية . وتماوجت بقايا اللوحات القماشية المعلقة على الجدران الساقطة ، كالرايات في مهب الريح . وفجأة ، ظهر ظل الأراجوز

يركب مكثسة ، منعكسا على صفحة خلفية زرقاء مليئة بالنجوم ، وخمسة براكين
صغيرة من الخصى والحجارة عند قدميه « طش ! » وقفزت الدقات التي تعلن تمام
الثامنة مساءً في وسط الصمت - « طش ! طش ! » .

ووصل الطالب إلى بيته في نهاية شارع مسدود ، وحين فتح الباب ، سمع
صوت أمه (يقطعه سعال الخدامة إذ هما يستعدان لثلاوة صلاة المساء) تنلوا على
مسيحتها :

« . . . للمحتضرين وللمسافرين ؛ كيما يحل السلام بين الحكام المسيحيين ؛
لن يقاسي من اضطهاد العدالة ؛ لأعداء الدين الكاثوليكي ؛ لاحتياجات الكنيسة
المقدسة المسيحية ، ولاحتياجاتنا ؛ للأرواح المباركة في المطر القدسي . . . إرحمنا
يا رب » .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٠٨٣

